

# الْكَلَاءُ وَالْدَوَاءُ

محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين

ابن قيم الجوزية

(المتوفى: 751 هـ)

اسم الكتاب: الداء والدواء

اسم الكاتب: ابن قيم الجوزية

رقم الإيداع: 13251 / 2025

الترقيم الدولي: 99610 - 4 - 5 - 633 - 978



للتواصل:

✉ notapup166@gmail.com

🌐 <https://www.facebook.com/notaforpublication>

جميع الحقوق محفوظة للناشر، وأي إنتهاك سيعرض صاحبه للمساءلة القانونية

هذه النسخة مخصصة للقراءة فقط، ولا يجوز إعادة طبعها أو نسخها أو نشرها

إلا بعد الحصول على إذن كتابي من الناشر

الْكَلْمَةُ وَالْكَوْلَمَةُ

محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين

ابن قيم الجوزية

(المتوفى: 751 هـ)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
وَبِرَبِّنَا نَسْتَعِينُ

ما تَقُولُ السَّادَةُ الْعُلَمَاءُ، أَئِمَّةُ الدِّينِ أَجْمَعِينَ - فِي رَجُلٍ ابْنُلَيِّ بَيْلَيَّةَ وَعَلِمَ أَنَّهَا إِنَّ  
اسْتَمَرَتْ بِهِ أَفْسَدَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ، وَقَدْ اجْتَهَدَ فِي دَفْعِهَا عَنْ نَفْسِهِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، فَمَا يَرْدَادُ  
إِلَّا تَوَقُّدًا وَشِدَّةً، فَمَا الْجِيلَةُ فِي دَفْعِهَا؟ وَمَا الطَّرِيقُ إِلَى كَشْفِهَا؟ فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَعْانَ مُبْتَلِيَ،  
وَاللَّهُ فِي عَوْنَ الْعَبْدُ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنَ أَخِيهِ، أَفْتُوَنَا مَأْجُورِينَ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى.

فَأَجَابَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُفْتَيُ الْمُسْلِمِينَ، شَمْسُ الدِّينِ أَبُو عَبْدِ  
اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ أَيُّوبَ إِمَامُ الْمَدْرَسَةِ الْجَوْزِيَّةِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: "مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً".

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "لِكُلِّ دَاءٍ  
دَوَاءٌ فَإِذَا أَصَابَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأً بِإِذْنِ اللَّهِ".

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "إِنَّ  
اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهَلَهُ مَنْ جَهَلَهُ"، وَفِي لَفْظٍ: "إِنَّ اللَّهَ

لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، أَوْ دَوَاءً، إِلَّا دَاءً وَاحِدًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هُوَ؟ قَالَ: الْهَرَمُ" قَالَ التَّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَهَذَا يَعْمُمُ أَدْوَاءَ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالْبَدْنِ وَأَدْوَيْتَهَا، وَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ - ﷺ - الْجَهْلَ دَاءً، وَجَعَلَ دَوَاءَهُ سُؤَالَ الْعُلَمَاءِ.

فَرَوَى أَبُو دَاؤْدَ في سُنْنَةِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: "خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَ الْحَجَرِ، فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيْمِمِ؟" قَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً، وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ، فَاغْتَسَلَ، فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ أُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: قَتَلُوهُ قَاتَلُهُمُ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ - أَوْ يَعْصِبَ - عَلَى جُرْحِهِ خَرْقَةً ثُمَّ يَمْسُحُ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلُ سَائِرَ جَسَدِهِ".

فَأَخْبَرَ أَنَّ الْجَهْلَ دَاءٌ، وَأَنَّ شِفَاءَهُ السُّؤَالُ.

\* \* \*

## [القرآن شفاء]

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ شِفَاءٌ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُضِّلَتْ إِيمَانُهُ أَعْجَمِيًّا وَعَرِيقًا قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ أَمْنَوْا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [سُورَةُ فُصْلُتْ: 44] وَقَالَ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: 82].

وَ "مِنْ" هُنَّا لِبِيَانِ الْجِنْسِ لَا لِلتَّبَعِيسِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ كُلُّهُ شِفَاءٌ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَهُوَ شِفَاءُ لِلْقُلُوبِ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ وَالشَّكِّ وَالرَّيْبِ، فَلَمْ يُنْزِلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ السَّمَاءِ شِفَاءً قَطُّ أَعَمَّ وَلَا أَنْفَعَ وَلَا أَعْظَمَ وَلَا أَشْجَعَ فِي إِزَالَةِ الدَّاءِ مِنَ الْقُرْآنِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: "أَنْطَلَقَ نَفْرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي سَفَرٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَاسْتَضَافُوهُمْ، فَأَبَوَا أَنْ يُضَيِّعُوهُمْ، فَلَدْغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُمْ أَنْ يَكُونُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لَدْغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَهُلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَاللَّهِ إِنِّي لَا زَقِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضِّيِّفُنَا، فَمَا أَنْ بِرَاقِ حَتَّى تَجْعَلُوا لِي جُعلاً، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَأَنْطَلَقَ يَنْفُلُ عَلَيْهِ وَيَقْرَأُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَكَانَمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَأَنْطَلَقَ يَمْشِي، وَمَا بِهِ قَلْبٌ، فَأَوْفَوْهُمْ جُلَاهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْتِسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقِيَ: لَا نَفْعُلُ حَتَّى تَأْتِيَ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -

فَنَذْكُرُ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرُ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَذَكَرُوا لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْتِسِمُوا وَاضْرِبُو لِي مَعْكُمْ سَهْمًا.

فَقَدْ أَثَرَ (هَذَا) الدَّوَاءُ فِي هَذَا الدَّاءِ، وَأَزَالَهُ حَتَّى كَانَ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ أَسْهَلُ دَوَاءٍ وَأَيْسَرُهُ، وَلَوْ أَحْسَنَ الْعَبْدُ التَّدَاوِي بِالْفَاتِحةِ، لَرَأَى لَهَا تَأْثِيرًا عَجِيبًا فِي الشَّفَاءِ.

وَمَكَثْتُ بِمَكَّةَ مُدَّةً يَعْتَرِينِي أَدْوَاءٌ وَلَا أَجِدُ طَبِيَّاً وَلَا دَوَاءً، فَكُنْتُ أَعَالِجُ نَفْسِي بِالْفَاتِحةِ، فَأَرَى لَهَا تَأْثِيرًا عَجِيبًا، فَكُنْتُ أَصِفُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشْتَكِي أَلَّمًا، وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِيَرَأُ سَرِيعًا.

وَلَكِنْ هَا هُنَا أَمْرٌ يُبَغِي التَّفَطُنُ لَهُ، وَهُوَ أَنَّ الْأَذْكَارَ وَالْآيَاتِ وَالْأَدْعِيَةِ الَّتِي يُسْتَشْفَى بِهَا وَيُرْقَى بِهَا، هِيَ فِي نَفْسِهَا نَافِعَةٌ شَافِيَّةٌ، وَلَكِنْ تَسْتَدِعِي قَبْوَ الْمَحِلِّ، وَقُوَّةٌ هِمَّةٌ

الْفَاعِلِ وَتَأْثِيرِهِ، فَمَتَى تَخَلَّفَ الشَّفَاءُ كَانَ لِضَعْفٍ تَأْثِيرِ الْفَاعِلِ، أَوْ لِعَدَمِ قَبْوِلِ الْمُنْفَعِلِ، أَوْ لِمَانِعِ قَوِيٍّ فِيهِ يَمْنَعُ أَنْ يَنْجَعَ فِيهِ الدَّوَاءُ، كَمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَدْوِيَةِ وَالْأَدْوَاءِ الْحِسَيَّةِ، فَإِنَّ عَدَمَ تَأْثِيرِهَا قَدْ يَكُونُ لِعَدَمِ قَبْوِلِ الطَّبِيعَةِ لِذَلِكَ الدَّوَاءِ، وَقَدْ يَكُونُ لِمَانِعِ قَوِيٍّ يَمْنَعُ مِنَ اقْتِصَائِهِ أَثْرُهُ، فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ إِذَا أَخَذَتِ الدَّوَاءَ بِقَبْوِلٍ تَامٍ كَانَ اتِّفَاعُ الْبَدَنِ بِهِ بِحَسْبِ ذَلِكَ الْقَبْوِلِ، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ إِذَا أَخَذَ الرُّقَى وَالْتَّعَاوِيدَ بِقَبْوِلٍ تَامٍ، وَكَانَ لِلرَّاقِي نَفْسٌ فَعَالَةٌ وَهِمَةٌ مُؤَثِّرَةٌ فِي إِرَالَةِ الدَّاءِ.

\* \* \*

## الدُّعَاءُ يَدْفَعُ الْمَكْرُوهَ

وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي دَفْعِ الْمَكْرُوهِ، وَحُصُولِ الْمَطْلُوبِ، وَلَكِنْ قَدْ يَتَخَلَّفُ أَثْرُهُ عَنْهُ، إِمَّا لِضَعْفِهِ فِي نَفْسِهِ - بِأَنْ يَكُونَ دُعَاءً لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْعُدُوانِ - وَإِمَّا لِضَعْفِ الْقَلْبِ وَعَدَمِ إِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ وَجَمْعِيَّتِهِ عَلَيْهِ وَقْتَ الدُّعَاءِ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْقَوْسِ الرِّخْوِيِّ جِدًا، فَإِنَّ السَّهْمَ يَخْرُجُ مِنْهُ خُرُوجًا ضَعِيفًا، وَإِمَّا لِحُصُولِ الْمَانِعِ مِنَ الْإِجَابَةِ: مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ، وَالظُّلْمِ، وَرِزْنِ الدُّنُوبِ عَلَى الْقُلُوبِ، وَاسْتِيَالِ الْغَفْلَةِ وَالشَّهْوَةِ وَاللَّهُوِّ، وَغَلَبَتِهَا عَلَيْهَا.

كَمَا فِي مُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "اَدْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوْقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ".

\* \* \*

## [دَعَاءُ الْغَافِلِ]

"وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبُلُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَأِهِ" فَهَذَا دَوَاءٌ نَافِعٌ مُزِيلٌ لِلَّدَاءِ، وَلَكِنَّ غَفْلَةَ الْقَلْبِ عَنِ اللَّهِ تُبْطِلُ قُوَّتَهُ، وَكَذَلِكَ أَكْلُ الْحَرَامِ يُبْطِلُ قُوَّتَهُ وَيُضْعِفُهَا.

كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبُلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ كُلُّهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْلَمُوا صَلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلَيْمٌ" [الْمُؤْمِنُونَ: 51] وَقَالَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّهُ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ" [الْبَقَرَةُ: 172] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمْدُدُ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعُمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرُبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبِسُهُ حَرَامٌ، وَغُذْيُهُ بِالْحَرَامِ، فَإِنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟".

وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الرُّهْدِ لِأَبِيهِ: أَصَابَ بَنْيَ إِسْرَائِيلَ بَلَاءً، فَخَرَجُوا مَخْرَجًا، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ أَنْ أَخْبِرُهُمْ: إِنَّكُمْ تَخْرُجُونَ إِلَى الصَّعِيدِ بِأَبْدَانِ نَحِسَّةٍ، وَتَرْفَعُونَ إِلَيَّ أَكْفَافًا قَدْ سَفَكْتُمْ بِهَا الدَّمَاءَ، وَمَلَأْتُمْ بِهَا بُيُوتَكُمْ مِنَ الْحَرَامِ، الْآنَ حِينَ اشْتَدَّ غَضَبِي عَلَيْكُمْ؟ وَلَنْ تَرْدَادُوا مِنِّي إِلَّا بَعْدًا.

وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: يَكْفِي مِنَ الدُّعَاءِ مَعَ الْبِرِّ، مَا يَكْفِي الطَّعَامُ مِنَ الْمِلْحِ.

\*\*\*

## [فَصْلُ الدُّعَاءِ مِنْ أَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ]

وَالدُّعَاءُ مِنْ أَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ، وَهُوَ عَدُوُ الْبَلَاءِ، يَدْفِعُهُ، وَيُعَالِجُهُ، وَيَمْنَعُ نُزُولَهُ، وَيَرْفَعُهُ، أَوْ يُخَفِّفُهُ إِذَا نَزَلَ، وَهُوَ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ.

## الدُّعَاءُ وَالْبَلَاءُ

كَمَا رَوَى الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَبِّهِ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ: "الدُّعَاءُ سَلَاحُ الْمُؤْمِنِ، وَعِمَادُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ". لِلْدُعَاءِ مَعَ الْبَلَاءِ مَقَامَاتٌ.

وَلَهُ مَعَ الْبَلَاءِ ثَلَاثُ مَقَامَاتٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَكُونَ أَقْوَى مِنَ الْبَلَاءِ فِي دَفْعِهِ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ أَصْعَفَ مِنَ الْبَلَاءِ فَيَقُولَ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ، فَيُصَابُ بِهِ الْعَبْدُ، وَلَكِنْ قَدْ يُخَفَّفُهُ، وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا.

الثَّالِثُ: أَنْ يَتَقَوَّمَا وَيَمْنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ.

وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ - رَبِّهِ - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ: "لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ فِي لَقَاءِ الدُّعَاءِ فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ".

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ: "الدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِالدُّعَاءِ".

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ثُوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - "لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرِمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ".

\*\*\*

## [فَصْلُ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ]

وَمِنْ أَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ: الْإِلْحَاحُ فِي الدُّعَاءِ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَاجَهَ فِي سُنْنَتِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ".

وَفِي صَحِيحِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ: "لَا تَعْجِزُوا فِي الدُّعَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَهْلِكُ مَعَ الدُّعَاءِ أَحَدٌ".

وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ - ﷺ - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُلْحِينَ فِي الدُّعَاءِ".

وَفِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِإِلَمَامِ أَحْمَدَ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ مُورِّقٌ: مَا وَجَدْتُ لِلْمُؤْمِنِ مَثَلًا إِلَّا رَجُلٌ فِي الْبَحْرِ عَلَى خَشَبَةِ، فَهُوَ يَدْعُو: يَا رَبِّ يَا رَبِّ لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُنْجِيَهُ.

\* \* \*

## [فَصْلُ مِنْ آفَاتِ الدُّعَاءِ]

وَمِنَ الْآفَاتِ الَّتِي تَمْنَعُ تَرْتِيبَ أَثْرِ الدُّعَاءِ عَلَيْهِ: أَنْ يَسْتَعْجِلَ الْعَبْدُ، وَيَسْتَبْطِئَ الْإِجَابَةَ، فَيَسْتَحْسِرُ وَيَدْعُ الدُّعَاءَ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ بَذَرَ بَذْرًا أَوْ غَرَسَ غَرْسًا، فَجَعَلَ يَتَعَاهَدُهُ وَيَسْقِيهِ، فَلَمَّا اسْتَبَطَ كَمَالَهُ وَإِدْرَاكَهُ تَرَكَهُ وَأَهْمَلَهُ.

وَفِي الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: يُسْتَحَاجُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجِبْ لِي".

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ: "لَا يَرَأُلْ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحْمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْتَعْجَالُ؟ قَالَ يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرْ يُسْتَجَابُ لِي، فَيَسْتَحِسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدْعُ الدُّعَاءَ".

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَنْهُ: "لَا يَرَأُلْ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يُسْتَعْجِلُ؟ قَالَ: يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي".

\* \* \*

### [فَصْلُ أَوْقَاتُ الْإِجَابَةِ]

وَإِذَا جَمَعَ مَعَ الدُّعَاءِ حُضُورَ الْقَلْبِ وَجَمْعِيَّتِهِ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَى الْمَطْلُوبِ، وَصَادَفَ وَقْتًا مِنْ أَوْقَاتِ الْإِجَابَةِ السَّتَّةِ، وَهِيَ:

الثُّلُثُ الْأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ، وَعِنْدَ الْأَذَانِ، وَبَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ، وَأَدْبَارُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ، وَعِنْدَ صُعُودِ الْإِمَامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ حَتَّى تُقْضَى الصَّلَاةُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَآخِرُ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ.

وَصَادَفَ خُشُوعًا فِي الْقَلْبِ، وَانْكِسَارًا بَيْنَ يَدَيِّ الرَّبِّ، وَذَلَّ لَهُ، وَتَضَرُّعًا، وَرِقَةً.

وَاسْتَقْبَلَ الدَّاعِي الْقِبْلَةَ.

وَكَانَ عَلَى طَهَارَةِ

وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى اللَّهِ.

وَبَدَأَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ.

## الدَّعَاءُ إِلَهُ الْوَلَاءُ

ثُمَّ ثَنَى بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ - ﷺ -

ثُمَّ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ حَاجَتِهِ التَّوْبَةَ وَالإِسْتِغْفَارَ.

ثُمَّ دَخَلَ عَلَى اللَّهِ، وَأَلْحَقَ عَلَيْهِ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَتَمَلَّقَهُ وَدَعَاهُ رَغْبَةً وَرَهْبَةً.

وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَتَوْحِيدِهِ.

وَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ دُعَائِهِ صَدَقَةً، فَإِنَّ هَذَا الدُّعَاءَ لَا يَكَادُ يُرَدُّ أَبَدًا، وَلَا سِيمَاءً إِنْ صَادَفَ الْأَدْعِيَةَ الَّتِي أَخْبَرَ النَّبِيَّ - ﷺ - أَنَّهَا مَظْنَنَةُ الْإِجَابَةِ، أَوْ أَنَّهَا مُتَضَمِّنَةُ لِلِّا سَمِ الْأَعْظَمِ.

### أَدْعِيَةٌ مَأْثُورَةٌ

فَمِنْهَا مَا فِي السُّنْنِ (وَفِي) صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرِيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - "سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، فَقَالَ: لَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِالإِسْمِ الَّذِي إِذَا سُئَلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَفِي لُفْظٍ: لَقَدْ سَأَلَتِ اللَّهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ".

وَفِي السُّنْنِ وَصَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ "أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَانُ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ. فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ : لَقَدْ دَعَا اللَّهُ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئَلَ بِهِ أَعْطَى".

أَخْرَجَ الْحَدِيثَيْنِ أَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ.

وَفِي جَامِعِ التَّرْمِذِيِّ، مِنْ حَدِيثِ أَسْمَاءَ بِنْتِ زَيْدَ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ: "اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْأَيَتَيْنِ ﴿وَإِنَّهُمْ كُمَرٌ إِلَهٌ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 163].

## الدَّلَالُ وَالدَّلَالُ

وَفَاتِحةَ آلِ عِمْرَانَ ﴿الَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ الْقَيُّومُ﴾ ﴿١﴾، قَالَ التَّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَصَحِيحِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ وَرَبِيعَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: "أَرْظُوا يَبَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ" - يَعْنِي: تَعَلَّقُوا بِهَا وَالرَّمُوا وَدَأْمُوا عَلَيْهَا.

وَفِي جَامِعِ التَّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - ﷺ - "أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - كَانَ إِذَا أَهْمَمْهُ الْأَمْرُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فِي الدُّعَاءِ، قَالَ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ".

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَنْسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ قَالَ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغْفِرُكَ".

وَفِي صَحِيحِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: "اسْمُ اللَّهِ الْأَعَظَمُ فِي ثَلَاثٍ سُورٍ مِنَ الْقُرْآنِ: الْبَقَرَةُ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطَهُ، قَالَ الْقَاسِمُ: فَالْتَّمَسْتُهَا فَإِذَا هِيَ آيَةٌ ﴿الْحَقُّ الْقَيُّومُ﴾".

وَفِي جَامِعِ التَّرْمِذِيِّ وَصَحِيحِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: "دَعْوَةُ ذِي النُّونِ، إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ" ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَّ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَبْيَاءِ: 87] إِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ". قَالَ التَّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَفِي مُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ أَمْرٌ مُهِمٌّ، فَدَعَا بِهِ يُفْرَجُ اللَّهُ عَنْهُ؟ دُعَاءُ ذِي النُّونِ".

وَفِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ - ﷺ - وَهُوَ يَقُولُ: "هُلْ أَدْلُكُمْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ الْأَعَظَمِ؟ دُعَاءٌ يُوْنُسَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُلْ كَانَ لِيُوْنُسَ خَاصَّةً؟ فَقَالَ أَلَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَخِيتَنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُتْحِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: 88] فَأَيْمًا مُسْلِمٌ دَعَا بِهَا فِي مَرَضِهِ أَرْبَعِينَ مَرَّةً فَمَاتَ فِي مَرَضِهِ ذَلِكَ أَعْطِيَ أَجْرًا شَهِيدٍ، وَإِنْ بَرِئَ بَرِئًا مَغْفُورًا لَهُ".

وَفِي الصَّحَّاحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ".

"وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - ؓ - قَالَ: "عَلَّمْنِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِذَا نَزَلَ بِي كَرْبُ أَنْ أَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

وَفِي مَسْنَدِهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هُمْ وَلَا حُزْنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمْتَكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاوِكَ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمِّيَتِ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْتَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ قَالَ بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا".

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا كَرَبَ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، إِلَّا اسْتَغَاثَ بِالْتَّسْبِيحِ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الْمُجَابَيْنَ، وَفِي الدُّعَاءِ عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِّنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - مِنَ الْأَنْصَارِ يُكَنِّي أَبَا مُعْلِقٍ وَكَانَ تَاجِرًا يَتَجَرِّبُ بِمَالِهِ وَلِغَيْرِهِ، يَصْرِبُ بِهِ فِي الْآفَاقِ، وَكَانَ نَاسِكًا وَرِعًا، فَخَرَجَ مَرَّةً فَلَقِيَهُ لِصٌّ مُقْنَعٌ فِي السَّلَاحِ، فَقَالَ لَهُ: ضَعْ مَا مَعَكَ فَإِنِّي قَاتِلُكَ، قَالَ: فَمَا تُرِيدُ مِنْ دَمِي؟ شَانِكَ بِالْمَالِ، قَالَ: أَمَّا الْمَالُ فَلِي، وَلَسْتُ أُرِيدُ إِلَّا دَمَكَ، قَالَ: أَمَّا إِذَا أَبْيَتْ فَذَرْنِي أَصْلَى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، قَالَ صَلَّى مَا بَدَأَ لَكَ، فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، فَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ فِي آخِرِ سُجُودِهِ أَنْ قَالَ: يَا وَدُودُ يَا وَدُودُ، يَا ذَا الْعَرْشِ الْمَجِيدِ، يَا فَعَالًا لِمَا تُرِيدُ، أَسْأَلُكَ بِعِزْزِكَ الَّذِي لَا يُرَأِمُ، وَبِمُلْكِكَ الَّذِي لَا يُضَامُ، وَبِتُورَكَ الَّذِي مَلَأَ أَرْكَانَ عَرْشِكَ أَنْ تَكْفِينِي شَرَّ هَذَا الْلَّصِّ، يَا مُغِيْثُ أَغْنِتِي، ثَلَاثَ مَرَاتٍ، فَإِذَا هُوَ بِفَارِسٍ قَدْ أَقْبَلَ بِيَدِهِ حَرْبَةً قَدْ وَضَعَهَا بَيْنَ أَدْنِي فَرَسِهِ، فَلَمَّا بَصَرَ بِهِ الْلَّصُّ أَقْبَلَ نَحْوَهُ، فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: قُمْ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ يَا بَنِي أَنْتَ وَأَمِّي؟ فَقَدْ أَغَاثَنِي اللَّهُ بِكَ الْيَوْمَ، فَقَالَ: أَنَا مَلَكُ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، دَعَوْتَ بِدُعَائِكَ الْأَوَّلِ فَسَمِعْتُ لِأَبْوَابِ السَّمَاءِ قَعْدَةً، ثُمَّ دَعَوْتَ بِدُعَائِكَ الثَّانِي، فَسَمِعْتُ لِأَهْلِ السَّمَاءِ ضَجَّةً، ثُمَّ دَعَوْتَ بِدُعَائِكَ الثَّالِثِ، فَقِيلَ لِي: دُعَاءُ مَكْرُوبٍ فَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُوَلِّنِي قَتْلَهُ، قَالَ الْحَسَنُ: فَمَنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، وَدَعَا بِهَذَا الدُّعَاءِ، اسْتُجِيبَ لَهُ، مَكْرُوبًا كَانَ أَوْ غَيْرُ مَكْرُوبٍ.

\* \* \*

### [فصلٌ ضُرُوفُ الدُّعَاءِ]

وَكَثِيرًا مَا تَجِدُ أَدْعِيَةً دَعَا بِهَا قَوْمٌ فَاسْتُجِيبَ لَهُمْ، فَيَكُونُ قَدْ اقْتَرَنَ بِالدُّعَاءِ ضَرُورَةً صَاحِبِهِ وَإِقْبَالُهُ عَلَى اللَّهِ، أَوْ حَسَنَةً تَقَدَّمَتْ مِنْهُ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِجَابَةً دَعْوَتِهِ شُكْرًا لِحَسَنَتِهِ، أَوْ صَادَفَ وَقْتَ إِجَابَةِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَأُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ، فَيُظْلَمُ الظَّانُ أَنَّ السُّرُّ فِي لَفْظِ ذَلِكَ الدُّعَاءِ فَيَأْخُذُهُ مُجَرَّدًا عَنْ تِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي قَارَنَتْهُ مِنْ ذَلِكَ الدَّاعِيِّ، وَهَذَا كَمَا

إِذَا اسْتَعْمَلَ رَجُلٌ دَوَاءً نَافِعًا فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَبْغِي اسْتِعْمَالُهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَبْغِي، فَانْتَفَعَ بِهِ، فَظَنَّ غَيْرُهُ أَنَّ اسْتِعْمَالَ هَذَا الدَّوَاءِ بِمُجَرَّدِهِ كَافٍ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ، كَانَ غَالِطًا، وَهَذَا مَوْضِعٌ يَعْلَطُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

وَمِنْ هَذَا قَدْ يَتَفَقَّدُ دُعَاؤُهُ بِاِضْطِرَارٍ عِنْدَ قَبْرِ فَيُجَابُ، فَيَظْنُ الْجَاهِلُ أَنَّ السُّرَّ لِلْقَبْرِ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ السُّرَّ لِلْإِضْطِرَارِ وَصِدْقِ اللُّجُجِ إِلَى اللَّهِ، فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، كَانَ أَفْضَلَ وَأَحَبَّ إِلَى اللَّهِ.

\* \* \*

## [فَصْلُ شُرُوطِ الدُّعَاءِ الْمُسْتَجَابِ]

وَالْأَدْعِيَةُ وَالْتَّعُودَاتُ بِمَنْزِلَةِ السَّلَاحِ، وَالسَّلَاحُ بِضَارِبِهِ، لَا يَحْدُدُ فَقَطُّ، فَمَتَى كَانَ السَّلَاحُ سِلَاحًا تَامًا لَا آفَةَ بِهِ، وَالسَّاعِدُ سَاعِدُ قَوِيٍّ، وَالْمَانِعُ مَفْقُودٌ؛ حَصَلَتْ بِهِ النَّكَايَةُ فِي الْعَدُوِّ، وَمَتَى تَخَلَّفَ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ التَّلَاثَةِ تَخَلَّفَ التَّأْثِيرُ، فَإِنْ كَانَ الدُّعَاءُ فِي نَفْسِهِ غَيْرَ صَالِحٍ، أَوِ الدَّاعِي لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ فِي الدُّعَاءِ، أَوْ كَانَ شَمَّ مَانِعٌ مِنَ الْإِجَابَةِ، لَمْ يَحْصُلِ الْأَئْمَرُ.

\* \* \*

## [فَصْلُ الدُّعَاءِ وَالْقَدْرِ]

وَهَا هُنَا سُؤَالٌ مَشْهُورٌ وَهُوَ:

أَنَّ الْمَدْعُوَّ بِهِ إِنْ كَانَ قَدْ قُدْرَ لَمْ يَكُنْ بُدُّ مِنْ وُقُوعِهِ، دَعَا بِهِ الْعَبْدُ أَوْ لَمْ يَدْعُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قُدْرَ لَمْ يَقْعُ، سَوَاءً سَأَلَهُ الْعَبْدُ أَوْ لَمْ يَسْأَلْهُ.

## الدَّاعُونَ الْأَكْلُونَ

فَظَنَّتْ طَائِفَةٌ صِحَّةَ هَذَا السُّؤَالِ، فَتَرَكَتِ الدُّعَاءَ وَقَالَتْ: لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَهُوَ لَاءٌ مَعَ فَرْطِ جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، مُتَنَاقِصُونَ فَإِنَّ طَرْدَ مَذْهِبِهِمْ يُوجِبُ تَعْطِيلَ جَمِيعِ الْأَسْبَابِ فَيَقُولُ لِأَحَدِهِمْ:

إِنْ كَانَ الشَّبَّعُ وَالرِّيُّ قَدْ قُدِّرَا لَكَ فَلَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِمَا، أَكْلَتْ أَوْ لَمْ تَأْكُلْ، وَإِنْ لَمْ يُقْدِرَ لَمْ يَقْعُدَا أَكْلَتْ أَوْ لَمْ تَأْكُلْ.

وَإِنْ كَانَ الْوَلَدُ قُدِّرَ لَكَ فَلَا بُدَّ مِنْهُ، وَطَبِّتَ الزَّوْجَةَ أَوِ الْأَمَةَ أَوْ لَمْ تَطِّأْ، وَإِنْ لَمْ يُقْدِرْ لَمْ يَكُنْ، فَلَا حَاجَةٌ إِلَى التَّزْوِيجِ وَالْتَّسْرِيِّ، وَهُلْمَ جَرَّا.

فَهَلْ يَقُولُ هَذَا عَاقِلٌ أَوْ آدَمِيٌّ؟ بَلِ الْحَيَّانُ الْبَهِيمُ مَفْطُورٌ عَلَى مُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي بِهَا قِوَامُهُ وَحَيَاةُهُ، فَالْحَيَّانَاتُ أَعْقَلُ وَأَفْهَمُ مِنْ هُوَ لَاءُ الَّذِينَ هُمْ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَصْلُ سَبِيلًا.

وَتَكَاَيَّسَ بَعْضُهُمْ وَقَالَ: الْإِشْتِغَالُ بِالدُّعَاءِ مِنْ بَابِ التَّعْبُدِ الْمَحْضِ يُثْبِتُ اللَّهُ عَلَيْهِ الدَّاعِيَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي الْمَطْلُوبِ بِوَجْهِهِ مَا وَلَا فَرْقَ عِنْدَ هَذَا الْمُتَكَبِّسِ بَيْنَ الدُّعَاءِ وَالْإِمْسَاكِ عَنْهُ بِالْقُلْبِ وَاللِّسَانِ فِي التَّأْثِيرِ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ، وَارْتِبَاطُ الدُّعَاءِ عِنْدَهُمْ بِهِ كَارْتِبَاطِ السُّكُوتِ وَلَا فَرْقَ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى أَكْيَسُ مِنْ هُوَ لَاءٌ: بَلِ الدُّعَاءُ عَلَامَةٌ مُجَرَّدَةٌ نَصِيبَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَارَةٌ عَلَى قَضَاءِ الْحَاجَةِ، فَمَتَى وُقُقَ الْعَبْدُ لِلْدُعَاءِ كَانَ ذَلِكَ عَلَامَةً لَهُ وَأَمَارَةً عَلَى أَنَّ حَاجَتَهُ قَدِ انْقَضَتْ، وَهَذَا كَمَا إِذَا رَأَيْتَ غَيْمًا أَسْوَدَ بَارِدًا فِي زَمْنِ الشَّتَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ وَعَلَامَةٌ عَلَى أَنَّهُ يُمْطَرُ.

## الدَّلَاءُ وَالدَّلَاءُ

قَالُوا: وَهَكَذَا حُكْمُ الطَّاعَاتِ مَعَ الشَّوَّابِ، وَالْكُفْرُ وَالْمَعَاصِي مَعَ الْعِقَابِ، هِيَ أَمَارَاتٌ مَحْضَةٌ لِوُقُوعِ الشَّوَّابِ وَالْعِقَابِ لَا أَنَّهَا أَسْبَابٌ لَهُ.

وَهَكَذَا عِنْدَهُمُ الْكَسْرُ مَعَ الْإِنْكِسَارِ، وَالْحَرْقُ مَعَ الْإِحْرَاقِ، وَالْإِزْهَاقُ مَعَ الْقَتْلِ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ سَبَبًا الْبَتَّةَ، وَلَا ارْتِبَاطٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَتَرَبَّ عَلَيْهِ، إِلَّا مُجَرَّدُ الْإِقْرَارِ الْعَادِيِّ، لَا التَّأْثِيرُ السَّبِيبِيُّ وَخَالَفُوا بِذَلِكَ الْحِسْنَ وَالْعَقْلَ، وَالشَّرْعَ وَالْفِطْرَةَ، وَسَائِرَ طَوَّافِ الْعُقَلَاءِ، بَلْ أَضْحَكُوا عَلَيْهِمُ الْعُقَلَاءَ.

وَلِلصَّوَابِ أَنَّ هَاهُنَا قِسْمًا ثَالِثًا، غَيْرَ مَا ذَكَرُهُ السَّائِلُ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْمَقْدُورُ قُدْرَ بِأَسْبَابٍ، وَمِنْ أَسْبَابِهِ الدُّعَاءُ، فَلَمْ يُقْدِرْ مُجَرَّدًا عَنْ سَبِيبِهِ، وَلَكِنْ قُدْرَ بِسَبِيبِهِ، فَمَتَّى أَتَى الْعَبْدُ بِالسَّبِيبِ، وَقَعَ الْمَقْدُورُ، وَمَتَّى لَمْ يَأْتِ بِالسَّبِيبِ انْتَفَقَ الْمَقْدُورُ، وَهَذَا كَمَا قُدْرَ الشَّيْعُ وَالرِّيُّ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَقُدْرَ الْوَلْدُ بِالْوَطْءِ، وَقُدْرَ حُصُولُ الزَّرْعِ بِالْبَذْرِ، وَقُدْرَ خُرُوجُ نَفْسِ الْحَيَاةِ بِدِبْحِهِ، وَكَذَلِكَ قُدْرَ دُخُولُ الْجَنَّةِ بِالْأَعْمَالِ، وَدُخُولُ النَّارِ بِالْأَعْمَالِ، وَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ الْحَقُّ، وَهَذَا الَّذِي حُرِمَهُ السَّائِلُ وَلَمْ يُوَفَّقْ لَهُ.

وَحِينَئِذٍ فَالدُّعَاءُ مِنْ أَفْوَى الْأَسْبَابِ، فَإِذَا قُدْرَ وُقُوعُ الْمَدْعُوِّ بِهِ بِالدُّعَاءِ لَمْ يَصْحَّ أَنْ يُقَالَ: لَا فَائِدَةَ فِي الدُّعَاءِ، كَمَا لَا يُقَالُ: لَا فَائِدَةَ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَجَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالْأَعْمَالِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَسْبَابِ أَنْفَعَ مِنَ الدُّعَاءِ، وَلَا أَبْعَغَ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ.

### عَمْرُ يَسْتَثْصِرُ بِالدُّعَاءِ

وَلَمَّا كَانَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَعْلَمَ الْأُمَّةِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَفْقَهُمُ فِي دِينِهِ، كَانُوا أَقْوَمَ بِهَذَا السَّبِيبِ وَشُرُوطِهِ وَآدَابِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَكَانَ عُمْرُ - ﷺ - يَسْتَنْصِرُ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِ، وَكَانَ أَعْظَمَ جُنْدِيهِ، وَكَانَ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: لَسْتُمْ تُنْصَرُونَ بِكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا تُنْصَرُونَ مِنَ السَّمَاءِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنِّي لَا أَحْمِلُ هُمَّ الْإِجَابَةِ، وَلَكِنْ هُمُ الدُّعَاءِ، فَإِذَا أَهْمَمْتُ الدُّعَاءَ، فَإِنَّ الْإِجَابَةَ مَعَهُ، وَأَخَذَ الشَّاعِرُ هَذَا الْمَعْنَى فَنَظَمَهُ فَقَالَ:

لَوْلَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَظْلِبُهُ مِنْ جُودِ كَفَيْكَ مَا عَلَمْتَنِي الظَّلَبَا

فَمَنْ أَلْهِمَ الدُّعَاءَ فَقَدْ أَرِيدَ بِهِ الْإِجَابَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَحِبْ لِكُمْ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: 60] وَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُحِبُّ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وَفِي سُنْنِ ابْنِ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضِبْ عَلَيْهِ".

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رِضَاءَهُ فِي سُوَالِهِ وَطَاعَتِهِ، وَإِذَا رَضِيَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَكُلُّ خَيْرٍ فِي رِضَاهُ، كَمَا أَنَّ كُلَّ بَلَاءً وَمُصِيبَةً فِي غَضَبِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ أَثْرًا [ "أَنَا اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، إِذَا رَضِيَتُ بَارَكْتُ، وَلَيْسَ لِبَرَكَتِي مُنْتَهَى وَإِذَا غَضِبْتُ لَعْنُتُ، وَلَعْنَتِي تَبْلُغُ السَّابِعَ مِنَ الْوَلَدِ" ].

وَقَدْ دَلَّ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ وَالْفِطْرَةُ وَتَجَارِبُ الْأَمْمِ - عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا وَمَلَلِهَا وَنِحَلِهَا - عَلَى أَنَّ التَّقْرُبَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ، وَالْبِرُّ وَالْإِحْسَانُ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْجَالِيَّةِ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَأَضْدَادَهَا مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْبَابِ الْجَالِيَّةِ لِكُلِّ شَرٍّ، فَمَا اسْتُجْلِبَتْ نِعْمَ اللَّهِ، وَاسْتُدْفَعَتْ نِقْمَتُهُ، بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَالتَّقْرُبِ إِلَيْهِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ.

## ارتباطُ الخَيْرِ وَالشَّرِّ بِالْعَمَلِ

وَقَدْ رَتَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حُصُولَ الْخَيْرَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحُصُولَ السُّرُورِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْأَعْمَالِ، تُرَتِّبُ الْجَزَاءَ عَلَى الشَّرْطِ، وَالْمَعْلُولُ عَلَى الْعِلَّةِ، وَالْمُسَبِّبُ عَلَى السَّبِّبِ، وَهَذَا فِي الْقُرْآنِ يَزِيدُ عَلَى الْأَلْفِ مَوْضِعٍ.

فَتَارَةً يُرَتِّبُ الْحُكْمَ الْخَبِيرِيَّ الْكَوْنِيَّ وَالْأَمْرَ الشَّرْعِيَّ عَلَى الْوَصْفِ الْمُنَاسِبِ لَهُ كَقُولِهِ تَعَالَى : ﴿عَوْنَانَ مَا نَهَا عَنْهُ فَلَنَا لَهُمْ كُنُوا قَرَدَةً خَسِيرِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: 166].

وَقَوْلِهِ : ﴿فَلَمَّا آتَاسْفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [سُورَةُ الرُّحْرُفِ: 55].

وَقَوْلِهِ : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُو أَيْدِيهِمَا جَزاءً بِمَا كَسَبُوا﴾ [الْمَائِدَةَ: 83].

وَقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُتَبَّثِينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالصَّدِيقَاتِ وَالصَّدِيرِينَ وَالصَّدِيرَاتِ وَالخَدِيعِينَ وَالخَدِيعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّنِيمِينَ وَالصَّنِيمَاتِ وَالْمَخْفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْمَحْفِظَاتِ وَالذَّكَرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّكَرَتِ أَعَدَ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْرَابِ: 35]. وَهَذَا كَثِيرٌ جِدًا.

وَتَارَةً يُرَتِّبُهُ عَلَيْهِ بِصِيغَةِ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ كَقُولِهِ تَعَالَى : ﴿إِنْ تَنْقُوا اللَّهَ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرُقًا نَا وَيَكْفِرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتُكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: 29].

وَقَوْلِهِ : ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الْأَصْلَوَةَ وَإِنْ تَوَلُّوا الرَّكْوَةَ فَإِنَّهُنَّكُمْ فِي الْلِّيْلِ﴾ [الْتَّوْبَةِ: 11].

وَقَوْلِهِ : ﴿وَأَلَوْ أَسْتَقْمُو عَلَى الْطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [سُورَةُ الْجِنِّ: 16]. وَنَظَائِرِهِ.

وَتَارَةً يَأْتِي بِلَامِ التَّعْلِيلِ كَقُولِهِ : ﴿لَيَدْبَرُوا إِيْنَهُ وَلَيَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سُورَةُ صِ: 29].

وَقَوْلِهِ : ﴿لَنَكُوْنُوا شَهِدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [سُورَةُ الْبَتْرَةِ: 143].

## الدَّلَالُ وَالْوَلَاءُ

وَتَارَةً يَأْتِي بِأَدَاءٍ كَيْ أَلَّا تَيْكُنْ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴿١﴾ [سُورَةُ الْحَسْرَةِ: 77].

وَتَارَةً يَأْتِي بِبَاءِ السَّبِيلَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: 182].

وَقَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 105].

وَقَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَافُرُوا يَكْفُرُونَ بِيَقِنَتِ اللَّهِ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: 112].

وَتَارَةً يَأْتِي بِالْمَفْعُولِ لِأَجْلِهِ ظَاهِرًا أَوْ مَحْذُوفًا، كَقَوْلِهِ: ﴿فَرَجُلٌ وَمَرْأَةٌ كَانَ مِنْ رَّضْوَنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضْلِلَ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 282].

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا أَغَفِلِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: 172].

وَقَوْلِهِ: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَبَ عَلَى طَالِبِتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: 156]. أَيْ:

كَرَاهَةً أَنْ تَقُولُوا.

وَتَارَةً يَأْتِي بِفَاءِ السَّبِيلَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمِدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذَّهِمُ فَسَوَّنَهَا﴾ [سُورَةُ الشَّمْسِ: 14].

وَقَوْلِهِ: ﴿فَعَصَمَوْ رَسُولُ رَبِّهِمْ فَأَحَدَهُمْ أَحَدَةَ رَبَّيَةً﴾ [سُورَةُ الْحَاجَةِ: 10].

وَقَوْلِهِ: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَافُرُوا مِنْ الْمُهَلَّكَيْنَ﴾ الْمُؤْمِنُونَ: 48].

وَتَارَةً يَأْتِي بِأَدَاءٍ [لَمَّا] الدَّالَّةُ عَلَى الْجَزَاءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا أَسْفَقْنَا أَنَّقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ: 55]. وَنَظَائِرِهِ.

## الدَّلَالَةُ وَالْوَلَاءُ

وَتَارَةً يَأْتِي بِإِنَّ وَمَا عَمِلْتُ فِيهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْدِّعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: 90].

وَقَوْلِهِ فِي ضَرْوِهِ هُوَ لَاءُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سُوءٌ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: 77].

وَتَارَةً يَأْتِي بِأَدَاءً "لَوَّلَا" ، الدَّالَّةُ عَلَى ارْتِبَاطِ مَا قَبْلَهَا بِمَا بَعْدَهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِينَ لَلَّبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُعَذَّبُونَ﴾ [سُورَةُ الصَّافَاتِ: 143 - 144].

وَتَارَةً يَأْتِي "بِلَوِّ" الدَّالَّةُ عَلَى الشَّرْطِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوَعَظُونَ بِهِ لَكَانَ حَيَّا لَهُم﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: 66].

وَبِالْجُمْلَةِ فَالْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى أَخِرِهِ صَرِيحٌ فِي تَرْتِيبِ الْجَزَاءِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْأَحْكَامِ الْكَوْنِيَّةِ وَالْأَمْرِيَّةِ عَلَى الْأَسْبَابِ، بَلْ تَرْتِيبُ الْأَحْكَامِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَصَالِحِهِمَا وَمَفَاسِدِهِمَا عَلَى الْأَسْبَابِ وَالْأَعْمَالِ.

وَمَنْ تَفَقَّهَ فِي هَذِهِ الْمُسَالَّةِ وَتَأَمَّلَهَا حَقَّ التَّأَمَّلِ اتَّفَعَ بِهَا غَيْةُ النَّفْعِ، وَلَمْ يَتَكَلَّ عَلَى الْقَدْرِ جَهْلًا مِنْهُ، وَعَجْزًا وَتَفْرِيظًا وَإِصَاعَةً، فَيَكُونُ تَوْكِلُهُ عَجْزًا، وَعَجْزُهُ تَوْكِلًا، بَلْ الْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ الَّذِي يَرُدُّ الْقَدْرَ بِالْقَدْرِ، وَيَدْفَعُ الْقَدْرَ بِالْقَدْرِ، وَيُعَارِضُ الْقَدْرَ بِالْقَدْرِ، بَلْ لَا يُمْكِنُ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَعِيشَ إِلَّا بِذِلِّكَ، فَإِنَّ الْجُوعَ وَالْعَطْشَ وَالْبَرْدَ وَأَنْوَاعُ الْمَخَاوِفِ وَالْمَحَاذِيرِ هِيَ مِنَ الْقَدْرِ.

وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ سَاهُونَ فِي دَفْعِ هَذَا الْقَدْرِ بِالْقَدْرِ، وَهَكَذَا مَنْ وَفَقَهُ اللَّهُ وَأَهْمَهُ رُشْدَهُ يَدْفَعُ قَدَرَ الْعُقُوبَةِ الْأُخْرَوِيَّةِ بِقَدَرِ التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَهَذَا وَرَانُ الْقَدْرِ الْمُخَوَّفُ فِي الدُّنْيَا وَمَا يُصَادِهُ سَوَاءً، فَرَبُّ الدَّارَيْنِ وَاحِدٌ وَحِكْمَتُهُ وَاحِدَةٌ لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يُبْطِلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَهَذِهِ الْمُسَالَّةُ مِنْ أَشْرَفِ الْمَسَائِلِ لِمَنْ عَرَفَ قَدْرَهَا، وَرَعَاهَا حَقًّا رِعَايَتِهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

لَكِنْ يَقِنَ عَلَيْهِ أَمْرًا إِنْ بِهِمَا تَتِمُ سَعَادَتُهُ وَفَلَاحُهُ.

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَعْرِفَ تَفَاصِيلَ أَسْبَابِ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ، وَيَكُونَ لَهُ بَصِيرَةٌ فِي ذَلِكَ بِمَا يُشَاهِدُهُ فِي الْعَالَمِ، وَمَا جَرَيَ فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَمَا سَمِعَهُ مِنْ أَخْبَارِ الْأَمْمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

وَمِنْ أَنْفَعِ مَا فِي ذَلِكَ تُدْبِرُ الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ كَفِيلٌ بِذَلِكَ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَفِيهِ أَسْبَابُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ جَمِيعًا مُفَصَّلَةً مُبَيَّنَةً، ثُمَّ السُّنَّةُ، فَإِنَّهَا شَقِيقَةُ الْقُرْآنِ، وَهِيَ الْوَحْيُ الثَّانِيُّ، وَمَنْ صَرَفَ إِلَيْهِمَا عِنَايَتَهُ اكْتَفَى بِهِمَا مِنْ غَيْرِهِمَا، وَهُمَا يُرِيَانِكُ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَأَسْبَابَهُمَا، حَتَّى كَانَكَ تُعَايِنُ ذَلِكَ عِيَانًا، وَبَعْدَ ذَلِكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ أَخْبَارَ الْأَمْمِ، وَأَيَّامَ اللَّهِ فِي أَهْلِ طَاعَتِهِ وَأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ، طَابَقَ ذَلِكَ مَا عَلِمْتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَرَأَيْتُهُ بِتَفَاصِيلِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ، وَوَعَدَ بِهِ، وَعَلِمْتَ مِنْ آيَاتِهِ فِي الْأَفَاقِ مَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وَأَنَّ اللَّهَ يُنْجِزُ وَعْدَهُ لَا مَحَالَةً، فَالْتَّارِيخُ تَفْصِيلٌ لِجُزُّيَّاتِ مَا عَرَفَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْكُلُّيَّةِ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

\* \* \*

## [فَصْلُ مُغَالَطَةِ النَّفْسِ حَوْلَ الْأَسْبَابِ]

الْأَمْرُ الثَّانِيُّ أَنْ يَحْذَرَ مُغَالَطَةَ نَفْسِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَسْبَابِ وَهَذَا مِنْ أَهْمَمِ الْأُمُورِ فَإِنَّ الْعَبْدَ يَعْرِفُ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ وَالْغَفْلَةَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُضَرَّةِ لَهُ فِي دُنْيَا وَآخِرَتِهِ وَلَا بُدَّ، وَلَكِنْ تُغَالِطُهُ نَفْسُهُ بِالِّتَّكَالِ عَلَى عَفْوِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ تَارَةً، وَبِالْتَّسْوِيفِ بِالْتَّوْبَةِ وَالْإِسْتِغْفَارِ بِاللِّسَانِ تَارَةً، وَبِفِعْلِ الْمَنْدُوبَاتِ تَارَةً، وَبِالْعِلْمِ تَارَةً، وَبِالْإِحْتِجاجِ بِالْقَدَرِ تَارَةً، وَبِالْإِحْتِجاجِ بِالْأَشْبَاهِ وَالنُّظَرَاءِ تَارَةً، وَبِالْإِقْتِدَاءِ بِالْأَكَابِرِ تَارَةً أُخْرَى.

## خَطَا فِي فَهْمِ الْاسْتِغْفَارِ

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَظْنُ أَنَّهُ لَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ ثُمَّ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، زَالَ أَثْرُ الذَّنْبِ وَرَاحَ هَذَا بِهَذَا، وَقَالَ لِي رَجُلٌ مِنَ الْمُتَسَبِّبِينَ إِلَى الْفِقْهِ: أَنَا أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ ثُمَّ أَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ وَقَدْ غُفِرَ ذَلِكَ أَجْمَعُهُ كَمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ - وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ حُطِّتْ خَطَايَاهُ، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلُ زَبَدِ الْبَحْرِ" ، وَقَالَ لِي آخَرُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ: تَحْنُ إِذَا فَعَلَ أَحَدُنَا مَا فَعَلَ، اغْتَسِلْ وَطَافَ بِالْبَيْتِ أُسْبُوْعًا وَقَدْ مُحِيَّ عَنْهُ ذَلِكَ، وَقَالَ لِي آخَرُ: قَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ - وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: "أَذْنَبَ عَبْدُ ذَنْبًا، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ، ثُمَّ مَكَّثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا، فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلَيَصْنَعْ مَا شَاءَ". وَقَالَ: أَنَا لَا أَشْكُ أَنَّ لَيْ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ قَدْ تَعَلَّقَ بِنُصُوصٍ مِنَ الرَّجَاءِ، وَاتَّكَلَ عَلَيْهَا وَتَعَلَّقَ بِهَا بِكُلِّتَا يَدِيهِ وَإِذَا عُرِتَ بِعَلَى الْخَطَايَا وَالْإِنْهَمَالِ فِيهَا، سَرَدَ لَكَ مَا يَحْفَظُهُ مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَنُصُوصِ الرَّجَاءِ، وَلِلْجُهَالِ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ غَرَائِبُ وَعَجَائِبُ كَقُولٍ بَعْضِهِمْ:

وَكَثِيرٌ مَا اشْتَظَفَتِ مِنَ الْخَطَايَا إِذَا كَانَ الْقُدُومُ عَلَى گَرِيمٍ

وَقُولُ الْآخِرِ: التَّنْزُهُ مِنَ الذُّنُوبِ جَهْلٌ بِسَعَةِ عَفْوِ اللَّهِ.

وَقَالَ الْآخِرُ: تَرْكُ الذُّنُوبِ جَرَاءَةٌ عَلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَاسْتِصْغَارٌ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ حَزْمٍ: رَأَيْتُ بَعْضَ هَؤُلَاءِ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعِصْمَةِ.

## الذَّلَّةُ وَالْوَلَاءُ

### التعلق بالجبر

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمَغْرُورِينَ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِمَسَالَةِ الْجَبْرِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا فِعْلَ لَهُ الْبَتَّةَ وَلَا  
الْخُتْيَارُ، وَإِنَّمَا هُوَ مَجْبُورٌ عَلَى فِعْلِ الْمَعَاصِيِّ.

### التعلق بالإرجاء

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَعْتَرِ بِمَسَالَةِ الْإِرْجَاءِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مُجَرَّدُ التَّصْدِيقِ، وَالْأَعْمَالُ  
لَيْسَتْ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ إِيمَانَ أَفْسَقِ النَّاسِ كَإِيمَانِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

### الخطأ في الحب

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَعْتَرِ بِمَحَبَّةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَشَايخِ وَالصَّالِحِينَ، وَكُثْرَةِ التَّرَدُّدِ إِلَى  
فُبُورِهِمْ، وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِمْ، وَالإِسْتِشْفَاعِ بِهِمْ، وَالتَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ بِهِمْ، وَسُؤُالِهِ بِحَقِّهِمْ  
عَلَيْهِ، وَحُرْمَتِهِمْ عِنْدُهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِ بِأَبَائِهِ وَأَسْلَافِهِ، وَأَنَّ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَكَانَةً وَصَالَحَانَا، فَلَا يَدْعُوهُ أَنْ  
يُخْلِصُوهُ كَمَا يُشَاهِدُ فِي حَضَرَةِ الْمُلُوكِ، فَإِنَّ الْمُلُوكَ تَهُبُ لِخَوَاصِهِمْ ذُنُوبَ أَبْنَائِهِمْ  
وَأَقْارِبِهِمْ، وَإِذَا وَقَعَ أَحَدُهُمْ فِي أَمْرٍ مُفْضِلٍ خَلَّصَهُ أَبُوهُ وَجَدُّهُ بِعِجَاهِهِ وَمَنْزِلَتِهِ.

### الاعتراض بالله

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَنِيٌّ عَنْ عَدَابِهِ، وَعَذَابُهُ لَا يَزِيدُ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا،  
وَرَحْمَتُهُ لَهُ لَا تَنْفَصُ مِنْ مُلْكِهِ شَيْئًا، فَيَقُولُ: أَنَا مُضْطَرٌ إِلَى رَحْمَتِهِ، وَهُوَ أَعْنَى الْأَعْنَىِ،  
وَلَوْ أَنَّ فَقِيرًا مِسْكِينًا مُضْطَرًّا إِلَى شَرْبَةِ مَاءٍ عِنْدَ مَنْ فِي دَارِهِ شَطُّ يَجْرِي لِمَا مَنَعَهُ مِنْهَا  
فَاللَّهُ أَكْرَمُ وَأَوْسَعُ فَالْمَغْفِرَةُ لَا تَنْقُصُهُ شَيْئًا وَالْعُقُوبَةُ لَا تَزِيدُ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا.

## الاعتراض بالفهم الفاسد والقرآن والسنّة

وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْتَرُ بِنَفْهُمْ فَاسِدٌ فِيهِمْ هُوَ وَأَصْرَابُهُ مِنْ نُصُوصِ الْقُرْآنِ وَالسُّنْنَةِ، فَاتَّكَلُوا عَلَيْهِ كَاتِكَالْبَعْضِهِمْ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعَظِّلُكَ رَبُّكَ فَرَضَّ﴾ [سُورَةُ الْضُّحَى: 55].

قَالَ وَهُوَ لَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ فِي النَّارِ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِهِ، وَهَذَا مِنْ أَقْبَحِ الْجَهَلِ، وَأَبْيَنَ الْكَذِبِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَرْضَى بِمَا يَرْضَى بِهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُرْضِيهِ تَعْذِيبُ الظَّلَمَةِ وَالْفَسَقَةِ وَالْخَوْنَةِ وَالْمُصْرِرِينَ عَلَى الْكَبَائِرِ، فَحَاشَ لِرَسُولِهِ أَنْ يَرْضَى بِمَا لَا يَرْضَى بِهِ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَكَاتِكَالْبَعْضِهِمْ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْفُرُ الظُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ: 53]

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَقْبَحِ الْجَهَلِ، فَإِنَّ الشَّرُكَ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ الظُّنُوبِ وَأَسَاسُهَا، وَلَا خِلَافَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي حَقِّ التَّائِبِينَ، فَإِنَّهُ يَغْفِرُ ذَنْبَ كُلِّ تَائِبٍ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ، وَلَوْ كَانَتِ الْآيَةُ فِي حَقِّ غَيْرِ التَّائِبِينَ لَبَطَلَتْ نُصُوصُ الْوَعِيدِ كُلُّهَا.

وَأَحَادِيثُ إِخْرَاجِ قَوْمٍ مِنَ الْمُوَحَّدِينَ مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعةِ.

وَهَذَا إِنَّمَا أَتَى صَاحِبَهُ مِنْ قِلَّةِ عِلْمِهِ وَفَهْمِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هَا هُنَا عَمَّ وَأَطْلَقَ، فَعَلِمَ أَنَّهُ أَرَادَ التَّائِبِينَ، وَفِي سُورَةِ النِّسَاءِ خَصَصَ وَقِيَدَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنِ يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ: 48]، فَأَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الشَّرُكَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَهُ، وَلَوْ كَانَ هَذَا فِي حَقِّ التَّائِبِ لَمْ يُفْرِقْ بَيْنَ الشَّرُكِ وَغَيْرِهِ، وَكَاغْتِرَ بَعْضِ الْجُهَالِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ الْكَبِيرُ﴾ [سُورَةُ الْإِنْفَطَارِ: 66] فَيَقُولُ: كَرَمَهُ، وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ لَقَنَ الْمُغْتَرَ حُجَّتَهُ، وَهَذَا جَهْلٌ قِيَحٌ، وَإِنَّمَا غَرَّهُ

الدَّاءُ وَالدَّوَاءُ

بِرَبِّ الْعَرُورِ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ، وَنَفْسُهُ الْأَمَارَةُ بِالسُّوءِ وَجَهْلُهُ وَهَوَاهُ، وَأَنَّى سُبْحَانَهُ بِلْفَظِ الْكَرِيمِ وَهُوَ السَّيِّدُ الْعَظِيمُ الْمُطَاعُ، الَّذِي لَا يَنْبَغِي الْإِغْتِرَارُ بِهِ، وَلَا إِهْمَالُ حَقِّهِ، فَوَضَعَ هَذَا الْمُعْتَرُ الغَرُورَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَأَغْتَرَ بِمَنْ لَا يَنْبَغِي الْإِغْتِرَارُ بِهِ.

وَكَاغْتِرَارٍ بَعْضِهِمْ يَقُولُهُ تَعَالَى فِي النَّارِ: ﴿لَا يَصْلَهُ إِلَّا الْأَشْقَىٰ﴾ ١٥ الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلََّ ١٦ [سُورَةُ الْلَّيْلِ: ١٥ - ١٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَعِدْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٤].

وَلَمْ يَدْرِ هَذَا الْمُغْتَرُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَإِنْدِرْتُكُمْ فَارَّا تَنَظِّي﴾ هِيَ نَارٌ مَخْصُوصَةٌ مِنْ جُمْلَةِ دَرَكَاتِ جَهَنَّمَ، وَلَوْ كَانَتْ جَمِيعَ جَهَنَّمَ فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ لَا يَدْخُلُهَا بَلْ قَالَ لَا يَصْلِهَا إِلَّا أَلْشَقَ﴾ وَلَا يَلْزُمُ مِنْ عَدَمِ صَلْيِهَا، عَدَمُ دُخُولِهَا، فَإِنَّ الصَّلَيَ أَخْصُّ مِنَ الدُّخُولِ، وَنَفْيُ الْأَخْصَّ لَا يَسْتَلِزِمُ نَفْيَ الْأَعْمَّ.

ثُمَّ هَذَا الْمُغْتَرُ لَوْ تَأْمَلَ الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَهَا؛ لَعَلِمَ أَنَّهُ غَيْرُ دَاخِلٍ فِيهَا، فَلَا يَكُونُ مَضْمُونًا لَهُ أَنْ يُحْكَمَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي النَّارِ {أَعَدْتَ لِكَافِرِينَ} ، فَقَدْ قَالَ فِي الْجَنَّةِ: {أَعَدْتُ لِمُتَّقِينَ} [سُورَةُ آلِ عِمَّارَانَ: 133] وَلَا يُنَافِي إِعْدَادُ النَّارِ لِلْكَافِرِينَ أَنْ يَدْخُلَهَا الْفَسَاقُ وَالظَّالِمُونَ، وَلَا يُنَافِي إِعْدَادُ الْجَنَّةِ لِلْمُتَّقِينَ أَنْ يَدْخُلَهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ.

وَكَاغْتِرَارِ بَعْضِهِمْ عَلَى صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءِ، أَوْ يَوْمِ عَرَفَةَ، حَتَّى يَقُولَ بَعْضُهُمْ: يَوْمُ عَاشُورَاءِ يُكَفَّرُ ذُنُوبُ الْعَامِ كُلَّهَا، وَيَقْنَى صَوْمُ عَرَفَةَ زِيادةً فِي الْأَجْرِ، وَلَمْ يَدْرِ هَذَا الْمُغْتَرُ، أَنَّ صَوْمَ رَمَضَانَ، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، أَعْظَمُ وَأَجْلُ مِنْ صِيَامِ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَيَوْمِ عَاشُورَاءِ، وَهِيَ إِنَّمَا تُكَفَّرُ مَا بَيْنَهُمَا إِذَا اجْتَنَبَتِ الْكَبَائِرُ.

## الدَّاعُ وَالدَّوَاعُ

فَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، لَا يَقُوَّا عَلَى تَكْفِيرِ الصَّاغَائِرِ، إِلَّا مَعَ اِنْضِمَامِ تَرَاءِ الْكَبَائِرِ إِلَيْهَا، فَيَقُوَّى مَجْمُوعُ الْأَمْرِيْنِ عَلَى تَكْفِيرِ الصَّاغَائِرِ.

فَكَيْفَ يُكَفِّرُ صَوْمُ يَوْمَ تَطَوُّعٍ كُلَّ كَبِيرَةٍ عَمِلَهَا الْعَبْدُ وَهُوَ مُصِرٌ عَلَيْهَا، غَيْرُ تَائِبٍ  
مِنْهَا؟ هَذَا مُحَالٌ عَلَى اللَّهِ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ صَوْمُ يَوْمٍ عَرَفَةَ وَيَوْمٍ عَاشُورَاءَ مُكَفِّرًا  
لِجَمِيعِ ذُنُوبِ الْعَامِ عَلَى عُمُومِهِ، وَيَكُونُ مِنْ نُصُوصِ الْوَعْدِ الَّتِي لَهَا شُرُوطٌ وَمَوَانِعٌ،  
وَيَكُونُ إِصْرَارُهُ عَلَى الْكَبَائِرِ مَانِعًا مِنَ التَّكْفِيرِ، فَإِذَا لَمْ يُصِرْ عَلَى الْكَبَائِرِ لِتَسَاعِدُ الصَّوْمِ  
وَعَدَمِ الْإِصْرَارِ، وَتَعَاوِنُهُمَا عَلَى عُمُومِ التَّكْفِيرِ، كَمَا كَانَ رَمَضَانُ وَالصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ  
مَعَ اجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ مُتَسَاعِدِينَ مُتَعَاوِنِينَ عَلَى تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ مَعَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ قَالَ:  
إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتَكُمْ ﴿31﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: 31]

فَعُلِمَ أَنَّ جَعْلَ الشَّيْءِ سَبِيلًا لِلتَّكْفِيرِ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَتَسَاعَدَ هُوَ وَسَبَبٌ آخَرُ عَلَى التَّكْفِيرِ،  
وَيَكُونُ التَّكْفِيرُ مَعَ اجْتِمَاعِ السَّبَيْنِ أَقْوَى وَأَتَمْ مِنْهُ مَعَ انْفِرَادِ أَحَدِهِمَا، وَكُلَّمَا قَوِيَتْ  
أَسْبَابُ التَّكْفِيرِ كَانَ أَقْوَى وَأَتَمْ وَأَشْمَلَ.

حُسْنُ الظُّنُونِ بِاللَّهِ

وَكَاتِكَالِ بَعْضِهِمْ عَلَى قَوْلِهِ - حَاكِيًّا عَنْ رَبِّهِ "أَنَا عِنْدَ حُسْنٍ ظَنَّ عَبْدِي بِي، فَلَيُظْنَ بِي مَا شَاءَ" يَعْنِي مَا كَانَ فِي ظَنِّهِ فَإِنِّي فَاعِلُهُ بِهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْإِحْسَانِ، فَإِنَّ الْمُحْسِنَ الظَّنِّ بِرَبِّهِ أَنْ يُجَازِيهُ عَلَى إِحْسَانِهِ وَلَا يُخْلِفَ وَعْدَهُ، وَيَقْبَلُ تَوْرِثَتِهِ.

وَأَمَّا الْمُسِيءُ الْمُصِرُ عَلَى الْكَبَائِرِ وَالظُّلْمِ وَالْمُخَالَفَاتِ فَإِنَّ وَحْشَةَ الْمَعَاصِي  
وَالظُّلْمِ وَالْحَرَامَ تَمْنَعُهُ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِرَبِّهِ، وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي الشَّاهِدِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ أَلْيَقَ

الْخَارِجُ عَنْ طَاعَةِ سَيِّدِهِ لَا يُحِسِّنُ الظَّنَّ بِهِ، وَلَا يُجَامِعُ وَحْشَةَ الْإِسَاعَةِ إِحْسَانُ الظَّنِّ  
أَبْدًا، فَإِنَّ الْمُسِيَّءَ مُسْتَوْجِحٌ بِقَدْرِ إِسَاعَتِهِ، وَأَحْسَنُ النَّاسِ ظَنًا بِرَبِّهِ أَطْوَعُهُمْ لَهُ.

كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَأَحْسَنَ الْعَمَلَ وَإِنَّ الْفَاجِرَ  
أَسَاءَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَأَسَاءَ الْعَمَلَ.

وَكَيْفَ يَكُونُ مُحِسِّنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ مِنْ هُوَ شَارِدٌ عَنْهُ، حَالٌ مُرْتَحِلٌ فِي مَسَاخِطِهِ وَمَا  
يُغْبِيُهُ، مُتَرَّضٌ لِلْعَتَيْهِ قَدْ هَانَ حَقُّهُ وَأَمْرُهُ عَلَيْهِ فَأَضَاعَهُ، وَهَانَ نَهْيُهُ عَلَيْهِ فَارْتَكَبَهُ وَأَصَرَّ  
عَلَيْهِ؟ وَكَيْفَ يُحِسِّنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ مِنْ بَارَزَهُ بِالْمُحَارَبَةِ، وَعَادَى أُولَيَاءَهُ، وَوَالَّى أَعْدَاءَهُ،  
وَجَحَدَ صِفَاتَ كَمَالِهِ، وَأَسَاءَ الظَّنَّ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَظَنَّ  
بِجَهَلِهِ أَنَّ ظَاهِرَ ذَلِكَ ضَلَالٌ وَكُفْرٌ؟ وَكَيْفَ يُحِسِّنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ مِنْ يَظْنُ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا  
يَأْمُرُ وَلَا يَنْهَا وَلَا يَرْضى وَلَا يَغْضُبُ؟.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِي حَقِّ مَنْ شَكَ فِي تَعْلُقِ سَمْعِهِ بِعَضِ الْجُرْئَيَاتِ، وَهُوَ السُّرُّ مِنَ  
الْقَوْلِ: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَّتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَكُمْ فَأَصَبَّهُمْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [سُورَةُ فُصْلُتْ: 23].

فَهُوَ لَاءٌ لَمَّا ظَنُوا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا يَعْمَلُونَ، كَانَ هَذَا إِسَاعَةً لِظَنِّهِمْ  
بِرَبِّهِمْ، فَأَرْدَاهُمْ ذَلِكَ الظَّنُّ، وَهَذَا شَأْنٌ كُلُّ مَنْ جَحَدَ صِفَاتَ كَمَالِهِ، وَنُعُوتَ جَلَالِهِ،  
وَوَصَفَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ، فَإِذَا ظَنَّ هَذَا أَنَّهُ يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ كَانَ هَذَا غُرُورًا وَخِدَاعًا مِنْ نَفْسِهِ،  
وَتَسْوِيَلًا مِنَ الشَّيْطَانِ، لَا إِحْسَانَ ظَنَّ بِرَبِّهِ.

فَتَأْمَلْ هَذَا الْمَوْضِعَ، وَتَأْمَلْ شِدَّةَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَكَيْفَ يَجْتَمِعُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ تَيْقُنُهُ بِأَنَّهُ  
مُلَاقٌ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ وَيَرَى مَكَانَهُ، وَيَعْلَمُ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَّهُ مِنْ أَمْرِهِ،

وَأَنَّهُ مَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمَسْئُولٌ عَنْ كُلِّ مَا عَمِلَ، وَهُوَ مُقْتَيمٌ عَلَى مَسَاخِطِهِ مُضَيِّعٌ لِأَوْاْمِرِهِ، مُعَطَّلٌ لِحُقُوقِهِ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يُحِسِّنُ الظَّنَّ بِهِ، وَهُلْ هَذَا إِلَّا مِنْ خَدْعِ النُّفُوسِ، وَغُرُورِ الْأَمَانِيِّ؟

وَقَدْ قَالَ أَبُو أُمَّاتَةَ بْنُ سَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبِيرِ عَلَى عَائِشَةَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَتْ "لَوْ رَأَيْتُمَا رَسُولَ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي مَرْضٍ لَهُ، وَكَانَتْ عِنْدِي سِتَّةُ دَنَانِيرَ، أَوْ سَبْعَةُ، فَأَمْرَنَيَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنْ أُفَرِّقَهَا، قَالَتْ: فَشَغَلَنِي وَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَتَّى عَافَاهُ اللَّهُ، ثُمَّ سَأَلَنِي عَنْهَا فَقَالَ: مَا فَعَلْتِ؟ أَكُنْتِ فَرَقْتِ السَّنَةَ الدَّنَانِيرَ؟ فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ لَقَدْ شَغَلَنِي وَجَعُكَ، قَالَتْ فَدَعَا بِهَا، فَوَضَعَهَا فِي كَفِهِ، فَقَالَ: مَا ظَنُّنَّ بَنِيِّ اللَّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟ وَفِي لَفْظٍ: مَا ظَنُّ مُحَمَّدٌ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ".

فِيَا لَلَّهِ مَا ظَنُّ أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ وَالظَّلَمَةِ بِاللَّهِ إِذَا لَقَوْهُ وَمَظَالِمُ الْعِبَادِ عِنْدَهُمْ؟ فَإِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ قَوْلُهُمْ: حَسَنَا ظُنُونَا بِكَ، إِنَّكَ لَنْ تُعَذِّبَ طَالِمًا وَلَا فَاسِقًا، فَلِيصْنَعَ الْعَبْدُ مَا شَاءَ، وَلَيَرْتَكِبْ كُلَّ مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ، وَلِيُحِسِّنْ ظَنَنَهُ بِاللَّهِ، فَإِنَّ النَّارَ لَا تَمْسُهُ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَا يَبْلُغُ الْغُرُورُ بِالْعَبْدِ، وَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِقَوْمِهِ: ﴿أَيْفَكَا إِلَهَهُمْ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ﴾ ٨٧ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾ [سُورَةُ الصَّافَاتِ: 86 - 87]. أَيْ مَا ظَنُّكُمْ أَنْ يَفْعَلَ بِكُمْ إِذَا لَقِيْتُمُوهُ وَقَدْ عَدَدْتُمْ عَيْرَهُ.

وَمَنْ تَأْمَلَ هَذَا الْمَوْضِعَ حَقَّ التَّأْمِلِ عَلِمَ أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ هُوَ حُسْنُ الْعَمَلِ نَفْسُهُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَحْمِلُهُ عَلَى حُسْنِ الْعَمَلِ ظَنُنَهُ بِرَبِّهِ أَنْ يُجَازِيهُ عَلَى أَعْمَالِهِ وَيُثْبِيهُ عَلَيْهَا وَيَنْقَبِلَهَا مِنْهُ، فَالَّذِي حَمَلَهُ عَلَى الْعَمَلِ حُسْنُ الظَّنِّ، فَكُلَّمَا حَسُنَ ظَنُنُهُ حُسْنَ عَمَلُهُ، وَإِلَّا فَحُسْنُ الظَّنِّ مَعَ اتِّبَاعِ الْهَوَى عَجْزٌ، كَمَا فِي حَدِيثِ التَّرْمِذِيِّ وَالْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتَبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ".

الدَّاعُ وَالدَّوَاعُ

وَبِالْجُمْلَةِ فَحُسْنُ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ اُنْعِقَادِ أَسْبَابِ النَّجَاهِ، وَأَمَّا مَعَ اُنْعِقَادِ أَسْبَابِ  
الْهَلَالِكَ فَلَا يَتَّسِعُ إِحْسَانُ الظَّنِّ.

## الْفَرْقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ وَالْغُرُورِ

فَإِنْ قِيلَ: بَلْ يَتَأَتَّى ذَلِكَ، وَيَكُونُ مُسْتَنْدٌ حُسْنَ الظَّنِّ سَعَةً مَغْفِرَةً اللَّهِ، وَرَحْمَتِهِ  
وَعَفْوَهُ وَجُودِهِ، وَأَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، وَأَنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ الْعُقُوبَةُ، وَلَا يَضُرُّهُ الْعَفْوُ.

قِيلَ: الْأَمْرُ هَكَذَا، وَاللَّهُ فَوْقَ ذَلِكَ وَأَجْلُ وَأَكْرَمُ وَأَجْوَدُ وَأَرْحَمُ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَضْعُ  
ذَلِكَ فِي مَحْلِهِ الْلَّا يُقْبَلُ بِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْحِكْمَةِ، وَالْعِزَّةِ وَالْإِنْتِقَامِ، وَشَدَّةِ  
الْبَطْشِ، وَعَقُوبَةِ مَنْ يَسْتَحْقُ الْعُقُوبَةَ، فَلَوْ كَانَ مُعَوْلُ حُسْنِ الظَّنِّ عَلَى مُجَرَّدِ صِفَاتِهِ  
وَأَسْمَائِهِ لَا شَرَكَ فِي ذَلِكَ الْبُرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَوَلِيهِ وَعَدُوهُ، فَمَا يَنْفَعُ  
الْمُجْرِمُ أَسْمَاوُهُ وَصِفَاتُهُ وَقَدْ بَاءَ بِسُخْطِهِ وَغَضِبِهِ، وَتَعَرَّضَ لِلْعُنْتِيَّةِ، وَوَقَعَ فِي مَحَارِمِهِ،  
وَأَنْتَهَكَ حُرُمَاتِهِ، بَلْ حُسْنُ الظَّنِّ يَنْفَعُ مَنْ تَابَ وَنَدِمَ وَأَقْلَعَ، وَبَدَّلَ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ،  
وَاسْتَقْبَلَ بِقَيْمَةِ عُمُرِهِ بِالْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ، ثُمَّ أَحْسَنَ الظَّنَّ، فَهَذَا هُوَ حُسْنُ ظَنِّ، وَالْأَوَّلُ  
عُرُورٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَلَا تَسْتَطِلُ هَذَا الْفَصْلَ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِ شَدِيدَةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ يُفَرِّقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ  
بِاللَّهِ وَبَيْنَ الْغُرُورِ بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ  
اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الْبَقَرَةَ: 218] فَجَعَلَ هُؤُلَاءِ أَهْلَ الرَّجَاءِ، لَا  
الْبَطَالِينَ وَالْفَاسِقِينَ.

قالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فِتْنَوْا ثُمَّ جَهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سُورَةُ النَّحْل: 110] فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ بَعْدَ

هَذِهِ الْأَشْيَاءُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لِمَنْ فَعَلَهَا، فَالْعَالَمُ يَضَعُ الرَّجَاءَ مَوَاضِعَهُ وَالْجَاهِلُ الْمُغْتَرِّ  
يَضَعُهُ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهِ.

\*\*\*

### [فَصِّلُ الَّذِينَ اعْتَمَدُوا عَلَى عَفْوِ اللَّهِ فَضَيَّعُوا أَمْرَهُ وَنَهَيْهُ]

وَكَثِيرٌ مِنَ الْجُهَالِ اعْتَمَدُوا عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَكَرَمِهِ، وَضَيَّعُوا أَمْرَهُ وَنَهَيْهُ،  
وَنَسُوا أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَأَنَّهُ لَا يُرِدُ بِأَسْهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ، وَمَنْ اعْتَمَدَ عَلَى الْعَفْوِ  
مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى الذَّنْبِ فَهُوَ كَالْمُعَانِدِ.

فَالَّمَعْرُوفُ: رَجَاؤُكَ لِرَحْمَةِ مَنْ لَا تُطِيعُهُ مِنَ الْخَدْلَانِ وَالْحُمُوقِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: مَنْ قَطَعَ عُضْوًا مِنْكَ فِي الدُّنْيَا بِسَرِقَةٍ ثَلَاثَةَ دَرَاهِمَ، لَا تَأْمُنُ أَنْ  
تَكُونَ عُقُوبَتُهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى نَحْوِ هَذَا.

وَقِيلَ لِلْحَسَنِ: تَرَاكَ طَوِيلَ الْبُكَاءِ، فَقَالَ: أَخَافُ أَنْ يَطْرَحَنِي فِي النَّارِ وَلَا يُبَالِي.

وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ قَوْمًا أَهْتَهُمْ أَمَانِيَ الْمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ تَوْبَةٍ، يَقُولُ  
أَحَدُهُمْ: لِأَنِّي أَحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي، وَكَذَبَ، لَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ لَأَحْسَنَ الْعَمَلِ.

وَسَأَلَ رَجُلُ الْحَسَنَ فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ كَيْفَ نَصْنَعُ بِمُجَالَسَةِ أَقْوَامٍ يُخَوِّفُونَا حَتَّى  
نَكَادُ قُلُوبِنَا تَطِيرُ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَنْ تَصْحَبَ أَقْوَاماً يُخَوِّفُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَ أَمْنًا حَيْرٌ لَكَ  
مِنْ أَنْ تَصْحَبَ أَقْوَاماً يُؤْمِنُونَكَ حَتَّى تَلْحَقَكَ الْمَخَاوِفُ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَقُولُ:  
يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلُقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْجِمَارُ

## الدَّلَاءُ وَالدَّلَاءُ

بِرَحَاهُ، فَيَطُوفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ: مَا أَصَابَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ آمْرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتَيْهِ، وَأَنَّهَا كُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتَيْهِ".

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: "مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِالْقِبْعَيْفِ فَقَالَ: أَفَ لَكَ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُرِيدُنِي، قَالَ: لَا، وَلَكِنَّ هَذَا قَبْرُ فُلَانٍ، بَعْثَتْهُ سَاعِيَاً إِلَى آلِ فُلَانٍ، فَغَلَّ نَمِرَةً فَدَرَّعَ الْأَنَّ مِثْلَهَا مِنْ نَارٍ".

وَفِي مُسْنَدِهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَنَّسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "مَرَرْتُ لَيْلَةً أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شَفَاهُهُمْ بِمَقَارِيْضٍ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هُؤُلَاءِ، قَالُوا: نُطَبَّاءِ مِنْ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالِّبِرِّ وَيَنْسُونَ أَنفُسَهُمْ".

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَطْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ بِهَا وُجُوهُهُمْ، وَصُدُورُهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هُؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: هُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ".

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: "يَا مُقْلِبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ، تَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْنَا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَاعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقْلِلُهَا كَيْفَ شَاءَ".

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ لِجِبْرِيلَ: "مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ؟ قَالَ: مَا ضَحِكَ مُنْذُ خَلَقْتِ النَّارَ".

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "يُؤْتَى بِأَنْعَمَ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُصْبِغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرِبَكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبَّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبِغُ

فِي الْجَنَّةِ صَبْعَةً، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةً قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبَّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ.

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: "خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَنْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَانَ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرُ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: اسْتَعِدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ - مَرَّتِينَ أَوْ ثَلَاثَةَ - ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي اقْتِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيُضْلِلُ الْوُجُوهَ كَانَ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجْرِيُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: اخْرُجْيِ أَيْتَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ، اخْرُجْيِ إِلَى مَغْفِرَةِ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانِ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخْذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مِسْلِكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْبِدُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَائِكَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيْبَةُ؟ فَيَقُولُونَ: رُوحُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقْرَبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهِي بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلَّيْنِ، وَأَعِدُّوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أَعِدُّهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، فَقَالَ: فَتَعَادُ رُوحُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولُانِ لَهُ: مَنْ رَبَّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَقُولُانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولُانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيْكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولُانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟

فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأَمْنَتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوا لَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْبِسُوْهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتُحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطَيِّبَهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبِرِهِ مَدَّ بَصِّرِهِ، قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الشَّيْابِ، طَبِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسْرُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي اقْتِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْأَخْرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسْوَحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيئُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيْتَهَا النَّفْسُ الْخَيْثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخْطِ مِنَ اللَّهِ وَغَضْبِ، قَالَ: فَتَغْرُقُ فِي جَسَدِهِ فَيَسْتَرِّعُهَا، كَمَا يُنْتَرِعُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْتَلِّ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُونَهَا فِي تِلْكَ الْمُسْوَحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّنَ رِيحَ جِيقَةٍ وَجِدتُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَيَصْعُدُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوْحُ الْخَيْثَةُ. فَيَقُولُونَ: رُوْحٌ فُلَانٌ بْنِ فُلَانٍ، يَأْقِبُحُ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتِحُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ﴿لَا نُنَخِّنَ هُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَمُ فِي سَرَّ الْخَيَاطِ﴾ [الْأَعْرَافِ: 40] فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينِ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَنَطْرُحُ رُوْحَهُ طَرَحًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَانَ مَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطُفُهُ الْطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الْرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [سُورَةُ الْحَجَّ: 31] فَتَعَادُ رُوْحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانٍ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولُانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولُانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولُانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيْكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوا لَهُ

مِنَ النَّارِ، وَأَفْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرَّهَا وَسَمُومَهَا، وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ فَيُبَيِّحُ الْوَجْهَ فَيُبَيِّحُ الشَّيْءَ مُتْنَى الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوْؤُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيِّءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمْلُكَ الْخَيْثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقْنِمِ السَّاعَةَ.

وَفِي لَفْظٍ لِأَحْمَدَ أَيْضًا ثُمَّ يُقَيِّضُ لَهُ أَعْمَى أَصْمَمَ أَبْكَمُ، فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضَرَبَ بِهَا جَبَلًا كَانَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِحُّ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الشَّقَلَيْنِ، قَالَ الْبَرَاءُ: ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ وَيُمْدِلُهُ مِنْ فِرَاشِ النَّارِ.

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا عَنْهُ، قَالَ: يَنْمَأْ نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - إِذْ بَصَرَ بِجَمِيعِهِ، فَقَالَ: عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟ قِيلَ: عَلَى قَبْرٍ يَحْفَرُونَهُ، فَفَزَعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، فَبَدَرَ بَيْنَ يَدَيْ أَصْحَابِهِ مُسْرِعًا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْقَبْرِ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتِيهِ، فَاسْتَقْبَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لَا نَظَرٌ مَا يَصْنَعُ، فَبَكَى حَتَّى بَلَّ التَّرَى مِنْ دُمُوعِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: أَيُّ إِخْرَانِي، لِمِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ فَأَعِدُّوَا.

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ قَالَ: "خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَوْمًا فَنَادَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَدْرُونَ مَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ مَثَلُ قَوْمٍ خَافُوا عَدُوًّا يَأْتِيهِمْ فَبَعْثُوا رَجُلًا يَتَرَاءَى لَهُمْ، فَبَأْصَرَ الْعَدُوَّ فَأَقْبَلَ لِيُنْذِرَهُمْ، وَخَشِيَ أَنْ يُدْرِكَهُ الْعَدُوُّ قَبْلَ أَنْ يُنْذِرَ قَوْمَهُ، فَأَهْوَى بِثُوْبِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ أُتْيَتُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ أُتْيَتُمْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ".

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ : "كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَإِنَّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ شَرِبَ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ أَوْ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ".

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّلَ السَّمَاءَ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَعْطَ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعَ أَصَابِعَ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَدَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرْ جُنُمٌ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" قَالَ أَبُو ذَرٍّ: وَاللَّهِ لَوْدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعَضَّدُ.

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ قَالَ: "كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فِي جَنَازَةِ فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ قَعَدَ عَلَى سَاقِيْهِ، فَجَعَلَ يُرِدِّدُ بَصَرَهُ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: يُضْغَطُ الْمُؤْمِنُ فِيهِ ضَغْطَةً تُرْوِلُ مِنْهَا حَمَائِلَهُ وَيُمْلَأُ عَلَى الْكَافِرِ نَارًا، وَالْحَمَائِلُ عُرُوفُ الْأَنْثَيْنِ".

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ: "خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ حِينَ تُوْفِيَ، فَلَمَّا صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَوُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَسُوْيَ عَلَيْهِ، سَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَسَبَّحْنَا طَوِيلًا، ثُمَّ كَبَرَ، فَكَبَرْنَا، فَقَيْلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ سَبَّحْتَ، ثُمَّ كَبَرْتَ؟ فَقَالَ: لَقَدْ تَضَايَقَ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ".

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ، وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحةً قَالَتْ: قَدْمُونِي قَدْمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحةٍ، قَالَتْ: يَا وَيْلَاهَا، أَيْنَ تَنْدَهُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الْإِنْسَانُ لَصَعِقَ".

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَّامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "تَدْنُو الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ مِيلٍ، وَيَزَادُ فِي حَرَّهَا كَذَا وَكَذَا، تَغْلِي مِنْهَا الرُّؤُسُ كَمَا تَغْلِي الْقُدُورُ، يَعْرُقُونَ فِيهَا عَلَى قَدْرِ خَطَايَاهُمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَلْعُغُ إِلَى كَعْبِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْعُغُ إِلَى سَاقِيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْعُغُ إِلَى وَسَطِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ".

وَفِيهِ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ - وَسَلَّمَ - قَالَ: "كَيْفَ أَنْعَمْ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَّقَمَ الْقَرْنَ؟ وَحَنَى جَبَهَتُهُ يَسْمَعُ مَتَى يُؤْمِرُ فَيَنْفُخُ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: كَيْفَ نَقُولُ؟ قَالَ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا".

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا عَنْ أَبْنِ عُمَرَ يَرْفَعُهُ: "مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، أَوْ اخْتَالَ فِي مِشْيَهِ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضِبًا".

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - وَسَلَّمَ: "إِنَّ الْمُصَوِّرِينَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ أَحَيُوا مَا خَلَقْتُمْ".

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ - وَسَلَّمَ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعُدُهُ بِالْعَدَاءِ وَالْعَنْتَيْ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعُدُكَ حَتَّى يَعْشَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ - وَسَلَّمَ - "إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، حَيِّ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُوقَفَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحَ، ثُمَّ يُنَادَى مُنَادِيَ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتٌ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتٌ، فَيَزِدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزِدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ".

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْهُ قَالَ: "مَنِ اشْتَرَى ثُوْبًا بِعَشْرَةِ دَرَاهِمٍ فِيهَا دِرْهَمٌ حَرَامٌ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً مَادَمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَدْخَلَ إِصْبَاعِهِ فِي أُذْنِيهِ ثُمَّ قَالَ صُمِّنَا إِنْ لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُ النَّبِيَّ - وَسَلَّمَ - يَقُولُهُ".

وَفِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ - وَسَلَّمَ - قَالَ: "مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا مَرَّةً وَاحِدَةً فَكَانَ كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فَسُلِّبَهَا، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ كَانَ

حَقًا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيهُ طِينَةُ الْخَبَالِ، قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: عَصَارَةُ أَهْلِ جَهَنَّمَ".

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ مَرْفُوعًا "مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ مَرَّةً لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةً أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ لَمْ يَقْبَلْ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَلَا أَدْرِي فِي الثَّالِثَةِ أَوْ فِي الرَّابِعَةِ قَالَ: فَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيهُ مِنْ رَدْعَةِ الْخَبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "مَنْ مَاتَ مُدْمِنًا لِلْخَمْرِ سَقَاهُ اللَّهُ مِنْ نَهْرِ الْغُوْطَةِ، قِيلَ: وَمَا نَهْرُ الْغُوْطَةِ؟ قَالَ نَهْرٌ يَجْرِي مِنْ فُروجِ الْمُوْمَسَاتِ، يُؤَذِّي أَهْلَ النَّارِ رِيحُ فُروجِ جَهَنَّمَ".

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "يُرْضِعُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ، فَأَمَّا عَرْضَتَانِ فَجَدَالٌ وَمَعَادِيرُ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحْفُ فِي الْأَيْدِي، فَأَخِذْ بِيَمِينِهِ، أَوْ آخِذْ بِشِمَالِهِ".

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الدُّنْوِبِ: فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعُنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ، وَضَرَبَ لَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مَثَلًا، كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَلَةِ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلَ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَاً وَأَجْجُوا نَارًا، وَأَنْصَبُجُوا مَا قَدَفُوا فِيهَا".

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "يُضَرِّبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ، وَدَعْوَى الرُّسُلُ يَوْمَئِذٍ، اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَعَلَى حَافَتِيهِ كَلَالِيْبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ الْمُوْتَقِّبُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ

الْمُجَرْدُلُ، ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْحَمَ مِمَّنْ كَانَ يَشْهُدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَمْرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ، فَيَعِرِّفُونَهُمْ بِعَلَامَةٍ أَثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَثْرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُوهُمْ قَدْ امْتُحِشُوا فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مِنْ مَاءِ الْحَيَاةِ، فَيُبَثُّوْنَ بَيْتَ الْحَبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ".

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: "إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى فِيهِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتَيَّ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيَكَ حَتَّىٰ قُتِلْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنْ قَاتَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَرِئُ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمْرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّىٰ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتَيَّ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ تَعَلَّمْتُ فِيَكَ الْعِلْمَ وَعَلَمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيَكَ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ، هُوَ عَالِمٌ، فَقَدْ قِيلَ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمْرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّىٰ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ" وَفِي لَفْظٍ "فَهُؤُلَاءِ أَوَّلُ خُلُقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ".

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ يَقُولُ: كَمَا أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ الْأَبْيَاءُ فَشُرُّ النَّاسِ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ يُوَهِّمُ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، فَخَيْرُ النَّاسِ بَعْدَهُمُ الْعُلَمَاءُ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّدِيقُونَ، وَالْمُحْلِصُونَ، وَشُرُّ النَّاسِ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ يُوَهِّمُ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ: "مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ لِأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ فِي مَالٍ أَوْ عِرْضٍ فَلَيْسَ تَحْلَّهَا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ وَلَيْسَ عِنْدَهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخِذَ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَأُعْطِيَهَا هَذَا، وَإِلَّا أَخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ هَذَا فَطَرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ".

وَفِي الصَّحِيحَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "مَنْ أَخْدَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ".

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقَدُ بُنُو آدَمَ جُزْءًا مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، قَالُوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قَالَ: فَإِنَّهَا قَدْ فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِسِعَةٍ وَسِينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرَّهَا".

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ مُعَاذٍ قَالَ: أَوْصَانِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: "لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُتِلْتَ أَوْ حُرِّقْتَ، وَلَا تَعْقَنَ وَالدِّيْكَ وَإِنْ أَمْرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وَلَا تَتَرَكَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا، فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا قَدْ بَرَأَتْ مِنْهُ ذَمَّةُ اللَّهِ، وَلَا تَشْرِبَنَ خَمْرًا، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ فَاحِشَةٍ، وَإِبَاكَ وَالْمَعْصِيَةَ، فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ تُحْلِ سَخَطَ اللَّهِ".

وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ أَصْعَافُ أَصْعَافٍ مَا ذَكَرْنَا، فَلَا يَبْغِي لِمَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ أَنْ يَتَعَامِي عَنْهَا، وَيُرِسِّلَ نَفْسَهُ فِي الْمَعَاصِي، وَيَتَعَلَّقَ بِحُسْنِ الرَّجَاءِ وَحُسْنِ الظُّنُّ.

قَالَ أَبُو الْوَفَاءِ بْنُ عَقِيلٍ: أَحْذَرُهُ وَلَا تَغْتَرَ بِهِ، فَإِنَّهُ قَطَعَ الْيَدَ فِي ثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ، وَجَلَدَ الْحَدَّ فِي مِثْلِ رَأْسِ الْإِبْرَةِ مِنَ الْخَمْرِ، وَقَدْ دَخَلَتِ الْمَرْأَةُ النَّارَ فِي هِرَّةٍ، وَاشْتَعَلَتِ الشَّمْلَةُ نَارًا عَلَى مَنْ غَلَّهَا وَقَدْ قُتِلَ شَهِيدًا.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مَعَاوِيَةُ حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مَيْسَرَةَ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ يَرْفَعُهُ قَالَ: "دَخَلَ رَجُلُ الْجَنَّةَ فِي دُبَابٍ، وَدَخَلَ رَجُلُ النَّارَ فِي دُبَابٍ، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنْمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقْرَبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرْبٌ، فَقَالَ لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ، قَالُوا قَرْبٌ وَلَوْ دُبَابًا، فَخَلَّوْا سَيِّلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرْبٌ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقْرَبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا مِنْ

دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَضَرَبُوا عَنْقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ يَتَكَلَّمُ بِهَا الْعَبْدُ يَهُوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا يَبْيَنَ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ.

" وَرَبَّمَا اتَّكَلَ بَعْضُ الْمُغْتَرِبِينَ عَلَى مَا يَرَى مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَأَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِهِ، وَيَظْنُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ لَهُ، وَأَنَّهُ يُعْطِيهِ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنَ الْغُرُورِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عَيْلَانَ حَدَّثَنَا رِشْدِينُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ حَرْمَلَةَ بْنِ عِمْرَانَ التُّجِيَّبِيِّ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: "إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ تَلَقَّوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا نَذَّرُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحَنَّ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فِرَحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذَنَهُمْ بَعْتَهُ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: 44]."

وَقَالَ بَعْضُ السَّالِفِ: إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمُهُ وَأَنَّ مُقِيمٍ عَلَى مَعَاصِيهِ فَاحْذَرْهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ يَسْتَدْرِجُكَ بِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُسْتُوْهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَابِحَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٢٢﴾ وَلِيُسْتُوْهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُّا عَلَيْهَا يَتَكَبُّونَ ﴿٢٣﴾ وَزَخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ: 33 - 35]."

وَقَدْ رَدَ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنْ يَظْنُ هَذَا الظَّنَّ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا إِلَيْسَنْ إِذَا مَا أَبْتَلَهُ رِبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَمَهُ فَيَقُولُ رَبِّتَ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا أَبْتَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنَنِ ﴿١٦﴾ لَلَّا بَلَ لَا تُكْرُمُونَ أَلْتِيَمِ ﴿١٧﴾ [سُورَةُ الْفَجْرِ: 15 - 17] أَيْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ نَعَمْتُهُ وَوَسَعْتُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ أَكُونُ قَدْ أَكْرَمْتُهُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ابْتَلَيْتُهُ وَصَيَّقْتُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ أَكُونُ قَدْ أَهَتَتُهُ، بَلْ أَبْتَلَيْ هَذَا بِالنَّعْمِ وَأَكْرِمُ هَذَا بِالإِبْتِلَاءِ.

وَفِي جَامِعِ التَّرْمِذِيِّ عَنْهُ - عَنْهُ: إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي  
الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ وَقَالَ بَعْضُ السَّلْفِ: رَبَّ مُسْتَدْرَجٍ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، وَرَبَّ  
مَغْرُورٍ بِسْتَرِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، وَرَبَّ مَفْتُونٍ بِشَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ.

\* \* \*

### [فَصْلُ الْأَغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا]

وَأَعْظَمُ الْخَلْقِ غُرُورًا مَنْ اغْتَرَّ بِالدُّنْيَا وَعَاجَلَهَا، فَاثْرَهَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَرَضِيَّ بِهَا مِنَ  
الْآخِرَةِ، حَتَّى يَقُولَ بَعْضُهُؤُلَاءِ: الدُّنْيَا نَقْدٌ، وَالْآخِرَةُ نَسِيَّةٌ، وَالنَّقْدُ أَحْسَنُ مِنَ النَّسِيَّةِ.

وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: ذَرَّةٌ مَنْقُودَةٌ، وَلَا دُرَّةٌ مَوْعِدَةٌ.

وَيَقُولُ آخُرُ مِنْهُمْ: لَذَّاتُ الدُّنْيَا مُتَيَّقَّنَةٌ، وَلَذَّاتُ الْآخِرَةِ مَسْكُوكُ فِيهَا، وَلَا أَدْعُ الْيَقِينَ  
بِالشَّكِّ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ تَلْبِيسِ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلِهِ، وَالْبَهَائِمُ الْعُجْمُ أَعْقَلُ مِنْ هُؤُلَاءِ؛ فَإِنَّ  
الْبَهِيمَةَ إِذَا خَافَتْ مَضَرَّةً شَيْءٌ لَمْ تُقْدِمْ عَلَيْهِ وَلَوْ ضُرِبَتْ، وَهُؤُلَاءِ يُقْدِمُ أَحَدُهُمْ عَلَى مَا  
فِيهِ عَطْبٌ، وَهُوَ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ.

فَهَذَا الضَّرْبُ إِنْ آمَنَ أَحَدُهُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلِقَائِهِ وَالْجَزَاءِ، فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ  
حَسْرَةً، لِأَنَّهُ أَقْدَمَ عَلَى عِلْمٍ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَبْعَدُهُ.

وَقُولُ هَذَا الْقَائِلِ: النَّقْدُ خَيْرٌ مِنَ النَّسِيَّةِ.

جَوَابُهُ أَنَّهُ إِذَا تَسَاوَى النَّقْدُ وَالنَّسِيَّةُ فَالنَّقْدُ خَيْرٌ، وَإِنْ تَفَاقَوْتَا وَكَانَتِ النَّسِيَّةُ أَكْبَرَ وَأَفْضَلَ  
فَهِيَ خَيْرٌ، فَكَيْفَ وَالدُّنْيَا كُلُّهَا مِنْ أَوْلَهَا إِلَى آخِرِهَا كَنْفَسٌ وَاحِدٌ مِنْ أَنفَاسِ الْآخِرَةِ؟

كَمَا فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَالْتَّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَرَّاكَنْهُ وَسَلَّمَ: "مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يُدْخِلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلَيَسْطُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟"

فَإِيَّاشُرْ هَذَا النَّقْدُ عَلَى هَذِهِ النِّسْبَيَّةِ، مِنْ أَعْظَمِ الْغَيْنِ وَأَفْيَجِ الْجَهْلِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا نِسْبَةُ الدُّنْيَا بِمَجْمُوعِهَا إِلَى الْآخِرَةِ، فَمَا مِقْدَارُ عُمُرِ الْإِنْسَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ، فَأَيْمَا أَوْلَى بِالْعَاقِلِ؟ إِيَّاشُرْ الْعَاجِلِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ، وَحِرْمَانُ الْخَيْرِ الدَّائِمِ فِي الْآخِرَةِ، أَمْ تَرُكُ شَيْءٌ حَقِيرٌ صَغِيرٌ مُنْقَطِعٌ عَنْ قُرْبٍ، لِيَأْخُذَ مَا لَا قِيمَةَ لَهُ وَلَا خَطَرَ لَهُ، وَلَا نِهَايَةَ لِعَدَدِهِ، وَلَا غَايَةَ لِأَمْدِهِ؟

وَأَمَّا قَوْلُ الْآخَرِ: لَا أَتَرُكُ مُتَيَّقَنًا لِمَشْكُوكِ فِيهِ، فَيَقُولُ لَهُ: إِنَّمَا أَنْ تَكُونَ عَلَى شَكٍّ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيَّدِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ، أَوْ تَكُونَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنْ كُنْتَ عَلَى الْيَقِينِ فَمَا تَرَكْتَ إِلَّا ذَرَّةً عَاجِلَةً مُنْقَطِعَةً فَانِيَّةً عَنْ قُرْبٍ، لِأَنَّهُ مُتَيَّقَنٌ لَا شَكَ فِيهِ وَلَا انْقِطَاعَ لَهُ.

وَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَكٍّ فَرَاجِعٌ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى الدَّالَّةُ عَلَى وُجُودِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَسِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ، وَتَجَرَّدُ وَقْمُ لِلَّهِ نَاظِرًا أَوْ مُنَاظِرًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَ فِيهِ، وَأَنَّ خَالقَ هَذَا الْعَالَمَ وَرَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَعَالَى وَيَتَمَدَّسُ وَيَتَنَزَّهُ عَنْ خَلَافِ مَا أَخْبَرْتُ بِهِ رُسُلُهُ عَنْهُ، وَمَنْ نَسَبَهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ شَتَمَهُ وَكَذَبَهُ، وَأَنَّكَ رُبُوبِيَّتُهُ وَمُلْكُهُ، إِذْ مِنَ الْمُحَالِ الْمُمْتَنِعِ عِنْدَ كُلِّ ذِي فِطْرَةٍ سَلِيمَةٍ، أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ الْحَقُّ عَاجِزًا أَوْ جَاهِلًا، لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يُبَصِّرُ وَلَا يَتَكَلَّمُ، وَلَا يَأْمُرُ وَلَا يَنْهَا، وَلَا يُشَبِّهُ وَلَا يُعَاقِبُ، وَلَا يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُذَلِّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُرِسِّلُ رُسُلَهُ إِلَى أَطْرَافِ مَمْلَكَتِهِ وَنَوَاحِيهَا، وَلَا يَعْتَنِي بِأَهْوَالِ رَعِيَّتِهِ، بَلْ يَرُكُهُمْ سُدَّدَ وَيُخَلِّيَهُمْ هَمَّلًا، وَهَذَا يَقْدَحُ فِي مُلْكِ آخَادِ مُلْوِكِ الْبَشَرِ وَلَا يَلِيقُ بِهِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ نِسْبَةُ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْمُبِينِ إِلَيْهِ؟

وَإِذَا تَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ حَالَهُ مِنْ مَبْدًا كَوْنِهِ نُطْفَةً إِلَى حِينِ كَمَالِهِ وَاسْتِوائِهِ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ مَنْ عُنِيَّ بِهِ هَذِهِ الْعِنَايَةُ، وَنَقَلَهُ إِلَى هَذِهِ الْأَهْوَالِ، وَصَرَّفَهُ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ، لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُهْمِلَهُ وَيَتَرَكَهُ سُدًى، لَا يَأْمُرُهُ وَلَا يَنْهَاهُ وَلَا يَعْرِفُهُ بِحُقُوقِهِ عَلَيْهِ، وَلَا يُشْبِهُ وَلَا يُعَاقِبُهُ، وَلَوْ تَأَمَّلَ الْعَبْدُ حَقَّ التَّأَمَّلِ لَكَانَ كُلُّ مَا يُصْرُهُ وَمَا لَا يُصْرُهُ دَلِيلًا لَهُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالنَّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ، وَقَدْ ذَكَرْنَا وَجْهَ الْإِسْتِدَالَابِذَلِكَ فِي كِتَابِ إِيمَانِ الْقُرْآنِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا أُقِيمُ لِمَا تَبْصِرُونَ﴾ [٢٨] وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولِ كَرِيمٍ﴾ [٤٠] [سُورَةُ الْحَاجَةُ: ٣٨ - ٤٠]. وَذَكَرْنَا طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا يَبْصِرُونَ﴾ [سُورَةُ الدَّارِيَاتِ: ٢١]. وَأَنَّ الْإِنْسَانَ دَلِيلُ نَفْسِهِ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَإِثْبَاتِ صِفَاتِ كَمَالِهِ.

فَقَدْ بَانَ أَنَّ الْمُضَيِّعَ مَغْرُورٌ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ: تَقْدِيرٌ تَصْدِيقَهُ وَيَقِينَهُ، وَتَقْدِيرٌ تَكْذِيبَهُ وَشَكِّهِ.

كَيْفَ يَجْتَمِعُ الْيَقِينُ بِالْمَعَادِ، وَالتَّخَلُّفُ عَنِ الْعَمَلِ؟

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَجْتَمِعُ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ الَّذِي لَا شَكَ فِيهِ بِالْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَيَتَخَلَّفُ الْعَمَلُ؟ وَهَلْ فِي الطَّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ مَطْلُوبٌ غَدًا إِلَى بَيْنِ يَدَيِّ بَعْضِ الْمُلُوكِ لِيُعَاقِبَهُ أَشَدَّ عَقُوبَةً، أَوْ يُكْرِمَهُ أَكْمَنَ كَرَامَةً، وَبَيْتُ سَاهِيًّا غَافِلًا لَا يَتَذَكَّرُ مَوْقِفُهُ بَيْنَ يَدَيِّ الْمَلِكِ، وَلَا يَسْتَعِدُ لَهُ، وَلَا يَأْخُذُ لَهُ أَهْبَتَهُ.

قِيلَ: هَذَا لَعْمَرُ اللَّهِ سُؤَالٌ صَحِيحٌ وَارِدٌ عَلَى أَكْثَرِ هَذَا الْخَلْقِ، فَاجْتِمَاعُ هَذِينِ الْأَمْرَيْنِ مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ وَهَذَا التَّخَلُّفُ لَهُ عِدَّةُ أَسْبَابٍ: أَحَدُهَا: ضَعْفُ الْعِلْمِ، وَنُصَاصُ الْيَقِينِ، وَمَنْ ضَنَّ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَتَفَاقَوْتُ، فَقَوْلُهُ مِنْ أَفْسَدِ الْأَفْوَالِ وَأَبْطَلَهَا.

## الذَّلَّةُ وَالذَّلَّةُ

وَقَدْ سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ رَبَّهُ أَنْ يُرِيهِ إِحْيَاءَ الْمَوْتَىٰ عِيَّانًا بَعْدَ عِلْمِهِ بِقُدْرَةِ الرَّبِّ عَلَى ذَلِكَ، لِيُرَدَّدَ طُمَانِيَّةً، وَيَصِيرَ الْمَعْلُومُ غَيْبًا شَهَادَةً.

وَقَدْ رَوَىٰ أَحَمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّمَا الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ".

فَإِذَا اجْتَمَعَ إِلَى ضَعْفِ الْعِلْمِ عَدَمُ اسْتِحْضَارِهِ، أَوْ غَيْبَتُهُ عَنِ الْقَلْبِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَوْقَاتِهِ أَوْ أَكْثَرِهَا لِأَشْتِغَالِهِ بِمَا يُضَادُهُ، وَانْصَمَّ إِلَى ذَلِكَ تَقَاضِيَ الطَّبَّعِ، وَغَلَبَاتُ الْهَوَى، وَاسْتِيَلَاءُ الشَّهْوَةِ، وَتَسْوِيلُ النَّفْسِ، وَغُرُورُ الشَّيْطَانِ، وَاسْتِبْطَاءُ الْوَعْدِ، وَطُولُ الْأَمْلِ، وَرَقْدَةُ الْغَفْلَةِ، وَحُبُّ الْعَاجِلَةِ، وَرُخْصُ التَّأْوِيلِ وَإِلْفُ الْعَوَادِ، فَهُنَّاكَ لَا يُمْسِكُ الْإِيمَانُ إِلَّا الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَبِهَذَا السَّبِيلِ يَتَقَوَّلُ النَّاسُ فِي الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ، حَتَّىٰ يَتَنَاهَى إِلَى أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْقَلْبِ.

وَجِمَاعُ هَذِهِ الْأَسْبَابِ يَرْجُعُ إِلَى ضَعْفِ الْبَصِيرَةِ وَالصَّابِرِ، وَلِهَذَا مَدَحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الصَّابِرِ وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَهُمْ أَئِمَّةً فِي الدِّينِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْهُمْ أَئِمَّةٌ يَهْدُونَ بِمَا رَأَيْنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَيْنَتِنَا يُوقَنُونَ﴾ [السَّجْدَةٌ: 24]

\*\*\*

## [فَصْلُ الْفَرْقِ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ وَالْغُرُورِ]

وَقَدْ تَبَيَّنَ الْفَرْقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ وَالْغُرُورِ، وَأَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ إِنْ حَمَلَ عَلَى الْعَمَلِ، وَحَتَّىٰ عَلَيْهِ، وَسَاقَ إِلَيْهِ، فَهُوَ صَحِحٌ، وَإِنْ دَعَا إِلَى الْبُطَالَةِ وَالإِنْهَمَالِ فِي الْمَعَاصِي فَهُوَ غُرُورٌ، وَحُسْنُ الظَّنِّ هُوَ الرَّجَاءُ، فَمَنْ كَانَ رَجَاؤُهُ هَادِيًّا لَهُ إِلَى الطَّاعَةِ، زَاجِرًا لَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، فَهُوَ رَجَاءٌ صَحِحٌ، وَمَنْ كَانَتْ بِطَائِتُهُ رَجَاءً، وَرَجَاؤُهُ بِطَالَةً وَتَفْرِيظًا، فَهُوَ الْمَغْرُورُ.

## الدَّلَالُ وَالدَّلَاءُ

وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ يُؤْمِلُ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ مِنْ مَغْلِهَا مَا يَنْفَعُهُ فَأَهْمَلَهَا وَلَمْ يَبْذِرْهَا وَلَمْ يَحْرُثْهَا، وَحَسْنَ ظَنْهُ بِأَنَّهُ يَأْتِي مِنْ مَغْلِهَا مَا يَأْتِي مِنْ حَرَثَ وَبَدَرَ وَسَقَى وَتَعَااهَدَ الْأَرْضَ لَعَدَهُ النَّاسُ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَاهَاءِ.

وَكَذَلِكَ لَوْ حَسْنَ ظَنْهُ وَقَوِيَ رَجَاؤُهُ بِأَنَّ يَحْيَيْهُ وَلَدُ مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ أَوْ يَصِيرَ أَعْلَمَ أَهْلِ رَمَانِهِ مِنْ غَيْرِ طَلَبِ الْعِلْمِ، وَجِرْصٌ تَامٌ عَلَيْهِ، وَأَمْثَلُ ذَلِكَ.

فَكَذَلِكَ مَنْ حَسْنَ ظَنْهُ وَقَوِيَ رَجَاؤُهُ فِي الْفُوزِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَا وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، مِنْ غَيْرِ طَاعَةٍ وَلَا تَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِإِمْتِشَالٍ أَوْ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابٍ نَوَاهِيهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [سُورَةُ

الْبَقَرَةِ: 218]

فَتَأَمَّلُ كَيْفَ جَعَلَ رَجَاءَهُمْ إِتْيَانَهُمْ بِهِذِهِ الطَّاعَاتِ؟

وَقَالَ الْمُغْتَرِّونَ: إِنَّ الْمُفَرِّطِينَ الْمُضَيِّعِينَ لِحُقُوقِ اللَّهِ الْمُعَطَّلِينَ لِأَوَامِرِهِ، الْبَاغِينَ عَلَى عِبَادِهِ، الْمُتَجَرِّئِينَ عَلَى مَحَارِمِهِ، أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ.

وَسِرُّ الْمَسَأَلَةِ: أَنَّ الرَّجَاءَ وَحُسْنَ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْإِتْيَانِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَةُ اللَّهِ فِي شَرْعِهِ وَقَدْرِهِ وَثَوَابِهِ وَكَرَامَتِهِ، فَيَأْتِي الْعَبْدُ بِهَا ثُمَّ يُحْسِنُ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ، وَيَرْجُوهُ أَنْ لَا يَكْلُهُ إِلَيْهَا، وَأَنْ يَجْعَلَهَا مُوْصِلَةً إِلَى مَا يَنْفَعُهُ، وَيَصِرِّفَ مَا يُعَارِضُهَا وَيُبْطِلَ أَثْرَهَا.

\*\*\*

## [فصل الرجاء والأمانى]

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنَّ مِنْ رَجَاءً شَيْئاً اسْتَلْزَمَ رَجَاؤهُ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: مَحَبَّةُ مَا يَرْجُوهُ.

الثَّانِي: خَوْفُهُ مِنْ فَوَّاتِهِ.

الثَّالِثُ: سَعْيُهُ فِي تَحْصِيلِهِ بِحَسْبِ الْإِمْكَانِ.

وَأَمَّا رَجَاءُ لَا يُقَارِنُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْأَمَانِيِّ، وَالرَّجَاءُ شَيْءٌ وَالْأَمَانِيُّ شَيْءٌ آخَرُ، فَكُلُّ رَاجٍ خَائِفٌ، وَالسَّائِرُ عَلَى الطَّرِيقِ إِذَا خَافَ أَسْرَعَ السَّيْرَ مَخَافَةَ الْفَوَاتِ.

وَفِي جَامِعِ التَّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ عَالِيَّةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ".

وَهُوَ سُبْحَانُهُ كَمَا جَعَلَ الرَّجَاءَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحةِ، فَكَذَلِكَ جَعَلَ الْخَوْفَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحةِ، فَعُلِمَ أَنَّ الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ النَّافِعُ مَا اقْتَرَنَ بِهِ الْعَمَلُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَّةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ٥٧ وَالَّذِينَ هُمْ بِثَابِتَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿وَالَّذِينَ هُرِبَّهُمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ ٥٨ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ مَا آتَوْا وَقَلُوبُهُمْ وَجْهَةُ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَجِعُونَ ﴿أُولَئِكَ يُسَرِّعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَيِّقُونَ﴾ ٥٩ [سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: 57 - 61].

وَقَدْ رَوَى التَّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْ عَائِشَةَ - ﷺ - قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقُلْتُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، وَيَزْنُونَ، وَيَسْرِقُونَ، فَقَالَ: "لَا يَا ابْنَةَ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَيَخَافُونَ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ". وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَصَفَ أَهْلَ السَّعَادَةِ بِالْإِحْسَانِ مَعَ الْحَوْفِ، وَوَصَفَ الْأَشْقِيَاءِ  
بِالْإِسَاءَةِ مَعَ الْأَمْنِ.

### حَوْفُ الصَّحَابَةِ مِنَ اللَّهِ

مَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ الصَّحَابَةِ - ﷺ - وَجَدُهُمْ فِي غَايَةِ الْعَمَلِ مَعَ غَايَةِ الْحَوْفِ، وَنَحْنُ  
جَمِيعًا بَيْنَ التَّقْصِيرِ، بَلِ التَّفْرِيظِ وَالْأَمْنِ، فَهَذَا الصَّدِيقُ - ﷺ - يَقُولُ: وَدَدْتُ أَنِّي شَعْرَةٌ  
فِي جَنْبِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ، ذَكَرْهُ أَحْمَدُ عَنْهُ.

وَذَكَرَ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ يَمْسِكُ بِلِسَانِهِ وَيَقُولُ: هَذَا الَّذِي أُورَدَنِي الْمَوَارِدَ، وَكَانَ  
يَكِيْ كَثِيرًا، وَيَقُولُ: أَبْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا.

وَكَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ كَانَهُ عُودٌ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَأَتَى بِطَائِرٍ فَقَلَبَهُ ثُمَّ قَالَ: مَا صِيدَ مِنْ صَيْدٍ، وَلَا قُطِعَتْ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرَةٍ، إِلَّا بِمَا  
صَيَّبَتْ مِنَ التَّسْبِيحِ، فَلَمَّا احْتَضَرَ، قَالَ لِعَائِشَةَ: يَا بُنْيَةَ، إِنِّي أَصَبَّتُ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ  
هَذِهِ الْعَبَاءَةُ وَهَذِهِ الْجِلَابُ وَهَذَا الْعَبْدُ، فَأَسْرِعِي بِهِ إِلَى أَبْنِ الْخَطَّابِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ  
لَوْدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ تُؤْكِلُ وَتُعَضَّدُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: لَيَتَنِي خُضْرَةٌ تَأْكُلُنِي الدَّوَابُ.

وَهَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَرَأَ سُورَةَ الطُّورِ إِلَى أَنْ بَلَغَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [سُورَةُ  
الْطُّورِ: 77] فَبَكَى وَاسْتَدَدَ بِكَاؤُهُ حَتَّى مَرِضَ وَعَادُوْهُ.

وَقَالَ لِابْنِهِ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ: وَيُحَكَّ ضَعْ خَدِّي عَلَى الْأَرْضِ عَسَاهُ أَنْ يَرَحْمَنِي، ثُمَّ  
قَالَ: وَيُلْ أُمِّي، إِنْ لَمْ يَغْفِرْ لِي (ثَلَاثَةً)، ثُمَّ قُضِيَ.

## الدَّارُولِوَلَوْلَهُ

وَكَانَ يَمْرُ بِالْآيَةِ فِي وَرْدَهِ بِاللَّيْلِ فَتُخِيفُهُ، فَيَقِنُ فِي الْبَيْتِ أَيَّامًا يُعَادُ، يَحْسَبُونَهُ مَرِيضاً، وَكَانَ فِي وَجْهِهِ - بِنَيَّ اللَّهِ - خَطَّانٌ أَسْوَدَانٌ مِنَ الْبُكَاءِ.

وَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، مَصَرَ اللَّهِ بِكَ الْأَمْصَارَ، وَفَتَحَ بِكَ الْفُتُوحَ، وَفَعَلَ، فَقَالَ: وَدَدْتُ أَنْجُو لَا أَجْرَ وَلَا وِزْرَ.

وَهَذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ - بِنَيَّ اللَّهِ - كَانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى الْقَبْرِ يَيْكِي حَتَّى تُبَلِّ لِحِيَتُهُ، وَقَالَ: لَوْ أَنَّنِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَا أَدْرِي إِلَى أَيِّهِمَا يُؤْمِرُ بِي، لَا خَرَتْ أَنْ أَكُونَ رَمَادًا قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ إِلَى أَيِّهِمَا أَصِيرُ.

وَهَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - بِنَيَّ اللَّهِ - وَبُكَاؤُهُ وَحَوْفُهُ، وَكَانَ يَشْتَدُّ حَوْفُهُ مِنِ الْثَّتَّينِ: طُولِ الْأَمْلِ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَى، قَالَ: فَآمَّا طُولُ الْأَمْلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ، وَآمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيُصْدِدُ عَنِ الْحَقِّ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَتْ مُدَبَّرَةً، وَالْآخِرَةُ مُقْبَلَةُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ بَنُونُ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَدَّا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ.

وَهَذَا أَبُو الدَّرْدَاءِ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ أَشَدَّ مَا أَخَافُ عَلَى نَفْسِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُقَالَ لِي: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، قَدْ عَلِمْتَ، فَكَيْفَ عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ وَكَانَ يَقُولُ: لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَنْتُمْ لَا قُوْنَ بَعْدَ الْمَوْتِ لَمَا أَكْلَتُمْ طَعَامًا عَلَى شَهْوَةِ، وَلَا شَرِبْتُمْ شَرَابًا عَلَى شَهْوَةِ، وَلَا دَخَلْتُمْ بَيْتًا تَسْتَطِلُونَ فِيهِ، وَلَخَرَ جُنْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَضْرِبُونَ صُدُورَكُمْ، وَتَبَكُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَوْدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعَضَّدُ ثُمَّ تُؤَكَلُ.

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ أَسْفَلُ عَيْنِيهِ مِثْلُ الشَّرَائِكِ الْبَالِيِّ مِنَ الدُّمُوعِ.

## الدَّارِيُّ الدَّارِيُّ

وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ، وَوَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَخْلُقْ وَعُرِضْتُ عَلَيْهِ النَّفَقَةُ، فَقَالَ: مَا عِنْدَنَا عَنْ تَحْلِبَهَا وَحُمُرٌ نَقْلُ عَلَيْهَا، وَمُحَرَّرٌ يَخْدِمُنَا، وَفَضْلٌ عَبَاءَةٌ، وَإِنِّي أَخَافُ الْحِسَابَ فِيهَا.

وَقَرَأَ تَوْمِيمُ الدَّارِيُّ لِيَلَّةَ سُورَةِ الْجَاثِيَّةِ، فَلَمَّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا الْسَّيْئَاتِ أَنْ يَعْمَلُهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [سُورَةُ الْجَاثِيَّةِ: 21] جَعَلَ يُرَدِّدُهَا وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَامِرُ بْنُ الْجَرَاحَ: وَدَدْتُ أَنِّي كَبُشْ فَذَبَحَنِي أَهْلِي، وَأَكْلُوا لَحْمِي وَحَسُوا مَرْقِي. وَهَذَا بَابٌ يَطْوُلُ تَبَعُّهُ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: بَابُ حَوْفِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يُحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا.

وَقَالَ أَبْنُ أَبِي مُلِيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - كُلُّهُمْ يَخَافُ النَّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

وَيُذْكَرُ عَنِ الْحَسَنِ: مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِحُذَيْفَةَ: أَنْشُدُكَ اللَّهُ هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، يَعْنِي فِي الْمُنَافِقِينَ، فَيَقُولُ: لَا، وَلَا أَرْكِي بَعْدَكَ أَحَدًا.

فَسَمِعْتُ شَيْخَنَا - ﷺ - يَقُولُ: لَيْسَ مُرَادُهُ لَا أَبْرِئُ غَيْرَكَ مِنَ النَّفَاقِ، بَلِ الْمُرَادُ لَا أَفْتَحُ عَلَى نَفْسِي هَذَا الْبَابَ، فَكُلُّ مَنْ سَأَلَنِي هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَأَرْكِي.

فُلِتُ: وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا "قَوْلُ النَّبِيِّ" - ﷺ - لِلَّذِي سَأَلَهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ

السَّبْعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ". وَلَمْ يُرِدْ أَنْ عُكَاشَةَ وَحْدَهُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِمَّنْ عَدَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنْ لَوْ دَعَا لَقَامَ آخَرُ وَآخَرُ وَانْفَتَحَ الْبَابُ، وَرُبَّمَا قَامَ مَنْ لَمْ يَسْتَحِقَّ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ، فَكَانَ الْإِمْسَاكُ أَوْلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

\* \* \*

## [فَصْلُ ضَرْرِ الذُّنُوبِ فِي الْقَلْبِ كَضَرْرِ السُّمُومِ فِي الْأَبْدَانِ]

فَلْنَرْجِعْ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ ذَكْرِ دَوَاءِ الدَّاءِ الَّذِي إِنْ اسْتَمَرَ أَفْسَدَ دُبْيَا الْعَبْدِ وَآخِرَتَهُ.  
فَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ، أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِي تَضُرُّ، وَلَا بُدَّ أَنَّ ضَرَرَهَا فِي الْقَلْبِ كَضَرْرِ السُّمُومِ فِي الْأَبْدَانِ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهَا فِي الضرَرِ، وَهُلْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَرُّ وَدَاءٌ إِلَّا سَبَبَهُ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي، فَمَا الَّذِي أَخْرَجَ الْأَبْوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ، دَارِ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ وَالْبَهْجَةِ وَالسُّرُورِ إِلَى دَارِ الْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ وَالْمَصَائِبِ؟

وَمَا الَّذِي أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ، وَمَسَخَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ فَجَعَلَ صُورَتَهُ أَقْبَحَ صُورَةً وَأَشْنَعَهَا، وَبَاطِنَهُ أَقْبَحَ مِنْ صُورَتِهِ وَأَشْنَعَ، وَبُدَّلَ بِالْقُرْبِ بُعْدًا، وَبِالرَّحْمَةِ لَعْنَةً، وَبِالْجَمَالِ قُبْحًا، وَبِالْجَنَّةِ نَارًا تَلَظَّى، وَبِالإِيمَانِ كُفْرًا، وَبِمُوَاةِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ أَعْظَمَ عَدَاوَةً وَمُشَاةً، وَبِزَجْلِ التَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ وَالْتَّهَلِيلِ رَجَلَ الْكُفْرِ وَالشَّرِكِ وَالْكَذِبِ وَالزُّورِ وَالْفُحْشِ، وَبِلِبَاسِ الإِيمَانِ لِبَاسَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصَيَانِ، فَهَانَ عَلَى اللَّهِ غَيَّةُ الْهَوَانِ، وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ غَيَّةُ السُّقُوطِ، وَحَلَّ عَلَيْهِ غَضَبُ الرَّبِّ تَعَالَى فَأَهْوَاهُ، وَمَقْتَهُ أَكْبَرُ الْمَقْتِ فَأَرْدَاهُ، فَصَارَ قَوَادًا لِكُلِّ فَاسِقٍ وَمُجْرِمٍ، رَضِيَ لِنَفْسِهِ بِالْقِيَادَةِ بَعْدَ تِلْكَ الْعِبَادَةِ وَالسُّيَادَةِ، فَعِيَادًا بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِكَ وَأَرْتِكَابِ نَهِيَكَ.

وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ حَتَّى عَلَى الْمَاءِ فَوْقَ رَأْسِ الْجِبَالِ؟ وَمَا الَّذِي سَلَطَ الرِّيحَ الْعَقِيمَ عَلَى قَوْمٍ عَادٍ حَتَّى أَقْتَلُهُمْ مَوْتًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَانُوهُمْ أَعْجَابُ نَخْلٍ خَاوِيَّةً، وَدَمَرَتْ مَا مَرَّ عَلَيْهِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَحُرُونَهُمْ وَزُرُونَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ، حَتَّى صَارُوا عِبْرَةً لِلْأَمْمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمٍ ثَمُودَ الصَّيْحَةَ حَتَّى قَطَعَتْ قُلُوبَهُمْ فِي أَجْوَافِهِمْ وَمَا تُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟

وَمَا الَّذِي رَفَعَ فِرَقَ الْلُّوْطِيَّةَ حَتَّى سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نَبِيَّحَ كِلَّاهُمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَعَلَ عَالِيهَا سَافِلَاهَا، فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ أَتَيْهُمْ حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَمْطَرَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا لَمْ يَجْمِعْهُ عَلَى أُمَّةٍ غَيْرِهِمْ، وَلَا خُوَانِهِمْ أَمْثَالُهَا، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ؟ وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمٍ شَعَّبَ سَحَابَ الْعَذَابِ كَالظُّلُلِ، فَلَمَّا صَارَ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ نَارًا تَلَظَّى؟

وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ نَقَلَتْ أَرْوَاحَهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ، فَالْأَجْسَادُ لِلْغَرَقِ، وَالْأَرْوَاحُ لِلْحَرْقِ؟

وَمَا الَّذِي خَسَفَ بِقَارُونَ وَدَارِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ؟

وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ الْقُرُونَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بِأَنَوَاعِ الْعُقُوبَاتِ، وَدَمَرَهَا تَدْمِيرًا؟

وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ قَوْمَ صَاحِبِ يَسِّ بِالصَّيْحَةِ حَتَّى حَمَدُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟

وَمَا الَّذِي بَعَثَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمًا أُولَى بِأَسِّ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَقَتَلُوا الرِّجَالَ، وَسَبُوا الْذُرِّيَّةَ وَالنِّسَاءَ، وَأَحْرَقُوا الدِّيَارَ، وَنَهَبُوا الْأَمْوَالَ، ثُمَّ بَعَثُهُمْ عَلَيْهِمْ مَرَّةً ثَانِيَّةً فَأَهْلَكُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ وَتَبَرُّوا مَا عَلَوْا تَتَبَرِّيًّا؟

وَمَا الَّذِي سَلَطَ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعَ الْعُقُوبَاتِ، مَرَّةً بِالْقُتْلِ وَالسَّبِيْ وَخَرَابِ الْبَلَادِ، وَمَرَّةً بِجُوْرِ الْمُلُوكِ، وَمَرَّةً بِمَسْخِهِمْ فِرْدَةً وَخَنَازِيرَ، وَآخِرُ ذَلِكَ أَقْسَمَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: لِيَعْنَى عَلَيْهِمْ إِنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُوْمُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: 167].

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عُمَرَ وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جُبَيْرٍ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا فَتَحَتْ قُبُوْصُ فُرْقَةَ بَيْنَ أَهْلِهَا، فَبَكَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَرَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءَ جَالِسًا وَحْدَهُ يَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ مَا يُبْكِيكَ فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، فَقَالَ: وَيَحْكُمُ يَا جُبَيْرُ، مَا أَهْوَنُ الْخَلْقَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَضَاعُوا أَمْرَهُ، بَيْنَمَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمُلْكُ، تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ: أَبَانَا شُعْبَةُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْبَخْتَرِيَّ يَقُولُ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ - ﷺ - يَقُولُ: لَمْ يَهْلِكِ النَّاسُ حَتَّى يَعْذِرُوا مِنْ أَنفُسِهِمْ.

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَا فِيهِمْ يَوْمَيْذٌ أَنَّاسٌ صَالِحُونَ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: كَيْفَ يُصْنَعُ بِأُولَئِكَ؟ قَالَ: يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ.

وَفِي مَرَاسِيلِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - لَا تَرَأْلَ هَذِهِ الْأَمَّةُ تَحْتَ يَدِ اللَّهِ وَفِي كَنْفِهِ مَا لَمْ يُمَالِئْ قُرَأْوَهَا أُمَّرَاءَهَا، وَمَا لَمْ يُزِّكَ صُلَمَاؤُهَا فُجَارَهَا، وَمَا لَمْ يُهِنْ خِيَارَهَا أَشْرَارُهَا، فَإِذَا هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ رَفَعَ اللَّهُ يَدَهُ عَنْهُمْ، ثُمَّ سُلْطَ عَلَيْهِمْ جَبَابِرُهُمْ فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ثُمَّ ضَرَبُهُمُ اللَّهُ بِالْفَاقَةِ وَالْفَقْرِ.

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ ثُوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إِنَّ الرَّجُلَ لِيُحِرِّمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ".

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ: "يُوشِكُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأَمْمُ مِنْ كُلِّ أُقْيٍ، كَمَا تَتَدَاعَى الْأَكْلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنَ قِلَّةٌ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءُ السَّيْلِ، تُنْزَعُ الْمَهَابُهُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيُجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنُ، قَالُوا وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهَةُ الْمَوْتِ".

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ: "لَمَّا عَرَجَ بِي مَرَزْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِسُونَ وُجُوهُهُمْ وَصُدُورُهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ".

وَفِي جَامِعِ التَّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ: "يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يَخْتَلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، وَيَكْبُسُونَ لِلنَّاسِ مُسُوكَ الصَّنَائِنِ مِنَ الظَّلَّ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذَّئَابِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَبِي يَغْنَرُونَ؟ وَعَلَيَّ يَجْتَرُونَ؟ فَبِي حَلْفُتُ، لَأَبْعَثَنَّ أُولَئِكَ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَالِيمَ فِيهَا حَيْرَانَ".

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ عَلَيْهِ: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَقِنُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، مَسَاجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَامِرَةٌ، وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، عُلَمَاؤُهُمْ شُرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، مِنْهُمْ خَرَجَتِ الْفِتْنَةُ وَفِيهِمْ تَعُودُ.

وَذَكَرَ مِنْ حَدِيثِ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: إِذَا ظَهَرَ الزَّنَى وَالرَّبَّا فِي قَرْيَةٍ أَذِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَلَاكِهَا.

وَفِي مَرَاسِيلِ الْحَسَنِ: إِذَا أَظْهَرَ النَّاسُ الْعِلْمَ، وَضَيَّعُوا الْعَمَلَ، وَتَحَابُّوا بِالْأَلْسُنِ، وَتَبَاغَضُوا بِالْقُلُوبِ، وَتَقَاطَعُوا بِالْأَرْحَامِ، لَعَنْهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ ذَلِكَ، فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ.

وَفِي سُنْنِ ابْنِ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: كُنْتُ عَاشِرَ عَشْرَةَ رَهْطٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِوْجُهِهِ فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ خِصَالٌ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: مَا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ حَتَّىٰ أَعْلَنُوا بِهَا إِلَّا ابْتُلُوا بِالظَّوَاعِينِ وَالْأَوْجَاعِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَا نَقَصَ قَوْمُ الْمُكْيَالِ وَالْمِيزَانَ إِلَّا ابْتُلُوا بِالسُّنْنِ وَشَدَّةِ الْمُؤْنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ، وَمَا مَنَعَ قَوْمَ رَكَّاَةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنْعِنُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ فَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطِرُوا، وَلَا خَفَرَ قَوْمُ الْعَهْدِ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخْذُنُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَعْمَلْ أَئْمَتُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمْ بَيْنَهُمْ".

وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنْنِ مِنْ حَدِيثِ عَمِرٍو بْنِ مُرَّةَ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - "إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، كَانَ إِذَا أَعْمَلَ الْعَامِلُ فِيهِمْ بِالْخَطِيئَةِ جَاءَهُ النَّاهِي تَعْذِيرًا، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ جَالَسُهُ وَوَاكِلُهُ وَشَارَبَهُ، كَانَهُ لَمْ يَرَهُ عَلَىٰ خَطِيئَةٍ بِالْأَمْسِ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ، ضَرَبَ بِقُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، ثُمَّ لَعَنْهُمْ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوِدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرِيمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ يَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَىٰ يَدِ السَّفِيهِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنْهُمْ".

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَمْرِو الصَّنْعَانِيِّ قَالَ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ يُوشَعَ بْنَ نُونٍ: إِنِّي مُهْكِلُ مِنْ قَوْمِكَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ خَيَارِهِمْ، وَسِتِّينَ أَلْفًا مِنْ شَرَارِهِمْ، قَالَ: يَا رَبَّ، هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ، فَمَا بِالْأَخْيَارِ؟ قَالَ: لَمْ يَغْضِبُوا لِعَصَبَيِّ، وَكَانُوا يُؤَاكِلُونَهُمْ وَيُشَارِبُونَهُمْ.

وَذَكَرَ أَبُو عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَّلَ مَلَكِينَ إِلَى قَرْيَةِ، أَنْ دَمَّرَاهَا بِمَنْ فِيهَا، فَوَجَدَا رَجُلًا قَائِمًا يُصَلِّي فِي مَسْجِدٍ، فَقَالَا: يَا رَبَّ، إِنَّ فِيهَا عَبْدَكَ فُلَانًا يُصَلِّي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَّلَ: دَمَّرَاهَا وَدَمَّرَاهُمْ مَعَهُمْ، فَإِنَّهُ مَا تَمَعَّرَ وَجْهُهُ فِيَ قَطُّ.

وَذَكَرَ الْحُمَيْدِيُّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: قَالَ: حَدَّثَنِي سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ مَسْعِرٍ: "أَنَّ مَلَكًا أَمِرَ أَنْ يَخْسِفَ بِقَرْيَةٍ، فَقَالَ: يَا رَبَّ، إِنَّ فِيهَا فُلَانًا الْعَابِدُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ بِهِ فَابْدَأْ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ وَجْهُهُ فِيَ سَاعَةَ قَطُّ".

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنْبِهِ قَالَ: لَمَّا أَصَابَ دَاؤُ الدَّخْنِيَّةَ قَالَ: يَا رَبَّ اغْفِرْ لِي: قَالَ قَدْ غَرَّتُ لَكَ، وَالْزَّمْتُ عَارَهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ يَا رَبَّ، كَفَ وَأَنْتَ الْحَكْمُ الْعَدْلُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، أَنَا أَعْمَلُ الدَّخْنِيَّةَ وَتُلْزِمُ عَارَهَا غَيْرِي، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، إِنَّكَ لَمَّا عَمِلْتَ الدَّخْنِيَّةَ لَمْ يَعْجِلُوا عَلَيْكَ بِالْإِنْكَارِ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ أَنَّسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، هُوَ وَرَجُلٌ آخْرُ، فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ حَدَّثَنَا عَنِ الْزَّلْزَلَةِ، فَقَالَتْ: إِذَا اسْتَبَاحُوا الزَّنَنَا، وَشَرِبُوا الْخَمْرَ، وَضَرَبُوا بِالْمَعَازِفِ، غَارَ اللَّهُ عَزَّ وَجَّلَ فِي سَمَائِهِ، فَقَالَ لِلأَرْضِ تَرْزُلِي بِهِمْ، فَإِنَّ تَابُوا وَنَزَعُوا، وَإِلَّا هَدَمَهَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَعْذَابًا لَهُمْ؟ قَالَتْ: بَلَى، مَوْعِظَةٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَنَكَالًا وَعَذَابًا وَسُخْطًا عَلَى الْكُفَّارِينَ، فَقَالَ أَنَّسُ: مَا سَمِعْتُ حَدِيثًا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَا أَشَدُ فَرَحًا بِهِ مِنْيٍ بِهَذَا الْحَدِيثِ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا حَدِيثًا مُرْسَلًا: "إِنَّ الْأَرْضَ تَرَلَزَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ: اسْكُنِي، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْنِ لَكَ بَعْدُ، ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكُمْ لَيَسْتَعْتَبُكُمْ فَأَعْتَبُهُ، ثُمَّ تَرَلَزَتْ بِالنَّاسِ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا كَانَتْ هَذِهِ الزَّلْزَلَةُ إِلَّا عَنْ شَيْءٍ أَحْدَثْتُمُوهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ عَادْتْ لَا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا أَبَدًا".

وَفِي مَنَاقِبِ عُمَرَ لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا "إِنَّ الْأَرْضَ تَرَلَزَتْ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَضَرَبَ يَدَهُ عَلَيْهَا، وَقَالَ: مَا لَكِ؟ مَا لَكِ؟ أَمَا إِنَّهَا لَوْ كَانَتِ الْقِيَامَةُ حَدَّثَتْ أَخْبَارَهَا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَقُولُ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَلَيْسَ فِيهَا ذِرَاعٌ وَلَا شِبْرٌ إِلَّا وَهُوَ يَنْطَقُ".

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَفِيَّةَ، قَالَتْ: زُلْزَلَتِ الْمَدِينَةُ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا هَذَا؟ وَمَا أَسْرَعَ مَا أَحْدَثْتُمْ، لَئِنْ عَادْتْ لَا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا.

وَقَالَ كَعْبٌ: إِنَّمَا زُلْزَلَتِ الْأَرْضُ إِذَا عَمِلَ فِيهَا بِالْمَعَاصِي فَتُرْعِدُ فَرَقًا مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يَطْلَعَ عَلَيْهَا.

وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْأَمْصَارِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ هَذَا الرَّجْفَ شَيْءٌ يُعَاتِبُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ الْعِبَادَ، وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَى الْأَمْصَارِ أَنْ يُخْرِجُوا فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا فِي شَهْرٍ كَذَا وَكَذَا، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيَتَصَدَّقْ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿قَدَّافَ لَهُ مَنْ تَرَكَ﴾ <sup>١٤</sup> وَذَكَرَ أَسْمَرَيْهِ فَصَلَّى [سُورَةُ الْأَعْلَى: 14 - 15].

وَقُولُوا كَمَا قَالَ آدُمُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنَّ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: 47]. [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: 23].

وَقُولُوا كَمَا قَالَ نُوحٌ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: 47].

## اللَّهُمَّ إِنَّا نُسَبِّحُكَ

وَقُولُوا كَمَا قَالَ يُونُسُ : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

[سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ : 87]

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ : "إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَتَبَاعُوا بِالْعِينَةِ، وَتَبَاعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَلَاءً لَا يَرْفَعُهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ" رَوَاهُ أَبُو دَاوُدٍ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : لَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا أَحَدُ أَحَقَ بِدِينَارِهِ وَدِرْهَمِهِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ : "إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَتَبَاعُوا بِالْعِينَةِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَخْذُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ بَلَاءً، فَلَا يَرْفَعُهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ".

وَقَالَ الْحَسَنُ : إِنَّ الْفِتْنَةَ وَاللَّهُ مَا هِيَ إِلَّا عُقُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى النَّاسِ.

وَنَظَرَ بَعْضُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى مَا يَصْنَعُ بِهِمْ بُخْتَنَصُرُ، فَقَالَ : بِمَا كَسَبْتَ أَيْدِينَا سَلَطَتْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَعْرِفُكَ وَلَا يَرْحُمنَا.

وَقَالَ بُخْتَنَصُرُ لِدَانِيَالَ : مَا الَّذِي سَلَطَنِي عَلَى قَوْمِكَ؟ قَالَ : عِظُمُ خَطِيَّتِكَ وَظُلْمُ قَوْمِي أَنْفُسِهِمْ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَحُذَيْفَةَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - "أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ نِقْمَةً أَمَاتَ الْأَطْفَالَ، وَأَعْقَمَ أَرْحَامَ النِّسَاءِ، فَتَنَزَّلُ النِّقْمَةُ، وَلَيْسَ فِيهِمْ مَرْحُومٌ".

وَذَكَرَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: قَرَأْتُ فِي الْحِكْمَةِ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا اللَّهُ مَالِكُ الْمُلُوكِ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدِي، فَمَنْ أَطَاعَنِي جَعَلْتُهُمْ رَحْمَةً، وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ نِقْمَةً، فَلَا تَشْغَلُوا أَنفُسَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ، وَلَكِنْ تُوبُوا إِلَيَّ أَعْطِفُهُمْ عَلَيْكُمْ.

وَفِي مَرَاسِيلِ الْحَسَنِ: إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ خَيْرًا جَعَلَ أَمْرَهُمْ إِلَى حُلْمَائِهِمْ، وَفَيَّاهُمْ عِنْدَ سُمَحَائِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ شَرًا جَعَلَ أَمْرَهُمْ إِلَى سُفَهَائِهِمْ، وَفَيَّاهُمْ عِنْدَ بُخَلَائِهِمْ.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ أَنْتَ فِي السَّمَاءِ وَنَحْنُ فِي الْأَرْضِ، فَمَا عَلَامَهُ غَضِيبَ مِنْ رِضَاكَ؟ قَالَ: إِذَا اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ خِيَارَكُمْ فَهُوَ مِنْ عَلَامَةِ رِضَائِي عَنْكُمْ، وَإِذَا اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَهُوَ مِنْ عَلَامَةِ سُخْطِي عَلَيْكُمْ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنِ الْفُضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ قَالَ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ بَعْضِ الْأَنْيَاءِ: إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي.

وَذَكَرَ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ بِرَفِعَهُ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ أُمَرَاءَ كَذَبَةً، وَوُزَرَاءَ فَجَرَةً، وَأَعْوَانًا حَوَنَةً، وَعَرَفَاءَ ظَلَمَةً، وَقَرَاءَ فَسَقَةً، سِيمَاهُمْ سِيمَاءُ الرُّهْبَانِ، وَقُلُوبُهُمْ أَتَنَّ مِنَ الْجِيفِ، أَهْوَأُهُمْ مُخْتَلَفَةً، فَيَفْتَحُ اللَّهُ لَهُمْ فِتْنَةً غَبْرَاءَ مُظْلِمَةً فِيَّهَا الْكُوْنُ فِيَّهَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيُنْقَضَنَّ الْإِسْلَامُ عُرْوَةً عُرْوَةً، حَتَّى لَا يُقَالَ: اللَّهُ اللَّهُ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لِيُسَلِّطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَشْرَارَكُمْ، فَيَسُوْمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُعَيَّثَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَنْ لَا يَرْحَمُ صَغِيرَكُمْ، وَلَا يُوَقِّرُ كَبِيرَكُمْ".

وَفِي مُعْجَمِ الطَّبَرَانيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: "مَا طَفَّ قَوْمٌ كَيْلًا، وَلَا بَخْسُوا مِيزَانًا، إِلَّا مَنَعَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقَطْرُ، وَمَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الِّزْنَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ، وَمَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الرَّبَا إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجُنُونَ، وَلَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الْقَتْلُ - يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا - إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَلَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ عَمَلُ قَوْمٍ لُوطٍ إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الْخَسْفُ، وَمَا تَرَكَ قَوْمٌ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَايَ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا لَمْ تُرْفَعْ أَعْمَالُهُمْ وَلَمْ يُسْمَعْ دُعَاوَهُمْ" وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْعَثِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِهِ.

وَفِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَقَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ أَنْ قَدْ حَفَزَهُ شَيْءٌ، فَمَا تَكَلَّمَ حَتَّى تَوَضَّأَ، وَخَرَجَ، فَلَاصِقْتُ بِالْحُجْرَةِ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرُ: فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَنْتَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لَكُمْ: مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي فَلَا أُجِيبُكُمْ، وَتَسْتَتِصُرُونِي فَلَا أَنْصُرُكُمْ، وَتَسْأَلُونِي فَلَا أُعْطِيُكُمْ".

وَقَالَ الْعُمَرِيُّ الْزَّاهِدُ: إِنَّ مِنْ غَفْلَتِكَ عَنْ نَفْسِكَ، وَإِعْرَاضِكَ عَنِ اللَّهِ أَنْ تَرَى مَا يُسْخِطُ اللَّهُ فَتَسْتَجَأِرُهُ، وَلَا تَأْمُرُ فِيهِ، وَلَا تَنْهَى عَنْهُ، خَوْفًا مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا.

وَقَالَ: مَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهَيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، مَخَافَةً مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، نُبِعِتْ مِنْهُ الطَّاعَةُ، وَلَوْ أَمَرَ وَلَدَهُ أَوْ بَعْضَ مَوَالِيهِ لَا سْتَخَفَ بِحَقِّهِ.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرِ الصَّدِيقُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَنْلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى عَيْرٍ مَوْضِعِهَا ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ أَمْنَوْا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةَ: 105].

وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: "إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَيْهِ - وَفِي لَفْظٍ: إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ - أَوْ شَكَ أَنْ يَعْمَلُهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ".

وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ سَلَمَةً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ : "إِذَا خَفِيَتِ الْخَطِيئَةُ لَمْ تَصْرِ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَإِذَا ظَهَرَتْ فَلَمْ تُغَيِّرْ، ضَرَّتِ الْعَامَّةَ".

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَابِ: تُوشِكُ الْقُرَى أَنْ تُخْرَبَ وَهِيَ عَامِرَةٌ، قِيلَ وَكَيْفَ تُخْرَبُ وَهِيَ عَامِرَةٌ؟ قَالَ: إِذَا عَلَا فُجَارُهَا أَبْرَارُهَا، وَسَادَ الْقِبِيلَةَ مُنَافِقُوهَا.

وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ حَسَانَ بْنِ عَطِيَّةَ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ: "سَيَظْهَرُ شَرَارُ أُمَّتِي عَلَى خَيَارِهَا، حَتَّى يَسْتَخْفِي الْمُؤْمِنُ فِيهِمْ كَمَا يَسْتَخْفِي الْمُنَافِقُ فِينَا الْيَوْمَ".

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَرْفَعُهُ قَالَ: "يَأْتِي زَمَانٌ يَذُوبُ فِيهِ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، قِيلَ: مِمَّ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مِمَّ يَرَى مِنَ الْمُنْكَرِ لَا يَسْتَطِعُ تَغْيِيرَهُ".

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ: "مَا مِنْ قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، وَهُمْ أَعْزَزُ وَأَكْثُرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ".

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلُقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٌ، مَا شَانُكَ؟ أَلْسَتَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: بَلَى، كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتَيْتُكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتَيْتُكُمْ".

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: كَانَ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَغْشَى مَنْزِلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، فَيَعْظُمُهُ وَيَدْكُرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، فَرَأَى بَعْضُ بَنِيهِ يَوْمًا يَعْمَزُ النِّسَاءَ، فَقَالَ: مَهْلًا يَا بُنَيَّ، مَهْلًا يَا بُنَيَّ فَسَقَطَ مِنْ سَرِيرِهِ، فَانْفَطَعَ نُخَاعُهُ، وَأَسْقَطَتِ امْرَأَتُهُ، وَقُتِلَ بَنُوهُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّهِمْ: أَنْ أَخْبِرُ فُلَانًا الْخَبَرَ: أَنِّي لَا أُخْرِجُ مِنْ صُلْبِكَ صِدِيقًا أَبَدًا، مَا كَانَ غَضَبُكَ لِي إِلَّا أَنْ قُلْتَ مَهْلًا يَا بُنَيَّ.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: إِيَّاكمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعُنَّ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكُنَّهُ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا، كَمَثَلِ الْقَوْمِ تَزَلَّوْا أَرْضَ فَلَاءَ، فَحَضَرَ صَبَيْعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، وَأَجَجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدُقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، وَإِنْ كُنَّا لَنَعْدَهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - مِنَ الْمُؤْبِقَاتِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: "عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَّتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتِ النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا تَرَكَهَا تَأْكُلُ مِنْ خَحَاشِ الْأَرْضِ".

وَفِي الْحِلْلِيَّةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ عَنْ حُدَيْفَةَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ تَرَكْتُ بُنُو إِسْرَائِيلَ دِينَهُمْ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أُمْرُوا بِشَيْءٍ تَرَكُوهُ، وَإِذَا نُهُوا عَنْ شَيْءٍ رَكِبُوهُ، حَتَّى انْسَلَخُوا مِنْ دِينِهِمْ كَمَا يَنْسَلَخُ الرَّجُلُ مِنْ قَمِيصِهِ.

وَمِنْ هَاهُنَا قَالَ بَعْضُ السَّالِفِ: الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْقُبْلَةَ بَرِيدُ الْجِمَاعِ، وَالْغِنَاءُ بَرِيدُ الزِّنَا، وَالنَّظَرُ بَرِيدُ الْعِشْقِ، وَالْمَرْضُ بَرِيدُ الْمَوْتِ.

وَفِي الْحِلْيَةِ أَيْضًا عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: يَا صَاحِبَ الدَّنْبِ لَا تَأْمَنْ سُوءَ عَاقِبَتِهِ، وَلَمَّا يَتَبَعُ الدَّنْبَ أَعْظَمُ مِنَ الدَّنْبِ إِذَا أَعْمَلْتَهُ، فَلَهُ حَيَائِكَ مِمَّنْ عَلَى الْيَمِينِ وَعَلَى الشَّمَالِ - وَأَنْتَ عَلَى الدَّنْبِ - أَعْظَمُ مِنَ الدَّنْبِ، وَضَحِّكُكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ بِكَ أَعْظَمُ مِنَ الدَّنْبِ، وَفَرَحُكَ بِالدَّنْبِ إِذَا ظَفَرْتَ بِهِ أَعْظَمُ مِنَ الدَّنْبِ، وَحُزْنُكَ عَلَى الدَّنْبِ إِذَا فَاتَكَ أَعْظَمُ مِنَ الدَّنْبِ، وَخَوْفُكَ مِنَ الرِّيحِ إِذَا حَرَّكَتْ سِرْبَابِكَ وَأَنْتَ عَلَى الدَّنْبِ وَلَا يَضْطَرِبُ فُؤَادُكَ مِنْ نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ أَعْظَمُ مِنَ الدَّنْبِ، وَيَحْكَ هَلْ تَدْرِي مَا كَانَ دَنْبُ أَيْوَبَ فَبَاتَلَهُ بِالْبَلَاءِ فِي جَسَدِهِ وَذَهَابِ مَالِهِ؟ اسْتَغَاثَ بِهِ مِسْكِينٌ عَلَى ظَالِمٍ يَدْرُؤُهُ عَنْهُ، فَلَمْ يُعْنِهِ، وَلَمْ يَنْهِ الظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ، فَبَاتَلَهُ اللَّهُ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ قَالَ: سَمِعْتُ الْأَوْزَاعِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ بِلَالَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ: لَا تَتَظَرُ إِلَى صِغْرِ الْخَطِيَّةِ وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى مَنْ عَصَيْتَ. وَقَالَ الْفُضِيلُ بْنُ عِيَاضِ: بِقَدْرِ مَا يَصْغِرُ الدَّنْبُ عِنْدَكَ يَعْظُمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَبِقَدْرِ مَا يَعْظُمُ عِنْدَكَ يَصْغِرُ عِنْدَ اللَّهِ.

وَقَيْلَ: أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى، يَا مُوسَى إِنَّ أَوَّلَ مَنْ مَاتَ مِنْ خَلْقِي إِلَيْلِيُّسُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا أَعْدُ مَنْ عَصَانِي مِنَ الْأَمْوَاتِ.

وَفِي الْمُسْنَدِ وَجَامِعِ التَّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ دَنْبًا نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِّلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوْ قَلْبُهُ، فَذَلِكَ الرَّأْنُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا  
بَلْ رَأَنَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سُورَةُ الْمُطَفَّفِينَ: 14].

وَقَالَ التَّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِحٌ.

وَقَالَ حُذَيْفَةُ: إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ حَتَّى يَصِيرَ قَلْبُهُ كَالشَّاءِ  
الرَّيْدَاءِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ صَالِحٍ عَنْ أَبْنِ شَهَابٍ حَدَّثَنِي عَبْدُ  
اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ: "أَمَّا بَعْدُ يَا  
مَعْشَرَ قُرْبَسِ، فَإِنَّكُمْ أَهْلُ لِهَذَا الْأَمْرِ مَا لَمْ تَعْصُوا اللَّهَ، فَإِذَا عَصَيْتُمُوهُ بَعْثَ عَلَيْكُمْ مَنْ  
يُلْحَكُمْ كَمَا يُلْحِي هَذَا الْقَضِيبُ بِقَضِيبٍ فِي يَدِهِ، ثُمَّ لَحَّا قَضِيبَهُ فَإِذَا هُوَ أَيْضُ يَصْلِدُ".

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ وَهْبٍ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَّلَ: قَالَ فِي بَعْضِ مَا يَقُولُ لِبَنِي  
إِسْرَائِيلَ: إِنِّي إِذَا أَطْعَتُ رَضِيْتُ، وَإِذَا رَضِيْتُ بَارَكْتُ، وَلَيْسَ لِرَبِّكَ تِبْيَانَ نِهَايَةٍ، وَإِذَا عَصَيْتُ  
غَضِيْبُتُ، وَإِذَا غَضِيْبْتُ لَعْنُتُ، وَلَعْنَتِي تَبْلُغُ السَّابِعَ مِنَ الْوَلَدِ".

\*\*\*

### [فَصْلُ مِنْ آثَارِ الْمَعَاصِي]

وَلِلْمَعَاصِي مِنَ الْآثَارِ الْقَبِيْحَةِ الْمَذْمُوْمَةِ، الْمُضِرَّةِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ.

فَمِنْهَا: حِرْمَانُ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْدِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ، وَالْمَعْصِيَةُ تُطْفِئُ ذَلِكَ  
النُّورَ.

وَلَمَّا جَلَسَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ وَقَرَأً عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْ وُفُورِ  
فِطْنَتِهِ، وَتَوَقَّدَ ذَكَائِهِ، وَكَمَالِ فَهْمِهِ، فَقَالَ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا  
تُطْفِئُهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

شَكُوتُ إِلَى وَكِيعِ سُوءَ حِفْظِي  
فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي  
وَقَالَ أَعْلَمُ بِأَنَّ الْعِلْمَ فَضْلٌ  
وَفَضْلُ اللَّهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِي

وَمِنْهَا: حِرْمَانُ الرِّزْقِ، وَفِي الْمُسْنَدِ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرِمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ" وَقَدْ  
تَقَدَّمَ، وَكَمَا أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ مَجْلَبَةً لِلرِّزْقِ فَتَرَكُ التَّقْوَى مَجْلَبَةً لِلْفَقْرِ، فَمَا اسْتُجْلِبَ رِزْقُ  
اللَّهِ بِمِثْلِ تَرْكِ الْمَعَاصِي.

وَمِنْهَا: وَحْشَةُ يَجِدُهَا الْعَاصِي فِي قَلْبِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ لَا تُوازِنُهَا وَلَا تُقَارِنُهَا لَذَّةُ  
أَصْلَا، وَلَوْ اجْتَمَعَتْ لَهُ لَذَّاتُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَمْ تَفِ بِتِلْكَ الْوَحْشَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَحْسُسُ بِهِ  
إِلَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ حَيَاةً، وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِلَّا مُمَلِّمٌ، فَلَوْ لَمْ تُتْرُكِ الذُّنُوبُ إِلَّا حَدَّرَ أَمْرٌ وَقُوَّعَ  
تِلْكَ الْوَحْشَةِ، لَكَانَ الْعَاقِلُ حَرِيَّاً بِتَرْكِهَا.

وَشَكَا رَجُلٌ إِلَى بَعْضِ الْعَارِفِينَ وَحْشَةً يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ فَقَالَ لَهُ:  
إِذَا كُنْتَ قَدْ أَوْحَشْتَكَ الذُّنُوبُ فَدَعْهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسْ

وَلَيْسَ عَلَى الْقَلْبِ أَمْرٌ مِنْ وَحْشَةِ الذَّنْبِ عَلَى الذَّنْبِ، فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَمِنْهَا: الْوَحْشَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَلَا سِيمَّا أَهْلُ الْخَيْرِ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ  
يَجِدُ وَحْشَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَكُلُّمَا قَوِيَتْ تِلْكَ الْوَحْشَةُ بَعْدَ مِنْهُمْ وَمِنْ مُجَالَسِهِمْ، وَحُرِمَ  
بَرَكَةَ الْإِنْتِقَاعِ بِهِمْ، وَقَرُبَ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ، يَقْدِرُ مَا بَعْدَ مِنْ حِزْبِ الرَّحْمَنِ، وَتَقْوَى  
هَذِهِ الْوَحْشَةُ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ، فَتَقْعَدْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ وَوَلَدِهِ وَأَقْارِبِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ.  
فَتَرَاهُ مُسْتَوْحِشًا مِنْ نَفْسِهِ.

وَذَكَرَ أَيْضًا عَنْ وَكِيعٍ حَدَّثَنَا زَكَرِيَاً عَنْ عَامِرٍ قَالَ: كَتَبْتُ عَائِشَةَ إِلَى مُعَاوِيَةَ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ عَذَّ حَامِدَهُ مِنَ النَّاسِ ذَامًا.

ذَكَرَ أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ سَالِمٍ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: لَيَحْذِرِ امْرُؤٌ أَنْ تَلْعَنَهُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَنْدِرِي مِمَّ هَذَا؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ يَخْلُو بِمَعَاصِي اللَّهِ فَيُقْنَى اللَّهُ بِعْضُهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ.

وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِأَبِيهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: أَنَّهُ لَمَّا رَكِبَهُ الدَّيْنُ اغْتَمَ لِذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَعْرِفُ هَذَا الْغَمَّ بِذَنِّي أَصَبَّتُهُ مُنْذَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

### قَدْ لَا يُؤْثِرُ الدَّنَبُ فِي الْحَالِ

وَهَا هُنَّ نُكْتَةٌ دَقِيقَةٌ يَعْلَطُ فِيهَا النَّاسُ فِي أَمْرِ الدَّنَبِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ تَأْثِيرَهُ فِي الْحَالِ، وَقَدْ يَتَأَخَّرُ تَأْثِيرُهُ فَيُسَيِّسُ، وَيَظْنُنُ الْعَبْدَ أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا لَمْ يُغَيِّرْ حَائِطٌ فِي وُقُوعِهِ فَلَيَسْ لَهُ بَعْدَ الْوُقُوعِ غُسْسَابٌ

وَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَاذَا أَهْلَكَتْ هَذِهِ النُّكْتَةَ مِنَ الْخَلْقِ؟ وَكَمْ أَزَالَتْ غُبَارَ نِعْمَةِ؟ وَكَمْ جَلَبَتْ مِنْ نِقْمَةِ؟ وَمَا أَكْثَرُ الْمُغْتَرِّينَ بِهَا الْعُلَمَاءَ وَالْفُضَّلَاءَ، فَضْلًا عَنِ الْجَهَالِ، وَلَمْ يَعْلَمِ الْمُغْتَرُ أَنَّ الدَّنَبَ يَنْقَضُ وَلَوْ بَعْدَ حِينِ، كَمَا يَنْقَضُ السُّمُّ، وَكَمَا يَنْقَضُ الْجُرْحَ الْمُنْدَمِلُ عَلَى الْغِشِّ وَالدَّغْلِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: أَعْبُدُوا اللَّهَ كَأَنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، وَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتَى، وَاعْلَمُوا أَنَّ قَلِيلًا يُغْنِي كُمْ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْهِي كُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْبَرَّ لَا يَبْلِي، وَأَنَّ الْإِثْمَ لَا يُنْسَى.

## الذَّنْبُ فِي السُّرُّ

وَنَظَرَ بَعْضُ الْعَبَادِ إِلَى صَبِّيٍّ، فَتَأَمَّلَ مَحَاسِنَهُ، فَأَتَيَ فِي مَنَامِهِ وَقِيلَ لَهُ: لَتَجِدَنَّ غِبَّهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

هَذَا مَعَ أَنَّ لِلذَّنْبِ نَقْدًا مُعَجَّلًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، قَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصِيبُ الذَّنْبَ فِي السُّرِّ فَيُصِبُّ وَعَلَيْهِ مَدَّتُهُ.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذِ الرَّازِيُّ عَجِبْتُ مِنْ ذِي عَقْلٍ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ لَا تُشْمِتُ بِي الْأَعْدَاءَ، ثُمَّ هُوَ يُشْمِتُ بِنَفْسِهِ كُلَّ عَدُوٍّ لَهُ، قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ يَعْصِي اللَّهَ وَيُشْمِتُ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ كُلُّ عَدُوٍّ.

وَقَالَ ذُو الْنُّونِ: مَنْ خَانَ اللَّهَ فِي السُّرِّ هَنَّاكَ اللَّهُ سِرْتُهُ فِي الْعَلَانِيَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنِّي لَا عَصِيَ اللَّهَ فَأَرَى ذَلِكَ فِي خُلُقِ دَائِتِي، وَأَمْرَأِتِي.

وَمِنْهَا: تَعْسِيرُ أُمُورِهِ عَلَيْهِ، فَلَا يَتَوَجَّهُ لِأَمْرٍ إِلَّا يَجِدُهُ مُغْلَقًا دُونَهُ أَوْ مُتَعَسِّرًا عَلَيْهِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ مَنْ تَلَقَّى اللَّهَ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا، فَمَنْ عَطَّلَ التَّقْوَى جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا، وَيَا لَلَّهِ الْعَجَبُ! كَيْفَ يَجِدُ الْعَبْدُ أَبْوَابَ الْخَيْرِ وَالْمَصَالِحِ مَسْدُودَةً عَنْهُ وَطُرُقَهَا مُعَسَّرَةً عَلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أُتَيَ؟

وَمِنْهَا: ظُلْمَةٌ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ حَقِيقَةٌ يَحِسُّ بِهَا كَمَا يَحِسُّ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ إِذَا ادْلَهَمَ، فَتَصِيرُ ظُلْمَةُ الْمَعْصِيَةِ لِقَلْبِهِ كَالظُّلْمَةِ الْحِسَيَّةِ لِبَصَرِهِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ نُورٌ، وَالْمَعْصِيَةَ ظُلْمَةٌ، وَكُلُّمَا قَوَيَتِ الظُّلْمَةُ ازْدَادَتْ حَيْرَتُهُ، حَتَّى يَقَعَ فِي الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ وَالْأُمُورِ الْمُهْلِكَةِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، كَأَعْمَى أَخْرِجَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَمْشِي وَحْدَهُ، وَتَقُوَى هَذِهِ الظُّلْمَةُ حَتَّى تَظَهَرَ فِي الْعَيْنِ، ثُمَّ تَقُوَى حَتَّى تَعْلُوُ الْوَجْهَ، وَتَصِيرُ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ حَتَّى يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ.

## الذَّلَّةُ وَالْوَلَأُ

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَنُورًا فِي الْقَلْبِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنَّ لِلْسَّيِّئَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَبِيرِ وَالْقَلْبِ، وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ.

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَعَاصِي تُوْهِنُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ، أَمَّا وَهْنُهَا لِلْقَلْبِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ، بَلْ لَا تَزَالُ تُوْهِنُهُ حَتَّى تُزِيلَ حَيَاةً بِالْكُلِّيَّةِ.

وَأَمَّا وَهْنُهَا لِلْبَدَنِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ قُوَّتُهُ مِنْ قَلْبِهِ، وَكُلَّمَا قَوَى قَلْبُهُ قَوَى بَدَنُهُ، وَأَمَّا الْفَاجِرُ فَإِنَّهُ - وَإِنْ كَانَ قَوَى الْبَدَنِ - فَهُوَ أَضْعَفُ شَيْءٍ عِنْدَ الْحَاجَةِ، فَتَخُونُهُ قُوَّتُهُ عِنْدَ أَحْوَاجِ مَا يَكُونُ إِلَى نَفْسِهِ فَتَأْمُلُ قُوَّةَ أَبْدَانِ فَارِسَ وَالرُّومِ، كَيْفَ خَانَتْهُمْ، أَحْوَاجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا، وَقَهَرُهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِقُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ؟

وَمِنْهَا: حِرْمَانُ الطَّاعَةِ، فَلَوْلَمْ يَكُنْ لِلذَّنْبِ عُقوَبَةٌ إِلَّا أَنَّ يَصُدَّ عَنْ طَاعَةٍ تَكُونُ بَدَلَهُ، وَيَقْطَعُ طَرِيقَ طَاعَةٍ أُخْرَى، فَيَقْطَعُ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَرِيقُ ثَالِثَةٍ، ثُمَّ رَابِعَةٍ، وَهَلْمَ جَرَّا، فَيَقْطَعُ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَهَذَا كَرْجُلٌ أَكَلَ أَكْلَهُ أَوْجَبَتْ لَهُ مِرْضَةٌ طَوِيلَةٌ مَنَعَتْهُ مِنْ عِدَّةِ أَكَلَاتٍ أَطْيَبَ مِنْهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

## طُولُ الْعُمُرِ وَقِصْرُهُ

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعَاصِي تُقْصِرُ الْعُمُرَ وَتَمْحُقُ بَرَكَتَهُ وَلَا بُدَّ، فَإِنَّ الْبِرَّ كَمَا يَرِيدُ فِي الْعُمُرِ، فَالْفُجُورُ يَقْصِرُ الْعُمُرَ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: نُقصَانُ عُمُرِ الْعَاصِي هُوَ ذَهَابُ بَرَكَةِ عُمُرِهِ وَمَحْقُومًا عَلَيْهِ، وَهَذَا حَقٌّ، وَهُوَ بَعْضُ تَأْثِيرِ الْمَعَاصِي.

الدَّاعُ وَالدَّوَاعُ

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ تُنْقِصُهُ حَقِيقَةً، كَمَا تُنْقِصُ الرِّزْقَ، فَجَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْبَرَكَةِ فِي الرِّزْقِ أَسْبَابًا كَثِيرَةً تُكْثِرُهُ وَتَزِيدُهُ، وَلِلْبَرَكَةِ فِي الْعُمُرِ أَسْبَابًا تُكْثِرُهُ وَتَرِيدُهُ.

قَالُوا وَلَا تُمْنَعُ زِيَادَةُ الْعُمُرِ بِأَسْبَابٍ كَمَا يُنْقَصُ بِأَسْبَابٍ، فَالْأَرْزَاقُ وَالْأَجَالُ، وَالسَّعَادَةُ وَالشَّقاوةُ، وَالصَّحَّةُ وَالْمَرْضُ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرُ، وَإِنْ كَانَتْ بِقَضَاءِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ يَقْضِي مَا يَشَاءُ بِأَسْبَابٍ جَعَلَهَا مُوجِّهَةً لِمُسَبِّبَاتِهَا مُقْتَضِيَّةً لَهَا.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: تَأْثِيرُ الْمَعَاصِي فِي مَحْقِ الْعُمُرِ إِنَّمَا هُوَ بِأَنَّ حَقِيقَةَ الْحَيَاةِ هِيَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْكَافِرُ مِيتًا غَيْرَ حَيٍّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى، ﴿أَمَوْتُ عِبْرَ

أَحَيَأَ﴾ [سُورَةُ التَّحْلُل: 21].

فَالْحَيَاةُ فِي الْحَقِيقَةِ حَيَاةُ الْقُلْبِ، وَعُمُرُ الْإِنْسَانِ مُدَّةُ حَيَاتِهِ فَلَيْسَ عُمُرُهُ إِلَّا أَوْقَاتٌ حَيَاتِهِ بِاللَّهِ، فَتِلْكَ سَاعَاتٌ عُمُرُهُ، فَالْبُرُّ وَالْتَّقْوَى وَالطَّاعَةُ تَرِيدُ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُ عُمُرِهِ، وَلَا عُمَرٌ لَهُ سِوَاهَا.

وَبِالْجُمْلَةِ، فَالْعَبْدُ إِذَا أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ وَأَشْتَغَلَ بِالْمُعَاصِي ضَاعَتْ عَلَيْهِ أَيَّامُ حَيَاتِهِ الْحَقِيقَيَّةُ الَّتِي يَجِدُ غَبَّ إِصْبَاعَهَا يَوْمَ يَقُولُ: ﴿يَأَيُّتَنِي قَدَّمْتُ لِجِبَانِي﴾ [سُورَةُ الْفَجْرِ: 24]. فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ تَطَلُّعٌ إِلَى مَصَالِحِهِ الدُّنْيَوَيَّةِ وَالْأُخْرَوَيَّةِ أَوْ لَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَطَلُّعٌ إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ ضَاعَ عَلَيْهِ عُمُرُهُ كُلُّهُ، وَذَهَبَتْ حَيَاتُهُ بَاطِلًا، وَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَلُّعٌ إِلَى ذَلِكَ طَالَتْ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ بِسَبِبِ الْعَوَائِقِ، وَتَعَسَّرَتْ عَلَيْهِ أَسْبَابُ الْخَيْرِ بِحَسْبِ اشْتِغَالِهِ بِأَصْدَادِهَا، وَذَلِكَ نُفْصَانُ حَقِيقَيِّيْ مِنْ عُمُرِهِ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ عُمُرَ الْإِنْسَانِ مُدَّةً حَيَاتِهِ وَلَا حَيَاةً لَهُ إِلَّا بِإِقْبَالِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَالنَّتَّعْمِ بِحُجَّهِ وَدِكْرِهِ، وَإِيَّاَرِ مَرْضَاتِهِ.

## فصلٌ تَوَالِدُ الْمَعَاصِي

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَعَاصِي تَزَرَّعُ أَمْثَالَهَا، وَتُولَّدُ بَعْضَهَا بَعْضًا، حَتَّى يَعْزَزَ عَلَى الْعَبْدِ مُفَارِقَتُهَا وَالْخُرُوجُ مِنْهَا، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ بَعْدَهَا، وَإِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا، فَالْعَبْدُ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً قَالَتْ أُخْرَى إِلَى جَنْبِهَا: اعْمَلْنِي أَيْضًا، فَإِذَا عَمِلَهَا، قَالَتِ الْثَالِثَةُ كَذَلِكَ وَهُلْمَ جَرَّا، فَتَضَاعَفُ الرِّبْعُ، وَتَزَرَّعَتِ الْحَسَنَاتُ.

وَكَذَلِكَ كَانَتِ السَّيِّئَاتُ أَيْضًا، حَتَّى تَصِيرَ الطَّاعَاتُ وَالْمَعَاصِي هَيْئَاتٍ رَاسِخَةً، وَصِفَاتٍ لَازِمَةً، وَمَلَكَاتٍ ثَابِتَةً، فَلَوْ عَطَلَ الْمُحْسِنُ الطَّاعَةَ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ، وَأَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ كَالْحُوتِ إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ، حَتَّى يُعَاوِدَهَا، فَتَسْكُنَ نَفْسُهُ، وَتَقْرَرَ عَيْنُهُ.

وَلَوْ عَطَلَ الْمُجْرِمُ الْمَعْصِيَةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الطَّاعَةِ؛ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَضَاقَ صَدْرُهُ، وَأَعْيَتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُهُ، حَتَّى يُعَاوِدَهَا، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُسَاقِ لَيُوَاقِعُ الْمَعْصِيَةَ مِنْ غَيْرِ لَذَّةٍ يَحْدُهَا، وَلَا دَاعِيَةً إِلَيْهَا، إِلَّا بِمَا يَجِدُ مِنَ الْأَلْمِ يُمْفَارِقَتُهَا.

كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ شَيْخُ الْقَوْمِ الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ حَيْثُ يَقُولُ:

وَكَأَيْسِ شَرِبَتْ عَلَى لَذَّةٍ      وَأُخْرَى تَدَوَّيْتُ مِنْهَا بِهَا  
وَقَالَ الْآخْرُ:

فَكَانَتْ دَوَائِي وَهِيَ دَائِي بِعَيْنِهِ      كَمَا يَتَدَاوِي شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ

وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يُعَانِي الطَّاعَةَ وَيَأْلُفُهَا وَيُحِبُّهَا وَيُؤْثِرُهَا حَتَّى يُرِسَّلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِرَحْمَتِهِ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ تَؤْزُهُ إِلَيْهَا أَزَّا، وَتُحَرِّضُهُ عَلَيْهَا، وَتُزِّعِجُهُ عَنْ فِرَاسِهِ وَمَجْلِسِهِ إِلَيْهَا.

## الذَّلَّةُ وَالذَّلَّةُ

وَلَا يَزَالُ يَأْلَفُ الْمَعَاصِيَ وَيُحِبُّهَا وَيُؤْثِرُهَا، حَتَّىٰ يُرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ الشَّيَاطِينَ، فَتُؤْزِهُ إِلَيْهَا أَرَّاً.

فَالْأَوَّلُ قَوِيٌّ جَنَّدَ الطَّاعَةَ بِالْمَدَدِ، فَكَانُوا مِنْ أَكْبَرِ أَعْوَانِهِ، وَهَذَا قَوِيٌّ جَنَّدَ الْمَعْصِيَةَ بِالْمَدَدِ فَكَانُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ.

\* \* \*

### [فَصْلُ الْمَعْصِيَةِ تُضْعِفُ إِرَادَةَ الْخَيْرِ]

وَمِنْهَا: - وَهُوَ مِنْ أَخْوَفِهَا عَلَى الْعَبْدِ - أَنَّهَا تُضْعِفُ الْقَلْبَ عَنِ إِرَادَتِهِ، فَتَقُوِّي إِرَادَةَ الْمَعْصِيَةِ، وَتُضْعِفُ إِرَادَةَ التَّوْبَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا، إِلَى أَنْ يَنْسَلِخَ مِنْ قَلْبِهِ إِرَادَةُ التَّوْبَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَوْ مَا تَنْصُفُهُ لَمَا تَابَ إِلَى اللَّهِ، فَيَأْتِي بِالإِسْتِغْفَارِ وَتَوْبَةِ الْكَذَّابِينَ بِاللِّسَانِ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، وَقَلْبُهُ مَعْقُودٌ بِالْمَعْصِيَةِ، مُصْرٌ عَلَيْهَا، عَازِمٌ عَلَى مُوَاقِعَتِهَا مَتَى أَمْكَنَهُ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَمْرَاضِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى الْهَلَالِ

\* \* \*

### [فَصْلُ الْأَلْفِ الْمَعْصِيَةِ]

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يَنْسَلِخُ مِنَ الْقَلْبِ اسْتِقْبَاحُهَا، فَتَصِيرُ لَهُ عَادَةً، فَلَا يَسْتَقْبِحُ مِنْ نَفْسِهِ رُؤْيَاةُ النَّاسِ لَهُ، وَلَا كَلَامُهُمْ فِيهِ.

وَهَذَا عِنْدَ أَرْبَابِ الْفُسُوقِ هُوَ غَايَةُ التَّهَنُّتِ وَتَمَامُ اللَّذَّةِ، حَتَّىٰ يَفْتَخِرَ أَحَدُهُمْ بِالْمَعْصِيَةِ، وَيُحَدِّثُ بِهَا مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ عَمِلَهَا، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ كَذَا وَكَذَا.

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ لَا يُعَافُونَ، وَتُسَدِّدُ عَلَيْهِمْ طَرِيقُ التَّوْبَةِ، وَتُغْلَقُ عَنْهُمْ أَبْوَابُهَا فِي الْغَالِبِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - وَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كُلُّ أُمَّيَّةٍ مُعَافَىٰ إِلَّا الْمُجَاهِرُونَ، وَإِنَّ مِنَ الْإِجْهَارِ

أَنْ يَسْتَرَ اللَّهُ عَلَى الْعَبْدِ ثُمَّ يُصْبِحُ يَفْصُحُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَهَتَكَ نَفْسَهُ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ .

### الْمَعَاصِي مَوَارِيثٌ

وَمِنْهَا أَنَّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ مِنَ الْمَعَاصِي فَهِيَ مِيرَاثٌ عَنْ أُمٌّ مِنَ الْأُمَّمِ الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

فَاللُّولُوَّتِيَّةُ: مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمٍ لُوَطٍ .

وَأَخْذُ الْحَقِّ بِالرَّأْيِ وَدَفْعُهُ بِالنَّاقِصِ، مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمٍ شَعِيبٍ .

وَالْعُلُوُّ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ، مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ .

وَالْتَّكْبُرُ وَالْتَّجَبْرُ مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمٍ هُودٍ .

فَالْعَاصِي لَا يُسْتَأْنِفُ بَعْضَهُ أَعْدَاءُ الْأُمَّمِ، وَهُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ .

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الرُّهْدِ لِأَبِيهِ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ: لَا يَدْخُلُوا مَدَارِخَ أَعْدَائِي، وَلَا يَلْبِسُوا مَلَابِسَ أَعْدَائِي وَلَا يَرْكُبُوا مَرَاكِبَ أَعْدَائِي، وَلَا يَطْعَمُوا مَطَاعِمَ أَعْدَائِي، فَيَكُونُوا أَعْدَائِي كَمَا هُمْ أَعْدَائِي .

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ: أَبْعِثُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ حَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ .

\*\*\*

## [فصلٌ هَوَانُ الْعَاصِيَةِ عَلَى رَبِّهِ]

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعْصِيَةَ سَبَبٌ لِهَوَانِ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ وَسُقُوطِهِ مِنْ عَيْنِهِ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هَانُوا عَلَيْهِ فَعَصَوْهُ، وَلَوْ عَزُّوا عَلَيْهِ لَعَصَمُهُمْ، وَإِذَا هَانَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ لَمْ يُكْرِمْهُ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُهِنَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ، مِنْ مُّكَرَّمٍ﴾ [سُورَةُ الْحَجَّ: 18] وَإِنْ عَظَمُهُمُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِمْ أَوْ خَوْفًا مِنْ شَرِّهِمْ، فَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ أَحْقَرُ شَيْءٍ وَأَهْوَبُهُ.

## هَوَانُ الْمَعْصِيَةِ عَلَى الْمُصْرِّيْنَ

وَمِنْهَا: أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَرَأُلِ يَرْتَكِبُ الذَّنْبَ حَتَّى يَهُونَ عَلَيْهِ وَيَصْغُرُ فِي قَلْبِهِ، وَذَلِكَ عَلَامَةُ الْهَلَالِكَ، فَإِنَّ الذَّنْبَ كُلَّمَا صَغَرَ فِي عَيْنِ الْعَبْدِ عَظُمَ عِنْدَ اللَّهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذَبَابٍ وَقَعَ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا فَطَارَ.

\* \* \*

## [فصلٌ شُؤُمُ الذُّنُوبِ]

وَمِنْهَا: أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابَ يَعُودُ عَلَيْهِ شُؤُمُ ذَنْبِهِ، فَيَحْتَرِقُ هُوَ وَغَيْرُهُ بِشُؤُمِ الذُّنُوبِ وَالظُّلْمِ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنَّ الْحُبَارَى لَتَمُوتُ فِي وَكْرِهَا مِنْ ظُلْمِ الظَّالِمِ.

وَقَالَ مُجَاهِدُ: إِنَّ الْبَهَائِمَ تَلْعَنُ عُصَاهَ بَنِي آدَمَ إِذَا اشْتَدَّتِ السَّنَةُ، وَأَمْسِكَ الْمَطْرُ، وَتَقُولُ: هَذَا بِشُؤُمِ مَعْصِيَةِ ابْنِ آدَمَ.

## الذلة والذلة

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: دَوَابُ الْأَرْضِ وَهَوَامُهَا حَتَّى الْخَنَافِسُ وَالْعَقَارِبُ، يَقُولُونَ: مُنِعْنَا الْقَطْرُ بِذُنُوبِ بَنِي آدَمَ.

فَلَا يَكِنِيهِ عِقَابُ ذَنْبِهِ، حَتَّى يَلْعَنَهُ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ.

\*\*\*

### [فصل المعصية تورث الذلة]

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعْصِيَةَ تُورِثُ الذَّلَّ وَلَا بُدَّ؛ فَإِنَّ الْعِزَّةَ كُلَّ الْعِزَّةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلَلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ: ١٥] أَيْ فَلَيَطْلُبُهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَجِدُهَا إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ بَعْضِ السَّالِفِ: اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي بِطَاعَتِكَ وَلَا تُذَلِّنِي بِمَعْصِيَتِكَ.  
قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقْطَقْتُ بِهِمُ الْبِغَالُ، وَهَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَادِينُ، إِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ لَا يُفَارِقُ قُلُوبَهُمْ، أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذَلَّ مَنْ عَصَاهُ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ  
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةَ الْقُلُوبِ  
وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلْوُكُ  
وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِذْمَانُهَا  
وَحَيْرَ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا  
وَأَخْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

\*\*\*

## [فصل المعاichi تفسيد العقل]

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعَاichi تُفْسِدُ الْعُقْلَ، فَإِنَّ لِلْعُقْلِ نُورًا، وَالْمَعَاichi تُطْفِئُ نُورَ الْعُقْلِ وَلَا بُدَّ، وَإِذَا طُفِئَ نُورُهُ ضَعْفَ وَنَقَصَ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا عَصَى اللَّهَ أَحَدٌ حَتَّى يَغِيبَ عَقْلُهُ، وَهَذَا ظَاهِرٌ، فَإِنَّهُ لَوْ حَضَرَ عَقْلُهُ لَحَجَزَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَهُوَ فِي قَبْضَةِ الرَّبِّ تَعَالَى، أَوْ تَحْتَ قَهْرِهِ، وَهُوَ مُطْلَعٌ عَلَيْهِ، وَفِي دَارِهِ عَلَى بِسَاطِهِ وَمَلَائِكَتُهُ شُهُودٌ عَلَيْهِ نَاظِرُونَ إِلَيْهِ، وَوَاعِظُ الْقُرْآنِ يَنْهَاهُ، وَوَاعِظُ الْمَوْتِ يَنْهَاهُ، وَوَاعِظُ النَّارِ يَنْهَاهُ، وَالَّذِي يَفْوِتُهُ بِالْمَعْصِيَةِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَصْعَافُ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ السُّرُورِ وَاللَّذَّةِ بِهَا، فَهُلْ يُقْدِمُ عَلَى الإِسْتِهَانَةِ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَالإِسْتِخْفَافِ بِهِ ذُو عَقْلٍ سَلِيمٍ؟

\*\*\*

## [فصل الذُّنُوبُ تَطْبِعُ عَلَى الْقُلُوبِ]

وَمِنْهَا: أَنَّ الذُّنُوبَ إِذَا تَكَاثَرَتْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِ صَاحِبِهَا، فَكَانَ مِنَ الْغَافِلِينَ.

كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سُورَةُ الْمُطَفَّفِينَ: 14]، قَالَ: هُوَ الذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: هُوَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ، حَتَّى يُعْمَيَ الْقَلْبُ.

وَقَالَ عَيْرُهُ: لَمَّا كَثُرَتْ ذُنُوبُهُمْ وَمَعَاichiَهُمْ أَحَاطَتْ بِقُلُوبِهِمْ.

وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ الْقَلْبَ يَصْدِأُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، فَإِذَا زَادَتْ غَلَبَ الصَّدَأُ حَتَّى يَصِيرَ رَانًا، ثُمَّ يَغْلِبُ حَتَّى يَصِيرَ طَبَعًا وَقُفْلًا وَخَتْمًا، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ فِي غِشَاوَةٍ وَغِلَافٍ، فَإِذَا حَصَلَ

## الذَّلَّةُ وَالذَّلَّةُ

لَهُ ذَلِكَ بَعْدَ الْهُدَى وَالْبَصِيرَةِ اْنْعَكَسَ فَصَارَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، فَحِينَئِذٍ يَتَوَلَّهُ عَدُوُّهُ وَيُسُوقُهُ حَيْثُ أَرَادَ.

\*\*\*

### [فَصَلُ الدُّنُوبُ تُدْخِلُ الْعَبْدَ تَحْتَ لَعْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

وَمِنْهَا: أَنَّ الدُّنُوبَ تُدْخِلُ الْعَبْدَ تَحْتَ لَعْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَإِنَّهُ لَعَنَ عَلَى مَعَاصِي وَالَّتِي غَيْرُهَا أَكْبَرُ مِنْهَا، فَهِيَ أَوْلَى بِدُخُولِ فَاعِلِهَا تَحْتَ اللَّعْنَةِ.  
فَلَعْنَ الْوَاسِمَةَ وَالْمُسْتَوْسِمَةَ، وَالْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ، وَالنَّامِصَةَ وَالْمُتَنَمِّصَةَ،  
وَالْوَاسِرَةَ وَالْمُسْتَوْسِرَةَ.

وَلَعْنَ آكِلِ الرِّبَا وَمُؤْكِلِهِ وَكَاتِبِهِ وَشَاهِدِهِ.  
وَلَعْنَ الْمُحَلَّ وَالْمُحَلَّ لَهُ.  
وَلَعْنَ السَّارِقَ.

وَلَعْنَ شَارِبِ الْخَمْرِ وَسَاقِيهَا وَعَاصِرِهَا وَمُعْتَصِرِهَا، وَبَائِعِهَا وَمُشْتَرِيهَا، وَآكِلِ ثَمَنِهَا وَحَامِلِهَا وَالْمَحْمُولَةِ إِلَيْهِ.

وَلَعْنَ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ وَهِيَ أَعْلَامُهَا وَحُدُودُهَا.  
وَلَعْنَ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ.

وَلَعْنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا يَرْمِيهِ بِسَهْمٍ.  
وَلَعْنَ الْمُخَثِّشِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالْمُتَرَجَّلَاتِ مِنَ النِّسَاءِ.

---

## اللَّعْنَةُ الْأَكْبَرُ

---

وَلَعَنَ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ.

وَلَعَنَ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا.

وَلَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ.

وَلَعَنَ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قُومٍ لُوطٍ.

وَلَعَنَ مَنْ سَبَّ أَبَاهُ وَأُمَّهُ.

وَلَعَنَ مَنْ كَمِهَ أَعْمَى عَنِ الظَّرِيقِ.

وَلَعَنَ مَنْ أَتَى بَهِيمَةً.

وَلَعَنَ مَنْ وَسَمَ دَابَّةً فِي وَجْهِهَا.

وَلَعَنَ مَنْ ضَارَ مُسْلِمًا أَوْ مَكَرَ بِهِ.

وَلَعَنَ رَوَارَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ.

وَلَعَنَ مَنْ أَفْسَدَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا، أَوْ مَمْلُوْكًا عَلَى سَيِّدِهِ.

وَلَعَنَ مَنْ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا.

وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ بَاتَ مُهَاجِرَةً لِفِرَاشِ زَوْجِهَا لَعَنْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ.

وَلَعَنَ مَنِ انْتَسَبَ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ.

وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ.

وَلَعَنَ مَنْ سَبَّ الصَّحَابَةَ.

مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ

وَقَدْ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ وَقَطَعَ رَحْمَهُ، وَآذَاهُ وَآذَى رَسُولَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

وَلَعَنَ مَنْ كَتَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى .

وَلَعَنَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ بِالْفَاحِشَةِ .

وَلَعَنَ مَنْ جَعَلَ سَبِيلَ الْكَافِرِ أَهْدَى مِنْ سَبِيلِ الْمُسْلِمِ .

وَلَعَنَ رَسُولَ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الرَّجُلَ يَلْبِسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةَ تَلْبِسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ .

وَلَعَنَ الرَّاشِيِّ وَالْمُرْتَشِيِّ وَالرَّائِشَ، وَهُوَ: الْوَاسِطَةُ فِي الرِّشْوَةِ .

وَلَعَنَ عَلَى أَشْيَاءِ أُخْرَى عَيْرِ هَذِهِ .

فَلَوْلَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِ ذَلِكِ إِلَّا رِضَاءُ فَاعِلِهِ بِأَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَلْعَنُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

وَمَلَائِكَتُهُ لَكَانَ فِي ذَلِكَ مَا يَدْعُونَ إِلَى تَرْكِهِ .

\* \* \*

## [فَصَلُّ حِرْمَانُ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

وَمِنْهَا: حِرْمَانُ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَدَعْوَةِ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمْرَ نَبِيَّهُ

أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِهِ

رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ أَمْنَوْا رَبَّنَا وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَأَغْفِرْ لِلَّذِينَ

تَابُوا وَأَتَبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِيمَهُ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّتِ عَدِّنِ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ

مِنْ أَبَابِهِمْ وَأَرْوَاهُمْ وَدَرِّيَتَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِيمُهُ السَّيِّئَاتُ وَمَنْ تَقِ

السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجَحَتْهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: 7 - 9].

فَهَذَا دُعَاءُ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ التَّائِبِينَ الْمُتَعِينَ لِكِتَابِهِ وَسُنْنَةِ رَسُولِهِ الَّذِينَ لَا سَبِيلَ  
لَهُمْ عَيْرُهُمَا، فَلَا يَطْمَعُ غَيْرُهُؤُلَاءِ بِإِجَابَةِ هَذِهِ الدُّعَوَةِ، إِذْ لَمْ يَتَّصِفْ بِصِفَاتِ الْمَدْعُوَّلَهُ  
بِهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

\* \* \*

## [فَصْلُ مَا رَأَهُ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ عَقُوبَاتِ الْعُصَمَاءِ]

وَمِنْ عَقُوبَاتِ الْمَعَاصِي مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ سَمْرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ  
قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمُ الْبَارِحَةِ رُؤْيَا؟  
فَيُقْصُّ عَلَيْهِ مِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ غَدَاءٍ: إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا  
أَنْبَعَنَا لِي، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقْ وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ  
وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهُوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَنْتَلِعُ رَأْسُهُ فَيَتَدَهَّدُ  
الْحَجَرُ هَاهُنَا فَيَقْعُدُ الْحَجَرُ، فَيَأْخُذُهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يُصْبِحَ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ  
عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ قَالَا  
لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلِقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا  
هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ وَيُشَرِّشُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ،  
ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ، فَمَا يَفْرَغُ مِنْ ذَلِكَ  
الْجَانِبِ حَتَّى يُصْبِحَ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْمَرَّةِ  
الْأُولَى، قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَا؟ فَقَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ النَّنُورِ، وَإِذَا فِيهِ لَغْطٌ وَأَصْوَاتٌ، قَالَ: فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاءٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ ذَلِكُ الْلَّهُبُ صُوْصُوا، فَقَالَ: قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: فَقَالَا لَيْ: انْطَلِقْ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ أَحْمَرٍ مِثْلِ الدَّمِ، فَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْبَحَ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ فَيَفْغِرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَيَنْطَلِقُ فَيَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ، فَيَفْغِرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قَالَا لَيْ: انْطَلِقْ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرَأَةِ، أَوْ كَأَكْرِهِ مَا أَنْتَ رَاءِ رَجُلًا مَرَأًى، وَإِذَا هُوَ عِنْدُهُ نَارٌ يُحْتَهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قَالَ: قَالَا لَيْ: انْطَلِقْ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعَنَّمَةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نُورِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهَرَانِي الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ، لَا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طُولًا فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانِ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ، قَالَ: قُلْتُ: مَا هَذَا؟ وَمَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: قَالَا لَيْ: انْطَلِقْ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا إِلَى دَوْحَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرَ دَوْحَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا، وَلَا أَحْسَنَ، قَالَ: قَالَا لَيْ: ارْقُ فِيهَا، فَارْتَقَيْنَا فِيهَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْيَنَةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ، وَلَبِنِ فِضَّةٍ، قَالَ: فَأَتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَفْتَهُنَا، فَفَتَحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا، فَتَلَقَّنَا رِجَالٌ، شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءِ، وَشَطْرٌ مِنْهُمْ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءِ، قَالَ: قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، قَالَ: وَإِذَا نَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ الْمَحْضُ فِي الْبَيْاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا، قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، قَالَ: قَالَا لَيْ: هَذِهِ جَنَّةٌ عَدْنٌ وَهَا ذَاكَ مَنْزِلُكَ.

## الذَّلَّةُ وَالذَّلَّةُ

قَالَ: فَسَمَّا بَصْرِي صُعْدًا، فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ الْبَيْضَاءِ، قَالَ: قَالَ لِي: هَذَا مَنْزِلُكَ، قُلْتُ لَهُمَا: بَارَكَ اللَّهُ فِيْكُمَا، فَذَرَانِي فَأَذْخُلْهُ، قَالَا: أَمَّا الْآنَ فَلَا، وَأَنْتَ دَاخِلُهُ.

قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي رَأَيْتُ مُنْذُ الْلَّيْلَةِ عَجَبًا، فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ قَالَ: قَالَ لِي: أَمَّا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ.

أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلِغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيُرْفُضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرِّشُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو إِلَى بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْأَفَاقَ.

وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاءُ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ بَنَاءِ التَّنَوُّرِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَادُ وَالزَّوَانِي.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبُحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الْحِجَارَةَ، فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيمُ الْمَنْظَرُ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحْتَهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكُ خَازِنُ جَهَنَّمَ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ، فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ.

وَأَمَّا الْوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ - وَفِي رِوَايَةِ الْبَرْقَانِيِّ: وُلِدَ عَلَى الْفِطْرَةِ - فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوْلَادُ الْمُسْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَأَوْلَادُ الْمُسْرِكِينَ.

وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرًا مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرًا مِنْهُمْ قَبِيْحٌ، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَّا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوزَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

\*\*\*

## [فصل الذنوب تحدث الفساد في الأرض]

وَمِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي: أَنَّهَا تُحْدِثُ فِي الْأَرْضِ أَنْوَاعًا مِنَ الْفَسَادِ فِي الْمَيَاهِ وَالْهَوَاءِ، وَالْزَّرْعِ، وَالشَّمَارِ، وَالْمَسَاكِينِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقُهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سُورَةُ الرُّومِ: 41].

قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا وَلَيَ الظَّالِمُ سَعَى بِالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ فَيُحِبِّسُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْقَطْرَ، فَيَهْلِكُ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقُهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سُورَةُ الرُّومِ: 41].

ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بَحْرُكُمْ هَذَا، وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَلَى مَاءِ جَارٍ فَهُوَ بَحْرٌ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ لَكُمْ: بَحْرُكُمْ هَذَا، وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَلَى مَاءِ.

وَقَالَ فَتَادَةُ: أَمَّا الْبَرُّ فَأَهْلُ الْعُمُودِ، وَأَمَّا الْبَحْرُ فَأَهْلُ الْقَرَى وَالرِّيفِ، قُلْتُ: وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمَاءَ الْعَذْبَ بَحْرًا، فَقَالَ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُراتٌ سَاعِيٌّ شَرَابِهِ، وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ: 12].

وَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ بَحْرٌ حُلُوٌّ وَاقِفٌ، وَإِنَّمَا هِيَ الْأَنْهَارُ الْجَارِيَّةُ، وَالْبَحْرُ الْمَالِحُ هُوَ السَّاكِنُ، فَسَمَّى الْقَرَى الَّتِي عَلَيْهَا الْمَيَاهُ الْجَارِيَّةُ بِاسْمِ تِلْكَ الْمَيَاهِ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قَالَ: الذُّنُوبُ.

قُلْتُ: أَرَادَ أَنَّ الذُّنُوبَ سَبَبُ الْفَسَادِ الَّذِي ظَهَرَ، وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ الْفَسَادَ الَّذِي ظَهَرَ هُوَ الذُّنُوبُ نَفْسُهَا فَتَكُونُ الْلَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ لَامِ الْعَاقِبَةِ وَالْتَّعْلِيلِ،

وَعَلَى الْأَوَّلِ فَالْمُرَادُ بِالْفَسَادِ: النَّقْصُ وَالشَّرُّ وَالْأَلَامُ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللَّهُ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ مَعَاصِي الْعِبَادِ، فَكُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُمْ عُقُوبَةً، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كُلَّمَا أَحْدَثْتُمْ ذَنْبًا أَحْدَثَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ سُلْطَانِهِ عُقُوبَةً.

وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْفَسَادَ الْمُرَادَ بِهِ الْذُنُوبُ وَمُوْجَبَاتُهَا، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيُذَاقُهُمْ بَعْضُ الَّذِي عَمِلُوا﴾ فَهَذَا حَالُنَا، وَإِنَّمَا أَذَاقَنَا الشَّيْءَ الْيَسِيرَ مِنْ أَعْمَالِنَا، وَلَوْ أَذَاقَنَا كُلَّ أَعْمَالِنَا لَمَا تَرَكَ عَلَى ظَهِيرَهَا مِنْ ذَبَابَةٍ.

### الْمَعَاصِي سَبَبُ الْخَسْفِ وَالزَّلَّازِلِ

وَمِنْ تَأْثِيرِ مَعَاصِي اللَّهِ فِي الْأَرْضِ مَا يَحْلُّ بِهَا مِنَ الْخَسْفِ وَالزَّلَّازِلِ، وَيَمْحَقُّ بَرَكَتَهَا، وَقَدْ "مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى دِيَارِ ثُمُودَ، فَمَنَعُوهُمْ مِنْ دُخُولِ دِيَارِهِمْ إِلَّا وَهُمْ بِاَكُونَ، وَمِنْ شُرْبِ مِيَاهِهِمْ، وَمِنِ الإِسْتِسْقَاءِ مِنْ آبَارِهِمْ، حَتَّى أَمْرَ أَنْ لَا يُعْلَفَ الْعَجِينُ الَّذِي عُجِنَ بِمِيَاهِهِمْ لِتَوَاضِعِهِ، لِتَأْثِيرِ شُؤُمِ الْمَعْصِيَةِ فِي الْمَاءِ" وَكَذَلِكَ شُؤُمِ تَأْثِيرِ الْذُنُوبِ فِي نَقْصِ الشَّمَارِ وَمَا تَرَى بِهِ مِنَ الْأَفَاتِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ فِي ضِمْنِ حَدِيثٍ قَالَ: وُجِدَتْ فِي خَزَائِنَ بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةَ، حِنْطَةٌ، الْحَجَّةُ بِقَدْرِ نَوَّةِ التَّمَرَةِ، وَهِيَ فِي صُرَّةٍ مَكْتُوبٍ عَلَيْهَا: كَانَ هَذَا يَنْبُتُ فِي زَمَنٍ مِنَ الْعَدْلِ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْأَفَاتِ أَحْدَثَهَا اللَّهُ سُبْحَانُهُ وَتَعَالَى بِمَا أَحْدَثَ الْعِبَادُ مِنَ الْذُنُوبِ.

وَأَخْبَرَنِي جَمَاعَةٌ مِنْ شُيوخِ الصَّحَّارَاءِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْهُدُونَ الشَّمَارَ أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ الْآنَ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْأَفَاتِ الَّتِي تُصِيبُهَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهَا، وَإِنَّمَا حَدَثَتْ مِنْ قُرْبِ

## تأثیر الذُّنُوبِ فِي الصُّورِ

وَأَمَّا تأثیرُ الذُّنُوبِ فِي الصُّورِ وَالخَلْقِ، فَقَدْ رَوَى التَّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ: "خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَلَمْ يَزِلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ". فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنَ الظَّلَمَةِ وَالْخَوَةِ وَالْفَجَرَةِ، يُخْرُجُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَيَمْلأُ الْأَرْضَ قِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا، وَيَقْتُلُ الْمُسِيْحَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَيُقْيِمُ الدِّينَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَتَخْرُجَ الْأَرْضُ بَرَكَاتِهَا، وَتَعُودُ كَمَا كَانَتْ، حَتَّى إِنَّ الْعِصَابَةَ مِنَ النَّاسِ لَيَأْكُلُونَ الرُّمَانَةَ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا، وَيَكُونُونَ الْعُنْقُودُ مِنَ الْعِنْبِ وَقَرْبَعِيرِ، وَلَبَنُ الْلَّقْحَةِ الْوَاحِدَةِ لِتَكْفِيِ الْفِئَامُ مِنَ النَّاسِ، وَهَذِهِ لِأَنَّ الْأَرْضَ لَمَّا طَهَرَتْ مِنَ الْمَعَاصِي ظَهَرَتْ فِيهَا آثَارُ الْبَرَكَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي مَحَقَّتْهَا الذُّنُوبُ وَالْكُفُرُ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ فِي الْأَرْضِ يَقِيْتُ آثَارُهَا سَارِيَةً فِي الْأَرْضِ تَطْلُبُ مَا يُشَاءُكُلُّهَا مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ آثَارُ تِلْكَ الْجَرَائِمِ الَّتِي عُذِّبَتْ بِهَا الْأُمُّ، فَهَذِهِ الْآثَارُ فِي الْأَرْضِ مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْعُقُوبَاتِ، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْمَعَاصِي مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْجَرَائِمِ، فَتَسَابَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَحُكْمُهُ الْكَوْنِيُّ أَوْلًا وَآخِرًا، وَكَانَ الْعَظِيمُ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِلْعَظِيمِ مِنَ الْجِنَانِيَّةِ، وَالْأَخْفُ لِلْأَخْفِ، وَهَكَذَا يَحْكُمُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ خَلْقِهِ فِي دَارِ الْبُرْزَخِ وَدَارِ الْجَزَاءِ.

وَتَأَمَّلُ مُقَارَنَةَ الشَّيْطَانَ وَمَحْلَهُ وَدَارَهُ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَارَنَ الْعَبْدَ وَاسْتَوَى عَلَيْهِ نُزِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنْ عُمْرِهِ، وَعَمَلَهُ، وَقَوْلِهِ، وَرِزْقِهِ، وَلَمَّا أَثَرَتْ طَاعَتُهُ فِي الْأَرْضِ مَا أَثَرَتْ، وَنُزِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنْ كُلِّ مَحِلٍ ظَهَرَتْ فِيهِ طَاعَتُهُ، وَكَذِلِكَ مَسْكُنُهُ لَمَّا كَانَ الْجَحِيمَ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنَ الرُّوحِ وَالرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَةِ.

\*\*\*

## [فصل الذُّنوب تُطْفِئُ الْغَيْرَةَ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ: أَنَّهَا تُطْفِئُ مِنَ الْقَلْبِ نَارَ الْغَيْرَةِ الَّتِي هِيَ لِحَيَاةِ وَصَالَاحِهِ كَالْحَرَارةِ الْغَرِيزِيَّةِ لِحَيَاةِ جَمِيعِ الْبَدْنِ، فَالْغَيْرَةُ حَرَارَةُ وَنَارُهُ الَّتِي تُخْرِجُ مَا فِيهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ، كَمَا يُخْرِجُ الْكِبِيرُ خُبْثَ الْذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ، وَأَشْرَفُ النَّاسِ وَأَعْلَمُهُمْ هِمَّةً أَشْدُهُمْ غَيْرَةً عَلَى نَفْسِهِ وَخَاصِّتِهِ وَعُمُومِ النَّاسِ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَغْيَرَ الْخَلْقِ عَلَى الْأُمَّةِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَشَدُّ غَيْرَةً مِنْهُ، كَمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ: أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرِهِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّيْ.

وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَةِ الْكُسُوفِ: "يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرْزِنِي عَبْدُهُ أَوْ تَرْزِنِي أَمْتُهُ".

وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرَ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ".

فَجَمِعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيْنَ الْغَيْرَةِ الَّتِي أَصْلَاهَا كَرَاهَةُ الْقَبَائِحِ وَبُغْضِهَا، وَبَيْنَ مَحَبَّةِ الْعُذْرِ الَّذِي يُوجِبُ كَمَالَ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالإِحْسَانِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ - مَعَ شِدَّةِ غَيْرِيَّتِهِ - يُحِبُّ أَنْ يَعْتَذِرَ إِلَيْهِ عَبْدُهُ، وَيَقْبَلُ عُذْرَ مَنِ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ عِيَدَهُ بِإِرْتِكَابِ مَا يَعْلَمُ مِنَ ارْتِكَابِهِ حَتَّى يَعْذُرَ إِلَيْهِمْ، وَلَا أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتبَهُ إِعْذَارًا وَإِنْذَارًا، وَهَذَا غَايَةُ الْمَجْدِ وَالإِحْسَانِ، وَنِهَايَةُ الْكَمَالِ.

فَإِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ تَشَدُّدَ غَيْرُهُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ تَحْمِلُهُ شِدَّةُ الْغَيْرَةِ عَلَى سُرْعَةِ الْإِيقَاعِ وَالْعُقُوبَةِ مِنْ غَيْرِ إِعْذَارٍ مِنْهُ، وَمِنْ غَيْرِ قُبُولٍ لِعُذْرٍ مِنْ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ، بَلْ يَكُونُ لَهُ فِي نَفْسِ

الْأَمْرِ عُذْرٌ وَلَا تَدْعُهُ شِدَّةُ الْغَيْرَةِ أَنْ يَقْبَلَ عُذْرَهُ، وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَقْبَلُ الْمَعَادِيرَ يَحْمِلُهُ عَلَى  
قَبْوِلِهَا قِلَّةُ الْغَيْرَةِ حَتَّى يَتَوَسَّعَ فِي طُرُقِ الْمَعَادِيرِ، وَيَرِي عُذْرًا مَا لَيْسَ بِعُذْرٍ، حَتَّى يَعْتَذِرَ  
كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِالْقَدَرِ، وَكُلُّ مِنْهُمَا عَيْرٌ مَمْدُوحٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّهَا اللَّهُ، وَمِنْهَا مَا يَعْصُهَا  
اللَّهُ، فَالَّتِي يَعْصُهَا اللَّهُ الْغَيْرَةُ مِنْ عَيْرِ رِيَةٍ" وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وَإِنَّمَا الْمَمْدُوحُ اقْتِرَانُ الْغَيْرَةِ بِالْعُذْرِ، فَيَغَارُ فِي مَحِلِّ الْغَيْرَةِ، وَيَعْذُرُ فِي مَوْضِعِ  
الْعُذْرِ، وَمَنْ كَانَ هَكَذَا فَهُوَ الْمَمْدُوحُ حَقًّا.

وَلَمَّا جَمَعَ سُبْحَانَهُ صِفَاتِ الْكَمَالِ كُلَّهَا كَانَ أَحَقُّ بِالْمَدْحِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَلَا يَلْغُ  
أَحَدٌ أَنْ يَمْدَحَهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ، بَلْ هُوَ كَمَا مَدَحَ نَفْسَهُ وَأَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، فَالْغَيْرُ قَدْ وَافَقَ  
رَبَّهُ سُبْحَانَهُ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، وَمَنْ وَافَقَ اللَّهَ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ قَادِنُهُ تِلْكَ الصِّفَةُ  
إِلَيْهِ بِزِمَامِهِ، وَأَدْخَلَهُ عَلَى رَبِّهِ، وَأَدْنَتْهُ مِنْهُ، وَقَرَّبَتْهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَصَبَرَتْهُ مَجْبُوبًا، فَإِنَّهُ  
سُبْحَانَهُ رَحِيمٌ يُحِبُّ الرُّحْمَاءَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكُرَمَاءَ، عَلِيمٌ يُحِبُّ الْعُلَمَاءَ، قَوِيٌّ يُحِبُّ  
الْمُؤْمِنَ الْقَوِيَّ، وَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، حَتَّى يُحِبَّ أَهْلَ الْحَيَاةِ، جَمِيلٌ  
يُحِبُّ أَهْلَ الْجَمَالِ، وَنَرٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْوَتْرِ.

وَلَوْلَمْ يَكُنْ فِي الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي إِلَّا أَنَّهَا تُوْجِبُ لِصَاحِبِهَا ضِدَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ  
وَتَمْنَعُهُ مِنِ الْإِتَّصَافِ بِهَا لَكَفَى بِهَا عُقُوبَةً، فَإِنَّ الْخَطْرَةَ تَنْقِلِبُ وَسُوَّةً، وَالْوَسْوَةُ  
تَصِيرُ إِرَادَةً، وَالْإِرَادَةُ تَقْوَى فَتَصِيرُ عَزِيمَةً، ثُمَّ تَصِيرُ فِعْلًا، ثُمَّ تَصِيرُ صِفَةً لَا زِمَةً  
وَهِيَةً ثَانِيَةً رَاسِخَةً، وَحِينَئِذٍ يَتَعَذَّرُ الْخُرُوجُ مِنْهُمَا كَمَا يَتَعَذَّرُ الْخُرُوجُ مِنْ صِفَاتِهِ  
الْقَائِمَةِ بِهِ.

## الذَّاءُ وَالذَّاءُ

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ كُلَّمَا اسْتَدَّ مُلَابِسَتُهُ لِلذِّنُوبِ أَخْرَجَتْ مِنْ قَلْبِهِ الْغَيْرَةَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَعُمُومِ النَّاسِ، وَقَدْ تَضَعُفُ فِي الْقَلْبِ جِدًا حَتَّى لَا يَسْتَقِبَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَبِيحِ لَا مِنْ نَفْسِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ، وَإِذَا وَصَلَ إِلَى هَذَا الْحَدَّ فَقَدْ دَخَلَ فِي بَابِ الْهَلَالِ.

وَكَثِيرٌ مِنْ هُؤُلَاءِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى عَدَمِ الْإِسْتِقْبَاحِ، بَلْ يُحَسِّنُ الْفَوَاحِشَ وَالظُّلُمَ لِغَيْرِهِ، وَيُرِيكُنَّ لَهُ، وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ، وَيَحْثُثُهُ عَلَيْهِ، وَيَسْعَى لَهُ فِي تَحْصِيلِهِ، وَلِهَذَا كَانَ الدَّيْوَثُ أَخْبَثَ خَلْقِ اللَّهِ، وَالْجَنَّةُ حَرَامٌ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ مُحَلِّلُ الظُّلُمِ وَالْبَغْيِ لِغَيْرِهِ وَمُزِينُهُ لَهُ، فَانْظُرْ مَا الَّذِي حَمَلَتْ عَلَيْهِ قِلَّةُ الْغَيْرَةِ.

وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ أَصْلَ الدِّينِ الْغَيْرَةُ، وَمَنْ لَا عَيْرَةَ لَهُ لَا دِينَ لَهُ، فَالْغَيْرَةُ تَحْمِي الْقَلْبَ فَتَحْمِي لَهُ الْجَوَارِحَ، فَتَدْفَعُ السُّوءَ وَالْفَوَاحِشَ، وَعَدَمُ الْغَيْرَةِ ثُمِيتُ الْقَلْبَ، فَمُمُوتُ لَهُ الْجَوَارِحُ؛ فَلَا يَبْقَى عِنْدَهَا دَفْعُ الْبَتَّةِ.

وَمَثُلُ الْغَيْرَةِ فِي الْقَلْبِ مِثْلُ الْقُوَّةِ الَّتِي تَدْفَعُ الْمَرَضَ وَتُقاوِمُهُ، فَإِذَا ذَهَبَتِ الْقُوَّةُ وَجَدَ الدَّاءُ الْمَمِحَّلَ قَابِلًا، وَلَمْ يَجِدْ دَافِعًا، فَتَمَكَّنَ، فَكَانَ الْهَلَالُ، وَمِثْلُهَا مِثْلُ صَيَّاصِيِّ الْجَامُوسِ الَّتِي تَدْفَعُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَوَلِدِهِ، فَإِذَا تَكَسَّرَتْ طَمَعَ فِيهَا عَدُوُهُ.

\* \* \*

## [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُذَهِّبُ الْحَيَاءَ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: ذَهَابُ الْحَيَاءِ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ الْقَلْبِ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَذَهَابُهُ ذَهَابُ الْخَيْرِ أَجْمَعِيهِ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ - رَبِّكُمْ - أَنَّهُ قَالَ: "الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلِّهِ".

وَقَالَ: إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ وَفِيهِ تَفْسِيرٍ

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ عَلَى التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، وَالْمَعْنَى مِنْ لَمْ يَسْتَحِ فَإِنَّهُ يَصْنَعُ مَا شَاءَ مِنْ الْقَبَائِحِ، إِذِ الْحَامِلُ عَلَى تَرْكِهَا الْحَيَاةُ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ حَيَاةٌ يَرْدَعُهُ عَنِ الْقَبَائِحِ، فَإِنَّهُ يُوَاقِعُهَا، وَهَذَا تَفْسِيرٌ أَبِي عُبَيْدَةَ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْفِعْلَ إِذَا لَمْ تَسْتَحِ مِنْهُ مِنَ اللَّهِ فَافْعَلْهُ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَنْبَغِي تَرْكُهُ هُوَ مَا يُسْتَحِي مِنْهُ مِنَ اللَّهِ، وَهَذَا تَفْسِيرُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ هَانِئٍ.

فَعَلَى الْأَوَّلِ: يَكُونُ تَهْدِيدًا، كَتَوْلِهِ: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [سُورَةُ فُصْلَتْ: 40].

وَعَلَى الثَّانِي: يَكُونُ إِذْنًا وَإِبَاحةً.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى حَمْلِهِ عَلَى الْمَعْنَيِّينَ؟

فُلِتْ: لَا، وَلَا عَلَى قَوْلِ مَنْ يَحْمِلُ الْمُشْتَرَكَ عَلَى جَمِيعِ مَعَانِيهِ، لِمَا بَيْنَ الْإِبَاحةِ وَالْتَّهْدِيدِ مِنَ الْمُنَافَاةِ، وَلَكِنَّ اعْتِبَارَ أَحَدِ الْمَعْنَيِّينَ يُوَجِّبُ اعْتِبَارَ الْأَخْرِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الدُّنْوَبَ تُضِعِّفُ الْحَيَاةَ مِنَ الْعَبْدِ، حَتَّى رُبَّمَا اسْلَخَ مِنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ، حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا لَا يَتَأْتُرُ بِعِلْمِ النَّاسِ بِسُوءِ حَالِهِ وَلَا بِاطْلَاعِهِمْ عَلَيْهِ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُخْبِرُ عَنْ حَالِهِ وَقُبْحِ مَا يَفْعَلُ، وَالْحَامِلُ لَهُ عَلَى ذَلِكَ اتِّسَالُهُ مِنَ الْحَيَاةِ، وَإِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ لَمْ يَبْقَ فِي صَلَاحِهِ مَطْمَعٌ

وَإِذَا رَأَى إِبْلِيسَ ظْلَعَةً وَجْهَهُ حَيَا وَقَالَ: فَدَيْتُ مَنْ لَا يُفْلِحُ

وَالْحَيَاةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْحَيَاةِ، وَالْغَيْثُ يُسَمَّى حَيَا - بِالْقَصْرِ - لِأَنَّ بِهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ وَالنَّبَاتِ وَالدَّوَابَّ، وَكَذَلِكَ سُمِّيَتْ بِالْحَيَاةِ حَيَاةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ لَا حَيَاةَ فِيهِ فَهُوَ

مَيِّتٌ فِي الدُّنْيَا شَقِيقٌ فِي الْآخِرَةِ، وَبَيْنَ الدُّنْوَبِ وَبَيْنَ قِلَّةِ الْحَيَاةِ وَعَدَمِ الْغَيْرَةِ تَلَازُمٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يَسْتَدِعِي الْآخَرَ وَيَطْبُبُهُ حَتَّى، وَمَنِ اسْتَحَى مِنَ اللَّهِ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ، اسْتَحَى اللَّهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَحَى مِنْ مَعْصِيَتِهِ لَمْ يَسْتَحَى اللَّهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ.

\* \* \*

## [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُضَعِّفُ فِي الْقُلُوبِ تَعْظِيمُ الرَّبِّ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الدُّنْوَبِ: أَنَّهَا تُضَعِّفُ فِي الْقُلُوبِ تَعْظِيمَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَتُضَعِّفُ وَقَارَهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ وَلَا بُدَّ، شَاءَ أَمْ أَبَى، وَلَوْ تَمَكَّنَ وَقَارُ اللَّهِ وَعَظَمَتُهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ لَمَا تَجَرَّأَ عَلَى مَعَاصِيهِ، وَرُبَّمَا اغْتَرَّ الْمُغْتَرِ، وَقَالَ: إِنَّمَا يَحْمِلُنِي عَلَى الْمَعَاصِي حُسْنُ الرَّجَاءِ، وَطَمَعِي فِي عَفْوِهِ، لَا ضَعْفُ عَظَمَتِهِ فِي قَلْبِي، وَهَذَا مِنْ مُغَالَطَةِ النَّفْسِ؛ فَإِنَّ عَظَمَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَجَلَالَهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ تَقْتَضِي تَعْظِيمَ حُرُمَاتِهِ، وَتَعْظِيمُ حُرُمَاتِهِ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُّنْوَبِ، وَالْمُتَجَرِّئُونَ عَلَى مَعَاصِيهِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَكَيْفَ يَقْدِرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ، أَوْ يَعْظُمُهُ وَيُكَبِّرُهُ، وَيَرْجُو وَقَارَهُ وَيُجْلِهُ، مَنْ يَهُونُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ؟ هَذَا مِنْ أَمْحَالِ الْمُحَالِ، وَأَيْنِ الْبَاطِلِ، وَكَيْفَ بِالْمَعَاصِي عُقُوبَةٌ أَنْ يَضْمَحِلَّ مِنْ قَلْبِهِ تَعْظِيمُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَتَعْظِيمُ حُرُمَاتِهِ، وَيَهُونُ عَلَيْهِ حَقُّهُ.

وَمِنْ بَعْضِ عُقُوبَهَا: أَنْ يَرْفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَهَابَتَهُ مِنْ قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَيَهُونُ عَلَيْهِمْ، وَيَسْتَخِفُونَ بِهِ، كَمَا هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَاسْتَخَفَ بِهِ، فَعَلَى قَدْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ يُحِبُّهُ النَّاسُ، وَعَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنَ اللَّهِ يَخَافُهُ الْخَلْقُ، وَعَلَى قَدْرِ تَعْظِيمِهِ لِلَّهِ وَحُرُمَاتِهِ يُعَظِّمُهُ النَّاسُ، وَكَيْفَ يَتَهَكُّ عَبْدُ حُرُمَاتِ اللَّهِ، وَيَطْمَعُ أَنْ لَا يَتَهَكَ النَّاسُ حُرُمَاتِهِ أَمْ كَيْفَ يَهُونُ عَلَيْهِ حَقُّ اللَّهِ وَلَا يَهُونُهُ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ؟ أَمْ كَيْفَ يَسْتَخِفُ بِمَعَاصِي اللَّهِ وَلَا يَسْتَخِفُ بِهِ الْخَلْقُ؟

وَقَدْ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى هَذَا فِي كِتَابِهِ عِنْدَ ذِكْرِ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ، وَأَنَّهُ أَرْكَسَ أَرْبَابَهَا بِمَا كَسَبُوا، وَغَطَّى عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَطَبَعَ عَلَيْهَا بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنَّهُ سَيِّهُمْ كَمَا نَسُوهُ، وَأَهَانُهُمْ كَمَا أَهَانُوا دِينَهُ، وَضَيَّعُهُمْ كَمَا ضَيَّعُوا أَمْرَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ سُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ: ﴿وَمَنْ يُهِنَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ، مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [سُورَةُ الْحَجَّ: 18] فَإِنَّهُمْ لَمَّا هَانَ عَلَيْهِمُ السُّجُودُ لَهُ وَاسْتَخْفُوا بِهِ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ أَهَانُهُمُ اللَّهُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ مُكْرِمٍ بَعْدَ أَنْ أَهَانُهُمُ اللَّهُ، وَمَنْ ذَا يُكْرِمُ مِنْ أَهَانَهُ اللَّهُ؟ أَوْ يُهِنُ مَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ؟

\* \* \*

## [فصل المعااصي تنسى الله]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَسْتَدِعِي نِسْيَانَ اللَّهِ لِعِبْدِهِ، وَتَرْكُهُ وَتَخْلِيَتُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ وَشَيْطَانِهِ، وَهُنَالِكَ الْهَلَالُ الَّذِي لَا يُرْجِي مَعْهُ نَجَادَةً، قَالَ اللَّهُ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ إِمَانُوا أَتَقُوْا اللَّهَ وَلَتُنْظُرُنَّ نَفْسًا مَا فَدَمْتُ لَعَذِّلًا وَأَنْقُوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [١٨] وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَسُهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَسِقُونَ ﴿١٩﴾ [سُورَةُ الْحَسْرَةِ: 18 - 19].

فَأَمَرَ بِتَقْوَاهُ وَنَهَا أَنْ يَتَشَبَّهَ عِبَادُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِمَنْ نِسِيَهُ بِتَرْكِ تَقْوَاهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ عَاقِبَ مَنْ تَرَكَ التَّقْوَى بِأَنَّ أَسَاهُ نَفْسَهُ، أَيْ أَسَاهُ مَصَالِحَهَا، وَمَا يُنْجِيَهَا مِنْ عَذَابِهِ، وَمَا يُوْجِبُ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبْدِيَّةُ، وَكَمَالُ لَذَّتِهَا وَسُرُورِهَا وَنَعِيْمَهَا، فَأَنْسَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ كُلُّهُ جَزَاءً لِمَا نِسِيَهُ مِنْ عَظَمَتِهِ وَخُوْفِهِ، وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ، فَتَرَى الْعَاصِي مُهْمَلًا لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ مُضَيِّعًا لَهَا، قَدْ أَغْفَلَ اللَّهُ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا، قَدْ انْفَرَطَتْ عَلَيْهِ مَصَالِحُ دُنْيَا وَآخِرَتِهِ، وَقَدْ فَرَّطَ فِي سَعَادَتِهِ الْأَبْدِيَّةِ، وَاسْتَبَدَلَ بِهَا أَدْنَى مَا يَكُونُ مِنْ لَذَّةٍ، إِنَّمَا هِيَ سَحَابَةُ صَيْفٍ، أَوْ خَيَالُ طَيْفٍ كَمَا قِيلَ:

أَحَلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِيلٌ رَائِلٌ إِنَّ اللَّبِيبَ بِمُثْلِهَا لَا يُخْدِعُ

وَأَعْظَمُ الْعُقُوبَاتِ نِسْيَانُ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ، وَإِهْمَالُهُ لَهَا، وَإِضَاعَتُهُ حَظَّهَا وَنَصِيبَهَا مِنَ اللَّهِ، وَبَيْعُهَا ذَلِكَ بِالْغَبْنِ وَالْهُوَانِ وَأَبْخَسَ الشَّمْنَ، فَضَيَّعَ مَنْ لَا غَنَى لَهُ عَنْهُ، وَلَا عِوْضٌ لَهُ مِنْهُ، وَاسْتَبَدَلَ بِهِ مَنْ عَنْهُ كُلُّ الْغَنَى أَوْ مِنْهُ كُلُّ الْعِوْضِ:

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعَتْهُ عِوْضٌ وَمَا مِنَ اللَّهِ إِنْ ضَيَّعَتْ مِنْ عِوْضٌ

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُعَوِّضُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا سِوَاهُ وَلَا يُعَوِّضُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَيُغْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُغْنِي عَنْهُ شَيْءٌ، وَيُجِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُجِيرُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَيَمْنَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يَمْنَعُ مِنْهُ شَيْءٌ، كَيْفَ يَسْتَغْنِي الْعَبْدُ عَنْ طَاعَةِ مَنْ هَذَا شَانُهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ؟ وَكَيْفَ يَنْسَى ذِكْرَهُ وَيُضَيِّعَ أَمْرَهُ حَتَّى يُنْسِيهِ نَفْسَهُ، فَيَخْسِرُهَا وَيَظْلِمُهَا أَعْظَمَ الظُّلْمِ؟ فَمَا ظَلَمَ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَلَكِنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَمَا ظَلَمَهُ رَبُّهُ وَلَكِنْ هُوَ الَّذِي ظَلَمَ نَفْسَهُ.

\* \* \*

## [فصل المعاichi تخرج العبد من دائرة الإحسان]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنْ دَائِرَةِ الإِحْسَانِ وَتَمْنَعُهُ مِنْ ثَوَابِ الْمُحْسِنِينَ، فَإِنَّ الإِحْسَانَ إِذَا بَاشَرَ الْقَلْبَ مَنَعَهُ عَنِ الْمَعَاichi، فَإِنَّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ كَائِنَهُ يَرَاهُ، لَمْ يَكُنْ كَذِلِكَ إِلَّا لِإِسْتِيَالِاءِ ذِكْرِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ عَلَى قَلْبِهِ، بِحَيْثُ يَصِيرُ كَائِنَهُ يُشَاهِدُهُ، وَذَلِكَ سَيِّحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِرَادَةِ الْمَعْصِيَةِ، فَضْلًا عَنْ مُوَافَقَتِهَا، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ دَائِرَةِ الإِحْسَانِ، فَأَتَهُ صُحْبَةُ رُفْقَتِهِ الْخَاصَّةُ، وَعِيشُهُمُ الْهَنَّيُّ، وَنَعِيمُهُمُ التَّامُ، فَإِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ حَيْرًا أَفَرَهُ فِي دَائِرَةِ عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ عَصَاهُ بِالْمَعَاichi الَّتِي تُخْرِجُهُ مِنْ دَائِرَةِ الإِيمَانِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ: "لَا يَرْزُنِي الرَّازِي حِينَ يَرْزُنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرُبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرُبُهَا وَهُوَ

## الدَّلَالُ وَالدَّلَالُ

مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَتَهَبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ إِلَيْهِ فِيهَا النَّاسُ أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَإِيَّاكمْ إِيَّاكمْ، وَالْتَّوْبَةُ مَعْرُوفَةٌ بَعْدُ.

\* \* \*

### [فَصْلُ الْعَاصِي يَضْوِتُهُ ثَوَابُ الْمُؤْمِنِينَ]

وَمَنْ فَاتَهُ رُفْقَةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَحُسْنُ دِفاعِ اللَّهِ عَنْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، وَفَاتَهُ كُلُّ خَيْرٍ رَّتَبَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَهُوَ تَحْوِي مَائَةَ خَصْلَةٍ، كُلُّ خَصْلَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

فِيهَا: الْأَجْرُ الْعَظِيمُ: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: 146].

وَمِنْهَا: الدَّفْعُ عَنْهُمْ شُرُورَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سُورَةُ الْحَجَّ: 38].

وَمِنْهَا: اسْتِغْفَارُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ لَهُمْ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يَسِّحُونَ بِمَحْمَدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سُورَةُ غَافِرِ: 7].

وَمِنْهَا: مُوَالَةُ اللَّهِ لَهُمْ، وَلَا يَذِلُّ مَنْ وَالآهُ اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 257].

وَمِنْهَا: أَمْرُهُ مَلَائِكَتَهُ بِتَشْيِيْهِمْ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: 12].

وَمِنْهَا: أَنَّ لَهُمُ الدَّرَجَاتِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَالْمَغْفِرَةَ وَالرِّزْقَ الْكَرِيمَ.

وَمِنْهَا: الْعِزَّةُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا كِنَّ الْمُتَفَقِّيْنَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سُورَةُ الْمُتَّافِقُونَ: 8].

## الذَّلَّةُ وَالْأَوْلَادُ

وَمِنْهَا: مَعِيَّةُ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: 19].

وَمِنْهَا: الرَّفْعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

[سُورَةُ الْمُجَادِلَةِ: 11].

وَمِنْهَا: إِعْطَاوُهُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَإِعْطَاوُهُمْ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ وَمَغْفِرَةً ذُنُوبِهِمْ.

وَمِنْهَا: الْوُدُّ الَّذِي يَجْعَلُهُ سُبْحَانَهُ لَهُمْ، وَهُوَ أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُمْ إِلَى مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَاءِهِ

وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.

وَمِنْهَا: أَمَانُهُمْ مِنَ الْخَوْفِ يَوْمَ يَشَتَّدُ الْخَوْفُ: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَخْرُجُونَ﴾ [سُورَةُ الْأَعْمَامِ: 48].

وَمِنْهَا: أَنَّهُمُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أَمْرَنَا أَنْ نَسْأَلَهُ أَنْ يَهْدِنَا إِلَى صِرَاطِهِمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ  
وَلَيْلَةٍ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا هُوَ هُدًى لَهُمْ وَشَفَاءٌ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدَىٰ وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ  
لَا يُؤْمِنُونَ فِي أَذْانِهِمْ وَقُرْءَوْهُ عَلَيْهِمْ عَمَّا أُولَئِكَ يُنَادِونَ بِمِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سُورَةُ فُصْلُتْ: 44].  
وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْإِيمَانَ سَبَبٌ جَالِبٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَكُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَبِيلُهُ  
الْإِيمَانُ، وَكُلُّ شَرٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَبِيلُهُ عَدَمُ الْإِيمَانِ، فَكَيْفَ يَهُونُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ  
يُرَتِّكَ شَيْئًا يُخْرِجُهُ مِنْ دَائِرَةِ الْإِيمَانِ، وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَلَكِنْ لَا يَخْرُجُ مِنْ دَائِرَةِ  
عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ أَسْتَمَرَ عَلَى الذُّنُوبِ وَأَصْرَرَ عَلَيْهَا خِيفَ عَلَيْهِ أَنْ يَرِيَنَ عَلَى قَلْبِهِ،  
فَيُخْرِجُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَمِنْ هَاهُنَا اسْتَدَّ خَوْفُ السَّلَفِ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: أَنْتُمْ  
تَخَافُونَ الذُّنُوبَ، وَأَنَا أَخَافُ الْكُفَّارَ.

\* \* \*

## [فصل المعاishi تضعف القلب]

وَمِنْ عُقوبَتِهَا: أَنَّهَا تُضَعِّفُ سَيِّرَ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، أَوْ تَعْوِقُهُ أَوْ تُوقِّفُهُ وَتَقْطِعُهُ عَنِ السَّيِّرِ، فَلَا تَدْعُهُ يَخْطُو إِلَى اللَّهِ خُطْوَةً، هَذَا إِنْ لَمْ تُرْدَهُ عَنْ وُجْهِهِ إِلَى وَرَائِهِ، فَالذَّنْبُ يَحْجِبُ الْوَاصِلَ، وَيَقْطَعُ السَّائِرَ، وَيُنْكِسُ الطَّالِبَ، وَالْقَلْبُ إِنَّمَا يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ بِقُوَّتِهِ، فَإِذَا مَرِضَ بِالذُّنُوبِ ضَعَفَتْ تِلْكَ الْقُوَّةُ الَّتِي تُسِيرُهُ، فَإِنْ زَالَتْ بِالْكُلِّيَّةِ انْقَطَعَ عَنِ اللَّهِ انْقِطَاعًا يَبْعُدُ تَدَارُكُهُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَالذَّنْبُ إِنَّمَا يُمِيتُ الْقَلْبَ، أَوْ يُمْرِضُهُ مَرَضًا مُحَوْفًا، أَوْ يُضَعِّفُ قُوَّتَهُ وَلَا بُدَّ حَتَّى يَتَهَيَّيَ ضَعْفُهُ إِلَى الْأَشْيَاءِ الشَّمَانِيَّةِ الَّتِي اسْتَعَاذَ مِنْهَا النَّبِيُّ - ﷺ - وَهِيَ: "[الْهَمُّ، وَالْحَرَنُ، وَالْعَجْزُ، وَالْكَسْلُ، وَالْجُنُونُ، وَالْبُخْلُ، وَضَلَّعُ الدِّينِ، وَغَلَبةُ الرِّجَالِ]" وَكُلُّ اثْنَيْنِ مِنْهَا قَرِينَانِ.

فَالْهَمُّ وَالْحَرَنُ قَرِينَانِ: فَإِنَّ الْمَكْرُوهَ الْوَارِدَ عَلَى الْقَلْبِ إِنْ كَانَ مِنْ أَمْرٍ مُسْتَقْبَلٍ يَتَوَقَّعُهُ أَحَدَثُ الْهَمَّ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَمْرٍ مَاضٍ قَدْ وَقَعَ أَحَدَثُ الْحَرَنَ.

وَالْعَجْزُ وَالْكَسْلُ قَرِينَانِ: فَإِنْ تَخَلَّفَ الْعَبْدُ عَنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ، إِنْ كَانَ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ فَهُوَ الْعَجْزُ، وَإِنْ كَانَ لِعَدَمِ إِرَادَتِهِ فَهُوَ الْكَسْلُ.

وَالْجُنُونُ وَالْبُخْلُ قَرِينَانِ: فَإِنَّ عَدَمَ النَّفْعِ مِنْهُ إِنْ كَانَ بِبَدَنِهِ فَهُوَ الْجُنُونُ، وَإِنْ كَانَ بِمَالِهِ فَهُوَ الْبُخْلُ.

وَضَلَّعُ الدِّينِ وَقَهْرُ الرِّجَالِ قَرِينَانِ: فَإِنَّ اسْتِغْلَاءَ الْغَيْرِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ بِحَقٍّ فَهُوَ مِنْ ضَلَّاعِ الدِّينِ، وَإِنْ كَانَ بِبَاطِلٍ فَهُوَ مِنْ قَهْرِ الرِّجَالِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِهَذِهِ الشَّمَانِيَّةِ، كَمَا أَنَّهَا مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِجَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَائِتَةِ الْأَعْدَاءِ.

وَمِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِزَوَالِ نِعَمِ اللَّهِ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِهِ إِلَى نِقْمَتِهِ وَتَجْلِبُ جَمِيعَ سُخْطَهِ.

\* \* \*

### [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمَ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ: أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ، وَتُتَحَلِّ النَّقَمَ، فَمَا زَالَتْ عَنِ الْعَبْدِ نِعْمَةٌ إِلَّا بَذَنْبٍ، وَلَا حَلَّتْ بِهِ نِقْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، كَمَا قَالَ عَلَيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - اللَّهُ أَعُوذُ بِهِ - مَا نَزَلْتُ بِلَا إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا رُفِعَ إِلَّا بِتَوْبَةٍ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَبَّكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوُا عَنِ كَثِيرٍ﴾

[سُورَةُ الشُّورَى: 30].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهَ لَمْ يُكُنْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سُورَةُ

الْأَنْفَالِ: 53].

فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ نِعْمَةَ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى أَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُغَيِّرُ مَا بِأَنفُسِهِ، فَيُغَيِّرُ طَاعَةَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ، وَشُكْرَهُ بِكُفْرِهِ، وَأَسْبَابَ رِضَاهُ بِأَسْبَابِ سُخْطَهِ، فَإِذَا غَيَّرَ غَيْرَ عَلَيْهِ، جَزَاءً وَفَاقًا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبْدِ.

فَإِنْ غَيَّرَ الْمَعْصِيَةَ بِالطَّاعَةِ، غَيَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ بِالْعَافِيَةِ، وَالذُّلُّ بِالْعَزِّ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ بِهِ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالِ﴾ [سُورَةُ الرَّأْدِ: 11].

وَفِي بَعْضِ الْأَثَارِ الْإِلَاهِيَّةِ، عَنِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: "وَعَزَّتِي وَجَلَّتِي، لَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدٍ يَعْلَى مَا أُحِبُّ، ثُمَّ يَتَقَلَّ عَنْهُ إِلَى مَا أَكْرَهُ، إِلَّا انتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يُحِبُّ

إِلَى مَا يَكْرَهُ، وَلَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي عَلَى مَا أَكْرَهُ، فَيَتَقْرُبُ إِلَيْهِ إِلَى مَا أُحِبُّ، إِلَّا انتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يَكْرَهُ إِلَى مَا يُحِبُّ.

وَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

فَإِنَّ الذُّنُوبَ تُزِيلُ النِّعَمَ  
دِ فَرَبُ الْعِبَادِ سَرِيعُ النِّقَمِ  
ثَ فَظْلُمُ الْعِبَادِ شَدِيدُ الْوَحْمِ  
لِتَبْصُرَ آثَارَ مَنْ قَدْ ظَلَمَ  
شُهُودُ عَلَيْهِمْ وَلَا تَتَهْمِ  
رَ مِنَ الظُّلْمِ وَهُوَ الَّذِي قَدْ قَصَمَ  
قُصُورٍ وَأَخْرَى عَلَيْهِمْ أُطْمِ  
مُ وَكَانَ الَّذِي نَالَهُمْ كَاخْلُمِ

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا  
وَحْظَهَا بِطَاعَةِ رَبِّ الْعِبَادِ  
وَإِيَّاكَ وَالظُّلْمَ مَمَّا اسْتَطَعْ  
وَسَافِرْ بِقَلْبِكَ بَيْنَ الْوَرَى  
فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ بَعْدَهُمْ  
وَمَا كَانَ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ أَضَ  
فَكِمْ تَرْكُوا مِنْ جِنَانٍ وَمِنْ  
صَلَوَا بِالْجَحِيمِ وَفَاتَ النَّعِي

\*\*\*

## [فَصْلُ الْمَعَاصِي تَلْقِي الرُّعْبَ وَالْخُوفَ فِي الْقُلُوبِ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا مَا يُلْقِيَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الرُّعْبِ وَالْخُوفِ فِي قَلْبِ الْعَاصِي،  
فَلَا تَرَاهُ إِلَّا خَائِفًا مَرْعُوبًا.

فَإِنَّ الطَّاعَةَ حِصْنُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ، مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْأَمْنِينَ مِنْ عُقُوبَاتِ الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ خَرَجَ عَنْهُ أَحَاطَتْ بِهِ الْمَخَاوِفُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ انْقَلَبَتِ  
الْمَخَاوِفُ فِي حَقِّهِ أَمَانًا، وَمَنْ عَصَاهُ انْقَلَبَتْ مَا مِنْهُ مَخَاوِفَ، فَلَا تَجِدُ الْعَاصِي إِلَّا وَقَلْبُهُ  
كَانَ بَيْنَ جَنَاحَيْ طَائِرٍ، إِنْ حَرَّكَتِ الرِّيحُ الْبَابَ قَالَ: جَاءَ الْطَّلَبُ، وَإِنْ سَمِعَ وَقَعَ قَدَمِ

## الذَّلَّةُ وَالْوَحْشَةُ

خَافَ أَنْ يَكُونَ نَذِيرًا بِالْعَطَبِ، يَحْسَبُ أَنَّ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِ، وَكُلَّ مَكْرُوهٍ قَاصِدٌ إِلَيْهِ، فَمَنْ خَافَ اللَّهَ آمَنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَخْفِ اللَّهَ أَخَافَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ:

**بِذَا قَضَى اللَّهُ بَيْنَ الْخَلْقِ مُذْخِلُهُ**

### الْمَعَاصِي تُوقِعُ فِي الْوَحْشَةِ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا أَنَّهَا تُوقِعُ الْوَحْشَةَ الْعَظِيمَةَ فِي الْقَلْبِ فَيَجِدُ الْمُذَنِبُ نَفْسَهُ مُسْتَوْحِشًا، قَدْ وَقَعَتِ الْوَحْشَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَبَيْنَ الْخَلْقِ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، وَكُلَّمَا كَثُرَتِ الْذُنُوبُ اشْتَدَّتِ الْوَحْشَةُ، وَأَمْرُ الْعَيْشِ عَيْشُ الْمُسْتَوْحِشِينَ الْخَائِفِينَ، وَأَطْيَبُ الْعَيْشِ عَيْشُ الْمُسْتَأْنِسِينَ، فَأَلَوْ نَظَرُ الْعَاقِلُ وَوَارَنَ لَذَّةَ الْمَعْصِيَةِ وَمَا تُوقِعُهُ مِنَ الْخُوفِ وَالْوَحْشَةِ، لَعِلَمَ سُوءَ حَالِهِ، وَعَظِيمَ غَيْبِهِ، إِذْ بَاعَ أُنْسَ الطَّاعَةِ وَأَمْنَهَا وَحَلَّوْتَهَا بِوَحْشَةِ الْمَعْصِيَةِ وَمَا تُوْجِبُهُ مِنَ الْخُوفِ وَالضَّرِرِ الدَّاعِيِ لَهُ.

كَمَا قِيلَ:

**فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَوْحَشْتَكَ الْذُنُوبُ فَدَعْهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسْ**

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الطَّاعَةَ تُوْجِبُ الْقُرْبَ مِنَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، فَكُلَّمَا اشْتَدَّ الْقُرْبُ قِوَيَ الْأَنْسُ، وَالْمَعْصِيَةُ تُوْجِبُ الْبُعْدَ مِنَ الرَّبِّ، وَكُلَّمَا زَادَ الْبُعْدُ فَوَيْتَ الْوَحْشَةُ.

وَلِهَذَا يَجِدُ الْعَبْدُ وَحْشَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ لِلْبُعْدِ الَّذِي بَيْنَهُمَا، وَإِنْ كَانَ مُلَابِسًا لَهُ، قَرِيبًا مِنْهُ، وَيَجِدُ أَنْسًا قَوِيًّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُحِبُّ، وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا عَنْهُ.

وَالْوَحْشَةُ سَبِبُهَا الْحِجَابُ، وَكُلَّمَا غَلَظَ الْحِجَابُ زَادَتِ الْوَحْشَةُ، فَالْغَفْلَةُ تُوْجِبُ الْوَحْشَةَ، وَأَشَدُّ مِنْهَا وَحْشَةُ الْمَعْصِيَةِ، وَأَشَدُّ مِنْهَا وَحْشَةُ الشُّرُكِ وَالْكُفْرِ، وَلَا تَجِدُ أَحَدًا

مُلَابِسًا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا وَيَعْلُوْهُ مِنَ الْوَحْشَةِ بِحَسْبِ مَا لَابَسَهُ مِنْهُ، فَتَعْلُو الْوَحْشَةُ وَجْهَهُ  
وَقَلْبَهُ فَيُسْتَوْحِشُ وَيُسْتَوْحِشُ مِنْهُ.

\* \* \*

## [فصل المعاaci تمرض القلوب]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَصْرِفُ الْقَلْبَ عَنْ صِحَّتِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ إِلَى مَرَضِهِ وَأَنْجِرَافِهِ، فَلَا  
يَرَأُ مَرِيضًا مَعْلُوًّا لَا يَتَفَعَّلُ بِالْأَغْذِيَةِ الَّتِي بِهَا حَيَاةُ وَصَالَحُهُ، فَإِنَّ تَأْثِيرَ الذُّنُوبِ فِي  
الْقُلُوبِ كَتَأْثِيرِ الْأَمْرَاضِ فِي الْأَبْدَانِ، بَلِ الذُّنُوبُ أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ وَدَاؤُهَا، وَلَا دَوَاءَ لَهَا  
إِلَّا تَرْكُهَا.

وَقَدْ أَجْمَعَ السَّائِرُونَ إِلَى اللَّهِ أَنَّ الْقُلُوبَ لَا تُعْطَى مُنَاهَا حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَوْلَاهَا، وَلَا  
تَصِلُ إِلَى مَوْلَاهَا حَتَّى تَكُونَ صَحِيحَةً سَلِيمَةً، وَلَا تَكُونُ صَحِيحَةً سَلِيمَةً حَتَّى يَنْقُلِبَ  
دَاؤُهَا، فَيَصِيرَ نَفْسَ دَوَائِهَا، وَلَا يَصْحُّ لَهَا ذَلِكَ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا، فَهُوَاهَا مَرْضُهَا،  
وَشِفَاؤُهَا مُخَالَفَتُهُ، فَإِنْ اسْتَحْكَمَ الْمَرَضُ قَتَلَ أَوْ كَادَ.

وَكَمَا أَنَّ مَنْ نَهَى نَفْسَهُ عَنِ الْهُوَى كَانَتِ الْجَنَّةُ مَأْوَاهُ، فَكَذَا يَكُونُ قَلْبُهُ فِي هَذِهِ  
الدَّارِ فِي جَنَّةٍ عَاجِلَةٍ، لَا يُشْبِهُ نَعِيمُ أَهْلِهَا نَعِيمًا الْبَتَّةَ، بَلِ التَّفَاؤُتُ الَّذِي بَيْنَ النَّعِيمَيْنِ،  
كَالْتَّفَاؤُتِ الَّذِي بَيْنَ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يُصَدِّقُ بِهِ إِلَّا مَنْ بَاشَرَ قَلْبَهُ هَذَا  
وَهَذَا.

وَلَا تَحْسَبُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَتْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [سُورَةُ  
الْإِنْفِطَارِ: 13 - 14] مَقْصُورٌ عَلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَجَحِيمِهَا فَقَطْ بَلْ فِي دُورِهِمُ الشَّلَاثَةِ كَذَلِكَ  
- أَعْنِي دَارَ الدُّنْيَا، وَدَارَ الْبَرْزَخِ، وَدَارَ الْقَرَارِ - فَهُوَلَاءِ فِي نَعِيمٍ، وَهُوَلَاءِ فِي جَحِيمٍ،

وَهَلِ النَّعِيمُ إِلَّا نَعِيمُ الْقَلْبِ؟ وَهَلِ الْعَذَابُ إِلَّا عَذَابُ الْقَلْبِ؟ وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُ مِنَ الْخَوْفِ وَالْهَمِّ وَالْحُزْنِ، وَضَيقِ الصَّدْرِ، وَإِعْرَاضِهِ عَنِ اللَّهِ وَالدَّارِ الْأُخْرَةِ، وَتَعْلُقُهِ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَانْقِطَاعِهِ عَنِ اللَّهِ، بِكُلِّ وَادٍ مِنْهُ شُعْبَةٌ؟ وَكُلُّ شَيْءٍ تَعْلَقُ بِهِ وَأَحَبَّهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَسُومُهُ سُوءُ الْعَذَابِ.

فَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ عُذْبَ بِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَهُوَ يُعَذَّبُ بِهِ قَبْلَ حُصُولِهِ حَتَّى يَحْصُلَ، فَإِذَا حَصَلَ عُذْبَ بِهِ حَالٌ حُصُولِهِ بِالْخَوْفِ مِنْ سُلْبِهِ وَفَوَاتِهِ، وَالْتَّنَعِيصِ وَالْتَّنَكِيدِ عَلَيْهِ، وَأَنْوَاعِ مِنَ الْعَذَابِ فِي هَذِهِ الْمُعَارَضَاتِ، فَإِذَا سُلْبَهُ اشْتَدَّ عَلَيْهِ عَذَابُهُ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ فِي هَذِهِ الدَّارِ.

وَأَمَّا فِي الْبَرْزَخِ: فَعَذَابٌ يُقَارِنُهُ أَلْمُ الْفِرَاقِ الَّذِي لَا يَرْجُو عَوْدَةً وَأَلْمُ فَوَاتِ مَا فَاتَهُ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ بِاِشْتِغَالِهِ بِضَدِّهِ، وَأَلْمُ الْحِجَابِ عَنِ اللَّهِ، وَأَلْمُ الْحَسْرَةِ الَّتِي تَقْطَعُ الْأَكْبَادَ، فَالْهَمُّ وَالْغُمُّ وَالْحُزْنُ تَعْمَلُ فِي نُفُوسِهِمْ نَظِيرًا مَا يَعْمَلُ الْهَوَامُ وَالدَّيَادَانُ فِي أَبْدَانِهِمْ، بَلْ عَمَلُهَا فِي النُّفُوسِ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌ، حَتَّى يُرْدَهَا اللَّهُ إِلَى أَجْسَادِهَا، فَحِينَئِذٍ يَتَقْتُلُ الْعَذَابُ إِلَى نَوْعٍ هُوَ أَدْهَى وَأَمْرٌ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ نَعِيمٍ مَنْ يَرْقُضُ قَبْلَهُ طَرَبًا وَفَرَحًا وَأَنْسًا بِرَبِّهِ، وَاشْتِيَاقًا إِلَيْهِ، وَارْتِياحًا بِحُجَّهِ، وَطُمَانِيَّةً بِذِكْرِهِ؟ حَتَّى يَقُولَ بَعْضُهُمْ فِي حَالٍ تَرْزِعُهُ: وَاطَّرَبَاهُ.

وَيَقُولُ الْآخَرُ: مَسَاكِينُ أَهْلِ الدُّنْيَا، خَرَجُوا مِنْهَا وَمَا ذَاقُوا لَذِيَّدَ الْعَيْشِ فِيهَا، وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا.

وَيَقُولُ الْآخَرُ: لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّلْيُوفِ.

وَيَقُولُ الْآخْرُ: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

فِيَا مَنْ بَاعَ حَظَّهُ الْغَالِي بِأَبْخَسِ الشَّمَنِ، وَعَيْنَ كُلَّ الْغَبْنِ فِي هَذَا الْعَقْدِ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ قَدْ عَيْنَ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ خِبْرَةٌ بِقِيمَةِ السَّلْعَةِ فَسَلِ الْمُقْوَمِينَ، فَيَا عَجَبًا مِنْ بِضَاعَةِ مَعَكَ اللَّهُ مُشْتَرِيَهَا وَشَمَنُهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى، وَالسَّفِيرُ الَّذِي جَرَى عَلَى يَدِهِ عَقْدُ التَّبَاعِيْعِ وَضَمَنَ الشَّمَنَ عَنِ الْمُشْتَرِي ُهُوَ الرَّسُولُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَقَدْ بَعَاهَا بِغَایَةِ الْهُوَانِ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا كَانَ هَذَا فِقْلُ عَبْدٍ بِنَفْسِهِ فَمَنْ ذَا لَهُ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ يُكْرِمُ

﴿وَمَنْ يُبَيِّنَ اللَّهُ فَمَا لَهُ وَمَنْ مُكَرِّرٌ إِنَّ اللَّهَ يَفْعُلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ الْحَجَّ: 18].

\* \* \*

### [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُعْمِي الْبَصِيرَةَ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُعْمِي بَصِيرَةَ الْقَلْبِ، وَتَطْمِسُ نُورَهُ، وَتَسْدُ طُرُقَ الْعِلْمِ، وَتَحْجُبُ مَوَادَ الْهِدَايَةِ.

وَقَدْ قَالَ مَالِكُ لِلشَّافِعِي لَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ وَرَأَى تِلْكَ الْمَخَايِلَ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا تُطْفِئُهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ.

وَلَا يَرَأُ هَذَا النُّورُ يَضُعُفُ وَيَضْمَحُ، وَظَلَامُ الْمَعْصِيَةِ يَقْوِي حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ فِي مِثْلِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ، فَكَمْ مِنْ مُهْلَكٍ يَسْقُطُ فِيهِ وَلَا يُبْصِرُ، كَأَعْمَى خَرَاجٌ بِاللَّيْلِ فِي طَرِيقٍ ذَاتِ مَهَالِكَ وَمَعَاطِبَ، فَيَا عِزَّةَ السَّلَامَةِ وَيَا سُرْعَةَ الْعَطَبِ، ثُمَّ تَقْوَى تِلْكَ الظُّلْمَاتُ، وَتَفِيضُ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى الْجَوَارِحِ، فَيَغْشَى الْوَجْهَ مِنْهَا سَوَادُ بِحَسْبِ قُوَّتِهَا وَتَزَادُهَا، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْمَوْتِ ظَهَرَتْ فِي الْبَرْزَخِ، فَامْتَلَأَ الْقَبْرُ ظُلْمَةً، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مُمْتَلَئَةٌ عَلَى أَهْلِهَا ظُلْمَةً، وَإِنَّ اللَّهَ يُنَورُهَا بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ.

فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْمَعَادِ، وَحُسِرَ الْعِبَادُ، عَلَتِ الظُّلْمَةُ الْوُجُوهَ عُلُوًّا ظَاهِرًا يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ، حَتَّى يَصِيرَ الْوَجْهُ أَسْوَدَ مِثْلَ الْحُمَّةِ، فِيَالَّهَا مِنْ عُقُوبَةٍ لَا تُوازِنُ لَدَّاتِ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا مِنْ أَوْلَاهَا إِلَى آخِرِهَا، فَكَيْفَ يَقْسِطُ الْعَبْدُ الْمُنَغَّصُ الْمُنَكَّدُ الْمُتَعَبُ فِي زَمَنٍ إِنَّمَا هُوَ سَاعَةٌ مِنْ حُلْمٍ؟ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

\*\*\*

## [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُصَغِّرُ النَّفْسَ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُصَغِّرُ النَّفْسَ، وَتَقْمِعُهَا، وَتُدَسِّيهَا، وَتَحْقِرُهَا، حَتَّى تَكُونَ أَصْغَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَحْقَرَهُ، كَمَا أَنَّ الطَّاعَةَ تُنَمِّيَهَا وَتُنَكِّبُهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ [سُورَةُ الشَّمْسِ: ۹ - ۱۰]، وَالْمَعْنَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَبَّرَهَا وَأَعْلَاهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَأَظْهَرَهَا، وَقَدْ خَسِرَ مَنْ أَخْفَاهَا وَحَقَرَهَا وَصَغَّرَهَا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ.

وَأَصْلُ التَّدَسِيَّةِ: الْإِخْفَاءُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَدْسُهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: ۵۹].

فَالْعَاصِي يَدْسُ نَفْسَهُ فِي الْمَعْصِيَةِ، وَيُخْفِي مَكَانَهَا، يَتَوَارَى مِنَ الْخَلْقِ مِنْ سُوءِ مَا يَأْتِي بِهِ، وَقَدْ انْقَمَعَ عِنْدَ نَفْسِهِ، وَانْقَمَعَ عِنْدَ اللَّهِ، وَانْقَمَعَ عِنْدَ الْخَلْقِ، فَالطَّاعَةُ وَالْبُرُّ تُكَبِّرُ النَّفْسَ وَتُعِزُّهَا وَتُعْلِيهَا، حَتَّى تَصِيرَ أَشْرَفَ شَيْءٍ وَأَكْبَرُهُ، وَأَرْكَاهُ وَأَعْلَاهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ أَذْلُّ شَيْءٍ وَأَحْقَرُهُ وَأَصْغَرُهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَبِهَذَا الذَّلِّ حَصَلَ لَهَا هَذَا الْعِزُّ وَالشَّرَفُ وَالنُّمُّ، فَمَا أَصْغَرَ الْفُوْسَ مِثْلُ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَمَا كَبَّرَهَا وَشَرَّفَهَا وَرَفَعَهَا مِثْلُ طَاعَةِ اللَّهِ.

\*\*\*

## [فصل المعاشي في سجن الشيطان]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّ الْعَاصِيَ دَائِمًا فِي أَسْرِ شَيْطَانِهِ، وَسِجْنِ شَهْوَاتِهِ، وَقِيُودِ هَوَاهِ، فَهُوَ أَسِيرٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ، وَلَا أَسِيرٌ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ أَسِيرٍ أَسْرَهُ أَعْدَى عَدُوٌّ لَهُ، وَلَا سِجْنٌ أَضَيقُ مِنْ سِجْنِ الْهَوَى، وَلَا قِيَدٌ أَصْعَبُ مِنْ قِيَدِ الشَّهْوَةِ، فَكَيْفَ يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ قَلْبٌ مَأْسُورٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ؟ وَكَيْفَ يَخْطُو خُطْوَةً وَاحِدَةً؟

وَإِذَا قِيَدَ الْقَلْبُ طَرَقَتُهُ الْآفَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِحَسْبِ قُيُودِهِ، وَمَثُلَ الْقَلْبُ مَثُلَ الطَّائِرِ، كُلَّمَا عَلَا بَعْدَ عَنِ الْآفَاتِ، وَكُلَّمَا نَزَلَ اسْتَوْحَشَتُهُ الْآفَاتُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: "الشَّيْطَانُ ذُئْبُ الْإِنْسَانِ".

وَكَمَا أَنَّ الشَّاةَ الَّتِي لَا حَافِظَ لَهَا وَهِيَ بَيْنَ الذِّئَابِ سَرِيعَةُ الْعَطَبِ، فَكَذَا الْعَبْدُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَافِظٌ مِنَ اللَّهِ فَدِبُّهُ مُفْتَرُسٌ وَلَا بُدٌّ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَيْهِ حَافِظٌ مِنَ اللَّهِ بِالنَّقْوَى، فَهِيَ وِقَايَةٌ وَجُنَاحٌ، حَصِينَةٌ بَيْنُهُ وَبَيْنَ ذُئْبِهِ، كَمَا هِيَ وِقَايَةٌ بَيْنُهُ وَبَيْنَ عُقُوبَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكُلَّمَا كَانَتِ الشَّاةُ أَقْرَبَ مِنَ الرَّاعِي كَانَتْ أَسْلَمَ مِنَ الذِّئْبِ، وَكُلَّمَا بَعْدَتْ عَنِ الرَّاعِي كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْهَلَالِ، فَأَسْلَمَ مَا تَكُونُ الشَّاةُ إِذَا قَرُبَتْ مِنَ الرَّاعِي، وَإِنَّمَا يَأْخُذُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ مِنِ الْغَنَمِ، وَهِيَ أَبْعَدُ مِنَ الرَّاعِيِ.

وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ: أَنَّ الْقَلْبَ كُلَّمَا كَانَ أَبْعَدَ مِنَ اللَّهِ كَانَتِ الْآفَاتُ إِلَيْهِ أَسْرَعَ، وَكُلَّمَا قَرُبَ مِنَ اللَّهِ بَعْدَتْ عَنِ الْآفَاتُ.

وَالْبُعْدُ مِنَ اللَّهِ مَرَاتِبُ، بَعْضُهَا أَشَدُ مِنْ بَعْضٍ، فَالْغَفْلَةُ تُبْعِدُ الْقَلْبَ عَنِ اللَّهِ، وَبَعْدُ الْمَعْصِيَةِ أَعْظَمُ مِنْ بَعْدِ الْغَفْلَةِ، وَبَعْدُ الْبِدْعَةِ أَعْظَمُ مِنْ بَعْدِ الْمَعْصِيَةِ، وَبَعْدُ النَّفَاقِ وَالشُّرُكِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

\*\*\*

## فَصْلُ الْمَعَاصِي تُسْقِطُ الْكَرَامَةَ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: سُقُوطُ الْجَاهِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْكَرَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ، فَإِنَّ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَطْوَعُهُمْ لَهُ، وَعَلَى قَدْرِ طَاعَةِ الْعَبْدِ تَكُونُ لَهُ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُ، فَإِذَا عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ سَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ، فَأَسْقَطَهُ مِنْ قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِذَا لَمْ يَبْيَقْ لَهُ جَاهٌ عِنْدَ الْخَلْقِ وَهَانَ عَلَيْهِمْ عَامِلُوهُ عَلَى حَسْبِ ذَلِكَ، فَعَاشَ بَيْنَهُمْ أَسْوَأَ عَيْشٍ خَامِلَ الْذِكْرِ، سَاقِطَ الْقَدْرِ، زَرِيَّ الْحَالِ، لَا حُرْمَةَ لَهُ وَلَا فَرَحَ لَهُ وَلَا سُرُورَ، فَإِنَّ خُمُولَ الْذِكْرِ وَسُقُوطَ الْقَدْرِ وَالْجَاهِ مَعْهُ كُلُّ غَمٌّ وَهَمٌّ وَحَزَنٌ، وَلَا سُرُورَ مَعْهُ وَلَا فَرَحَ، وَأَيْنَ هَذَا الْأَلَمُ مِنْ لَذَّةِ الْمَعْصِيَةِ لَوْلَا سُكْرُ الشَّهْوَةِ؟

وَمِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ: أَنْ يَرْفَعَ لَهُ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ ذِكْرَهُ، وَيُعْلِي قَدْرَهُ، وَلِهَذَا خَصَّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِنْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْوُبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ [سُورَةُ ص 45: - 46]. إِنَّا أَخَاصَنَاهُمْ بِخَالصَةِ ذِكْرِ الدَّارِ ﴿٤٥﴾

أَيْ: خَصَصْنَاهُمْ بِخَصِيَّصَةِ، وَهُوَ الْذِكْرُ الْجَمِيلُ الَّذِي يُذْكُرُونَ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَهُوَ لِسَانُ الصَّدْقِ الَّذِي سَأَلَهُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صَدِيقٍ فِي الْأَخْرَى﴾ [سُورَةُ الشُّعْرَاءِ: 84].

وَقَالَ سُبْحَانُهُ وَتَعَالَى عَنْهُ وَعَنْ بَنِيهِ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صَدِيقٍ عَلَيْهَا﴾ [سُورَةُ مُرْيَمَ: 50].

وَقَالَ لِنَبِيِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَرَفَعْنَاكَ ذِكْرَكَ﴾ [سُورَةُ الشَّرْحِ: 4].

فَأَتَبَاعُ الرُّسُلِ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ بِحَسْبِ مِرَاثِهِمْ مِنْ طَاعَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ، وَكُلُّ مَنْ خَالَفَهُمْ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ مِنْ ذَلِكَ بِحَسْبِ مُخَالَفَتِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ.

\*\*\*

## [فصل المُعَصِيَّةِ مَجْلِبَةُ الدِّمْ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَسْلُبُ صَاحِبَهَا أَسْمَاءَ الْمَدْحُ وَالشَّرَفِ، وَتَكْسُوُهُ أَسْمَاءَ الدَّمْ وَالصَّغارِ، فَتَسْلُبُهُ اسْمَ الْمُؤْمِنِ، وَالْبَرِّ، وَالْمُحْسِنِ، وَالْمُتَّقِيِّ، وَالْمُطْبِعِ، وَالْمُنِيبِ، وَالْوَالِيِّ، وَالْوَرِعِ، وَالصَّالِحِ، وَالْعَابِدِ، وَالْخَائِفِ، وَالْأَوَّابِ، وَالْطَّيِّبِ، وَالْمَرْضِيِّ وَنَحْوُهَا. وَتَكْسُوُهُ اسْمَ الْفَاجِرِ، وَالْعَاصِيِّ، وَالْمُخَالِفِ، وَالْمُسِيءِ، وَالْمُفْسِدِ، وَالْخَيِّثِ، وَالْمَسْخُوطِ، وَالْزَّانِيِّ، وَالسَّارِقِ، وَالْقَاتِلِ، وَالْكَاذِبِ، وَالْخَائِنِ، وَاللُّوطِيِّ، وَقَاطِعِ الرَّحْمِ، وَالْغَادِرِ وَأَمْثَالِهَا.

فَهَذِهِ أَسْمَاءُ الْفُسُوقِ وَ ﴿يَسِّرْ لِإِلَّاتِمِ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [سُورَةُ الْحُجَّرَاتِ: 11] الَّذِي يُوجِبُ غَضَبَ الدِّيَانِ، وَدُخُولَ النَّيَّانِ، وَعِيشَ الْخِزْيِ وَالْهَوَانِ.

وَتِلْكَ أَسْمَاءُ تُوجِبُ رِضَاءَ الرَّحْمَنِ، وَدُخُولَ الْجِنَانِ، وَتُوجِبُ شَرَفَ الْمُسَمَّى بِهَا عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْإِنْسَانِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي عُقُوبَةِ الْمُعَصِيَّةِ إِلَّا اسْتَحْفَاقَ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ وَمُوْجَبَاتِهَا لَكَانَ فِي الْعُقْلِ نَاهٍ عَنْهَا، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ثَوَابِ الطَّاعَةِ إِلَّا الفَوْزُ بِتِلْكَ الْأَسْمَاءِ وَمُوْجَبَاتِهَا لَكَانَ فِي الْعُقْلِ أَمْرُ بِهَا، وَلَكِنْ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى اللَّهُ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، وَلَا مُقْرَبٌ لِمَا بَاعَدَ، وَلَا مُبَعِّدٌ لِمَنْ قَرَبَ، ﴿وَمَنْ يُبَيِّنَ اللَّهُ فَمَا لَهُ، مِنْ مُكَبِّرٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعُلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ الْحَجَّ: 18]

\* \* \*

## [فصل المُعَصِيَّةِ تَوْثِيرُ فِي الْعُقْلِ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُؤَثِّرُ بِالْخَاصَّةِ فِي نُقْصَانِ الْعُقْلِ، فَلَا تَجِدُ عَاقِلَيْنِ أَحَدُهُمَا مُطِيعٌ لِلَّهِ وَالْأَخْرُ عَاصِ، إِلَّا وَعَقْلُ الْمُطِيعِ مِنْهُمَا أَوْفَرُ وَأَكْمَلُ، وَفِكْرُهُ أَصَحُّ، وَرَأْيُهُ أَسَدٌ، وَالصَّوَابُ قَرِينُهُ.

## الذَّلَّةُ وَالْأَلَبَّةُ

وَلِهَذَا تَجِدُ خِطَابَ الْقُرْآنِ إِنَّمَا هُوَ مَعَ أُولَى الْعُقُولِ وَالْأَلَبَّابِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّقُوْنَ يَتَأْوِلُ فِي أَلَّا لَبَّبٍ﴾ [سُورَةُ الْبَقْرَةِ: 197]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَأَنَّقُوْا اللَّهَ يَتَأْوِلُ فِي أَلَّا لَبَّبٍ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 100]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَأَنَّقُوْا اللَّهَ يَتَأْوِلُ أَلَّا لَبَّبٍ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سُورَةُ الْبَقْرَةِ: 269]، وَنَظَارَتُ ذَلِكَ كَثِيرَةً.

وَكَيْفَ يَكُونُ عَاقِلًا وَأَفْرِعُ الْعُقْلِ مَنْ يَعْصِي مَنْ هُوَ فِي قَبْضَتِهِ وَفِي دَارِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ وَيُشَاهِدُهُ فَيَعْصِيهِ وَهُوَ بِعِينِهِ غَيْرُ مُتَوَارٍ عَنْهُ، وَيَسْتَعِنُ بِنَعْمَهِ عَلَى مَسَاخِطِهِ، وَيَسْتَدِعِي كُلَّ وَقْتٍ غَضَبَهُ عَلَيْهِ، وَلَعْتَهُ لَهُ، وَإِبْعَادَهُ مِنْ قُرْبِهِ، وَطَرَدَهُ عَنْ بَأْيِهِ، وَإِعْرَاضَهُ عَنْهُ، وَخَذْلَانَهُ لَهُ، وَالْتَّخَلِيَّةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ وَعَدُوِّهِ، وَسُقُوطَهُ مِنْ عَيْنِهِ، وَحَرْمَانُهُ رُوحِ رِضَاهُ وَحُبَّهُ، وَقُرْفَةُ الْعَيْنِ بِقُرْبِهِ، وَالْفَوْزُ بِجُوَارِهِ، وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ فِي زُمْرَةِ أُولَائِهِ، إِلَى أَضْعَافِ أَضْعَافِ ذَلِكِ مِنْ كَرَامَتِهِ أَهْلَ الطَّاعَةِ، وَأَضْعَافِ أَضْعَافِ ذَلِكِ مِنْ عُقوَبَةِ أَهْلِ الْمَعِصِيَّةِ.

فَأَيُّ عَقْلٍ لِمَنْ آتَهُ لَذَّةَ سَاعَةٍ أَوْ يَوْمٍ أَوْ دَهْرٍ، ثُمَّ تَقْضِي كَانَهَا حُلْمٌ لَمْ يَكُنْ، عَلَى هَذَا النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ؟ بَلْ هُوَ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَوْلَا الْعُقْلُ الَّذِي تَقْوُمُ بِهِ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمَجَانِينِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ الْمَجَانِينُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ وَأَسْلَمَ عَاقِبَةً، فَهَذَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَأَمَّا تَأْثِيرُهَا فِي نُقْصَانِ الْعُقْلِ الْمَعِيشِ، فَلَوْلَا الإِشْتِراكُ فِي هَذَا النُّقْصَانِ، لَظَهَرَ لِمُطِيعِنَا نُقْصَانُ عَقْلِ عَاصِيَنَا، وَلَكِنَّ الْجَائِحَةَ عَامَّةُ، وَالْجُنُونُ فُنُونٌ.

وَيَا عَجَبًا لَوْ صَحَّتِ الْعُقُولُ لَعِلْمَتْ أَنَّ طَرِيقَ تَحْصِيلِ اللَّذَّةِ وَالْفَرَحَةِ وَالسُّرُورِ وَطَبِيبِ الْعَيْشِ، إِنَّمَا هُوَ فِي رِضَاهِ مَنِ النَّعِيمُ كُلُّهُ فِي رِضَاهُ، وَالْأَلَمُ وَالْعَذَابُ كُلُّهُ

فِي سُخْطِهِ وَغَضْبِهِ، فَفِي رِضَاهُ قُرْةُ الْعُيُونِ، وَسُرُورُ النُّفُوسِ، وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَلَذَّةُ الْأَرْوَاحِ، وَطِيبُ الْحَيَاةِ، وَلَذَّةُ الْعَيْشِ، وَأَطْيَبُ النَّعِيمِ، وَمِمَّا لَوْ وُزِنَ مِنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا لَمْ يَفِ بِهِ، بَلْ إِذَا حَصَلَ لِلْقُلْبِ مِنْ ذَلِكَ أَيْسَرُ نَصِيبٍ لَمْ يَرْضَ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا عِوَضًا مِنْهُ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ يَتَنَعَّمُ بِنَصِيبِهِ مِنَ الدُّنْيَا أَعْظَمَ مِنْ تَنَعُّمِ الْمُتَرْفِينَ فِيهَا، وَلَا يَشُوبُ تَنَعُّمُهُ بِذَلِكَ الْحَظْظِ الْيَسِيرِ مَا يَشُوبُ تَنَعُّمَ الْمُتَرْفِينَ مِنَ الْهُمُومِ وَالْعُمُومِ وَالْأَحْزَانِ الْمُعَارِضَاتِ، بَلْ قَدْ حَصَلَ لَهُ عَلَى النَّعِيمَيْنِ وَهُوَ يَتَنَظَّرُ نَعِيمَيْنِ آخَرَيْنِ أَعْظَمَ مِنْهُمَا، وَمَا يَحْصُلُ لَهُ فِي خَلَالِ ذَلِكَ مِنَ الْآلَامِ، فَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَالَّمُونَ فَإِنَّهُمْ يَالْمُوْتِ كَمَا تَالَّمُوْتُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: 104].

فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَا أَنْتَصَ عَقْلَ مَنْ بَاعَ الدُّرَّ بِالْبَعْرِ، وَالْمِسْكَ بِالرَّجِيعِ، وَمُرَافَقَةُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّنَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، بِمُرَافَقَةِ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا.

\* \* \*

## [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُوْجِبُ الْقَطِيعَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالرَّبِّ]

وَمِنْ أَعْظَمِ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُوْجِبُ الْقَطِيعَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَإِذَا وَقَعَتِ الْقَطِيعَةُ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ، فَأَيُّ فَلَاحُ، وَأَيُّ رَجَاءٍ، وَأَيُّ عَيْشٍ لِمَنِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ، وَقَطَعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ الَّذِي لَا غَنَى عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا بَدَلَ لَهُ مِنْهُ، وَلَا عِوَضٌ لَهُ عَنْهُ، وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ، وَوَصَلَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَى عَدُوْلَهُ: فَتَوَلَّهُ عَدُوْهُ وَتَخَلَّى عَنْهُ وَلِيْهُ؟ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا فِي هَذَا الْإِنْقِطَاعِ وَالْإِتْصَالِ مِنْ أَنْوَاعِ الْآلَامِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: رَأَيْتُ الْعَبْدَ مُلْقَى بَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ تَوَلَّهُ الشَّيْطَانُ، وَإِنْ تَوَلَّهُ اللَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِلْأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَخِذُونَهُ وَدِرِيَّتَهُ أَوْلِيَّكُمْ مِنْ دُونِهِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يُسَسِّلُ الظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [سُورَةُ الْكَهْفِ: 50].

يَقُولُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ: أَنَا أَكْرَمْتُ أَبِيكُمْ، وَرَفَعْتُ قَدْرَهُ، وَفَضَّلْتُهُ عَلَى عَيْرِهِ، فَأَمْرَتُ مَلَائِكَتِي كُلَّهُمْ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ، تَكْرِيمًا لَهُ وَتَشْرِيفًا، فَأَطَاعُونِي، وَأَبَى عَدُوِّي وَعَدُوُّهُ، فَعَصَى أَمْرِي، وَخَرَجَ عَنْ طَاعَتِي، فَكَيْفَ يَحْسُنُ بِكُمْ بَعْدَ هَذَا أَنْ تَتَّخِذُوهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَيَّاءَ مِنْ دُونِي، فَتُطْبِعُونَهُ فِي مَعْصِيَتِي، وَتُوَلُّونَهُ فِي خِلَافِ مَرْضَاتِي وَهُمْ أَعْدَى عَدُوٌّ لَكُمْ؟ فَوَالْيَتُمْ عَدُوِّي وَقَدْ أَمْرَتُكُمْ بِمُعَاوَاتِهِ، وَمَنْ وَالَّى أَعْدَاءَ الْمَلِكِ، كَانَ هُوَ وَأَعْدَاؤُهُ عِنْدُهُ سَوَاءً، فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ وَالطَّاعَةَ لَا تَسْتُمُ إِلَّا بِمُعَاوَاتِهِ أَعْدَاءُ الْمُطَاعِي وَمُوَالَةُ أُولَيَّاهُ، وَأَمَّا أَنْ تُوَالِيَ أَعْدَاءَ الْمَلِكِ ثُمَّ تَدَعِي أَنَّكَ مُوَالٍ لَهُ، فَهَذَا مُحَالٌ.

هَذَا لَوْلَمْ يَكُنْ عَدُوُ الْمَلِكِ عَدُوًّا لَكُمْ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ عَدُوًّا كُمْ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَالْعَدَاوَةُ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ مِنَ الْعَدَاوَةِ الَّتِي بَيْنَ الشَّاءِ وَبَيْنَ الذَّئْبِ؟ فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالْعَالِقِ أَنْ يُوَالِيَ عَدُوَّهُ عَدُوًّا وَلَيْهِ وَمَوْلَاهُ الَّذِي لَا مَوْلَى لَهُ سِوَاهُ، وَنَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى قُبْحِ هَذِهِ الْمُوَالَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ [سُورَةُ الْكَهْفِ: 50]، كَمَا نَبَّهَ عَلَى قُبْحِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [سُورَةُ الْكَهْفِ: 50]، فَتَبَيَّنَ أَنَّ عَدَاوَتَهُ لِرَبِّهِ وَعَدَاوَتَهُ لَنَا، كُلُّ مِنْهُمَا سَبَبَ يَدْعُو إِلَيْهِ مُعَاوَاتِهِ، فَمَا هَذِهِ الْمُوَالَةُ؟ وَمَا هَذَا الْإِسْتِبْدَالُ؟ بِسَسِ الظَّالِمِينَ بَدَلًا.

وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ تَحْتَ هَذَا الْخُطَابِ تَوْعُّ مِنَ الْعَتَابِ لَطِيفٌ عَجِيبٌ وَهُوَ أَنِّي عَادَيْتُ إِبْلِيسَ إِذْ لَمْ يَسْجُدْ لِأَيِّكُمْ آدَمَ مَعَ مَلَائِكَتِي فَكَانَتْ مُعَاوَاتُهُ لِأَجْلِكُمْ، ثُمَّ كَانَ عَاقِبَهُ هَذِهِ الْمُعَاوَادَةِ أَنْ عَقْدَتُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ عَقْدَ الْمُصَالَحةِ

## [فصل المعاishi تمحق البركة]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَمْحُقُ بَرَكَةَ الْعُمُرِ، وَبَرَكَةَ الرِّزْقِ، وَبَرَكَةَ الْعِلْمِ، وَبَرَكَةَ الْعَمَلِ، وَبَرَكَةَ الطَّاعَةِ.

وَبِالْجُمْلَةِ أَنَّهَا تَمْحُقُ بَرَكَةَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَلَا تَجِدُ أَقْلَى بَرَكَةً فِي عُمُرِهِ وَدِينِهِ وَدُنْيَاهُ مِمَّنْ عَصَى اللَّهَ، وَمَا مُحِقَّتِ الْبَرَكَةُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا بِمَعَاصِي الْخَلْقِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَأَنَّ أَهْلَ الْقُرَىَءَاءَ مَأْمُوا وَأَتَقَوْ لِفَتَحِنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَتِ مَنَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [الأعراف: 96].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّا أَسْتَقْمُوا عَلَى الْطَّرِيقَةِ لَأَسْقِنَتْهُمْ مَآءَ عَذَاقًا﴾ ١٦ ﴿لِفَتَنَتْهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعَرِّضَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَدَّا﴾ ١٧ [الجن: 16 - 17].

وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيُحِرِّمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: "إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوْعَيِّ أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاجْمِلُوا فِي الْطَّلَبِ، فَإِنَّهُ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَى وَالْيُقْيَنِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّرَّ وَالسُّخْطِ".

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْأَئْمَرُ الَّذِي ذَكَرُهُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ: "أَنَا اللَّهُ، إِذَا رَضِيْتُ بَارْكْتُ، وَلَيْسَ لِبَرَكَتِي مُنْتَهَى، وَإِذَا غَضِبْتُ لَعَنْتُ، وَلَعْنَتِي تُدْرِكُ السَّابِعَ مِنَ الْوَلَدِ".

وَلَيَسْتَ سَعَةُ الرِّزْقِ وَالْعَمَلِ بِكَثْرَتِهِ، وَلَا طُولُ الْعُمُرِ بِكَثْرَةِ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، وَلَكِنَّ سَعَةَ الرِّزْقِ وَطُولَ الْعُمُرِ بِالْبَرَكَةِ فِيهِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ عُمَرَ الْعَبْدِ هُوَ مُدَّةُ حَيَاتِهِ، وَلَا حَيَاةً لِمَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ وَأَشْتَغَلَ بِغَيْرِهِ، بَلْ حَيَاةُ الْبَهَائِمِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةِهِ، فَإِنَّ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ بِحَيَاةِ قَلْبِهِ وَرُوحِهِ، وَلَا حَيَاةً لِقَلْبِهِ إِلَّا

بِعِرْفَةِ فَاطِرِهِ، وَمَحِبَّتِهِ، وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَالإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالطُّمَانِيَّةِ بِذِكْرِهِ، وَالْأُنْسِ بِقُرْبِهِ،  
وَمَنْ فَقَدَ هَذِهِ الْحَيَاةَ فَقَدَ الْخَيْرَ كُلَّهُ، وَلَوْ تَعَرَّضَ عَنْهَا بِمَا يَعُوضُ مِمَّا فِي الدُّنْيَا، بَلْ  
لَيْسَتِ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا عَوْضًا عَنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ، فَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَفْوُتُ الْعَبْدُ عَوْضُهُ، وَإِذَا  
فَاتَهُ اللَّهُ لَمْ يُعَوِّضْ عَنْهُ شَيْءٌ إِلَّا الْبَتَّةُ.

وَكَيْفَ يُعَوِّضُ الْفَقِيرُ بِالذَّاتِ عَنِ الْغَنِيِّ بِالذَّاتِ، وَالْعَاجِزُ بِالذَّاتِ عَنِ الْقَادِرِ  
بِالذَّاتِ، وَالْمَيِّتُ عَنِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْمَخْلُوقُ عَنِ الْخَالِقِ، وَمَنْ لَا وُجُودَ لَهُ  
وَلَا شَيْءٌ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ الْبَتَّةُ عَمَّا غَنَاهُ وَحَيَا تُهُ وَكَمَالُهُ وَوُجُودُهُ وَرَحْمَتُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ؟  
وَكَيْفَ يُعَوِّضُ مَنْ لَا يَمْلِكُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ عَمَّا لَمْ يَمْلِكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَإِنَّمَا كَانَتْ مَعْصِيَةُ اللَّهِ سَبِيلًا لِمَحْقِ بَرَكَةِ الرِّزْقِ وَالْأَجَلِ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ مُوَكَّلٌ بِهَا  
وَبِأَصْحَابِهَا، فَسُلْطَانُهُ عَلَيْهِمْ، وَحَوَالَتُهُ عَلَى هَذَا الدِّيَوَانِ وَأَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ  
يَتَصِلُّ بِهِ الشَّيْطَانُ وَيُقَارِنُهُ، فَبَرَكَتُهُ مَمْحُوقَةً، وَلَهُذَا شُرَعَ ذِكْرُ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْأَكْلِ  
وَالشُّرْبِ وَاللُّبْسِ وَالرُّكُوبِ وَالْجِمَاعِ لِمَا فِي مُقَارَنَةِ اسْمِ اللَّهِ مِنَ الْبَرَكَةِ، وَذِكْرُ اسْمِهِ يَطْرُدُ  
الشَّيْطَانَ فَتَحْصُلُ الْبَرَكَةُ وَلَا مُعَارِضُ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ لَا يَكُونُ لِلَّهِ بَرَكَتُهُ مَنْزُوعَةُ، فَإِنَّ الرَّبَّ  
هُوَ الَّذِي يُبَارِكُ وَحْدَهُ، وَالْبَرَكَةُ كُلُّهَا مِنْهُ، وَكُلُّ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مُبَارَكٌ، فَكَلَامُهُ مُبَارَكٌ، وَرَسُولُهُ  
مُبَارَكٌ، وَعَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ النَّافِعُ لِخَلْقِهِ مُبَارَكٌ، وَبَيْتُهُ الْحَرَامُ مُبَارَكٌ، وَكِنَانَتُهُ مِنْ أَرْضِهِ، وَهِيَ  
الشَّامُ أَرْضُ الْبَرَكَةِ، وَصَفَّهَا بِالْبَرَكَةِ فِي سِتٍّ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ، فَلَا مُبَارَكٌ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ، وَلَا  
مُبَارَكٌ إِلَّا مَا نُسِبَ إِلَيْهِ، أَعْنِي إِلَى الْوَهِيَّتِهِ وَمَحِبَّتِهِ وَرِضَاهُ، وَإِلَّا فَالْكُوْنُ كُلُّهُ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ  
رَبُّوْبِيَّتِهِ وَخَلْقِهِ، وَكُلُّ مَا بَاعَدَهُ مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ فَلَا بَرَكَةُ فِيهِ، وَلَا  
خَيْرٌ فِيهِ، وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْهُ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ فِيهِ مِنَ الْبَرَكَةِ عَلَى حَسْبِ قُرْبِهِ مِنْهُ.

وَضِدُّ الْبَرَكَةِ الْلَّعْنَةُ؛ فَأَرْضٌ لَعْنَهَا اللَّهُ أَوْ شَخْصٌ لَعْنَهَا اللَّهُ أَوْ عَمَلٌ لَعْنَهَا اللَّهُ أَبْعَدُ شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، وَكُلَّمَا اتَّصَلَ بِذَلِكَ وَارْتَبَطَ بِهِ وَكَانَ مِنْهُ بِسَيِّلٍ فَلَا بَرَكَةَ فِيهِ الْبَتَّةَ.

وَقَدْ لَعَنَ عَدُوَّهِ إِبْلِيسَ وَجَعَلَهُ أَبْعَدَ خَلْقِهِ مِنْهُ، فَكُلُّ مَا كَانَ جِهَتَهُ فَلَهُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ وَاتِّصَالِهِ بِهِ، فَمِنْ هَاهُنَا كَانَ لِلْمَعَاصِي أَعْظَمُ تَأْثِيرٍ فِي مَحْقِ بَرَكَةِ الْعُمُرِ وَالرِّزْقِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَكُلُّ وَقْتٍ عَصَيْتَ اللَّهَ فِيهِ، أَوْ مَا لِلَّهِ بِهِ، أَوْ بَدَنٌ أَوْ جَاهٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ فَهُوَ عَلَى صَاحِبِهِ لَيْسَ لَهُ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ عُمُرِهِ وَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ وَجَاهِهِ وَعِلْمِهِ وَعَمَلِهِ إِلَّا مَا أَطَاعَ اللَّهَ بِهِ.

وَلِهَذَا مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعِيشُ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِائَةَ سَنَةَ أَوْ نَحْوَهَا، وَيَكُونُ عُمُرُهُ لَا يَلْغُ عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا، كَمَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَمْلِكُ الْقَنَاطِيرَ الْمُقْنَطَرَةَ مِنَ الْذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَيَكُونُ مَالُهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَلْغُ أَلْفَ دِرْهَمٍ أَوْ نَحْوَهَا، وَهَكَذَا الْجَاهُ وَالْعِلْمُ.

وَفِي التَّرْمِذِيِّ عَنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - "الْدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَّهُ أَوْ عَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ".

وَفِي أَثَرِ آخَرَ: "الْدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ" فَهَذَا هُوَ الَّذِي فِيهِ الْبَرَكَةُ خَاصَّةً، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

\*\*\*

## [فصل المعصيَّة تَجْعَلُ صَاحِبَهَا مِنَ السَّفَلَةِ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَجْعَلُ صَاحِبَهَا مِنَ السَّفَلَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُهِيَّاً لِأَنْ يَكُونَ مِنَ الْعُلَيَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ قِسْمَيْنِ: عَلِيَّةً، وَسَفَلَةً، وَجَعَلَ عِلِّيَّينَ مُسْتَقِرَّ الْعُلَيَّةِ، وَأَسْفَلَ سَافِلَيْنَ مُسْتَقِرَّ السَّفَلَةِ، وَجَعَلَ أَهْلَ طَاعَتِهِ الْأَعْلَيْنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَهْلَ مَعْصِيَتِهِ الْأَسْفَلَيْنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا جَعَلَ أَهْلَ طَاعَتِهِ أَكْرَمَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، وَأَهْلَ مَعْصِيَتِهِ أَهْوَنَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ الْعِزَّةَ لِهُوَ لَاءُ، وَالذَّلَّةَ وَالصَّغَارَ لِهُوَ لَاءُ، كَمَا فِي مُسْنِدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو عَنِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ: "بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، وَجَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجَعَلَ الذُّلَّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي"

فَكُلُّمَا عَمِلَ الْعَبْدُ مَعْصِيَةً نَزَلَ إِلَى أَسْفَلَ، دَرَجَةً، وَلَا يَرَأُ فِي نُزُولٍ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْأَسْفَلَيْنَ، وَكُلُّمَا عَمِلَ طَاعَةً ارْتَفَعَ بِهَا دَرَجَةً، وَلَا يَرَأُ فِي ارْتِفَاعٍ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْأَعْلَيْنَ.

وَقَدْ يَجْتَمِعُ لِلْعَبْدِ فِي أَيَّامِ حَيَاتِهِ الصُّعُودُ مِنْ وَجْهٍ، وَالنُّزُولُ مِنْ وَجْهٍ، وَأَيْمَانًا كَانَ أَغْلَبَ عَلَيْهِ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ، فَلَيْسَ مِنْ صَدِدِ مِائَةَ دَرَجَةٍ وَنَزَلَ دَرَجَةً وَاحِدَةً، كَمَنْ كَانَ بِالْعَكْسِ.

وَلَكِنْ يَعْرِضُ هَاهُنَا لِلنُّفُوسِ غَلَطٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَنْزِلُ نُزُولًا بَعِيدًا بَعْدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَمِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَلَا يَفِي صُعُودُهُ أَفَ دَرَجَةٌ بِهَذَا النُّزُولِ الْوَاحِدِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ".

فَأَيُّ صُعُودٍ يُوازِنُ هَذِهِ النَّزَلَةَ؟ وَالنُّزُولُ أَمْرٌ لَازِمٌ لِلْإِنْسَانِ، وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى غَفْلَةٍ، فَهَذَا مَتَى اسْتَيْقَطَ مِنْ غُفْلَتِهِ عَادَ إِلَى دَرَجَتِهِ، أَوْ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا بِخَسْبٍ يَقْضِيَهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى مُبَاحٍ لَا يَنْوِي بِهِ الْإِسْتِعَانَةَ عَلَى الطَّاعَةِ، فَهَذَا مَتَّى رَجَعَ إِلَى الطَّاعَةِ فَقَدْ يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ، وَقَدْ لَا يَصِلُّ إِلَيْهَا، وَقَدْ يَرْتَفَعُ عَنْهَا، فَإِنَّهُ قَدْ يَعُودُ أَعْلَى هِمَمَةً مِمَّا كَانَ، وَقَدْ يَكُونُ أَضْعَفَ هِمَمَةً، وَقَدْ تَعُودُ هِمَمَتُهُ كَمَا كَانَتْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى مَعْصِيَةٍ، إِمَّا صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ، فَهَذَا يَحْتَاجُ فِي عَوْدِهِ إِلَى دَرَجَتِهِ إِلَى تَوْبَةٍ نَصُوحٍ، وَإِنَّا بِهِ صَادِقُّهُ.

وَاحْتَلَّ النَّاسُ هَلْ يَعُودُ بَعْدَ التَّوْبَةِ إِلَى دَرَجَتِهِ الَّتِي كَانَ فِيهَا، بِنَاءً عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ تَمْحُو أَثَرَ الذَّنْبِ، وَتَجْعَلُ وَجْوَهَهُ كَعَدَمِهِ فَكَانَهُ لَمْ يَكُنْ، أَوْ لَا يَعُودُ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ تَأْثِيرُهَا فِي إِسْقَاطِ الْعُقُوبَةِ، وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الَّتِي فَاتَتْهُ فَإِنَّهُ لَا يَصِلُّ إِلَيْهَا.

قَالُوا: وَتَقْرِيرُ ذَلِكَ: أَنَّهُ كَانَ مُسْتَعِدًا بِاسْتِغَالِهِ بِالطَّاعَةِ فِي الزَّمَنِ الَّذِي عَصَى فِيهِ لِصُعُودٍ آخَرَ وَارْتِقاءٍ تَحْمِلُهُ أَعْمَالُهُ السَّالِفَةُ، بِمَنْزِلَةِ كَسْبِ الرَّجُلِ كُلَّ يَوْمٍ بِجُمْلَةِ مَا لَهُ الَّذِي يَمْلِكُهُ، وَكُلَّمَا تَضَاعَفَ الْمَالُ تَضَاعَفَ الرِّبْعُ، فَقَدْ رَاحَ عَلَيْهِ فِي زَمَنِ الْمَعْصِيَةِ ارْتِقاءً وَرِبْعً تَحْمِلُهُ أَعْمَالُهُ، فَإِذَا اسْتَأْنَفَ الْعَمَلَ اسْتَأْنَفَ صُعُودًا مِنْ نُزُولٍ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ صَاعِدًا مِنْ أَسْفَلٍ إِلَى أَعْلَى، وَبَيْنَهُمَا بَوْنٌ عَظِيمٌ.

قَالُوا: وَمَثُلُ ذَلِكَ رَجُلًا يُرْتَقِيَانِ فِي سُلَّمَيْنِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا، وَهُمَا سَوَاءٌ، فَتَنَزَّلُ أَحَدُهُمَا إِلَى أَسْفَلَ، وَلَوْ دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الصُّعُودَ، فَإِنَّ الَّذِي لَمْ يَنْتَزِلْ يَعْلُو عَلَيْهِ وَلَا بُدَّ.

وَحَكَمَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ حُكْمًا مَقْبُولًا فَقَالَ:

الْتَّحْقِيقُ أَنَّ مِنَ التَّائِبِينَ مَنْ يَعُودُ إِلَى أَرْفَعَ مِنْ دَرَجَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُودُ إِلَى مِثْلِ دَرَجَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَصِلُّ إِلَى دَرَجَتِهِ.

قُلْتُ: وَهَذَا بِحَسْبِ قُوَّةِ التَّوْبَةِ وَكَمَالِهَا، وَمَا أَحْدَثَتْهُ الْمَعْصِيَةُ لِلْعَبْدِ مِنَ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالْإِنْابَةِ، وَالْحَدَرِ وَالْخُوفِ مِنَ اللَّهِ، وَالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، فَقَدْ تَقْوَى هَذِهِ الْأُمُورُ، حَتَّى يَعُودَ التَّائِبُ إِلَى أَرْفَعِ مِنْ دَرَجَتِهِ، وَيَصِيرَ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيَّةِ، فَهَذَا قَدْ تَكُونُ الْخَطِيَّةُ فِي حَقِّهِ رَحْمَةً، فَإِنَّهَا نَفَتْ عَنْهُ دَاءُ الْعُجُبِ، وَخَلَصَتْهُ مِنْ ثُقَّتِهِ بِنَفْسِهِ وَإِدْلَالِهِ بِأَعْمَالِهِ، وَوَضَعَتْ خَدَّ ضَرَاعَتِهِ وَذَلَّهُ وَانْكِسَارَهُ عَلَى عَتَبَةِ بَابِ سَيِّدِهِ وَمَوْلَاهُ، وَعَرَفَتْهُ قَدْرَهُ، وَأَشْهَدَتْهُ فَقْرَهُ وَضَرُورَتَهُ إِلَى حِفْظِ مَوْلَاهُ لَهُ، وَإِلَى عَفْوِهِ عَنْهُ وَمَغْفِرَتِهِ لَهُ، وَأَخْرَجَتْ مِنْ قَلْبِهِ صَوْلَةَ الطَّاعَةِ، وَكَسَرَتْ أَنْفَهُ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ بِهَا أَوْ يَتَكَبَّرَ بِهَا، أَوْ يَرَى نَفْسَهُ بِهَا خَيْرًا مِنْ غَيْرِهِ، وَأَوْقَفَتْهُ بَيْنَ يَدَيِّ رَبِّهِ مَوْقَفَ الْخَطَائِينَ الْمُذْنِينَ، تَأْكِسَ الرَّأْسَ بَيْنَ يَدَيِّ رَبِّهِ، مُسْتَحِيًّا خَائِفًا مِنْهُ وَجِلًا، مُحْتَقِرًا لِطَاعَتِهِ مُسْتَعْظِمًا لِمَعْصِيَتِهِ، عَرَفَ نَفْسَهُ بِالنَّقْصِ وَالذَّمِّ. وَرَبُّهُ مُنْفَرِّدٌ بِالْكَمَالِ وَالْحَمْدِ وَالْوَفَاءِ كَمَا قِيلَ:

### اشتَأْرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ وَبِالْحُمْ دِ وَقَلَى الْمَلَامَةِ الرَّجْلَا

فَأَيُّ نِعْمَةٍ وَصَلَتْ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِ اسْتَكْرَهَا عَلَى نَفْسِهِ وَرَأَى نَفْسَهُ دُونَهَا وَلَمْ يَرَهَا أَهْلًا، وَأَيُّ نِقْمَةٍ أَوْ بَلَيْةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِ رَأَى نَفْسَهُ أَهْلًا لِمَا هُوَ أَكْبُرُ مِنْهَا، وَرَأَى مَوْلَاهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، إِذْ لَمْ يُعَاقِبْهُ عَلَى قَدْرِ جُرْمِهِ وَلَا شَطْرِهِ، وَلَا أَدْنَى جُزْءِهِ مِنْهُ.

فَإِنَّ مَا يَسْتَحِقُهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ لَا تَحْمِلُهُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ، فَضْلًا عَنْ هَذَا الْعَبْدِ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ، فَإِنَّ الذَّنْبَ وَإِنْ صَغْرَهُ، فَإِنَّ مُقَابَلَةَ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ، الْكَبِيرُ الَّذِي لَا شَيْءَ أَكْبُرُ مِنْهُ، الْجَلِيلُ الَّذِي لَا أَجَلَّ مِنْهُ وَلَا أَجْمَلَ، الْمُنْعِمُ بِجَمِيعِ أَصْنَافِ النَّعْمِ دَقِيقَهَا وَجُلُّهَا - مِنْ أَقْبَحِ الْأُمُورِ وَأَفْظَعِهَا وَأَشْنَعِهَا، فَإِنَّ مُقَابَلَةَ الْعَظَمَاءِ وَالْأَجِلَّاءِ وَسَادَاتِ النَّاسِ بِمِثْلِ ذَلِكَ يَسْتَقْبِحُهُ كُلُّ أَحَدٍ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ. وَأَرْذَلُ النَّاسِ

وَأَسْقَطُهُمْ مُرْوِعَةً مَنْ قَابَلُهُمْ بِالرَّذَائِلِ، فَكَيْفَ بِعَظِيمِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَلِكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَهِ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ وَلَوْلَا أَنَّ رَحْمَةَ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، وَمَغْفِرَتَهُ سَبَقَتْ عُقُوبَتَهُ، وَإِلَّا لَتَدْكُدَكَتِ الْأَرْضُ بِمَنْ قَابَلَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ مُقَابَلَتُهُ بِهِ، وَلَوْلَا حَلْمُهُ وَمَغْفِرَتُهُ لَزُلْزَلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ مِنْ مَعَاصِي الْعِبَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَرُوْلَا وَلَيْنَ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ غَفُورًا ﴿٤١﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ: 41].

فَتَكَامَلَ خَتْمَ هَذِهِ الْآيَةِ بِاسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَهُمَا: "الْحَلِيمُ، وَالْغَفُورُ" كَيْفَ تَجِدُ تَحْتَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا حَلْمُهُ عَنِ الْجُنَاحِ وَمَغْفِرَتُهُ لِلْعُصَابِ لَمَّا اسْتَقَرَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ كُفْرِ بَعْضِ عِبَادِهِ أَنَّهُ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرُنَ مِنْهُ وَتَشَقَّقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُجُ الْجِبَالُ هَذَا﴾ [سُورَةُ مَرِيمَ: 90].

وَقَدْ أَخْرَجَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْأَبْوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ارْتَكَبَا وَخَالَفَا فِيهِ نَهْيَهُ، وَلَعَنَ إِنْلِيسَ وَطَرَدَهُ وَأَخْرَجَهُ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ارْتَكَبُهُ وَخَالَفَ فِيهِ أَمْرَهُ، وَتَحْنُّ مَعَاشِرُ الْحَمْقَى كَمَا قِيلَ:

نَصِّلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَنَرْتَحِي دَرَجَ الْجِنَانِ لِذِي النَّعِيمِ الْخَالِدِ

وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَخْرَجَ الْأَبْوَيْنِ مِنْ مَلَكُوتِهِ الْأَعْلَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَكُونُ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلَ الْخَطِيَّةِ وَأَرْفَعَ دَرَجَةً، وَقَدْ تُضْعِفُ الْخَطِيَّةُ هِمَمَتَهُ وَتُوْهِنُ عَزْمَهُ، وَتُمْرِضُ قَلْبَهُ، فَلَا يَقُوَى دَوَاءُ التَّوْبَةِ عَلَى إِعَادَتِهِ إِلَى الصِّحَّةِ الْأَوَّلِيِّ، فَلَا يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ، وَقَدْ يَزُولُ الْمَرْضُ بِحَيْثُ تَعُودُ الصِّحَّةُ كَمَا كَانَتْ وَيَعُودُ إِلَى مِثْلِ عَمَلِهِ، فَيَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ.

هَذَا كُلُّهُ إِذَا كَانَ نُزُولُهُ إِلَى مَعْصِيَةِ، فَإِنْ كَانَ نُزُولُهُ إِلَى أَمْرٍ يَقْدَحُ فِي أَصْلِ إِيمَانِهِ، مِثْلِ الشُّكُوكِ وَالرِّيَبِ وَالنُّفَاقِ، فَذَاكَ نُزُولٌ لَا يُرْجِحُ لِصَاحِبِهِ صُعُودٌ إِلَّا بِتَجْدِيدِ إِسْلَامِهِ.

\* \* \*

## [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُجَرِّي عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْدَاءَهُ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُجَرِّي عَلَى الْعَبْدِ مَا لَمْ يَكُنْ يَجْتَرِي عَلَيْهِ مِنْ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَتَجَرِّي عَلَيْهِ الشَّيَاطِينَ بِالْأَذَى وَالْإِغْوَاءِ وَالْوَسْوَسَةِ وَالتَّخْوِيفِ وَالْتَّحْزِينِ، وَإِنْسَانِهِ مَا يَهِي مَصْلَحَتُهُ فِي ذِكْرِهِ، وَمَضَرُّهُ فِي نِسْيَانِهِ، فَتَجَرِّي عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ حَتَّى تَؤْزَّهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ أَزَّهُ.

وَتَجَرِّي عَلَيْهِ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ بِمَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَذَى فِي عَيْتِهِ وَحُضُورِهِ، وَيَجْتَرِي عَلَيْهِ أَهْلُهُ وَخَدْمُهُ وَأَوْلَادُهُ وَجِيرَانُهُ حَتَّى الْحَيَوَانُ الْبَهِيمُ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنِّي لَا عُصِيَ اللَّهَ فَأَعْرِفُ ذَلِكَ فِي خُلُقِ امْرَأِي وَدَائِبِي.

وَكَذَلِكَ يَجْتَرِي عَلَيْهِ أُولَاءِ الْأَمْرِ بِالْعُقُوبَةِ الَّتِي إِنْ عَدَلُوا فِيهَا أَقَامُوا عَلَيْهِ حُدُودَ اللَّهِ، وَتَجَرِّي عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَتَتَسَدُّ عَلَيْهِ وَتَصْعُبُ عَلَيْهِ، فَلَوْ أَرَادَهَا لِخَيْرٍ لَمْ تُطَاوِعْهُ وَلَمْ تَنْقِدْهُ، وَتَسُوقُهُ إِلَى مَا فِيهِ هَلَاكُهُ، شَاءَ أَمْ أَبِي.

وَذَلِكَ لِأَنَّ الطَّاعَةَ حِصْنُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْأَمْنِينَ، فَإِذَا فَارَقَ الْحِصْنَ اجْتَرَأَ عَلَيْهِ قُطَّاعُ الطَّرِيقِ وَغَيْرُهُمْ، وَعَلَى حَسْبِ اجْتِرَائِهِ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ يَكُونُ اجْتِرَاءُ هَذِهِ الْأَفَاتِ وَالنُّفُوسِ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ يَرُدُّ عَنْهُ. فَإِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ وَطَاعَتَهُ وَالصَّدَقَةَ وَإِرْشَادَ الْجَاهِلِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهِيَّ عَنِ الْمُنْكَرِ - وِقَايَةُ

تُرُدُّ عَنِ الْعَبْدِ، بِمَنْزِلَةِ الْقُوَّةِ الَّتِي تُرُدُّ الْمَرَضَ وَتُقَاوِمُهُ، فَإِذَا سَقَطَتِ الْقُوَّةُ غَلَبَ وَارِدُ الْمَرَضِ فَكَانَ الْهَلَكُ، فَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ شَيْءٍ يُرُدُّ عَنْهُ، فَإِنَّ مُوْجَبَ السَّيِّئَاتِ وَالْحَسَنَاتِ تَتَدَافَعُ وَيَكُونُ الْحُكْمُ لِلْعَالِبِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَكُلُّمَا قَوِيَ جَانِبُ الْحَسَنَاتِ كَانَ الرَّدُّ أَفْوَى كَمَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، فِي حَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ يَكُونُ الدَّفْعُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

\* \* \*

### [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُضَعِّفُ الْعَبْدَ أَمَامَ نَصْسِهِ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَخُونُ الْعَبْدَ أَحْوَاجَ مَا يَكُونُ إِلَيْ نَفْسِهِ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَعْلَمُ النَّاسِ أَعْرَفُهُمْ بِذَلِكَ عَلَى التَّفَصِيلِ، وَأَقْوَاهُمْ وَأَكْيَسُهُمْ مَنْ قَوِيَ عَلَى نَفْسِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَاسْتَعْمَلَهَا فِيمَا يَنْفَعُهُ وَكَفَّهَا عَمَّا يَضُرُّهُ، وَفِي ذَلِكَ تَتَفَاقَوْتُ مَعَارِفُ النَّاسِ وَهَمَمُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ، فَأَعْرَفُهُمْ مَنْ كَانَ عَارِفًا بِأَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَأَرْسَدُهُمْ مَنْ آتَرَ هَذِهِ عَلَى هَذِهِ، كَمَا أَنَّ أَسْفَهُهُمْ مَنْ عَكَسَ الْأَمْرَ.

وَالْمَعَاصِي تَخُونُ الْعَبْدَ أَحْوَاجَ مَا كَانَ إِلَيْ نَفْسِهِ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْعِلْمِ، وَإِيَّاهُ الْحَظْظُ الْأَشَرَفُ الْعَالِي الدَّائِمُ عَلَى الْحَظْظِ الْخَسِيسِ الْأَدَنِي الْمُنْقَطِعِ، فَتَحْجُبُهُ الذُّنُوبُ عَنْ كَمَالِ هَذَا الْعِلْمِ، وَعَنِ الْإِسْتِعَالِ بِمَا هُوَ أَوْلَى بِهِ، وَأَنْفَعُ لَهُ فِي الدَّارِينِ.

فَإِذَا وَقَعَ مَكْرُوهٌ وَاحْتَاجَ إِلَى التَّخْلُصِ مِنْهُ، خَانَهُ قَلْبُهُ وَنَفْسُهُ وَجَوَارِحُهُ، وَكَانَ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ مَعَهُ سَيْفٌ قَدْ عَيْشَيْهُ الصَّدَأُ وَلَزِمَ قِرَابَهُ، بِحِيثُ لَا يَنْجَذِبُ مَعَ صَاحِبِهِ إِذَا جَذَبَهُ، فَعَرَضَ لَهُ عُدُوُّ يُرِيدُ قَتْلَهُ، فَوَضَعَ يَدِهِ عَلَى قَائِمٍ سَيْفِهِ وَاجْتَهَدَ لِيُخْرِجَهُ، فَلَمْ يَخْرُجْ مَعَهُ، فَدَهَمَهُ الْعَدُوُّ وَظَفَرَ بِهِ.

كَذَلِكَ الْقَلْبُ يَصْدَأُ بِالذُّنُوبِ وَيَصِيرُ مُشْخَنًا بِالْمَرَضِ، فَإِذَا احْتَاجَ إِلَى مُحَارَبَةِ الْعُدُوِّ لَمْ يَجِدْ مَعَهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَالْعَبْدُ إِنَّمَا يُحَارِبُ وَيُصَارِلُ وَيُقْدِمُ بِقَلْبِهِ، وَالْجَوَارِحُ تَبْعُدُ لِلْقَلْبِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ مَلِكِهَا قُوَّةٌ يَدْفَعُ بِهَا، فَمَا الظَّنُّ بِهَا؟

وَكَذَلِكَ النَّفْسُ فَإِنَّهَا تَخْبُثُ بِالشَّهَوَاتِ وَالْمَعَاصِي وَتَضَعُفُ، أَعْنِي النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةَ، وَإِنْ كَانَتِ الْأَمَارَةُ تَقْوَى وَتَتَسَدَّدُ، وَكُلَّمَا قَوِيَتْ هَذِهِ ضَعُفَتْ تِلْكَ، فَيَقُولُ الْحُكْمُ وَالتَّصْرُفُ لِلْأَمَارَةِ.

وَرُبَّمَا مَاتَتْ نَفْسُهُ الْمُطْمَئِنَّةُ مَوْتًا لَا يُرَتَّجِي مَعَهُ حَيَاةً يَنْتَفِعُ بِهَا، بَلْ حَيَاةً حَيَاةً يُدْرِكُ بِهَا الْأَلَمَ فَقَطْ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَقَعَ فِي شِدَّةٍ أَوْ كُرْبَةٍ أَوْ بَلِيهَةٍ حَانَهُ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ وَجَوَارِحُهُ عَمَّا هُوَ أَنْفَعُ شَيْءَ لَهُ، فَلَا يَنْجِذِبُ قَلْبُهُ لِلْتَّوْكِلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِنَاءِ إِلَيْهِ وَالْجَمْعِيَّةِ عَلَيْهِ وَالتَّضَرِّعِ وَالتَّذَلُّلِ وَالإِنْكِسَارِ بَيْنَ يَدِيهِ، وَلَا يُطَاوِعُهُ لِسَانُهُ لِذِكْرِهِ، وَإِنْ ذَكَرُهُ بِلِسَانِهِ لَمْ يَجْمِعْ بَيْنَ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، فَيَنْخِسُ الْقَلْبُ عَلَى اللِّسَانِ بِحِيثُ يُؤَثِّرُ الذِّكْرُ، وَلَا يَنْحِسُ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ عَلَى الذِّكْرِ، بَلْ إِنْ ذَكَرَ أَوْ دَعَا ذَكَرَ بِقَلْبٍ لَأَهِ سَاهِ عَافِلٍ، وَلَوْ أَرَادَ مِنْ جَوَارِحِهِ أَنْ تُعِينَهُ بِطَاعَةٍ تَدْفَعُ عَنْهُ لَمْ تَنْقَدْ لَهُ وَلَمْ تُطَاوِعْهُ.

وَهَذَا كُلُّهُ أَكْثَرُ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي كَمَنْ لَهُ جُنْدٌ يَدْفَعُ عَنْهُ الْأَعْدَاءَ، فَأَهْمَلَ جُنْدَهُ، وَضَيَّعَهُمْ، وَأَضَعَفَهُمْ، وَقَطَعَ أَخْبَارَهُمْ، ثُمَّ أَرَادَ مِنْهُمْ عِنْدَ هُجُومِ الْعُدُوِّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَقْرِغُوا وُسْعَهُمْ فِي الدَّفْعِ عَنْهُ بِغَيْرِ قُوَّةٍ.

هَذَا، وَثَمَّ أَمْرٌ أَخْوَفُ مِنْ ذَلِكَ وَأَدْهَى مِنْهُ وَأَمْرٌ، وَهُوَ أَنْ يَخْوِنَهُ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ عِنْدَ الْإِخْتَصَارِ وَالْإِنْتِقَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَرُبَّمَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ النُّطُقُ بِالشَّهَادَةِ، كَمَا شَاهَدَ النَّاسُ

## الذَّلَّةُ وَالذَّلَّةُ

كَثِيرًا مِنَ الْمُحْتَضِرِينَ أَصَابُوهُمْ ذَلِكَ، حَتَّىٰ قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: آهٌ آهٌ، لَا أَسْتَطِعُ أَنْ أَقُولَهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: شَاهٌ رُّخْ، عَلَبْتُكَ. ثُمَّ قَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ:

يَا رُبَّ قَائِلَةٍ يَوْمًا وَقَدْ تَعَبَتْ... أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَامِ مِنْجَابٍ

ثُمَّ قَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَجَعَلَ يَهْذِي بِالْغَنَاءِ وَيَقُولُ: تَاتِنَا تِينَتَا. حَتَّىٰ قَضَى

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَمَا يَنْفَعُنِي مَا تَقُولُ وَلَمْ أَدْعُ مَعْصِيَةً إِلَّا رَكِبْتُهَا؟ ثُمَّ قَضَى

وَلَمْ يَقُلْهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَمَا يُعْنِي عَنِّي، وَمَا أَعْرِفُ أَنِّي صَلَّيْتُ لِلَّهِ صَلَاةً؟ ثُمَّ قَضَى

وَلَمْ يَقُلْهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: هُوَ كَافِرٌ بِمَا تَقُولُ. وَقَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَهَا لِسَانِي يُمْسِكُ عَنْهَا.

وَأَخْبَرَنِي مَنْ حَضَرَ بَعْضَ الشَّحَادِينَ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَجَعَلَ يَقُولُ: لِلَّهِ، فِلْسُ لِلَّهِ. حَتَّىٰ

قَضَى.

وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ التُّجَارِ عَنْ قَرَابَةِ لَهُ أَنَّهُ احْتُضَرَ وَهُوَ عِنْدَهُ، وَجَعَلُوا يُلْقِنُوهُ: لَا إِلَهَ

إِلَّا اللَّهُ، وَهُوَ يَقُولُ: هَذِهِ الْقِطْعَةُ رِحِيْصَةُ، هَذَا مُشْتَرٍ جَيِّدٌ، هَذِهِ كَذَا. حَتَّىٰ قَضَى.

وَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَمْ شَاهَدَ النَّاسُ مِنْ هَذَا عِبَرَا؟ وَالَّذِي يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْوَالٍ

الْمُحْتَضِرِينَ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ.

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ فِي حَالٍ حُضُورٍ ذُهْنِهِ وَقُوَّتِهِ وَكَمَالِ إِدْرَاكِهِ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ، وَاسْتَعْمَلَهُ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَقَدْ أَغْفَلَ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَطَّلَ لِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِهِ وَجَوَارِحَهُ عَنْ طَاعَتِهِ، فَكَيْفَ الظَّنُّ بِهِ عِنْدَ سُقُوطِ قُوَّاهُ وَاسْتِغَالِ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ أَلَّمِ النَّزَعِ؟

وَجَمِيعَ الشَّيْطَانَ لَهُ كُلَّ قُوَّتِهِ وَهِمَّتِهِ، وَحَسَدَ عَلَيْهِ بِجَمِيعِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لِيَنْالَ مِنْهُ فُرْصَتَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَخِرُ الْعَمَلِ، فَأَقْوَى مَا يَكُونُ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَأَضَعَفُ مَا يَكُونُ هُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ، فَمَنْ تُرِى يَسْلِمُ عَلَى ذَلِكَ؟ فَهُنَاكَ ﴿يَتَبَّعُ اللَّهَ الَّذِينَ أَمَنُوا بِالْقَوْلِ الْثَّالِثِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضْلِلُ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعُلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: 27].

فَكَيْفَ يُوْفَقُ بِحُسْنِ الْخَاتِمَةِ مِنْ أَغْفَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِهِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا. فَبَعِيدُ مَنْ قَلْبُهُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، غَافِلٌ عَنْهُ مُتَبَدِّلٌ لِهَوَاهُ أَسِيرٌ لِشَهَوَاتِهِ، وَلِسَانُهُ يَابِسٌ مِنْ ذِكْرِهِ، وَجَوَارِحُهُ مُعَطَّلَةٌ مِنْ طَاعَتِهِ مُشْغَلَةٌ بِمَعْصِيَتِهِ - أَنْ يُوْفَقَ لِلْخَاتِمَةِ بِالْحُسْنَى.

وَلَقَدْ قَطَعَ حَوْفُ الْخَاتِمَةِ ظُهُورَ الْمُتَّقِينَ، وَكَانَ الْمُسَيِّئِينَ الظَّالِمِينَ قَدْ أَخْذُوا تَوْقِيًّا بِالْأَمَانِ ﴿أَنَّ لَكُمْ أَنْمَنَ عَلَيْنَا بَلْعَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ مَا تَحْكُمُونَ﴾ ٤١ سَلَّمُهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ ﴿٤٢﴾

[سُورَةُ الْقَلْمَ: 39 - 40]

كَمَا قِيلَ:

يَا آمِنَا مِنْ قَبِيجِ الْفَعْلِ مِنْهُ أَهْلَكَهُ  
أَتَاكَ تَوْقِيُّ أَمْنِيَّ أَنْتَ تَمْلِكُهُ  
جَمْعَتْ شَيْئَيْنِ أَمْنًا وَاتِّبَاعَ هَوَى  
هَذَا وَإِخْدَاهُمَا فِي الْمَرْءِ تُهْلِكُهُ

سَارُوا وَذَلَّكَ ذَرْبٌ لَنْتَ تَسْلُكُهُ  
فَكَيْفَ عِنْدَ حَصَادِ النَّاسِ تُدْرِكُهُ  
ذَارُ الْبَقَاءِ يَعْيِشُ سَوْفَ تَتَرْكُهُ  
مَعْبُونٌ فِي الْبَيْعِ غَبَّنَا سَوْفَ يُدْرِكُهُ

وَالْمُخْسِنُونَ عَلَى دَرْبِ الْمَحَاوِفِ قَدْ  
فَرَّطْتَ فِي الزَّرْعِ وَقْتَ الْبَذْرِ مِنْ سَفَهٍ  
هَذَا وَأَعْجَبْ شَيْءٍ مِنْكَ زُهْدُكَ فِي  
مَنِ السَّفَهِ إِذَا بِاللَّهِ أَنْتَ أَمَّ إِلَهٌ

\* \* \*

### [فصل المعاصي تعمي القلب]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا أَنَّهَا تُعمي الْقَلْبَ، فَإِنْ لَمْ تُعْمِمْهُ أَضْعَفَتْ بَصِيرَتَهُ وَلَا بُدَّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ  
بِيَانُ أَنَّهَا تُضْعِفُهُ وَلَا بُدَّ، فَإِذَا عَمِيَ الْقَلْبُ وَضَعُفَ، فَاتَّهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْهُدَى وَقُوَّتِهِ عَلَى  
تَنْفِيذِهِ فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ، بِحَسْبِ ضَعْفِ بَصِيرَتِهِ وَقُوَّتِهِ.

فَإِنَّ الْكَمَالَ الْإِنْسَانِيَّ مَدَارُهُ عَلَى أَصْلَيْنِ: مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَإِيَّاَرِهِ عَلَيْهِ.  
وَمَا تَقَوَّتْ مَنَازِلُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِقُدْرٍ تَفَاقُوتْ مَنَازِلِهِمْ  
فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، وَهُمَا اللَّذَانِ أَثْنَى اللَّهُ بِهِمَا سُبْحَانَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ بِهِمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿وَإِذْكُرْ عِبَدَنَا إِنَّرَهِمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْآيَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ [سُورَةُ ص: 45].

فَالْأَيْدِي: الْقُوَّةُ فِي تَنْفِيذِ الْحَقِّ، وَالْأَبْصَارُ: الْبَصَائِرُ فِي الدِّينِ، فَوَصَفَهُمْ بِكَمَالِ  
إِدْرَاكِ الْحَقِّ وَكَمَالِ تَنْفِيذِهِ، وَانْقَسَمَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، فَهُؤُلَاءِ أَشْرَفُ  
الْأَقْسَامِ مِنَ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

الْقُسْمُ الثَّانِي: عَكْسُ هَؤُلَاءِ، مَنْ لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي الدِّينِ، وَلَا قُوَّةَ عَلَى تَنْفِيذِ الْحَقِّ،  
وَهُمْ أَكْثَرُ هَذَا الْخَلْقِ، وَهُمُ الَّذِينَ رُؤْيَتُهُمْ قَدَى الْعَيُونِ وَحُمَّى الْأَرْوَاحِ وَسَقَمُ الْقُلُوبِ،  
يُضَيِّقُونَ الدِّيَارَ وَيُعْلُوْنَ الْأَسْعَارَ، وَلَا يُسْتَفَادُ مِنْ صُحْبَتِهِمْ إِلَّا الْعَارُ وَالشَّنَاءُ.

الْقِسْمُ الْثَالِثُ: مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ بِالْحَقِّ وَمَعْرِفَةٌ بِهِ، لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ لَا قُوَّةَ لَهُ عَلَى تَنْفِيذِهِ وَلَا الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَهَذَا حَالُ الْمُؤْمِنِ الْمُسْعِفِ، وَالْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ.

الْقِسْمُ الرَّابِعُ: مَنْ لَهُ قُوَّةٌ وَهَمَّةٌ وَعَزِيمَةٌ، لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ الْبَصِيرَةُ فِي الدِّينِ، لَا يَكَادُ يُمْيِزُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، بَلْ يَحْسُبُ كُلَّ سَوْدَاءَ تَمْرَةً وَكُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةً، يَحْسُبُ الْوَرَمَ شَحْمًا وَالدَّوَاءَ النَّافِعَ سُمًّا.

وَلَيْسَ فِي هَؤُلَاءِ مَنْ يَصْلُحُ لِلإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَلَا هُوَ مَوْضِعٌ لَهَا سَوَى الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِمَا مَرَّنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَيْنِنَا يُوَقِّنُونَ ﴾ [سُورَةُ السَّجْدَةِ: 24].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ بِالصَّبَرِ وَالْيَقِينِ نَالُوا الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ اسْتَشَنَاهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْخَاسِرِينَ، وَأَقْسَمَ بِالْعَصْرِ - الَّذِي هُوَ زَمَنُ سَعْيِ الْخَاسِرِينَ وَالرَّابِحِينَ - عَلَى أَنَّ مَنْ عَدَاهُمْ فَهُوَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، فَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَالْعَصْرُ ﴾ ۖ إِنَّ إِنْسَنَ لَفِي خَسْرٍ ۖ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبَرِ ﴾ [الْعَصْرِ: 1-3]. وَلَمْ يَكُنْتِ مِنْهُمْ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالصَّبَرِ عَلَيْهِ، حَتَّى يُوَصِّيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهِ وَيُرْسِدُهُ إِلَيْهِ وَيَحْضُهُ عَلَيْهِ.

وَإِذَا كَانَ مَنْ عَدَا هَؤُلَاءِ فَهُوَ خَاسِرٌ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبَ تُعْمِي بَصِيرَةَ الْقَلْبِ فَلَا يُدِرِكُ الْحَقَّ كَمَا يَنْبَغِي، وَتَضَعُفُ قُوَّتُهُ وَعَزِيمَتُهُ فَلَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ، بَلْ قَدْ يَتَوَارَدُ عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى يَنْعَكِسَ إِدْرَاكُهُ كَمَا يَنْعَكِسُ سَيِّرُهُ، فَيُدِرِكُ الْبَاطِلَ حَقًا وَالْحَقَّ بَاطِلًا، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا، فَيَنْتَكِسُ فِي سَيِّرِهِ وَيَرْجِعُ عَنْ سَفَرِهِ إِلَى اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، إِلَى سَفَرِهِ إِلَى مُسْتَقَرِ النُّفُوسِ الْمُبْطَلَةِ الَّتِي رَضِيَتْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاطْمَأَنَتْ

بِهَا، وَغَفَلَتْ عَنِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ، وَتَرَكَتْ الْإِسْتِعْدَادَ لِلِّقَاءِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي عُقُوبَةِ الذُّنُوبِ إِلَّا هَذِهِ وَحْدَهَا لَكَانَتْ دَاعِيَةً إِلَى تَرْكِهَا وَالْبَعْدُ مِنْهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَهَذَا كَمَا أَنَّ الطَّاعَةَ تُنَورُ الْقَلْبَ وَتَجْلُوهُ وَتَصْقِلُهُ، وَتُقَوِّيهِ وَتُبَشِّهِ حَتَّى يَصِيرَ كَالْمِرَاةِ الْمَجْلُوَةِ فِي جَلَائِهَا وَصَفَائِهَا فَيَمْتَلِئُ نُورًا، فَإِذَا دَنَا الشَّيْطَانُ مِنْهُ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ مَا يُصِيبُ مُسْتَرِقَ السَّمْعِ مِنَ الشُّهُبِ التَّوَاقِبِ، فَالشَّيْطَانُ يَفْرُقُ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ أَشَدَّ مِنْ فَرْقِ الدَّبَّابِ مِنَ الْأَسَدِ، حَتَّى إِنَّ صَاحِبَهُ لِيَصْرُعَ الشَّيْطَانَ فَيَخْرُصَرِيًّا، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا شَانَهُ؟ فَيَقُولُ: أَصَابَهُ إِنْسَيٌّ، وَبِهِ نَظْرَةٌ مِنَ الْإِنْسِنِ:

فَيَا نَظَرَةً مِنْ قَلْبِ حُرْمَنَّوِيِّ يَكَادُ لَهَا الشَّيْطَانُ بِالثُّورِ يُحْرِقُ

أَفَيْسْتَوْيِي هَذَا الْقَلْبُ وَقَلْبُ مُظْلِمٍ أَرْجَاؤُهُ، مُخْتَلِفَةٌ أَهْوَاؤُهُ، قَدْ اتَّخَذَهُ الشَّيْطَانُ وَطَنَهُ وَأَعْدَهُ مَسْكَنَهُ، إِذَا تَصَبَّحَ بِطَلْعَتِهِ حَيَاهُ، وَقَالَ: فَدَيْتُ مَنْ لَا يُفْلِحُ فِي دُنْيَاهُ وَلَا فِي أُخْرَاهُ؟

قَرِينُكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْحُشْرِ بَعْدَهَا فَأَتَتْ قَرِينَكَ لِي بِكُلِّ مَكَانٍ

فَإِنْ كُنْتَ فِي دَارِ الشَّقَاءِ فَإِنَّنِي وَأَنْتَ جَمِيعًا فِي شَقَا وَهَوَانِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ دَوِينٌ ﴾٣٢ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّيِّلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٣﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَنْبَيَّتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَسْرِقَيْنِ فِيْنَسَ الْقَرِينِينَ

وَكَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذَا ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٤﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ: 36 - 39].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ عَشَى عَنْ ذِكْرِهِ، وَهُوَ كَتَابُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَعَمِيَ عَنْهُ، وَعَشَتْ بَصِيرَتُهُ عَنْ فَهْمِهِ وَتَدْبِرِهِ وَمَعْرَفَةِ مُرَادِ اللَّهِ مِنْهُ - قَيَضَ اللَّهُ لَهُ شَيْطَانًا عُقُوبَةً لَهُ يَأْعِرَاضِهِ عَنْ كِتَابِهِ، فَهُوَ قَرِينُهُ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ فِي الْإِقَامَةِ وَلَا فِي الْمَسِيرِ، وَمَوْلَاهُ وَعَشِيرُهُ الَّذِي هُوَ بِئْسَ الْمَوْلَى وَبِئْسَ الْعَشِيرُ.

رَضِيَعَا لِبَانِ شَذِيْ أُمْ تَقَاسِمَا بِأَشَحْمَ دَاجِ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُصْدُّ قَرِينَهُ وَوَلِيهِ عَنْ سَيْلِهِ الْمُوَصِّلِ إِلَيْهِ وَإِلَى جَنَّتِهِ، وَيَحْسُبُ هَذَا الصَّالُ الْمَضْدُودُ أَنَّهُ عَلَى طَرِيقِ هُدًى، حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَرِينَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِلْآخِرِ: ﴿يَنِيتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقِينَ فِيْسَ الْقَرِينُ﴾ كُنْتَ لِي فِي الدُّنْيَا، أَضْلَلْتَنِي عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي، وَصَدَدْتَنِي عَنِ الْحَقِّ وَأَغْوَيْتَنِي حَتَّى هَلَكْتُ، وَبِئْسَ الْقَرِينُ أَنْتَ لِي الْيَوْمَ.

وَلَمَّا كَانَ الْمُصَابُ إِذَا شَارَكَهُ غَيْرُهُ فِي مُصِبَّتِهِ، حَصَلَ لَهُ بِالْتَّأْسِي نُوْعٌ تَخْفِيفٌ وَتَسْلِيَةٌ، أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ وَغَيْرُ حَاصلٍ فِي حَقِّ الْمُشْتَرِكِينَ فِي الْعَذَابِ، وَأَنَّ الْقَرِينَ لَا يَجِدُ رَاحَةً وَلَا أَدْنَى فَرَحِ بِعَذَابِ قَرِينِهِ مَعَهُ، وَإِنْ كَانَتِ الْمَصَابُ فِي الدُّنْيَا إِذَا عَمِّتْ صَارَتْ مَسْلَةً، كَمَا قَالَتِ الْخَنْسَاءُ فِي أَخْيَهَا صَحْرٍ:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي      عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتْلُتُ نَفْسِي  
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ      أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالْتَّأْسِي  
فَمَنَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذَا الْقُدْرَ مِنَ الرَّاحَةِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَقَالَ: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمُ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشَتَّكُونَ﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ: 39]

\* \* \*

## [فصل المعاichi عَدُوٌّ لَدُودٌ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا مَدَدٌ مِنَ الْإِنْسَانِ يَمْدُدُ بِهِ عَدُوَّهُ عَلَيْهِ، وَجَيْشٌ يُقَوِّيهِ بِهِ عَلَى حَرْبِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ ابْتَأَى هَذَا الْإِنْسَانَ بِعَدُوٍّ لَا يُفَارِقُهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا يَنَامُ مِنْهُ وَلَا يَعْفُلُ عَنْهُ، يَرَاهُ هُوَ وَقِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ، يَبْذُلُ جَهْدَهُ فِي مُعَادَاتِهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَلَا يَدْعُ أَمْرًا يَكِيدُهُ بِهِ يَقْدِرُ عَلَى إِيصالِهِ إِلَيْهِ إِلَّا أَوْصَلَهُ إِلَيْهِ، وَيَسْتَعِينُ عَلَيْهِ بَنِي جِنْسِهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ، فَقَدْ نَصَبَ لَهُ الْحَبَائِلَ، وَبَغَى لَهُ الْغَوَائِلَ،

وَمَدَ حَوْلَهُ الْأَشْرَاكُ، وَنَصَبَ لَهُ الْفِخَاخَ وَالشَّبَاكُ، وَقَالَ لِأَعْوَانِهِ: دُونُكُمْ عَدُوَّكُمْ وَعَدُوَّ  
أَيْكُمْ لَا يُؤْتِكُمْ وَلَا يَكُونُ حَظُّهُ الْجَنَّةَ وَحَظُّكُمُ النَّارُ، وَنَصِيبُهُ الرَّحْمَةَ وَنَصِيبُكُمُ اللَّعْنَةَ،  
وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مَا جَرَى عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ مِنَ الْخَرْزِيِّ وَالْبَعْادِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ سَبِيلٍ وَمِنْ أَجْلِهِ،  
فَابْذُلُوا جَهْدَكُمْ أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَنَا فِي هَذِهِ الْبَلِيَّةِ، إِذْ قَدْ فَاتَنَا شُرَكَةَ صَالِحِيهِمْ فِي الْجَنَّةِ.  
وَقَدْ أَعْلَمَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ عَدُوِّنَا وَأَمْرَنَا أَنْ نَأْخُذَ لَهُ أُهْبَتَهُ وَنُعْدَ لَهُ عُدَّتُهُ.

وَلَمَّا عَلِمَ سُبْحَانَهُ أَنَّ آدَمَ وَبَنِيهِ قَدْ بُلُوا بِهَذَا الْعُدُوِّ وَأَنَّهُ قَدْ سُلْطَ عَلَيْهِمْ أَمْدَهُمْ بِعَسَاكِرَ  
وَجُنُدٍ يَلْقَوْنَهُمْ بِهَا، وَأَمَدَ عَدُوَّهُمْ أَيْضًا بِجُنُدٍ وَعَسَاكِرٍ يَلْقَاهُمْ بِهَا، وَأَقَامَ سُوقُ الْجِهَادِ فِي  
هَذِهِ الدَّارِ فِي مُدَّةِ الْعُمُرِ الَّتِي هِيَ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْآخِرَةِ كَنَفْسٌ وَاحِدٌ مِنْ أَنْفَاسِهَا، وَاشْتَرَى  
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ،  
وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ وَعْدٌ مُؤَكَّدٌ عَلَيْهِ فِي أَشْرَفِ كُتُبِهِ، وَهِيَ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ  
أَنَّهُ لَا أَوْفَ فِي بِعْهِدِهِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ أَمْرَهُمْ أَنْ يَسْتَبِشُوا بِهَذِهِ الصَّفَقَةِ الَّتِي مِنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ  
قَدْرَهَا فَلَيَنْظُرُ إِلَى الْمُشْتَرِيِّ مَنْ هُوَ؟ وَإِلَى الشَّمَنِ الْمَبْدُولِ فِي هَذِهِ السَّلْعَةِ، وَإِلَى مَنْ جَرَى  
عَلَى يَدِيهِ هَذَا الْعَقْدُ، فَأَيُّ فَزْعٌ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ تِجَارَةٍ أَرْبَحُ مِنْهُ؟

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ هَذَا الْأَمْرَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ أَمْنَوْهُمْ عَلَى تَحْرِرِ شُتْجِيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ  
أَلَيْهِ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهْدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ حِلْلَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ۱۱﴾ يَعْفُرُ لَكُمْ  
ذُوبَكُمْ وَيَدْخُلُكُمْ جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْنِهَا الْأَنْهَرُ وَمَسْكِنَ طَبَيْهِ فِي جَنَّتِ عَدَنِ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ ۱۲﴾ وَأُخْرَى تُحْبَونَهَا ۝  
نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ۝ ۱۳﴾ [سُورَةُ الصَّفَّ: ۱۰ - ۱۳].

وَلَمْ يُسَلِّطْ سُبْحَانَهُ هَذَا الْعُدُوَّ عَلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي هُوَ أَحَبُّ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَيْهِ، إِلَّا  
لِأَنَّ الْجِهَادَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وَأَهْلَهُ أَرْفَعُ الْخَلْقِ عِنْدُهُ دَرَجَاتٍ، وَأَفْرَبُهُمْ إِلَيْهِ وَسِيلَةً، فَعَقَدَ

سُبْحَانَهُ لِوَاءُهُ هَذِهِ الْحَرْبِ لِخُلَاصَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ الْقَلْبُ الَّذِي مَحَلٌ مَعْرِفَتِهِ وَمَحِبَّتِهِ، وَعُبُودِيَّتِهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ، وَالْتَّوْكِلُ عَلَيْهِ وَالْإِنْبَاهَ إِلَيْهِ، فَوَلَّهُ أَمْرَ هَذِهِ الْحَرْبِ، وَأَيَّدَهُ بِجُنْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يُفَارِقُونَهُ ﴿لَهُ مُعَقِّبَتُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [سُورَةُ الرَّعْدِ: 11].

يَعْقُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كُلَّمَا ذَهَبَ بَدَلٌ جَاءَ بَدَلٌ آخَرُ يُبَشِّرُونَهُ وَيَأْمُرُونَهُ بِالْخَيْرِ وَيُحْضِنُونَهُ عَلَيْهِ، وَيَعْدُونَهُ بِكَرَامَةِ اللَّهِ وَيُصْبِرُونَهُ، وَيَقُولُونَ: إِنَّمَا هُوَ صَبْرٌ سَاعَةٌ وَقَدْ اسْتَرَحَتْ رَاحَةُ الْأَبَدِ.

ثُمَّ أَمَدَ سُبْحَانَهُ بِجُنْدٍ آخَرَ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِهِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولَهُ - ﷺ - وَأَنْزَلَ إِلَيْهِ كِتَابَهُ، فَأَرْذَادَ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِ، وَمَدَدَّاً إِلَى مَدَدِهِ، وَعُدَّةً إِلَى عُدَّتِهِ، وَأَمَدَهُ مَعَ ذَلِكَ بِالْعُقْلِ وَزِيرًا لَهُ وَمُدَبِّرًا، وَبِالْمَعْرِفَةِ مُشِيرَةً عَلَيْهِ نَاصِحَّةً لَهُ، وَبِالْإِيمَانِ مُثْبِتًا لَهُ وَمُؤْيِّدًا وَنَاصِرًا، وَبِالْيَقِينِ كَاشِفًا لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، حَتَّى كَانَ يُعَايِنُ مَا وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى أُولَيَاءُهُ وَحْزَبَهُ عَلَى جِهَادِ أَعْدَائِهِ، فَالْعُقْلُ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَيْشِهِ، وَالْمَعْرِفَةُ تَصْنَعُ لَهُ أُمُورَ الْحَرْبِ وَأَسْبَابَهَا وَمَوَاضِعَهَا الْلَّائِقَةُ بِهَا، وَالْإِيمَانُ يُبَشِّرُهُ وَيَقُوِّيُهُ وَيُصَبِّرُهُ، وَالْيَقِينُ يُقْدِمُ بِهِ وَيَحْمِلُ بِهِ الْحَمَلَاتِ الصَّادِقةَ.

ثُمَّ أَمَدَ سُبْحَانَهُ الْقَائِمَ بِهَذِهِ الْحَرْبِ بِالْقُوَّى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَجَعَلَ الْعَيْنَ طَلِيعَتَهُ، وَالْأُذُنَ صَاحِبَ خَبَرِهِ، وَاللِّسَانَ تُرْجُمَانَهُ، وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ أَعْوَانَهُ، وَأَقَامَ مَلَائِكَتَهُ وَحَمَلَةَ عَرْشِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَسْأَلُونَ لَهُ أَنْ يَقِيهِ السَّيِّئَاتِ وَيُدْخِلَهُ الْجَنَّاتِ، وَتَوَلَّى سُبْحَانَهُ الدَّفْعُ وَالدَّفَعَ عَنْهُ بِنَفْسِهِ وَقَالَ: هَؤُلَاءِ حِزْبِي، وَحِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الْمُجَادِلَة: 22].

وَهُؤُلَاءِ جُنْدِي ﴿وَإِنَّ جُنَاحَنَا هُمُ الْغَلَبُونَ﴾ [سُورَةُ الصَّافَاتِ: 173].

وَعَلَّمَ عِبَادَهُ كَيْفَيَّةَ هَذِهِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ، فَجَمَعَهَا لَهُمْ فِي أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَأَيْطُوا وَأَتَقْوَا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: 200].

وَلَا يَتَمَّ أَمْرٌ هَذَا الْجِهَادِ إِلَّا بِهِذِهِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ، فَلَا يَتَمَّ الصَّبْرُ إِلَّا بِمُصَابَرَةِ الْعَدُوِّ، وَهُوَ مُقاوِمَتُهُ وَمُنَازَلَتُهُ، فَإِذَا صَابَرَ عَدُوُّهُ احْتَاجَ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ وَهِيَ الْمُرَابِطَةُ، وَهِيَ لُزُومُ شَغْرِ الْقَلْبِ وَحِرَاسَتِهِ لِتَلَّا يَدْخُلَ مِنْهُ الْعَدُوُّ، وَلُزُومُ شَغْرِ الْعَيْنِ وَالْأَذْنِ وَاللِّسَانِ وَالْبَطْنِ وَالْأَيْدِ وَالرِّجْلِ، فَهَذِهِ الشُّغُورُ يَدْخُلُ مِنْهَا الْعَدُوُّ فَيَجُوسُ خَلَالَ الدِّيَارِ وَيُفْسِدُ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ، فَالْمُرَابِطَةُ لُزُومٌ هَذِهِ الشُّغُورِ، وَلَا يُخَلِّي مَكَانَهَا فَيُصَادِفَ الْعَدُوُّ الشَّغَرَ خَالِيًّا فَيَدْخُلُ مِنْهُ.

فَهُؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - خَيْرُ الْخَلِّي بَعْدَ النَّبِيِّنَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَعْظَمُهُمْ حِمَايَةً وَحِرَاسَةً مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقَدْ أَخْلَوْا الْمَكَانَ الَّذِي أُمْرُوا بِلُزُومِهِ يَوْمَ أُحْدِي، فَدَخَلَ مِنْهُ الْعَدُوُّ، فَكَانَ مَا كَانَ.

وَجِمَاعُ هَذِهِ الْثَّلَاثَةِ وَعَمُودُهَا الَّذِي تَقُومُ بِهِ هُوَ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَنْفَعُ الصَّبْرُ وَلَا الْمُصَابَرَةُ وَلَا الْمُرَابِطَةُ إِلَّا بِالْتَّقْوَى، وَلَا تَقُومُ التَّقْوَى إِلَّا عَلَى سَاقِ الصَّابِرِ.

الْتِقَاءُ الْجَيْشَيْنِ فَانْظُرِ الْآنَ فِيكَ إِلَى النِّقَاءِ الْجَيْشَيْنِ، وَاصْطِدَامُ الْعَسْكَرَيْنِ وَكَيْفَ تُدَالُ مَرَّةً، وَيُدَالُ عَلَيْكَ أُخْرَى؟ أَقْبَلَ مَلِكُ الْكُفَّارِ بِجُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ، فَوَجَدَ الْقَلْبَ فِي حَصْنِهِ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ مَمْلَكَتِهِ، أَمْرُهُ نَافِذٌ فِي أَعْوَانِهِ، وَجُنْدُهُ قَدْ حَفُوا بِهِ، يُقَاتِلُونَ عَنْهُ وَيُدَافِعُونَ عَنْ حَوْرَتِهِ، فَلَمْ يُمْكِنْهُمُ الْهُجُومُ عَلَيْهِ إِلَّا بِمُخَامِرَةِ بَعْضِ أَمْرَائِهِ وَجُنْدِهِ عَلَيْهِ، فَسَأَلَ عَنْ أَخْصَّ الْجُنْدِ بِهِ وَأَقْرَبِهِمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً، فَقِيلَ لَهُ: هِيَ النَّفْسُ، فَقَالَ لِأَعْوَانِهِ: ادْخُلُوا عَلَيْهَا مِنْ مُرَادِهَا، وَأَنْظُرُوا مَوَاقِعَ مَحَبَّتِهَا وَمَا هُوَ مَحْبُوبُهَا فَعِدُوهَا بِهِ وَمَنْوَهَا إِيَّاهُ وَانْقُشُوا صُورَةَ الْمَحْبُوبِ فِيهَا فِي يَقْطَاتِهَا وَمَنَامِهَا، فَإِذَا اطْمَأَنْتُ إِلَيْهِ وَسَكَنْتُ عِنْدَهُ فَاطَّرَ حُوا عَلَيْهَا كَلَالِيَّ الشَّهْوَةِ

وَخَطَا طِيفَهَا، ثُمَّ جُرُوها بِهَا إِلَيْكُمْ، فَإِذَا خَامَرَتْ عَلَى الْقَلْبِ وَصَارَتْ مَعَكُمْ عَلَيْهِ مَلْكُتُمْ ثَغْرَ الْعَيْنِ وَالْأَذْنِ وَاللِّسَانِ وَالْفَمِ وَالْيَدِ وَالرِّجْلِ، فَرَأَيْتُمُوا عَلَى هَذَا الشُّعُورِ كُلَّ الْمُرَابَطَةِ، فَمَتَى دَخَلْتُمْ مِنْهَا إِلَى الْقَلْبِ فَهُوَ قَتِيلٌ أَوْ أَسِيرٌ، أَوْ جَرِيحٌ مُشْخَنٌ بِالْجَرَاحَاتِ، وَلَا تُخْلُوا هَذِهِ الشُّعُورَ، وَلَا تُمْكِنُوا سَرِيَّةَ تَدْخُلِ فِيهَا إِلَى الْقَلْبِ فَتُتَخْرِجُكُمْ مِنْهَا، وَإِنْ عَلِيْتُمْ فَاجْتَهَدُوا فِي إِصْعَافِ السَّرِيَّةِ وَوَهْنِهَا، حَتَّى لَا تَصِلَ إِلَى الْقَلْبِ، فَإِنْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ وَصَلَتْ ضَعِيفَةً لَا تُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا.

ثَغْرُ الْعَيْنِ فَإِذَا اسْتَوْلَيْتُمْ عَلَى هَذِهِ الشُّعُورِ فَامْنَعُوا ثَغْرَ الْعَيْنِ أَنْ يَكُونَ نَظَرُهُ اعْتِيَارًا، بَلْ اجْعَلُوا نَظَرَهُ تَفَرُّجًا وَاسْتِحْسَانًا وَتَاهِيَّا، فَإِنْ اسْتَرَقَ نَظَرُهُ عِبْرَةً فَأَفْسِدُوهَا عَلَيْهِ بِنَظَرِ الْغَفْلَةِ وَالْإِسْتِحْسَانِ وَالشَّهْوَةِ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ وَأَعْلَقُ بِنَفْسِهِ وَأَخْفُ عَلَيْهِ، وَدُونَكُمْ ثَغْرَ الْعَيْنِ، فَإِنَّ مِنْهُ تَنَالُونَ بُغْيَتُكُمْ، فَإِنَّي مَا أَفْسَدْتُ بَنِي آدَمَ بِشَيْءٍ مِثْلِ النَّظَرِ، فَإِنَّي أَبْدُرُ بِهِ فِي الْقَلْبِ بَذَرَ الشَّهْوَةَ، ثُمَّ أَسْقِيَهُ بِمَاءِ الْأُمْنِيَّةِ، ثُمَّ لَا أَزَّ الْأَعْدُهُ وَأَمْنِيَّهُ حَتَّى أَقْوِيَ عَرِيمَتَهُ وَأَقْوَدُهُ بِزِمَامِ الشَّهْوَةِ إِلَى الْإِنْخِلَاعِ مِنَ الْعِصْمَةِ، فَلَا تُهْمِلُوا أَمْرَ هَذَا الشَّغْرِ وَأَفْسِدُوهُ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِكُمْ، وَهَوْنُوا عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَقُولُوا لَهُ: مِقْدَارُ نَظَرِهِ تَدْعُوكَ إِلَى تَسْبِيحِ الْخَالِقِ وَالْتَّامِلِ لِيَدِيعِ صَنِيعِهِ، وَحُسْنِ هَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي إِنَّمَا خُلِقَتْ لِيَسْتَدِلَّ بِهَا النَّاظِرُ عَلَيْهِ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ لَكَ الْعَيْنَيْنِ سُدَّى، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ الصُّورَةَ لِيَحْجُبَهَا عَنِ النَّاظِرِ، وَإِنْ ظَفَرْتُمْ بِهِ قَلِيلَ الْعِلْمِ فَاسِدَ الْعَقْلِ، فَقُولُوا لَهُ: هَذِهِ الصُّورَةُ مَظَهُرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْحَقِّ وَمَجْلِي مِنْ مَجَالِيهِ، فَادْعُوهُ إِلَى الْقَوْلِ بِالْإِتْحَادِ، فَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ فَالْقَوْلُ بِالْحُلُولِ الْعَامُ أَوِ الْخَاصُّ، وَلَا تَقْنَعُوا مِنْهُ بِدُونِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَصِيرُ بِهِ مِنْ إِخْرَانِ النَّصَارَى، فَمُرُوْهُ حِينَئِذٍ بِالْعِفَّةِ وَالصَّيَانَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَاصْطَادُوا عَلَيْهِ وَبِهِ الْجَهَالَ، فَهَذَا مِنْ أَقْرَبِ خُلَفَائِي وَأَكْبَرِ جُنْدِي، بَلْ أَنَا مِنْ جُنْدِهِ وَأَعْوَانِهِ.

\* \* \*

## [فصلٌ شَفَرُ الْأَدْنِي]

ثُمَّ امْنَعُوا شَغَرَ الْأَدْنِيِّ أَنْ يُدْخِلَ عَلَيْهِ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكُمُ الْأَمْرَ، فَاجْتَهَدُوا أَنْ لَا تُدْخِلُوا مِنْهُ إِلَّا الْبَاطِلَ، فَإِنَّهُ خَفِيفٌ عَلَى النَّفْسِ تَسْتَحِيلِهِ وَتَسْتَحِسِنُهُ، تَخْيِرُوا إِلَهُكُمْ أَعْذَبَ الْأَلْفَاطِ وَأَسْحَرَهَا لِلْأَلْبَابِ، وَامْرِجُوهُ بِمَا تَهْوَى النَّفْسُ مَرْجًا.

وَأَلْقُوا الْكَلِمَةَ فَإِنْ رَأَيْتُمْ مِنْهُ إِصْغَاءً إِلَيْهَا فَرْجُوهُ بِأَخْوَاتِهَا، وَكُلَّمَا صَادَفْتُمْ مِنْهُ اسْتِحْسَانَ شَيْءٍ فَالْهَجُوا إِلَيْهِ بِذِكْرِهِ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ هَذَا الشَّغَرِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ كَلَامِ رَسُولِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَوْ كَلَامِ النُّصَحَاءِ، فَإِنْ عُلِّبْتُمْ عَلَى ذَلِكَ وَدَخَلَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَحُولُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَهْمِهِ وَتَدْبِرِهِ وَالْتَّفَكُّرِ فِيهِ وَالْعِظَةِ بِهِ، إِمَّا بِإِدْخَالِ ضِدِّهِ عَلَيْهِ، وَإِمَّا بِتَهْوِيلِ ذَلِكَ وَتَعْظِيمِهِ وَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ قَدْ حِيلَ بَيْنَ النُّفُوسِ وَبَيْنَهُ فَلَا سَيِّلَ لَهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ حِمْلٌ يَثْقُلُ عَلَيْهَا لَا تَسْتَقِلُّ بِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِمَّا بِإِرْخَاصِهِ عَلَى النُّفُوسِ، وَأَنَّ الْإِشْتِغَالَ يُنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِمَا هُوَ أَعْلَى عِنْدَ النَّاسِ، وَأَعْزُ عَلَيْهِمْ، وَأَعْرَبُ عِنْدُهُمْ، وَزُبُونُهُ الْقَابِلُونَ لَهُ أَكْثَرُ، وَأَمَّا الْحَقُّ فَهُوَ مَهْجُورٌ، وَقَائِلُهُ مُعَرَّضٌ نَفْسَهُ لِلْعِدَادَةِ، وَالرَّاجِحُ بَيْنَ النَّاسِ أَوْلَى بِالْإِيْشَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَتُدْخِلُونَ الْبَاطِلَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ قَالِبٍ يَقْبِلُهُ وَيَخِفْ عَلَيْهِ، وَتُخْرِجُونَ لَهُ الْحَقَّ فِي كُلِّ قَالِبٍ يَكْرَهُهُ وَيَنْقُلُ عَلَيْهِ.

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ فَانْظُرْ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِينِ، كَيْفَ يُخْرِجُونَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهِيِّ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي قَالِبٍ كَثْرَةِ الْفُضُولِ، وَتَتَّبِعُ عَثَرَاتِ النَّاسِ، وَالْتَّعَرُضِ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ، وَإِلْقَاءِ الْفِتْنَ بَيْنَ النَّاسِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيُخْرِجُونَ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ وَوَصْفَ الرَّبِّ تَعَالَى بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي قَالِبِ التَّجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّكْيِيفِ، وَيُسَمُّونَ عُلُوَّ اللَّهِ عَلَى حَلْقِهِ وَاسْتِوَاءُهُ عَلَى عَرْشِهِ

وَمُبَايِتَهُ لِمَخْلُوقَاتِهِ، تَحِيرًا، وَيُسَمُّونَ نُرُولَهُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَقَوْلُهُ: مَنْ يَسْأَلْنِي فَأُعْطِيهِ، تَحْرُكًا وَأَنْتِقًا، وَيُسَمُّونَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْيَدِ وَالْوَجْهِ أَعْصَاءَ وَجَوَارِحَ، وَيُسَمُّونَ مَا يَقُولُ بِهِ مِنْ أَفْعَالِهِ حَوَادِثَ، وَمَا يَقُولُ مِنْ صِفَاتِهِ أَعْرَاضًا، ثُمَّ يَتَوَصَّلُونَ إِلَى نَفْيِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ، وَيُوَهِّمُونَ الْأَغْمَارَ وَضُعَفَاءَ الْبَصَائرِ، أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ وَسُنْنَةُ رَسُولِهِ - ﷺ - تَسْتَلِزمُ هَذِهِ الْأُمُورَ، وَيُخْرِجُونَ هَذَا التَّعْطِيلَ فِي قَالِبِ التَّنْزِيهِ وَالتَّعْظِيمِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ ضُعَفَاءُ الْعُقُولِ يَقْبِلُونَ الشَّيْءَ بِلَفْظٍ وَيَرُدُّونَهُ بِعَيْنِهِ بِلَفْظٍ آخَرَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانَ إِلَيْنَا وَالْجِنِّ يُوَحِّي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ رُّحْرَفَ الْقَوْلِ عَرَوِرًا﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: 112] فَسَمَاهُ رُّحْرُفًا، وَهُوَ بَاطِلٌ، لِأَنَّ صَاحِبَهُ يَزْخِرُ فُوْزَهُ وَيَزْنِيهُ مَا اسْتَطَاعَ، وَيُلْقِيهِ إِلَى سَمْعِ الْمَغْرُورِ فَيَغْتَرُ بِهِ. وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ لَزِمَ شَغْرَ الْأَذْنِ، أَنْ يُدْخِلَ فِيهَا مَا يَضُرُّ الْعَبْدَ وَلَا يَنْفَعُهُ، وَيَمْنَعَ أَنْ يُدْخُلَ إِلَيْهَا مَا يَنْفَعُهُ، وَإِنْ دَخَلَ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ أَفْسَدَهُ عَلَيْهِ.

\* \* \*

### [فَصْلُ شَغْرِ الْلِّسَانِ]

ثُمَّ يَقُولُ: قُومُوا عَلَى شَغْرِ الْلِّسَانِ، فَإِنَّهُ الشَّغْرُ الْأَعْظَمُ، وَهُوَ قُبَالَةُ الْمَلِكِ، فَأَجْرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَصْرُهُ وَلَا يَنْفَعُهُ، وَامْنَعُوهُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَنْفَعُهُ: مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِغْفَارِهِ، وَتَلَوَةِ كِتَابِهِ، وَنَصِيحةِ عِبَادِهِ، وَالْتَّكَلُّمُ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَيَكُونُ لَكُمْ فِي هَذَا الشَّغْرِ أَمْرًا نِعَمْيَانِ، لَا تُبَالُونَ بِأَيِّهِمَا ظَفَرْتُمْ: أَحَدُهُمَا: التَّكَلُّمُ بِالْبَاطِلِ، فَإِنَّمَا الْمُتَكَلِّمُ بِالْبَاطِلِ أَخْ مِنْ إِخْوَانِكُمْ، وَمِنْ أَكْبَرِ جُنْدِكُمْ وَأَعْوَانِكُمْ.

الثاني: السُّكُوتُ عَنِ الْحَقِّ، فَإِنَّ السَّاكِتَ عَنِ الْحَقِّ أَخْ لَكُمْ أَخْرَسُ، كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ أَخْ نَاطِقُ، وَرُبَّمَا كَانَ الْأَخُ الثَّانِي أَنْفَعَ أَخَوِيْكُمْ لَكُمْ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ النَّاصِحِ: الْمُتَكَلِّمُ بِالْبَاطِلِ شَيْطَانٌ نَاطِقُ، وَالسَّاكِتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسُ؟

فَالرَّبَاطُ الرَّبَاطُ عَلَى هَذَا الشَّغْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِحَقٍّ أَوْ يُمْسِكَ عَنْ بَاطِلٍ، وَزَيَّنُوا لَهُ التَّكَلُّمُ بِالْبَاطِلِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَخَوْفُهُ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْحَقِّ بِكُلِّ طَرِيقٍ.

وَاعْلَمُوا يَا بَنِيَّ أَنَّ شَغْرَ اللِّسَانِ هُوَ الَّذِي أَهْلِكَ مِنْهُ بَنِي آدَمَ، وَأَكْبَهُمْ مِنْهُ عَلَى مَنَّا خِرِّهُمْ فِي النَّارِ، فَكَمْ لِي مِنْ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ وَجَرِيحٍ أَخْذُهُ مِنْ هَذَا الشَّغْرِ؟

وَأُوصِيكُمْ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظُوهَا: لِيُنْطِقَ أَحَدُكُمْ عَلَى لِسَانِ أَخِيهِ مِنَ الْإِنْسِ بِالْكَلِمَةِ، وَيَكُونُ الْأَخْرُ عَلَى لِسَانِ السَّامِعِ فَيُنْطِقُ بِاِسْتِحْسَانِهَا وَتَعْظِيمِهَا وَالتَّعْجِبِ مِنْهَا وَيَطْلُبُ مِنْ أَخِيهِ إِعَادَتِهَا، وَكُونُوا أَعْوَانًا عَلَى الْإِنْسِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَادْخُلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَسْمِيَ الَّذِي أَقْسَمْتُ بِهِ لِرَبِّهِمْ حَيْثُ قُلْتُ: ﴿ قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتِنِي لَا قَعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٦ ﴾ لَمْ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْرَهُمْ شَكِيرَينَ ﴿ ١٧ ﴾ [سُورَةُ الْأَغْرَافِ ١٦ - ١٧].

أَوْمَا تَرَوْنِي قَدْ قَعَدْتُ لِابْنِ آدَمَ بِطُرْقِهِ كُلَّهَا، فَلَا يَفْوَتِنِي مِنْ طَرِيقٍ إِلَّا قَعَدْتُ لَهُ بِطَرِيقٍ غَيْرِهِ، حَتَّى أُصِيبَ مِنْهُ حَاجَتِي أَوْ بَعْضَهَا؟ وَقَدْ حَذَرُهُمْ ذَلِكَ رَسُولُهُمْ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَالَ لَهُمْ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطُرْقِهِ كُلَّهَا، وَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُّ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ فَخَالَفَهُ وَأَسْلَمَ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: أَتَهَا جُرُونَدُرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ فَخَالَفَهُ وَهَاجَرَ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: أَتَجَاهِدُ فَتُقْتَلَ فَيُقْسَمَ الْمَالُ وَتُنْكَحَ الزَّوْجَةُ؟"

فَكَهْدَا فَاقْعُدُوا لَهُمْ بِكُلِّ طُرُقِ الْخَيْرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَتَصَدَّقَ فَاقْعُدُوا لَهُ عَلَى طَرِيقِ الصَّدَّقَةِ، وَقُولُوا لَهُ فِي نَفْسِهِ: أَتَخْرِجُ الْمَالَ فَتَبَقَّى مِثْلَ هَذَا السَّائِلِ وَتَصِيرَ بِمَنْزِلَتِهِ أَنْتَ وَهُوَ سَوَاءٌ؟ أَوْ مَا سَمِعْتُمْ مَا أَلْقَيْتُ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ سَأَلَهُ آخَرُ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، قَالَ: هِيَ أَمْوَالُنَا إِذَا أَعْطَيْنَا كُمُوهَا صِرْنَا مِثْلَكُمْ.

وَاقْعُدُوا لَهُ بِطَرِيقِ الْحَجَّ، فَقُولُوا: طَرِيقُهُ مَخْوَفَةٌ مُّشَقَّةٌ، يَتَعَرَّضُ سَالِكُهَا لِتَأْفِ النَّفْسِ وَالْمَالِ، وَهَكَذَا فَاقْعُدُوا لَهُ عَلَى سَائِرِ طُرُقِ الْخَيْرِ بِالْتَّفَيِّرِ عَنْهَا وَذِكْرِ صُعُوبَتِهَا وَآفَاتِهَا، ثُمَّ اقْعُدُوا لَهُمْ عَلَى طُرُقِ الْمَعَاصِي فَحَسِّنُوهَا فِي أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ، وَزَيَّنُوهَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَاجْعَلُوا أَكْثَرَ أَعْوَانِكُمْ عَلَى ذَلِكَ النِّسَاءَ، فَمِنْ أَبْوَابِهِنَّ فَادْخُلُوهَا عَلَيْهِمْ، فَنِعْمَ الْعَوْنُونُ هُنَّ لَكُمْ.

ثُمَّ الْزَّمُوا ثَغْرَ الْيَدِينِ وَالرِّجَلَيْنِ، فَامْنَعُوهَا أَنْ تَبْطِشَ بِمَا يُضْرِبُكُمْ وَتَمْشِي فِيهِ.

### النَّفْسُ الْأَمَارَةُ

وَاعْلَمُوا أَنَّ أَكْبَرَ أَعْوَانِكُمْ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ الشُّغُورِ مُصَالَّحَةُ النَّفْسِ الْأَمَارَةِ، فَأَعْيُوهَا وَاسْتَعِينُوا بِهَا، وَأَمْدُوهَا وَاسْتَمْدُوا مِنْهَا، وَكُونُوا مَعَهَا عَلَى حَرْبِ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ، فَاجْتَهِدُوا فِي كَسْرِهَا وَإِبْطَالِ قُوَّاهَا، وَلَا سَيِّلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِقَطْعِ مَوَادَّهَا عَنْهَا، فَإِذَا انْقَطَعَتْ مَوَادُهَا وَقَوِّيَتْ مَوَادُ النَّفْسِ الْأَمَارَةِ، وَانْطَاعَتْ لَكُمْ أَعْوَانُهَا، فَاسْتَنْزِلُوا الْقَلْبَ مِنْ حِصْنِهِ، وَاعْزِلُوهُ عَنْ مَمْلَكَتِهِ، وَوَلُّوا مَكَانَهُ النَّفْسِ الْأَمَارَةِ، فَإِنَّهَا لَا تَأْمُرُ إِلَّا بِمَا نَهَا وَنَهَّنَهُ وَتُحِبُّنَهُ، وَلَا تَجِئُكُمْ بِمَا تَكْرُهُونَهُ أَبْتَهَ، مَعَ أَنَّهَا لَا تُخَالِفُكُمْ فِي شَيْءٍ تُشِيرُونَ بِهِ عَلَيْهَا، بَلْ إِذَا أَشَرْتُمْ عَلَيْهَا بِشَيْءٍ بَادَرَتْ إِلَى فِعْلِهِ، فَإِنْ أَحْسَسْتُمْ مِنَ الْقَلْبِ مُنَازِعَةً إِلَى مَمْلَكَتِهِ، وَأَرَدْتُمُ الْأَمْنَ مِنْ ذَلِكَ، فَاقْعُدُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّفْسِ عَقْدَ النِّكَاحِ، فَرَيَّنُوهَا وَجَمِّلُوهَا، وَأَرُوهَا إِيَّاهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةِ عَرُوْسٍ تُوْجَدُ، وَقُولُوا لَهُ ذُقْ طَعْمَ هَذَا الْوِصَالِ

وَالْتَّمَتُّعُ بِهَذِهِ الْعَرْوَسِ كَمَا ذُقْتَ طَعْمَ الْحَرْبِ، وَبَاشَرْتَ مَرَارَةَ الطَّعْنِ وَالصَّرْبِ، ثُمَّ وَازِنْ بَيْنَ لَدَدِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَمَرَارَةِ تِلْكَ الْمُحَارَبَةِ، فَدَعَ الْحَرْبَ تَضَعُّفًا وَزَارَهَا، فَلَيْسَتْ يَوْمٌ وَتَقْضِيَ، وَإِنَّمَا هُوَ حَرْبٌ مُتَصِّلٌ بِالْمَوْتِ، وَقَوَّاكَ تَضَعُّفُ عَنْ حَرْبٍ دَائِمٍ.

وَاسْتَعِنُوا يَا بَنِيَّ بِجُنْدِنِ عَظِيمَيْنِ لَنْ تُغْلِبُوا مَعَهُمَا:

أَحَدُهُمَا: جُنْدُ الْغَفْلَةِ، فَأَعْغَلُوا قُلُوبَ بَنِي آدَمَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَالدَّارِ الْآخِرَةِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، فَلَيْسَ لَكُمْ شَيْءٌ أَبْلَغَ فِي تَحْصِيلِ غَرَضِكُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْقُلْبَ إِذَا غَلَّ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى تَمَكَّنْتُمْ مِنْهُ وَمِنْ إِغْوَائِهِ.

الثَّانِي: جُنْدُ الشَّهَوَاتِ، فَرَيَّنُوهَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَحَسَّنُوهَا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَصُولُوا عَلَيْهِمْ بِهَذِينِ الْعَسْكَرِيْنِ، فَلَيْسَ لَكُمْ فِي بَنِي آدَمَ أَبْلَغُ مِنْهُمَا، وَاسْتَعِنُوا عَلَى الْغَفْلَةِ بِالشَّهَوَاتِ، وَعَلَى الشَّهَوَاتِ بِالْغَفْلَةِ، وَاقْرِبُوا بَيْنَ الْغَافِلِينَ، ثُمَّ اسْتَعِنُوا بِهِمَا عَلَى الدَّاكِرِ، وَلَا يَغْلِبُ وَاحِدٌ خَمْسَةً، فَإِنَّ مَعَ الْغَافِلِينَ شَيْطَانِيْنِ صَارُوا أَرْبَعَةً، وَشَيْطَانُ الدَّاكِرِ مَعَهُمْ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ جَمَاعَةً مُجْتَمِعِيْنَ عَلَى مَا يَصْرُكُمْ - مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمُذَاكِرَةِ أَمْرِهِ وَنَهِيِّهِ وَدِينِهِ، وَلَمْ تَقْدِرُوا عَلَى تَفْرِيقِهِمْ - فَاسْتَعِنُوا عَلَيْهِمْ بِبَنِي جِنْسِهِمْ مِنَ الْإِنْسَانِ الْبَطَالِيْنَ، فَقَرْبُوْهُمْ مِنْهُمْ، وَشَوُّشُوا عَلَيْهِمْ بِهِمْ، وَبِالْجُمْلَةِ فَأَعِدُّوا لِلْأُمُورِ أَقْرَانَهَا، وَادْخُلُوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَابِ إِرَادَتِهِ وَشَهْوَتِهِ، فَسَاعِدُوهُ عَلَيْهَا، وَكُونُوا لَهُ أَعْوَانًا عَلَى تَحْصِيلِهَا، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَمْرَهُمْ أَنْ يَصْبِرُوا لَكُمْ وَيُصَابِرُوْكُمْ وَيَرَبِطُوا عَلَيْكُمُ الشُّغْوَرَ، فَاصْبِرُوا أَنْتُمْ وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا عَلَيْهِمْ بِالشُّغْوَرِ، وَانْتَهِزُوا فَرَصَدَكُمْ فِيهِمْ عِنْدَ الشَّهَوَةِ وَالْغَضَبِ، فَلَا تَصْطَادُوا بَنِي آدَمَ فِي أَعْظَمِ مِنْ هَذِينِ الْمَوْطِنَيْنِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ الشَّهَوَةِ عَلَيْهِ أَغْلَبٌ وَسُلْطَانٌ غَضِيبٌ ضَعِيفٌ مَقْهُورٌ، فَخُذُّوا عَلَيْهِ طَرِيقَ الشَّهَوَةِ، وَدَعُوا طَرِيقَ الْغَضَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ الْغَضَبِ عَلَيْهِ

أَغْلَبَ، فَلَا تُخْلُوا طَرِيقَ الشَّهْوَةِ قَلْبَهُ، وَلَا تُعَطِّلُوا ثَغْرَهَا، فَإِنْ لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ، فَإِنَّهُ الْحَرِيُّ أَنْ لَا يَمْلِكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الشَّهْوَةِ، فَرَوْجُوا يَنِّيْنَ عَصَبِهِ وَشَهْوَتِهِ، وَامْرُجُوا أَحَدُهُمَا بِالْأَخْرِ، وَادْعُوهُ إِلَى الشَّهْوَةِ مِنْ بَابِ الْغَضَبِ، وَإِلَى الْعَضَبِ مِنْ طَرِيقِ الشَّهْوَةِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ فِي بَيْنِ آدَمَ سِلَاحٌ أَبْلَغُ مِنْ هَذِينِ السَّلَاحِينِ، وَإِنَّمَا أَخْرَجْتُ أَبْوَيْهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ بِالشَّهْوَةِ، وَإِنَّمَا أَقْيَتُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ أَوْلَادِهِمْ بِالْغَضَبِ، فِيهِ قَطَّعْتُ أَرْحَامَهُمْ، وَسَفَكْتُ دِمَاءَهُمْ، وَبِهِ قَتَّلَ أَحَدُ أَبْنَيِ آدَمَ أَخَاهُ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، وَالشَّهْوَةَ تُثْوِرُ مِنْ قَلْبِهِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ وَالصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَالْتَّكْبِيرِ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُمْكِنُوا ابْنَ آدَمَ عِنْدَ غَضَبِهِ وَشَهْوَتِهِ مِنْ قُرْبَانِ الْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطْفِئُ عَنْهُمْ نَارَ الْغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ، وَقَدْ أَمْرَهُمْ بَيْهُمْ بِذَلِكَ فَقَالَ: "إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَّا رَأَيْتُمْ مِنْ أَحْمَرَارِ عَيْنِيهِ وَأَنْتَفَاخِ أَوْدَاجِهِ، فَمَنْ أَحَسَّ بِذَلِكَ فَلَيَتَوَضَّأْ".

وَقَالَ لَهُمْ: "إِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ"، وَقَدْ أَوْصَاهُمُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَعِينُوا عَلَيْكُمْ بِالصَّبَرِ وَالصَّلَاةِ، فَحُولُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَأَنْسُوهُمْ إِيَّاهُ، وَاسْتَعِينُوا عَلَيْهِمْ بِالشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ، وَأَبْلَغُ أَسْلِحَتِكُمْ فِيهِمْ وَأَنْكَاهَا: الْغَفْلَةُ وَاتِّبَاعُ الْهَوَى. وَأَعْظَمُ أَسْلِحَتِهِمْ فِيهِمْ وَأَمْنَعُ حُصُونَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ مُخَالِفًا لِهَوَاهُ فَاهْرُبُوا مِنْ ضِلَّهِ وَلَا تَدْنُوا مِنْهُ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِي سِلَاحٌ وَمَدْدُ يَمْدُدُ بِهَا الْعَبْدُ أَعْدَاءَهُ وَيُعِينُهُمْ بِهَا عَلَى نَفْسِهِ، فَيُقَاتِلُونَ بِسِلَاحِهِ، وَيَكُونُ مَعْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، وَهَذَا غَايَةُ الْجَهَلِ.

مَا يَنْلِيْغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ مَا يَنْلِيْغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

وَمِنَ الْعَجَابِ أَنَّ الْعَبْدَ يَسْعَى بِجُهْدِهِ فِي هَوَانِ نَفْسِهِ، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُكْرِمٌ وَيَجْتَهِدُ فِي حِرْمَانِهَا أَعْلَى حُظُوْظِهَا وَأَشْرَفَهَا وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَسْعَى فِي حَظْهَا، وَيَبْذُلْ جُهْدَهُ فِي تَحْقِيرِهَا وَتَصْغِيرِهَا وَتَدْنِيسِهَا، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُعْلِيهَا وَيَرْفَعُهَا وَيُكَبِّرُهَا.

وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: أَلَا رَبُّ مُهِينٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُكْرِمٌ، وَمُذْلُّ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُعِزٌّ، وَمُصَغَّرٌ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُكَبِّرٌ، وَمُضِيعٌ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ مُرَاعٍ لِحَفْظِهَا، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهَّالًا أَنْ يَكُونَ مَعَ عَدُوِّهِ عَلَى نَفْسِهِ، يَلْغُ مِنْهَا بِفَعْلِهِ مَا لَا يَلْغِهُ عَدُوُّهُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

\* \* \*

## [فَصْلُ الْمَعْصِيَةِ تُنْسِي الْعَبْدَ نَفْسَهُ]

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُنْسِي الْعَبْدَ نَفْسَهُ، وَإِذَا نَسِيَ نَفْسَهُ أَهْمَلَهَا وَأَفْسَدَهَا وَأَهْلَكَهَا، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَنْسَى الْعَبْدُ نَفْسَهُ؟ وَإِذَا نَسِيَ نَفْسَهُ فَأَيُّ شَيْءٍ يَذْكُرُ؟ وَمَا مَعْنَى نَسِيَانِهِ نَفْسَهُ؟ قِيلَ: نَعَمْ يَنْسَى نَفْسَهُ أَعْظَمَ نَسِيَانٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَسِقُونَ ﴾ [سُورَةُ الْحَسْرَةِ: 19].

فَلَمَّا نَسُوا رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُمْ وَأَنْسَاهُمْ أَنْسَاهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَسَيِّهُمْ ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: 67].

فَعَاقَبَ سُبْحَانَهُ مَنْ نَسِيَهُ عُقُوبَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهُ أَنْسَاهُ نَفْسَهُ.

وَنِسْيَانُهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ: إِهْمَالُهُ، وَتَرْكُهُ، وَتَخْلِيَّهُ عَنْهُ، وَإِضَاعَتُهُ، فَالْهَلَاكُ أَدَمَى إِلَيْهِ مِنَ الْيَدِ لِلْفَمِ، وَأَمَّا إِنْسَاؤُهُ نَفْسَهُ، فَهُوَ: إِنْسَاؤُهُ لِحُضُورِهَا الْعَالِيَّةِ، وَأَسْبَابُ سَعَادِهَا وَفَلَاحِهَا، وَإِصْلَاحِهَا، وَمَا تَكْمُلُ بِهِ بِنْسَيِّهِ ذَلِكَ كُلُّهُ جَمِيعِهِ فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ، وَلَا يَجْعَلُهُ عَلَى ذِكْرِهِ، وَلَا يَصْرُفُ إِلَيْهِ هِمَمَتُهُ فَيُرْغَبُ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَا يَمْرُرُ بِبَالِهِ حَتَّى يَقْصِدَهُ وَيُؤْتِرُهُ.

وَأَيْضًا فَيْنِسِيَّهُ عُيُوبُ نَفْسِهِ وَنَقْصَهَا وَآفَاتِهَا، فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ إِزَالَّهَا.

وَأَيْضًا فَيْنِسِيَّهُ أَمْرَاضَ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ وَالْأَمَمَهَا، فَلَا يَخْطُرُ بِقَلْبِهِ مُدَاوَاةُهَا، وَلَا السَّعْيُ فِي إِزَالَّهَا عِلَّهَا وَأَمْرَاضِهَا الَّتِي تَوْلُ بِهَا إِلَى الْفَسَادِ وَالْهَلَاكِ، فَهُوَ مَرِيضٌ مُشْخَنٌ بِالْمَرَضِ، وَمَرَضُهُ مُتَرَامٌ بِهِ إِلَى التَّنَفِ، وَلَا يَشْعُرُ بِمَرَضِهِ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ مُدَاوَاةُهُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَةِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ.

فَأَيُّ عُقُوبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عُقُوبَةِ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ وَضَيَّعَهَا، وَنَسِيَ مَصَالِحَهَا وَدَاءَهَا وَدَوَاءَهَا، وَأَسْبَابَ سَعَادَتِهَا وَفَلَاحِهَا وَصَلَاحِهَا وَحَيَاةِهَا الْأَبَدِيَّةِ فِي النَّعِيمِ الْمُقِيمِ؟

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْمُوْضِعَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ أَكْثَرَ هَذَا الْخَلْقِ قَدْ نَسُوا حَقِيقَةَ أَنْفُسِهِمْ وَضَيَّعُوهَا وَأَضَاعُوا حَظَّهَا مِنَ اللَّهِ، وَبَاعُوهَا رَخِيْصَةً بِشَمَنٍ بَخْسٍ بَيْعَ الْغَبَنِ، وَإِنَّمَا يَظْهُرُ لَهُمْ هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ، وَيَظْهُرُ هَذَا كُلُّ الظُّهُورِ يَوْمَ التَّغَبُّنِ، يَوْمَ يَظْهُرُ لِلْعَبْدِ أَنَّهُ غُنْنَ فِي الْعَقْدِ الَّذِي عَقَدَهُ لِنَفْسِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالْتَّجَارَةِ الَّتِي اتَّجَرَ فِيهَا لِمَعَادِهِ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَتَّجَرُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِإِخْرَاتِهِ.

فَالْخَاسِرُونَ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الرِّبْحِ وَالْكَسْبِ اشْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَحَظَّهُمْ فِيهَا وَلَذَّاتِهِمْ، بِالْآخِرَةِ وَحَظِّهِمْ فِيهَا، فَأَذْهَبُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي حَيَاةِهِمُ الدُّنْيَا، وَاسْتَمْتَعُوا بِهَا،

وَرَضُوا بِهَا، وَاطْمَانُوا إِلَيْهَا، وَكَانَ سَعِيهُمْ لِتَحْصِيلِهَا، فَبَاعُوا وَاشْتَرُوا وَاتَّجَرُوا وَبَاعُوا  
آجَلًا بِعَاجِلٍ، وَسَيِّئَةً بِنَقِدٍ، وَغَائِبًا بِنَاجِزٍ، وَقَالُوا: هَذَا هُوَ الْحَزْمُ، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ:

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتُ بِهِ

فَكَيْفَ أَبِيعُ حَاضِرًا نَقْدًا مُشَاهِدًا فِي هَذِهِ الدَّارِ بِغَائِبٍ نَسِيَّةً فِي دَارٍ أُخْرَى غَيْرِ  
هَذِهِ؟ وَيَنْصُمُ إِلَى ذَلِكَ ضَعْفُ الْإِيمَانِ وَقُوَّةُ دَاعِي الشَّهْوَةِ، وَمَحَبَّةُ الْعَاجِلَةِ وَالشَّبُّهُ بِبَنِي  
الْجِنْسِ، فَأَكْثَرُ الْخَلْقِ فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِي أَهْلِهَا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ  
أَشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُحِقُّنَّ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 86]، وَقَالَ  
فِيهِمْ: ﴿فَمَا رِحْتَ بِعَرَبَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهَمَّدِينَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 16]، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ظَهَرَ  
لَهُمُ الْغَبْنُ فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ، فَتَقْطَعُ عَلَيْهِمُ النُّفُوسُ حَسَرَاتٍ.

وَأَمَّا الرَّابِحُونَ فَإِنَّهُمْ بَاعُوا فَانِيَّا بِيَاقٍ، وَخَسِيسًا بِنَفِيسٍ، وَحَقِيرًا بِعَظِيمٍ، وَقَالُوا: مَا مِقْدَارُ  
هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ أَوْلَاهَا إِلَى آخِرِهَا، حَتَّى نَبْيَعَ حَذَنَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَالدَّارِ الْآخِرَةِ بِهَا؟ فَكَيْفَ يَنَالُ  
الْعَبْدُ مِنْهَا فِي هَذَا الزَّمِنِ الْقَصِيرِ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَعَفْوَةٍ حُلْمٍ، لَا نِسْبَةٌ لَهُ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ  
الْبَتَّةِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَانَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بِيَنْهُمْ﴾ [سُورَةُ يُونُسَ: 45].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ يَأْتَانَ مُرْسَهُهَا﴾ ﴿٤١﴾ نَعَمْ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٢﴾ إِلَى رَيْكَ مُنْتَهَهَا ﴿٤٣﴾ إِنَّمَا  
أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَنَهَا ﴿٤٤﴾ كَمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ صَحَّهَا ﴿٤٥﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ: 42 - 46].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ نَهَارٍ بَلْغُ﴾ [سُورَةُ الْأَخْتَافِ: 35].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُمْ لَيَتَمُّ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِينِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَيَتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَأَلَ  
الْمَادِينَ ﴿١١٣﴾ قَدَلَ إِنْ لَيَتَمُّ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ: 112 - 114].

## الدَّارُ وَالدَّارُ

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يُنْفَحُ فِي الصُّورِ وَنَخْرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ إِذْ مِيزَ زُرْقًا ﴾ [١٠] يَتَحَفَّتُونَ بِيَنْهُمْ إِنْ لَيَشْتَمِ إِلَّا  
عَشْرًا ﴿ عَنْ أَعْلَمِ مِمَّا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيَشْتَدِ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [١٠٢] [سُورَةُ طه: 102 - 104].

فَهَذِهِ حَقِيقَةُ الدُّنْيَا عِنْدُ مُوَافَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَمَّا عَلِمُوا قِلَّةً لُّبِّهُمْ فِيهَا، وَأَنَّ لَهُمْ دَارًا  
غَيْرَ هَذِهِ الدَّارِ، هِيَ دَارُ الْحَيَاةِ وَدَارُ الْبَقَاءِ - رَأَوْا مِنْ أَعْظَمِ الْغَيْنِ بَيْعَ دَارِ الْبَقَاءِ بِدَارِ  
الْفَنَاءِ، فَاتَّجَرُوا تِجَارَةَ الْأَكْيَاشِ، وَلَمْ يَغْتَرُوا بِتِجَارَةِ السُّفَهَاءِ مِنَ النَّاسِ، فَظَهَرَ لَهُمْ يَوْمَ  
الْتَّغَابُنِ رِبْحٌ تِجَارَتِهِمْ وَمَقْدَارُ مَا اشْتَرُوهُ، وَكُلُّ أَحَدٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بَايْعٌ مُشْتَرٌ مُتَجَرٌ،  
وَكُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَاعُ نَفْسَهُ فَمَعْنَقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا.

﴿ إِنَّ اللَّهَ أَشَرَّ رَبِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَأْتِي لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْتَلُونَ فِي سَيِّلِ  
الْلَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَ اللَّهُ عَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانَ وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ  
مِنْ رَبِّهِ فَأَسْتَبِرُ وَيَبْيَعُكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْغَنُوْرُ الْعَظِيمُ ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَة: 111].

فَهَذَا أَوْلُ نَقْدٍ مِنْ ثَمَنِ هَذِهِ التِّجَارَةِ، فَتَاجَرُوا أَيْهَا الْمُفْلِسُونَ، وَيَا مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى  
هَذَا الشَّمَنِ، هُنَّا ثَمَنٌ آخَرُ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ التِّجَارَةِ فَأَعْطِ هَذَا الشَّمَنَ:

﴿ الْأَتَيْمُونَ الْعَدِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْسَّتِّحُونَ الرَّكَعُونَ الْسَّدِيدُونَ الْأَمْرُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفْظُونَ لَهُدُودُ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَة: 112].

﴿ يَتَآتِيهَا الَّذِينَ أَمْنَوْا هُنَّ أَدْلُكُمْ عَلَى بِرْرَقَ شَيْجِكُمْ مَنْ عَذَابِ أَلَّمَ  
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَهَدُونَ فِي سَيِّلِ اللَّهِ  
بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ بَرْرَقُكُمْ إِنْ كُمْ نَعْمَونَ ﴾ [سُورَةُ الصَّافَّ: 10 - 11].

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ تُنْسِي الْعَبْدَ حَظَهُ مِنْ هَذِهِ التِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، وَتَسْغَلُهُ بِالْتِجَارَةِ  
الْخَاسِرَةِ، وَكَفَى بِذَلِكَ عُقُوبَةً، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

\*\*\*

## [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمَ]

الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمَ وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ الْحَاضِرَةَ، وَتَقْطَعُ النِّعَمَ الْوَالِصَّلَةَ، فَتُزِيلُ الْحَاصِلَ، وَتَمْنَعُ الْوَالِصَّلَ، فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ مَا حُفِظَ مَوْجُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ مَفْقُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَهُ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبِبًا وَآفَةً، سَبِبًا يَجْلِبُهُ، وَآفَةً تُبْطِلُهُ، فَجَعَلَ أَسْبَابَ نِعْمَةِ الْجَالِيَةِ لَهَا طَاعَتِهِ، وَآفَاتِهَا الْمَانِعَةُ مِنْهَا مَعْصِيَتَهُ، فَإِذَا أَرَادَ حِفْظَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ أَلَّهُمَّ رِعَايَتَهَا بِطَاعَتِهِ فِيهَا، وَإِذَا أَرَادَ زَوَالَهَا عَنْهُ خَدَلَهُ حَتَّى عَصَاهُ بِهَا.

وَمِنَ الْعَجَبِ عِلْمُ الْعَبْدِ بِذَلِكَ مُشَاهَدَةً فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَسَمَاعًا لِمَا غَابَ عَنْهُ مِنْ أَخْبَارٍ مَنْ أُزِيلَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَنْهُمْ بِمَعَاصِيهِ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، كَانَهُ مُسْتَشْنَى مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، أَوْ مَخْصُوصٌ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ، وَكَانَ هَذَا أَمْرٌ جَارٍ عَلَى النَّاسِ لَا عَلَيْهِ، وَوَاصِلٌ إِلَى الْخَلْقِ لَا إِلَيْهِ، فَأَيُّ جَهْلٍ أَبْلَغَ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ ظُلْمٍ لِلنَّفْسِ فَوْقَ هَذَا؟ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ.

\* \* \*

## [فَصْلُ الْمَعْصِيَةِ تُبَاعِدُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْمَلِكِ]

الْمَعْصِيَةُ تُبَاعِدُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْمَلِكِ وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُبَاعِدُ عَنِ الْعَبْدِ وَلَيْهِ وَأَنْفَعَ الْخَلْقِ لَهُ وَأَنْصَحَهُمْ لَهُ، وَمَنْ سَعَادَتْهُ فِي قُرْبِهِ مِنْهُ، وَهُوَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ، وَتُدْنِي مِنْهُ عَدُوَّهُ وَأَغْشَى الْخَلْقِ لَهُ، وَأَعْظَمَهُمْ ضَرَرًا لَهُ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَصَى اللَّهَ تَبَاعَدَ مِنْهُ الْمَلَكُ بِقَدْرِ تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ، حَتَّى إِنَّهُ يَتَبَاعَدُ مِنْهُ بِالْكِذْبَةِ الْوَاحِدَةِ مَسَافَةً بَعِيدَةً.

وَفِي بَعْضِ الْأَثَارِ: إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعِدَ مِنْهُ الْمَلَكُ مِيلًا مِنْ نَنْ رِيحِهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا تَبَاعِدَ الْمَلَكُ مِنْهُ مِنْ كِذْبَتِهِ وَاحِدَةٌ، فَمَاذَا يَكُونُ مِقْدَارُ بُعْدِهِ مِنْهُ مِمَّا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَفْحَشُ مِنْهُ؟

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا رُكِبَ الذَّكَرُ عَجَّتِ الْأَرْضُ إِلَى اللَّهِ وَهَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ إِلَى رَبِّهَا، وَشَكَّتِ إِلَيْهِ عَظِيمًا مَا رَأَتْ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ ابْتَدَرَهُ الْمَلَكُ وَالشَّيْطَانُ، فَإِنْ ذَكَرَ اللَّهَ وَكَبَرَهُ وَحَمِدَهُ وَهَلَّهُ، طُرِدَ الشَّيْطَانُ وَتَوَلَّهُ الْمَلَكُ، وَإِنْ افْتَسَحَ بِغَيْرِ ذَلِكَ ذَهَبَ الْمَلَكُ عَنْهُ وَتَوَلَّهُ الشَّيْطَانُ.

وَلَا يَزَالُ الْمَلَكُ يَقْرُبُ مِنَ الْعَبْدِ حَتَّى يَصِيرَ الْحُكْمُ وَالطَّاعَةُ وَالْغَلَبةُ لَهُ، فَتَسْتَوْلَاهُ الْمَلَائِكَةُ فِي حَيَاتِهِ وَعِنْدَ مَوْتِهِ وَعِنْدَ بَعْثِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رِبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ أَسْتَقْدَمُوا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَشْرُوا بِالْحَسَنَاتِ كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ٢٠ ﴿نَحْنُ أَوْلَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا شَتَّهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَعُونَ﴾ ٢١ [سُورَةُ فُصْلِكُتْ: 30 - 31].

وَإِذَا تَوَلَّهُ الْمَلَكُ تَوَلَّهُ أَنْصَحُ الْخَلْقِ وَأَنْفَعُهُمْ وَأَبْرُهُمْ، فَثَبَّتَهُ وَعَلَّمَهُ، وَقَوَى جَنَانَهُ، وَأَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُمُ الَّذِينَ أَمْنَوْا﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: 12].

فَيَقُولُ الْمَلَكُ عِنْدَ الْمَوْتِ: لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ وَأَبْشِرْ بِالَّذِي يَسْرُكَ، وَيُبَشِّرُكَ بِالْقُولِ الْثَّالِثِ أَحْوَاجَ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَعِنْدَ الْمَوْتِ، وَفِي الْقَبْرِ عِنْدَ الْمَسَأَةِ.

فَلَيْسَ أَحَدٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ مِنْ صُحْبَةِ الْمَلَكِ لَهُ، وَهُوَ وَلِيُّهُ فِي يَقْضَاتِهِ وَمَنَامِهِ، وَحَيَاةِهِ وَعِنْدَ مَوْتِهِ وَفِي قَبْرِهِ، وَمُؤْنَسُهُ فِي وَحْشَتِهِ، وَصَاحِبُهُ فِي خَلْوَتِهِ، وَمُحَدِّثُهُ فِي سِرِّهِ،

وَيُحَارِبُ عَنْهُ عَدُوَّهُ، وَيُدَافِعُ عَنْهُ وَيُعِينُهُ عَلَيْهِ، وَيَعِدُهُ بِالْخَيْرِ وَيُبَشِّرُهُ بِهِ، وَيُحِثُّهُ عَلَى التَّصْدِيقِ بِالْحَقِّ، كَمَا جَاءَ فِي الْأَئْرِ الَّذِي يُرَوَى مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا: "إِنَّ لِلْمَلَكِ بِقْلَبٍ أَبْنَى آدَمَ لَمَّاَ، وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّاَ، فَلَمَّاَ الْمَلَكُ: إِيَّاعًا بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقًا بِالْوَعْدِ، وَلَمَّاَ الشَّيْطَانُ: إِيَّاعًا بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبًا بِالْحَقِّ".

وَإِذَا اشْتَدَ قُرْبُ الْمَلَكِ مِنَ الْعَبْدِ تَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ، وَأَلْقَى عَلَى لِسَانِهِ الْقَوْلَ السَّدِيدَ، وَإِذَا بَعْدَ مِنْهُ وَقَرُبَ الشَّيْطَانُ، تَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ، وَأَلْقَى عَلَيْهِ قَوْلَ الزُّورِ وَالْفُحْشِ، حَتَّى يُرَى الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ الْمَلَكُ وَالرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ الشَّيْطَانُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: "إِنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ" - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَكَانَ أَحَدُهُمْ يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ الصَّالِحةَ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ فَيَقُولُ: مَا أَلْقَاهُ عَلَى لِسَانِكَ إِلَّا الْمَلَكُ، وَيَسْمَعُ ضِدَّهَا فَيَقُولُ: مَا أَلْقَاهَا عَلَى لِسَانِكَ إِلَّا الشَّيْطَانُ، فَالْمَلَكُ يُلْقِي بِالْقَلْبِ الْحَقَّ وَيُلْقِي عَلَى اللِّسَانِ، وَالشَّيْطَانُ يُلْقِي الْبَاطِلَ فِي الْقَلْبِ وَيُجْرِيهِ عَلَى اللِّسَانِ.

فَمِنْ عُقُوبَةِ الْمَعَاصِي أَنَّهَا تُبْعِدُ مِنَ الْعَبْدِ وَلِيَهُ الَّذِي سَعَادَتْهُ فِي قُرْبِهِ وَمُجَاوِرَتِهِ وَمُوَالَاتِهِ، وَتُنْدِنِي مِنْهُ عَدُوَّهُ الَّذِي شَقَّأُهُ وَهَلَّأُهُ وَفَسَادُهُ فِي قُرْبِهِ وَمُوَالَاتِهِ، حَتَّى إِنَّ الْمَلَكَ لَيُنَافِحُ عَنِ الْعَبْدِ، وَيَرِدُ عَنْهُ إِذَا سَفَهَ عَلَيْهِ السَّفِيفَيْهُ وَسَبَبَهُ، كَمَا اخْتَصَمَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَجُلَانِ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمَا يَسْبُ الْآخَرَ وَهُوَ سَاقِتُهُ، فَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يَرِدُ بِهَا عَلَى صَاحِبِهِ، فَقَامَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ قُمْتَ، فَقَالَ: "كَانَ الْمَلَكُ يُنَافِحُ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ".

وَإِذَا دَعَا الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهَرِ الْغَيْبِ أَمَّنَ الْمَلَكُ عَلَى دُعَائِهِ، وَقَالَ: "وَلَكَ بِمِثْلِ".

## الدَّاعُ وَالدَّوَاعُ

وَإِذَا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ أَمْتَ الْمَلَائِكَةَ عَلَى دُعَائِهِ.

وَإِذَا أَذَنَبَ الْعَبْدُ الْمُوَحَّدُ الْمُتَبَعَ لِسَيِّلِهِ وَسُنْنَةِ رَسُولِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - اسْتَغْفِرَ لَهُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ.

وَإِذَا نَامَ الْعَبْدُ عَلَى وُضُوءِ بَاتَ فِي شِعَارِ مَلَكٍ.

فَمَلْكُ الْمُؤْمِنِ يَرُدُّ عَنْهُ وَيُحَارِبُ وَيَدَافِعُ عَنْهُ، وَيَعْلَمُهُ وَيُشَجِّعُهُ، فَلَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُسِّيَّءَ جَوَارِهِ وَيُبَالِغَ فِي أَذَاهُ وَطَرِدَهُ عَنْهُ وَإِبْعَادِهِ، فَإِنَّهُ ضَيْفُهُ وَجَارُهُ.

وَإِذَا كَانَ إِكْرَامُ الضَّيْفِ مِنَ الْأَدْمَيْنَ وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْجَارِ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ  
وَمُوْجَبَاتِهِ، فَمَا الظَّنُّ بِإِكْرَامِ أَكْرَمِ الْأَضْيَافِ، وَخَيْرِ الْجِهَانِ وَأَبْرَهُمْ؟ وَإِذَا آذَى الْعَدُوُّ  
الْمَلَكَ بِأَنْوَاعِ الْمَعَاصِي وَالظُّلُمِ وَالْفَوَاحِشِ دَعَا عَلَيْهِ رَبُّهُ، وَقَالَ: لَا جَزَّاكَ اللَّهُ خَيْرًا،  
كَمَا يَدْعُوكُمْ إِذَا أَكْرَمْتُمُ الْطَّاعَةَ وَالْإِحْسَانَ.

قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ - رضي الله عنه - : إِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ، فَاسْتَحْيُوا مِنْهُمْ وَأَكْرَمُوهُمْ.

وَلَا أَلَمَ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِي مِنَ الْكَرِيمِ الْعَظِيمِ الْقَدِيرِ، وَلَا يُحِلُّهُ وَلَا يُوَقِّرُهُ، وَقَدْ نَبَهَ  
سُبْحَانَهُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ عَيَّتُكُمْ لِحَافِظِينَ ﴾١٠ ﴿كَرَامَاتِيْنَ ﴾١١ ﴿يَعْمَلُونَ مَا تَفَعَّلُونَ ﴾١٢﴾  
[سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ: 10 - 12] أَيْ اسْتَحْيُوا مِنْ هُؤُلَاءِ الْحَافِظِينَ الْكَرَامَ وَأَكْرِمُهُمْ، وَأَجِلُّهُمْ أَنْ  
يَرَوْا مِنْكُمْ مَا تَسْتَحْيُونَ أَنْ يَرَاكُمْ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ مِثْلُكُمْ، وَالْمَلَائِكَةُ تَنَادِي مِمَّا يَتَادُّى مِنْهُ بَنُو  
آدَمَ، وَإِذَا كَانَ ابْنُ آدَمَ يَتَادُّى مِمَّنْ يَفْجُرُ وَيَعْصِي بَيْنَ يَدِيهِ، وَإِنْ كَانَ يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ، فَمَا  
الظُّنُّ يَأْذِي الْمَلَائِكَةَ الْكَرَامَ الْكَاتِيْنَ؟ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

## [فصل المعاصي مُجلبة الهالك]

وَمِنْ عُقوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَسْتَجْلِبُ مَوَادَّ هَلَالِ الْعَبْدِ مِنْ دُنْيَا وَآخِرَتِهِ، فَإِنَّ الذُّنُوبَ هِيَ أَمْرَاضٌ، مَتَى اسْتَحْكَمَتْ فَتَلَتْ وَلَا بُدَّ، وَكَمَا أَنَّ الْبَدْنَ لَا يَكُونُ صَحِيحًا إِلَّا بِغَذَاءٍ يَحْفَظُ قُوَّتَهُ، وَاسْتِفْرَاغٍ يَسْتَفِرُغُ الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ وَالْأَخْلَاطَ الرَّدِيَّةَ، الَّتِي مَتَى غَلَبَتْ أَفْسَدَتْهُ، وَحِمْيَةٌ يَمْتَنَعُ بِهَا مِمَّا يُؤْذِيهِ وَيَخْسِيَ ضَرَرَهُ، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ لَا تَسْتَمِعُ حَيَاتُهُ إِلَّا بِغَذَاءٍ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحةِ، تَحْفَظُ قُوَّتَهُ، وَاسْتِفْرَاغٍ بِالْتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، تَسْتَفِرُغُ الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ وَالْأَخْلَاطَ الرَّدِيَّةَ مِنْهُ، وَحِمْيَةٌ تُوْجِبُ لَهُ حِفْظَ الصِّحَّةِ وَتَجْنِبُ مَا يُضَادُهَا، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ اسْتِعْمَالِ مَا يُضَادُ الصِّحَّةَ.

وَالْتَّقْوَى: اسْمُ مُتَنَاؤِلٍ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الْثَّلَاثَةِ، فَمَا فَاتَ مِنْهَا فَاتَ مِنَ التَّقْوَى بِقَدْرِهِ. وَإِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَالذُّنُوبُ مُضَادَّةٌ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الْثَّلَاثَةِ، فَإِنَّهَا تَسْتَجْلِبُ الْمَوَادَّ الْمُؤْذِنَةَ وَتُوْجِبُ التَّخْطِيطَ الْمُضَادَّ لِلْحِمْيَةِ، وَتَمْنَعُ الْإِسْتِفْرَاغِ بِالْتَّوْبَةِ النَّصُوحِ. فَانْظُرْ إِلَى بَدْنِ عَلِيلٍ قَدْ تَرَكَمَتْ عَلَيْهِ الْأَخْلَاطُ وَمَوَادُ الْمَرَضِ، وَهُوَ لَا يَسْتَفِرُغُهَا، وَلَا يَحْتَمِي لَهَا، كَيْفَ تَكُونُ صِحَّتُهُ وَبَقَاوَهُ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

جِسْمُكَ بِالْحِمْيَةِ حَصَنَتَهُ      مَخَافَةً مِنْ أَلَمِ ظَارِي

وَكَانَ أَوَّلَيِ بِكَ أَنْ تَخَشَّى      مِنَ الْمَعَاصِي خَشْيَةَ الْبَارِي

فَمَنْ حَفِظَ الْقُوَّةَ بِامْتِشَالِ الْأَوَّامِ، وَاسْتَعْمَلَ الْحِمْيَةَ بِاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، وَاسْتَفَرَغَ التَّخْطِيطَ بِالْتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، لَمْ يَدْعُ لِلْخَيْرِ مَطْلَبًا، وَلَا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

\*\*\*

## فصل العقوبات الشرعية على المعاشي

فَإِنْ لَمْ تَرَدِعْكَ هَذِهِ الْعُقُوبَاتُ، وَلَمْ تَجِدْ لَهَا تَأْثِيرًا فِي قَلْبِكَ، فَأَحْضِرْهُ الْعُقُوبَاتِ  
الشَّرِيعَةُ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى الْجَرَائِمِ، كَمَا قَطَعَ الْيَدَ فِي سَرْقَةِ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمِ  
وَقَطَعَ الْيَدَ وَالرِّجْلَ فِي قَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى مَعْصُومِ الْمَالِ وَالنَّفْسِ، وَشَقَ الْجِلْدَ بِالسَّوْطِ  
عَلَى كَلِمَةٍ قَدَفَ بِهَا الْمُحْسَنُ، أَوْ قَطْرَةٍ خَمْرٍ يُدْخِلُهَا جَوْفَهُ، وَقَتْلَ بِالْحِجَارَةِ أَشْنَعَ قِتْلَةً  
فِي إِيَّالَاجِ الْحَسْفَةِ فِي فَرْجِ حَرَامٍ، وَخَفَفَ هَذِهِ الْعُقُوبَةُ عَمَّنْ لَمْ تَتِمَّ عَلَيْهِ نِعْمَةُ الْإِحْسَانِ  
بِمِائَةِ جَلْدَةٍ، وَيُنْفَى سَنَةً عَنْ وَطَنِهِ وَبَلَدِهِ إِلَى بَلَدِ الْغُرْبَةِ، وَفَرَقَ بَيْنَ رَأْسِ الْعَبْدِ وَبَدْنِهِ  
إِذَا وَقَعَ عَلَى ذَاتِ رَحْمٍ مِنْهُ، أَوْ تَرَكَ الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، أَوْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةِ كُفْرٍ، وَأَمَرَ  
بِقَتْلِ مَنْ وَطَعَ ذَكَرًا مِثْلَهُ وَقَتْلَ الْمَفْعُولَ بِهِ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ مَنْ أَتَى بِهِمَةً وَقَتْلَ الْبِهِمَةَ مَعَهُ،  
وَعَزَمَ عَلَى تَحْرِيقِ بُيُوتِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْجَمَاعَةِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ  
الَّتِي رَتَبَهَا اللَّهُ عَلَى الْجَرَائِمِ، وَجَعَلَهَا بِحِكْمَتِهِ عَلَى حَسْبِ الدَّوَاعِي إِلَى تِلْكَ الْجَرَائِمِ،  
وَحَسْبِ الْوَازِعِ عَنْهَا.

فَمَا كَانَ الْوَازِعُ عَنْهُ طَبِيعِيًّا وَمَا لَيْسَ فِي الْطَّبَاعِ دَاعٍ إِلَيْهِ اكْتُفِيَ بِالْتَّحْرِيمِ مَعَ التَّعْزِيرِ،  
وَلَمْ يُرِّتِبْ عَلَيْهِ حَدًّا، كَأَكْلِ الرَّجِيعِ، وَشُرْبِ الدَّمِ، وَأَكْلِ الْمَيْتَةِ.

وَمَا كَانَ فِي الطَّبَاعِ دَاعِيًّا إِلَيْهِ رَتَبَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ بِقَدْرِ مَفْسَدَتِهِ، وَبِقَدْرِ دَاعِيِ الطَّبَاعِ إِلَيْهِ.  
وَلَهَذَا لَمَّا كَانَ دَاعِيُ الطَّبَاعِ إِلَى الزَّنَنِ مِنْ أَفْوَى الدَّوَاعِي كَانَتْ عُقوبَتُهُ الْعَظِيمَ مِنْ أَشَدِ الْقِتَلَاتِ وَأَعْظَمِهَا، وَعُقوبَتُهُ السَّهْلَةُ أَعْلَى أَنْوَاعِ الْجَلْدِ مَعَ زِيَادَةِ التَّغْرِيبِ.  
وَلَمَّا كَانَتْ جَرِيمَةُ الْلَّوَاطِ فِيهَا الْأَمْرَانِ، كَانَ حَدَّهُ الْقَتْلُ بِكُلِّ حَالٍ، وَلَمَّا كَانَ دَاعِيِ السَّرْفَقَةِ قَوِيًّا وَمَفْسَدَتُهَا كَذِيلَكَ، قَطَعَ فِيهَا الْيَدَ.

وَتَأْمَلُ حِكْمَتَهُ فِي إِفْسَادِ الْعُضُوِ الَّذِي بَاشَرَ بِهِ الْجِنَائِيَّةَ، كَمَا أَفْسَدَ عَلَى قَاطِعِ الْطَّرِيقِ  
يَدُهُ وَرِجْلَهُ الَّتَّيْنِ هُمَا اللَّهُ قَطْعُهُ، وَلَمْ يُفْسِدْ عَلَى الْقَادِفِ لِسَانَهُ الَّذِي جَنَّى بِهِ، إِذْ مَفْسَدَتُهُ  
تَزِيدُ عَلَى مَفْسَدَةِ الْجِنَائِيَّةِ وَلَا يَبْلُغُهَا، فَاكْتَفَى مِنْ ذَلِكَ بِإِيَالَامِ جَمِيعِ بَدَنِهِ بِالْجَلْدِ.  
فَإِنْ قِيلَ: فَهَلَّا أَفْسَدَ عَلَى الرَّازِيِّ فَرْجُهُ الَّذِي بَاشَرَ بِهِ الْمَعْصِيَّةَ.

قِيلَ: لِرُوْجُوِهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّ مَفْسَدَةَ ذَلِكَ تَزِيدُ عَلَى مَفْسَدَةِ الْجِنَائِيَّةِ، إِذْ فِيهِ قَطْعُ النَّسْلِ وَتَغْرِيْصُهُ  
لِلْهَلَاكِ.

الثَّانِي: أَنَّ الْفَرْجَ عُضُوٌ مَسْتُورٌ، لَا يَحْصُلُ بِقَطْعِهِ مَقْصُودُ الْحَدِّ مِنَ الرَّدْعِ وَالزَّجْرِ  
لِأَمْثَالِهِ مِنَ الْجِنَاءِ، بِخِلَافِ قَطْعِ الْيَدِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ إِذَا قَطَعَ يَدَهُ أَبْقَى لَهُ يَدًا أُخْرَى تُعَوِّضُ عَنْهَا، بِخِلَافِ الْفَرْجِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ لَذَّةَ الزَّنَى عَمِّتْ جَمِيعَ الْبَدَنِ، فَكَانَ الْأَحْسَنُ أَنْ تَعُمَ الْعُقُوبَةُ جَمِيعَ الْبَدَنِ،  
وَذَلِكَ أَوْلَى مِنْ تَخْصِيصِهَا بِبُضْعَةِ مِنْهُ.

فَعُقوَبَاتُ الشَّارِعِ جَاءَتْ عَلَى أَتْمِ الْرُّوْجُوِهِ وَأَوْقَفَهَا لِلْعَقْلِ، وَأَقْوَمَهَا بِالْمَصْلَحةِ.  
وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الدُّنُوبَ إِنَّمَا تَرَكَّبُ عَلَيْهَا الْعُقوَبَاتُ الشَّرُّعِيَّةُ أَوْ الْقَدْرِيَّةُ أَوْ يَجْمَعُهَا  
اللَّهُ لِلْعَبْدِ، وَقَدْ يَرْفَعُهَا عَمَّنْ تَابَ وَأَحْسَنَ.

\* \* \*

## [فصل عقوبات الذنوب شرعية وقدرية]

وَعُقُوبَاتُ الذُّنُوبِ نَوْعَانِ: شَرِيعَيْهُ، وَقَدْرِيَّهُ، فَإِذَا أَقِيمَتِ الشَّرِيعَيْهُ رُفِعَتِ الْعُقُوبَةُ الْقَدْرِيَّةُ وَخَفَفَتِهَا، وَلَا يَكَادُ الرَّبُّ تَعَالَى يَجْمَعُ عَلَى الْعَبْدِ بَيْنَ الْعُقُوبَيْنِ إِلَّا إِذَا لَمْ يَفِ أَحَدُهُمَا بِرَفْعٍ مُوْجِبِ الذَّنْبِ، وَلَمْ يَكُفِ فِي زَوَالِ دَائِهِ، وَإِذَا عُطِّلَتِ الْعُقُوبَاتُ الشَّرِيعَيْهَا اسْتَحَالَتْ قَدْرِيَّةً، وَرُبَّمَا كَانَتْ أَشَدَّ مِنَ الشَّرِيعَيْهِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ دُونَهَا، وَلَكِنَّهَا تَعُمُّ، وَالشَّرِيعَيْهَا تَخُصُّ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُعَاقِبُ شَرْعًا إِلَّا مِنْ بَاشَرَ الْجِنَانَيَةَ أَوْ تَسَبَّبَ إِلَيْهَا.

وَأَمَّا الْعُقُوبَةُ الْقَدْرِيَّةُ فَإِنَّهَا تَقْعُدُ عَامَةً وَخَاصَّةً، فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا خَفِيتْ لَمْ تَضَرَّ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَإِذَا أُعْلِنَتْ ضَرَّتِ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ، وَإِذَا رَأَى النَّاسُ الْمُنْكَرَ فَتَرَكُوا إِنْكَارَهُ أَوْ شَكَ أَنْ يُعْمَمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْعُقُوبَةَ الشَّرِيعَيَّةَ شَرَعَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ مَفْسَدَةِ الذَّنْبِ وَتَقَاضِيِّ الطَّبَعِ لَهَا، وَجَعَلَهَا سُبْحَانَهُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعَ: الْقَتْلُ وَالْقِطْعَ وَالْجَلْدُ، وَجَعَلَ الْقَتْلَ بِإِزَاءِ الْكُفُرِ وَمَا يَلِيهِ وَيَقْرُبُ مِنْهُ، وَهُوَ الزَّنَا وَاللَّوَاطُ، فَإِنَّ هَذَا يُفْسِدُ الْأَدِيَانَ، وَهَذَا يُفْسِدُ الْأَنْسَابَ وَنَوْعَ الْإِنْسَانِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: لَا أَعْلَمُ بَعْدَ الْقَتْلِ ذَبِّاً أَعْظَمَ مِنَ الزَّنَا، وَاحْتَجَ بِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنْهُ قَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟" قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ أَنْ تُرْزَانِي بِحَلِيلَةِ جَارِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَهَا" ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَكُمْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخْرَى﴾ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ أَلَّا حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَرْزُونَكُمْ ﴿سُورَةُ الْفُرْقَانِ 68﴾.

وَالنَّبِيُّ - ﷺ - ذَكَرَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ أَعْلَاهُ لِيُطَابِقَ جَوَابُهُ سُؤَالَ السَّائِلِ، فَإِنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ أَعْظَمِ الدَّنَبِ، فَأَجَابَهُ بِمَا تَضَمَّنَ ذِكْرَ أَعْظَمِ أَنْواعِهَا، وَمَا هُوَ أَعْظَمُ كُلِّ نَوْعٍ.  
فَأَعْظَمُ أَنْواعِ الشَّرِّ كَأَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدُ لِلَّهِ نِدًّا.

وَأَعْظَمُ أَنْواعِ الْقَتْلِ: أَنْ يُقْتَلَ وَلَدُهُ خَشِيَّةً أَنْ يُشَارِكُهُ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ.  
وَأَعْظَمُ أَنْواعِ الزِّنَا: أَنْ يَرْزِنِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ، فَإِنَّ مَفْسَدَةَ الزِّنَا تَضَعَّفُ بِتَضَاعُفِ مَا انْتَهَكَهُ مِنَ الْحَقِّ.

فَالزِّنَا بِالْمَرْأَةِ الَّتِي لَهَا زَوْجٌ أَعْظَمُ إِثْمًا وَعَقُوبَةً مِنَ الَّتِي لَا زَوْجٌ لَهَا، إِذْ فِيهِ انتِهَاكُ  
حُرْمَةِ الزَّوْجِ، وَإِفْسَادُ فِرَاشِهِ وَتَعْلِيقُ نَسِبِ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْواعِ أَذَادُ،  
فَهُوَ أَعْظَمُ إِثْمًا وَجُرْمًا مِنَ الزِّنَا بِغَيْرِ ذَاتِ الْبَعْلِ.

فَالرِّزْنَا بِمِائَةِ امْرَأَةٍ لَا زَوْجٌ لَهَا أَيْسَرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرِّزْنَا بِامْرَأَةِ الْجَارِ، فَإِنْ كَانَ زَوْجُهَا جَارًا  
لَهُ انْضَافٌ إِلَى ذَلِكَ سُوءُ الْجُوَارِ، وَأَذَى جَارِهِ بِأَعْلَى أَنْواعِ الْأَذَى وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْبَوَائِقِ.  
وَقَدْ ثَبَّتَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمُنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ" وَلَا  
بِأَيْقَةَ أَعْظَمُ مِنَ الرِّزْنَا بِامْرَأَةِ الْجَارِ.

فَإِنْ كَانَ الْجَارُ أَخَاهُ لَهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْ أَقْارِبِهِ انْضَمَ إِلَى ذَلِكَ قَطْيَعَةِ الرَّحِمِ، فَيَتَضَاعَفُ الْإِثْمُ  
لَهُ، فَإِنْ كَانَ الْجَارُ غَائِبًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ كَالصَّلَاةِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ تَضَاعَفَ لَهُ الْإِثْمُ، حَتَّى  
إِنَّ الرَّازِيَ بِامْرَأَةِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوقَفُ لَهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ خُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شَاءَتْ.  
قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: فَمَا ظَنُّكُمْ؟ أَيْ مَا ظَنُّكُمْ أَنَّهُ يَتَرُكُ لَهُ حَسَنَاتِهِ، قَدْ حُكِّمَ فِي أَنْ  
يَأْخُذَ مِنْهَا مَا شَاءَ؟ عَلَى شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى حَسَنَةٍ وَاحِدَةٍ، حَيْثُ لَا يَتَرُكُ الْأَبُ لِإِيْنِهِ وَلَا  
الصَّدِيقُ لِصَدِيقِهِ حَقًّا يَحْبُّ عَلَيْهِ، فَإِنْ اتَّقَ أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ رَحِمًا مِنْهُ انْضَافٌ إِلَى ذَلِكَ

قطيعة رحيمها، فإن اتفق أن يكون الزاني محسناً كان الإثم أعظم، فإن كان شيئاً كان أعظم إثماً، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيمة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، فإن افترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بليل حرام أو وقت معظم عند الله، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة، تضاعف الإثم. وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة، والله المستعان.

\*\*\*

### [فصل القطع لإفساد الأموال]

وجعل سبحانه القطع بإزاء إفساد الأموال الذي لا يمكن إلا احتراز منه، لأنه يأخذ الأموال في الاختفاء، وينصب الدور، ويتسور من غير الأبواب، فهو كالس سور والحياة التي تدخل عليك من حيث لا تعلم، فلم ترتفع مفسدة سرقته إلى القتل، ولا تندفع بالجلد، فاحسن ما دفعت به مفسدته إبانة العضو الذي يتسلط به على الجنابة، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف.

فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة، كما دارت الكوارات على ثلاثة أنواع: العتيق، وهو أعلاها، والإطعام، والصيام.

### أقسام الذنب

ثم إن سبحانه جعل الذنب ثلاثة أقسام:

قسمًا فيه الحد، فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء بالحد.

وقسمًا لم يرتب عليه حدًا، فشرع فيه الكفارة، كالوطء في نهار رمضان، والوطء في الإحرام، والظهار، وقتل الخطأ، والحنث في اليمين وغير ذلك.

وَقِسْمًا لَمْ يُرْتَبْ عَلَيْهِ حَدًّا وَلَا كَفَّارَةً، وَهُوَ نَوْعًا:

أَحَدُهُمَا: مَا كَانَ الْوَارِعُ عَنْهُ طَبِيعَيًّا، كَأَكْلِ الْعَذْرَةِ، وَشُرْبِ الْبُولِ وَالدَّمِ.

وَالثَّانِي: مَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَدْنَى مِنْ مَفْسَدَةِ مَا رُتْبَ عَلَيْهِ الْحَدُّ، كَالنَّظَرِ وَالْقُبْلَةِ وَاللَّمْسِ وَالْمُحَادَثَةِ، وَسَرِقَةِ فِلْسٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

### الْكَفَّارَاتُ فِي ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ

وَشَرَعَ الْكَفَّارَاتِ فِي ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

أَحَدُهَا: مَا كَانَ مُبَاحَ الْأَصْلِ، ثُمَّ عَرَضَ تَحْرِيمُهُ فَبَاشَرَهُ فِي الْحَالَةِ الَّتِي عَرَضَ فِيهَا التَّحْرِيمُ، كَالْوَطْءِ فِي الْإِحْرَامِ وَالصَّيَامِ، وَطَرْدُهُ: الْوَطْءُ فِي الْحَيْضِرِ وَالنَّفَاسِ، بِخِلَافِ الْوَطْءِ فِي الدُّبُرِ، وَلِهَذَا كَانَ إِلَحْاقُ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ لَهُ بِالْوَطْءِ فِي الْحَيْضِرِ لَا يَصْحُّ، فَإِنَّهُ لَا يُبَاحُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ التَّنْوُطِ، وَشُرْبِ الْمُسْكِرِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: مَا عُقِدَ لِلَّهِ مِنْ نَذْرٍ أَوْ بِاللَّهِ مِنْ يَمِينٍ، أَوْ حَرَّمَهُ اللَّهُ ثُمَّ أَرَادَ حِلَّهُ، فَشَرَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حِلَّهُ بِالْكَفَّارَةِ وَسَمَّاهَا نِحْلَةً، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْكَفَّارَةُ مَا حَيَّهُ لِهَنَاكِ حُرْمَةُ الْإِسْمِ بِالْحِنْثِ، كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ، فَإِنَّ الْحِنْثَ قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا، وَقَدْ يَكُونُ مُسْتَحْبَبًا، وَقَدْ يَكُونُ مُبَاحًا، وَإِنَّمَا الْكَفَّارَةُ حِلٌّ لِمَا عَقَدَهُ.

النَّوْعُ الثَّالِثُ: مَا تَكُونُ فِيهِ جَابِرَةً لِمَا فَاتَ، كَكَفَارَةِ قَتْلِ الْخَطَأِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِثْمٌ، وَكَفَارَةِ قَتْلِ الصَّيْدِ حَطَّاً، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْجَوَابِرِ، وَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنْ بَابِ الزَّوَاجِرِ، وَالنَّوْعُ الْوَسْطُ مِنْ بَابِ التَّحِلَّةِ لِمَا مِنْهُ الْعَقْدُ.

## لَا يَجْتَمِعُ الْحَدُّ وَالْتَّعْزِيرُ

لَا يَجْتَمِعُ الْحَدُّ وَالْتَّعْزِيرُ فِي مَعْصِيَةٍ، بَلْ إِنْ كَانَ فِيهَا حَدٌّ أَكْتُفِيَ بِهِ وَإِلَّا أَكْتُفِيَ  
بِالْتَّعْزِيرِ، وَلَا يَجْتَمِعُ الْحَدُّ وَالْكَفَّارَةُ فِي مَعْصِيَةٍ، بَلْ كُلُّ مَعْصِيَةٍ فِيهَا حَدٌّ فَلَا كَفَّارَةَ  
فِيهَا، وَمَا فِيهِ كَفَّارَةٌ فَلَا حَدٌّ فِيهِ، وَهُلْ يَجْتَمِعُ التَّعْزِيرُ وَالْكَفَّارَةُ فِي الْمَعْصِيَةِ الَّتِي لَا  
حَدٌّ فِيهَا؟

فِيهِ وَجْهَانِ: وَهَذَا كَالْوَطْءُ فِي الْإِحْرَامِ وَالصَّيَامِ، وَوَطْءُ الْحَائِضِ، وَإِذَا أَوْجَبَنَا فِيهِ  
الْكَفَّارَةَ، فَقَيْلَ: يَحِبُّ فِيهِ التَّعْزِيرُ لِمَا اتَّهَكَ مِنَ الْحُرْمَةِ بِرُكُوبِ الْجِنَانِيَّةِ، وَقَيْلَ: لَا تَعْزِيرٌ  
فِي ذَلِكَ، اكْتِفَاءٌ بِالْكَفَّارَةِ لِأَنَّهَا جَابِرَةٌ وَمَاحِيَّةٌ.

\* \* \*

## [الْعُقوَبَاتُ الْقَدَرِيَّةُ عَلَى الْقُلُوبِ]

الْعُقوَبَاتُ الْقَدَرِيَّةُ وَأَمَّا الْعُقوَبَاتُ الْقَدَرِيَّةُ فَهِيَ نَوْعَانِ: نَوْعٌ عَلَى الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ،  
وَنَوْعٌ عَلَى الْأَبْدَانِ وَالْأَمْوَالِ.

وَالَّتِي عَلَى الْقُلُوبِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: آلَامٌ وَجُودِيَّةٌ يُضَرِّبُ بِهَا الْقَلْبُ.

وَالثَّانِي: قَطْعُ الْمَوَادِ الَّتِي بِهَا حَيَاْتُهُ وَصَلَاحُهُ عَنْهُ.

وَإِذَا قُطِعَتْ عَنْهُ حَصَلَ لَهُ أَصْدَادُهَا، وَعُقوَبَةُ الْقُلُوبِ أَشَدُّ الْعُقوَبَتَيْنِ، وَهِيَ أَصْلُ  
عُقوَبَةِ الْأَبْدَانِ.

الدَّاءُ وَالدَّوَاءُ

وَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ تَقْوَى وَتَتَزَادُ، حَتَّى تَسْرِي مِنَ الْقَلْبِ إِلَى الْبَدَنِ، كَمَا يَسْرِي الْأَمْرُ الْبَدَنِ إِلَى الْقَلْبِ، فَإِذَا فَارَقَتِ النَّفْسُ الْبَدَنَ صَارَ الْحُكْمُ مُتَعَلِّقاً بِهَا فَظَاهَرَتْ عُقُوبَةُ الْقَلْبِ حِينَئِذٍ، وَصَارَتْ عَلَانِيَةً ظَاهِرَةً، وَهِيَ الْمُسَمَّاةُ بِعَذَابِ الْقَبِيرِ، وَنَسْبَتُهُ إِلَى الْبَرْزَخِ كَنْسِيَّةِ عَذَابِ الْأَبَدَانِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ.

## فصل العقوبات القدرية على الأبدان

وَالَّتِي عَلَى الْأَبْدَانِ أَيْضًا نَوْعَانِ:

## نوع في الدنيا.

وَنَوْعٌ فِي الْآخِرَةِ.

وَشَدَّتُهَا وَدَوَامُهَا بِحَسْبِ مَفَاسِدِ مَا رُتِبَتْ عَلَيْهِ فِي الشَّدَّةِ وَالْخُلْقَةِ، فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ شَرُّ أَصْلًا إِلَّا الذُّنُوبُ وَعَقُوبَاتُهَا، فَالشَّرُّ اسْمُ لِذَلِكَ كُلُّهُ، وَأَصْلُهُ مِنْ شَرِّ النَّفْسِ  
وَسَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ، وَهُمَا الْأَصْلَانُ اللَّذَانِ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْتَعِيْدُ مِنْهُمَا فِي خُطْبَتِهِ  
بِقَوْلِهِ: وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا".

وَسَيِّئَاتُ الْأَعْمَالِ مِنْ شُرُورِ النَّفْسِ، فَعَادَ الشَّرُّ كُلُّهُ إِلَى شَرِّ النَّفْسِ، فَإِنَّ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ مِنْ فُرُوعِهِ وَثَمَرَاتِهِ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: "وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا" هَلْ مَعْنَاهُ: السَّيِّئُ مِنْ أَعْمَالِنَا، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ النَّوْعِ إِلَى جُنْسِهِ، أَوْ تَكُونُ مِنْ "بَيَانِيَّةً"؟ وَقَدْ قِيلَ: مَعْنَاهُ: مِنْ عُقُوبَاتِهَا الَّتِي تَسْوُءُ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: وَمِنْ عُقُوبَاتِ أَعْمَالِنَا الَّتِي تَسْوُءُنَا، وَيُرِجَحُ هَذَا الْقَوْلُ: أَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ

تَكُونُ قَدْ تَضَمَّنَتْ جَمِيعَ الشَّرِّ، فَإِنَّ شُرُورَ الْأَنْفُسِ سَتَلِزُمُ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ، وَهِيَ سَتَلِزُمُ الْعُقُوبَاتِ السَّيِّئَةَ، فَنَبْهَ شُرُورِ الْأَنْفُسِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ مِنْ قُبْحِ الْأَعْمَالِ، وَأَكْنَفَى بِذِكْرِهَا مِنْهُ، أَوْ هِيَ أَصْلُهُ ثُمَّ ذَكَرَ غَايَةَ الشَّرِّ وَمُنْتَهَاهُ، فَهُوَ السَّيِّئَاتُ الَّتِي تَسُوءُ الْعَبْدَ مِنْ عَمَلِهِ، مِنَ الْعُقُوبَاتِ وَالآلَامِ، فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْإِسْتِعَاذَةُ أَصْلَ الشَّرِّ وَفُرُوعَهُ وَغَايَتَهُ وَمُقْتَضَاهُ.

وَمِنْ دُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ قَوْلُهُمْ: ﴿ وَقَيْمُ الْسَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقَوَّلَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحْمَتَهُ ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: 9].

فَهَذَا يَتَضَمَّنُ طَلَبَ وِقَائِتِهِمْ مِنْ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ وَعُقُوبَاتِهَا الَّتِي تَسُوءُ صَاحِبَهَا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَتَى وَقَاهُمْ عَمَلَ السَّيِّئَ وَقَاهُمْ جَزَاءَ السَّيِّئِ، وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿ وَمَنْ تَقَوَّلَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحْمَتَهُ ﴾ أَظْهَرَ فِي عُقُوبَاتِ الْأَعْمَالِ الْمَطْلُوبِ وِقَائِتِهَا يَوْمَئِذٍ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ سَأَلُوهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقِيَّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، وَهَذَا هُوَ وِقَائِيَةُ الْعُقُوبَاتِ السَّيِّئَةِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّيِّئَةِ الَّتِي سَأَلُوا وِقَائِتَهَا، الْأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ، يَكُونُ الَّذِي سَأَلَهُ الْمَلَائِكَةُ نَظِيرًا مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيُّ - ﷺ - .

وَلَا يَرُدُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ: "يَوْمَئِذٍ" إِنَّ الْمَطْلُوبَ وِقَائِيَةُ شُرُورِ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ ذَلِكَ الْيَوْمُ، وَهِيَ سَيِّئَاتُ فِي أَنفُسِهَا.

قِيلَ: وِقَائِيَةُ السَّيِّئَاتِ نُوْعَانٌ.

أَحَدُهُمَا: وِقَائِيَةُ فِعْلِهَا بِالْتَّوْفِيقِ فَلَا تَصُدُّ مِنْهُ.

وَالثَّانِي: وِقَائِيَةُ جَزَائِهَا بِالْمَغْفِرَةِ، فَلَا يُعَاقِبُ عَلَيْهَا، فَتَضَمَّنَتِ الْأَيُّهُ سُؤَالُ الْأَمْرَيْنِ، وَالظَّرْفُ تَقْيِيدٌ لِلْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ لَا لِلْجُمْلَةِ الطَّلَبِيَّةِ.

وَتَأْمَلُ مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْخَبْرُ عَنِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ مَدْحِهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَقَدْمُوا بَيْنَ يَدِي اسْتِغْفَارِهِمْ تَوَسُّلَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِسَعَةٍ عِلْمِهِ وَسَعَةٍ رَحْمَتِهِ، فَسَعَةُ عِلْمِهِ يَتَضَمَّنُ عِلْمَهُ بِذُنُوبِهِمْ وَأَسْبَابِهَا وَضَعْفِهِمْ عَنِ الْعِصْمَةِ، وَاسْتِيَلَاءُ عَدُوِّهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَهَوَاهُمْ وَطَبَاعِهِمْ وَمَا زَرَّنَ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَزَيَّتَهَا، وَعِلْمَهُ بِهِمْ إِذْ أَنْشَأَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذْ هُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَعِلْمَهُ السَّابِقُ بِأَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَعْصُوُهُ، وَأَنَّهُ يُحِبُّ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ سَعَةِ عِلْمِهِ الَّذِي لَا يُحِيطُ بِهِ أَحَدٌ سِوَاهُ.

وَسَعَةُ رَحْمَتِهِ تَضَمَّنَ أَنَّهُ لَا يَهْلُكُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ أَهْلٌ تَوْحِيدِهِ وَمَحَبَّتِهِ، فَإِنَّهُ وَاسِعُ الرَّحْمَةِ لَا يُخْرِجُ عَنْ دَائِرَةِ رَحْمَتِهِ إِلَّا الْأَشْقِيَاءَ، وَلَا أَشْقَى مِمَّنْ لَمْ تَسْعَهُ رَحْمَتُهُ الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لِلْتَّائِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا سَبِيلَهُ، وَهُوَ صِرَاطُهُ الْمُوَصِّلُ إِلَيْهِ الَّذِي هُوَ مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَطَاعَتُهُ، فَتَابُوا مِمَّا يَكْرُهُ، وَاتَّبَعُوا السَّبِيلَ الَّتِي يُحِبُّهَا، ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يَقِيَّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، وَأَنْ يُدْخِلَهُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُصُولِهِمْ وَفُرُوعِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ جَنَّاتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدَهُمْ بِهَا، وَهُوَ سُبْحَانُهُ، وَإِنْ كَانَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَإِنَّهُ وَعَدَهُمْ بِهَا بِأَسْبَابٍ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا: دُعَاءُ مَلَائِكَتِهِ لَهُمْ أَنْ يُدْخِلُهُمْ إِيَّاهَا بِرَحْمَتِهِ الَّتِي مِنْهَا أَنْ وَفَّقَهُمْ لِأَعْمَالِهِمْ وَأَقَامَ مَلَائِكَتَهُ يَدْعُونَ لَهُمْ بِهَا.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ مَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ قَالُوا عَقِيبَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: 8].

أَيْ مَصْدَرُ ذَلِكَ وَسَبَبُهُ وَغَایَتُهُ صَادِرٌ عَنْ كَمَالٍ قُدْرَتِكَ وَكَمَالٍ عِلْمِكَ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ كَمَالُ الْقُدْرَةِ، وَالْحِكْمَةُ كَمَالُ الْعِلْمِ، وَبِهَا تَيْنِ الصِّفَتَيْنِ يَقْضِي سُبْحَانُهُ وَتَعَالَى مَا شَاءَ، وَيَأْمُرُ وَيَنْهَا وَيُثْبِتُ وَيُعَاقِبُ، فَهَاتَانِ الصِّفَتَيْنِ مَصْدَرُ الْخُلُقِ وَالْأَمْرِ.

والمقصود أن عقوبات السينات تتنوع إلى عقوبات شرعية، وعقوبات قدرية، وهي إما في القلب، وإما في البدن، وإما فيهما، وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت، وعقوبات يوم عود الأجساد، فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما فيه من العقوبة، لأنها بمثابة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فترتُب العقوبات على الذنوب كترتيب الإحرار على النار، والكسير على الانكسار، والغرق على الماء، وفساد البدن على السموم، والأمراض على الأسباب الجالية لها، وقد تقارب المضررة الذنب وقد تتأخر عنه، إما يسيراً وإما مدةً، كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه، وكثيراً ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقبه، ولا يدرى أنه يعمل عمله على التدريج شيئاً فشيئاً، كما تعمل السموم والأشياء الصارمة حذو القذة بالقذة، فإن تدارك العبد نفسه بالأدوية والاستفراغ والحمية، وإلا فهو صائر إلى الهالك، هذا إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب على الذنب كُل يوم وكل ساعة؟ والله المستعان.

\*\*\*

### [فصل بعض عقوبات المعاishi]

فاستحضر بعض العقوبات التي ربها الله سبحانه وتعالى على الذنوب وجواز وصول بعضها إليك واجعل ذلك داعياً للنفس إلى هجرانها، وأنا أسوق إليك منها طرفاً يكفي العاقل مع التصديق ببعضه.

**الختم على القلب**

فمنها: الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأ بصار، والاقفال على القلوب، وجعل الأكنة عليها والرین عليها والطبع ونقليب الأفئدة والأ بصار، والحيولة بين المرض وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرب، وإنساء الإنسان نفسه، وترك إرادة الله تطهير القلب،

وَجَعَلُ الصَّدِيرِ ضَيْقًا حَرَجًا كَانَمَا يَصَعُّدُ فِي السَّمَاءِ، وَصَرْفُ الْقُلُوبِ عَنِ الْحَقِّ، وَزَيَادَتُهَا مَرَضًا عَلَى مَرَضِهَا، وَإِرْكَاسُهَا وَإِنْكَاسُهَا بِحَيْثُ تَبَقَّى مَنْكُوْسَةً، كَمَا ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدٌ فِيهِ سَرَاجٌ يُزْهِرُ: فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ، وَقَلْبٌ أَعْلَفُ: فَذَلِكَ قَلْبُ الْكَافِرِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوْسٌ: فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ، وَقَلْبٌ تَمْدُدُهُ مَادَّاتُانِ: مَادَّةٌ إِيمَانٌ وَمَادَّةٌ نَفَاقٌ، وَهُوَ لِمَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا .  
وَمِنْهَا: التَّشِيطُ عَنِ الطَّاعَةِ، وَالْإِقْعَادُ عَنِهَا .

وَمِنْهَا: جَعْلُ الْقَلْبِ أَصَمَّ لَا يَسْمَعُ الْحَقَّ، أَبْكَمَ لَا يَنْطِقُ بِهِ، أَعْمَى لَا يَرَاهُ، فَتَصِيرُ النِّسْبَةُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَنْفَعُهُ عِيْرُهُ، كَالنِّسْبَةِ بَيْنَ أَذْنِ الْأَصَمِ وَالْأَصْوَاتِ، وَعِيْنِ الْأَعْمَى وَالْأَلْوَانِ، وَلِسَانِ الْأَخْرَسِ وَالْكَلَامِ، وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ الْعَمَى وَالصَّمَمَ وَالْبَكَمَ لِلْقَلْبِ بِالذَّاتِ: الْحَقِيقَةُ، وَلِلْجَوَارِحِ بِالْعَرَضِ وَالْتَّبَعَيْةِ ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ لِمَا فِي الْأَصْدُورِ﴾ [سُورَةُ الْحُجَّ: 46].

وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفَيَ الْعَمَى الْحِسَيِّ عَنِ الْبَصَرِ، كَيْفَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ [سُورَةُ النُّورِ: 61].

وَقَالَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّ ۚ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [سُورَةُ عَبْسٍ: 1 - 2].

وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْعَمَى التَّامُ فِي الْحَقِيقَةِ: عَمَى الْقَلْبِ، حَتَّىٰ إِنَّ عَمَى الْبَصَرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَلَا عَمَى، حَتَّىٰ إِنَّهُ يَصِحُّ نَفِيَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - : "لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْعَصَبِ" وَقَوْلُهُ - ﷺ - : "لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالظَّوَافِ الَّذِي تُرْدُهُ الْلُّقْمَةُ وَاللُّقْمَاتُ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدِّقُ عَلَيْهِ" وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ .

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مِنْ عَقُوبَاتِ الْمَعَاصِي جَعْلُ الْقَلْبِ أَعْمَى أَصَمَّ أَبْكَمَ .

## خَسْفُ الْقَلْبِ

وَمِنْهَا: الْخَسْفُ بِالْقَلْبِ كَمَا يُخْسِفُ بِالْمَكَانِ وَمَا فِيهِ، فَيُخْسِفُ بِهِ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ وَصَاحِبُهُ لَا يَشْعُرُ، وَعَلَامَةُ الْخَسْفِ بِهِ أَنَّهُ لَا يَرَأُ جَوَّالَ حَوْلَ السُّفْلِيَّاتِ وَالْقَادُورَاتِ وَالرَّذَّاَلِ، كَمَا أَنَّ الْقَلْبَ الَّذِي رَفَعَهُ اللَّهُ وَقَرَبَهُ إِلَيْهِ لَا يَرَأُ جَوَّالَ حَوْلَ الْعَرْشِ.

وَمِنْهَا: الْبُعْدُ عَنِ الْبَرِّ وَالْخَيْرِ وَمَعَالِي الْأُمُورِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَخْلَاقِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ جَوَّالَةٌ، فَمِنْهَا مَا يَجُولُ حَوْلَ الْعَرْشِ، وَمِنْهَا مَا يَجُولُ حَوْلَ الْحُسْنِ.

## مَسْخُ الْقَلْبِ

وَمِنْهَا: مَسْخُ الْقَلْبِ، فَيُمْسَخُ كَمَا تُمْسَخُ الصُّورَةُ، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ عَلَى قَلْبِ الْحَيَّانِ الَّذِي شَابَهُ فِي أَخْلَاقِهِ وَأَعْمَالِهِ وَطَبِيعَتِهِ، فَمِنَ الْقُلُوبِ مَا يُمْسَخُ عَلَى قَلْبِ خَنَزِيرٍ لِشَدَّةِ شَبَهِ صَاحِبِهِ بِهِ، وَمِنْهَا مَا يُمْسَخُ عَلَى قَلْبِ كَلْبٍ أَوْ حَمَارٍ أَوْ حَيَّةٍ أَوْ عَقْرَبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذَا تَأْوِيلُ سُفِيَّانَ بْنِ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَاءِنْ دَآبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَهِيرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أَمْمَ أَمَّاَلُكُمْ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: 38].

قَالَ: مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى أَخْلَاقِ السَّبَاعِ الْعَادِيَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى أَخْلَاقِ الْكِلَابِ وَأَخْلَاقِ الْخَنَازِيرِ وَأَخْلَاقِ الْحَمَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَطَوْسُ فِي ثَيَابِهِ كَمَا يَتَطَوَّسُ الطَّاوُوسُ فِي رِيشِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ بِلِيدًا كَالْحَمَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِ كَالدَّيْكِ، وَمِنْهُمْ مِنْ يَأْلُفُ وَيُؤْلِفُ كَالْحَمَامَ، وَمِنْهُمْ الْحَقُودُ كَالْجَمَلِ، وَمِنْهُمُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ كُلُّهُ كَالْغَنَمِ، وَمِنْهُمْ أَشْبَاهُ الشَّعَالِبِ الَّتِي تَرُوغُ كَرَوْغَانَهَا، وَقَدْ شَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْجَحِيمِ وَالْغَيِّ بِالْحُمْرِ تَارَةً، وَبِالْكَلْبِ تَارَةً، وَبِالْأَنْعَامِ تَارَةً، وَتَقُوَى هَذِهِ الْمُشَابَهَةُ بِأَطْنَانِ حَتَّى

تَظَهَّرَ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ ظُهُورًا خَفِيًّا، يَرَاهُ الْمُنَفَّرُونَ، وَتَظَهَّرُ فِي الْأَعْمَالِ ظُهُورًا يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَلَا يَرَأُلْ يُقْوَى حَتَّى تُسْتَشِنَعَ الصُّورَةُ، فَتَنَقْلِبُ لَهُ الصُّورَةُ يَإِذْنِ اللَّهِ، وَهُوَ الْمَسْنُخُ التَّامُ، فَيَنْقُلِبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصُّورَةُ الظَّاهِرَةُ عَلَى صُورَةِ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ، كَمَا فَعَلَ بِالْيَهُودِ وَأَشْبَاهِهِمْ، وَيَفْعَلُ بِقَوْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَمْسَخُهُمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرًا.

فَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَمْ مِنْ قَلْبٍ مَنْكُوسٍ وَصَاحِبُهُ لَا يَشْعُرُ؟ وَقَلْبٍ مَمْسُوخٍ وَقَلْبٍ مَخْسُوفٍ بِهِ؟ وَكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِشَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَمَغْرُورٍ بِسُتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ؟ وَمُسْتَدْرَجٍ بِنَعْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ؟ وَكُلُّ هَذِهِ عُقُوبَاتٍ وَإِهَانَاتٍ وَيَظْنُنُ الْجَاهِلُ أَنَّهَا كَرَامَةٌ.

وَمِنْهَا: مَكْرُ اللَّهِ بِالْمَاكِرِ، وَمُخَادَعَتُهُ لِلْمُخَادِعِ، وَاسْتِهْزَاءُهُ بِالْمُسْتَهْزِيِّ، وَإِزْاعَتُهُ لِلْقَلْبِ الزَّانِي عَنِ الْحَقِّ.

### نَكْسُ الْقَلْبِ

وَمِنْهَا: نَكْسُ الْقَلْبِ حَتَّى يَرَى الْبَاطِلَ حَقًّا وَالْحَقَّ بَاطِلًا، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا، وَيُقْسِدُ وَيَرَى أَنَّهُ يُصْلِحُ، وَيَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ يَدْعُو إِلَيْهَا، وَيَشْتَرِي الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ عَلَى الْهُدَى، وَيَتَبَعُ هَوَاهُ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ مُطِيقٌ لِمُوْلَاهُ؟ وَكُلُّ هَذَا مِنْ عُقُوبَاتِ الدُّنُوبِ الْجَارِيَةِ عَلَى الْقَلْبِ.

### حَجَبُ الْقَلْبِ عَنِ الرَّبِّ

وَمِنْهَا: حِجَابُ الْقَلْبِ عَنِ الرَّبِّ فِي الدُّنْيَا، وَالْحِجَابُ الْأَكْبَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلَ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنِ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمْ يَحْجُوْنَ ﴾١٥﴾ [سُورَةُ الْمُطَفَّفِينَ: 14 - 15].

فَمَنْعَتْهُمُ الدُّنُوبُ أَنْ يَقْطَعُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ، فَيَصِلُّوا إِلَيْهَا فَيَرَوْا مَا يُصْلِحُهَا وَيُرِكِّبُهَا، وَمَا يُفْسِدُهَا وَيُشْقِيَهَا، وَأَنْ يَقْطَعُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ،

فَتَصِلُ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ فَتَقُولُ بِقُرْبِهِ وَكَرَامَتِهِ، وَتَقَرَّ بِهِ عَيْنًا وَتَطِيبَ بِهِ نَفْسًا، بَلْ كَانَتِ الدُّنْوُبُ  
حِجَابًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ.

وَمِنْهَا: الْمَعِيشَةُ الصَّنِيكُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْبَرْزَخِ، وَالْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَحْشِرًا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [سُورَةُ طه: 124].

وَفُسْرَتِ الْمَعِيشَةُ الصَّنِيكُ بِعَذَابِ الْقُبْرِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنَ الْمَعِيشَةِ الصَّنِيكِ، وَالْآيُّ  
تَتَنَوَّلُ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَتْ نَكِرَةً فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ، فَإِنَّ عُمُومَهَا مِنْ حَيْثُ  
الْمَعْنَى، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ رَتَّبَ الْمَعِيشَةَ الصَّنِيكَ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِهِ، فَالْمُعْرُضُ عَنْهُ  
لَهُ مِنْ صَنِيكِ الْمَعِيشَةِ بِحَسْبِ إِعْرَاضِهِ، وَإِنْ تَنَعَّمَ فِي الدُّنْيَا بِأَصْنَافِ النُّعُمِ، فَفِي قَلْبِهِ مِنَ  
الْلَّوْحَشَةِ وَالذُّلُّ وَالْحَسَرَاتِ الَّتِي تَقْطَعُ الْقُلُوبَ، وَالْأَمَانِي الْبَاطِلَةِ وَالْعَذَابِ الْحَاضِرِ مَا  
فِيهِ، وَإِنَّمَا يُوَارِيهِ عَنْهُ سَكَرَاتُ الشَّهْوَاتِ وَالْعِشْقِ وَحُبُّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، وَإِنْ لَمْ يَنْضُمْ  
إِلَى ذَلِكَ سُكْرِ الْخَمْرِ، فَسُكْرُ هَذِهِ الْأُمُورِ أَعْظَمُ مِنْ سُكْرِ الْخَمْرِ، فَإِنَّهُ يَفْيِقُ صَاحِبَهُ  
وَيَصْحُو، وَسُكْرُ الْهَوَى وَحُبُّ الدُّنْيَا لَا يَصْحُو صَاحِبُهُ إِلَّا إِذَا كَانَ صَاحِبُهُ فِي عَسْكَرِ  
الْأَمْوَاتِ، فَالْمَعِيشَةُ الصَّنِيكُ لَازِمَةٌ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ  
- ﷺ - فِي دُنْيَا وَفِي الْبَرْزَخِ وَيَوْمَ مَعَادِهِ، وَلَا تَقْرَرُ الْعَيْنُ، وَلَا يَهْدَأُ الْقَلْبُ، وَلَا تَطْمَئِنُ  
النَّفْسُ إِلَّا بِإِلَيْهَا وَمَعْبُودِهَا الَّذِي هُوَ حَقٌّ، وَكُلُّ مَعْبُودٍ سُوَادٌ بَاطِلٌ، فَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللَّهِ  
قَرَّتْ بِهِ كُلُّ عَيْنٍ، وَمَنْ لَمْ تَقْرَرْ عَيْنُهُ بِاللَّهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى  
إِنَّمَا جَعَلَ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَعَمِلَ صَالِحًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا  
إِنَّمَا ذَكَرَ أَوْ أَنْتَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَذِكْرِيْنَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: 97].

## الدَّارُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ

فَضَمِّنْ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَالْحُسْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَهُمْ أَطْيَبُ الْحَيَاَتَيْنِ، فَهُمْ أَحْيَاءٌ فِي الدَّارَيْنِ.

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنَعْمَمُ﴾

دارُ الْمُتَّقِينَ [سُورَةُ النَّحْلِ: ٣٠]

وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا لِيَكُونُ شَمْ نُوبَا إِلَيْهِ يُمَعَّنُكُمْ مَنْعَمًا حَسَنًا إِلَى أَجْلٍ مُسَمٍّ وَيُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ٣]

فَفَازَ الْمُتَّقُونَ الْمُحْسِنُونَ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَحَصَلُوا عَلَى الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فِي الدَّارَيْنِ، فَإِنَّ طِيبَ النَّفْسِ، وَسُرُورَ الْقُلُوبِ، وَفَرَحَةَ وَلَدَتَهُ وَأَبْيَهَا جُهُ وَطُمَانِيَّتَهُ وَانِسِرَاحَهُ وَنُورَهُ وَسَعَتَهُ وَعَافِيَّتَهُ مِنْ تَرَكِ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ، وَالشُّبُهَاتِ الْبَاطِلَةِ - هُوَ النَّعِيمُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلَا نِسْبَةَ لِنَعِيمِ الْبَدَنِ إِلَيْهِ.

فَقَدْ كَانَ يَقُولُ بَعْضُ مَنْ ذَاقَ هَذِهِ الْلَّذَّةَ: لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَأَ الْدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ.

وَقَالَ آخَرُ: إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقُلُوبِ أَوْفَاتُ أَقْوَلُ فِيهَا: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّهُمْ لَقِي عَيْشٍ طَيِّبٍ.

وَقَالَ آخَرُ: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً هِيَ فِي الدُّنْيَا كَالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، فَمَنْ دَخَلَهَا دَخَلَ تِلْكَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ - ﷺ - إِلَى هَذِهِ الْجَنَّةِ بِقَوْلِهِ: "إِذَا مَرَرْتُم بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: حَلَقُ الدُّكْرِ" وَقَالَ: "مَا بَيْنَ بَيْتَيِ وَمَبْرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ".

نَعِيمُ الْأَبْرَارِ وَجَحِيمُ الْفُجَارِ وَلَا تَظْنَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ وَإِنَّ  
الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وَإِنَّ  
[سُورَةُ الْأَنْفَطَارِ: 13 - 14] مُخْتَصٌ بِيَوْمِ الْمَعَادِ فَقَطْ، بَلْ هَؤُلَاءِ فِي  
نَعِيمٍ فِي دُورِهِمُ الْثَّلَاثَةِ، وَهَؤُلَاءِ فِي جَحِيمٍ فِي دُورِهِمُ الْثَّلَاثَةِ، وَأَيُّ لَذَّةٍ وَنَعِيمٍ فِي  
الدُّنْيَا أَطْيَبُ مِنْ بَرِّ الْقَلْبِ، وَسَلَامَةُ الصَّدْرِ، وَمَعْرِفَةُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَمَحَبَّتِهِ،  
وَالْعَمَلِ عَلَى مُوَافَقَتِهِ؟ وَهَلِ الْعَيْشُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا عَيْشُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ؟ وَقَدْ أَنْتَ  
اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى خَلِيلِهِ ﷺ بِسَلَامَةِ قَلْبِهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ  
إِذْ جَاءَ رَبَّهُ، يَقْلِبُ سَلِيمٍ﴾ [سُورَةُ الصَّافَاتِ: 83 - 84].  
وَقَالَ حَاكِيًّا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [سُورَةُ الْأَمَانِ: 88]  
الشُّعَرَاءُ: 88 - 89.

وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الَّذِي سَلِيمٌ مِنَ الشُّرُكِ وَالْغُلُّ وَالْحِقْدُ وَالْحَسَدِ وَالشُّحِّ وَالْكُبْرِ  
وَحُبُّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، فَسَلِيمٌ مِنْ كُلِّ آفَةٍ تُبْعِدُهُ عَنِ اللَّهِ، وَسَلِيمٌ مِنْ كُلِّ شُبُهَةٍ تُعَارِضُ  
خَبَرَهُ، وَمِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ تُعَارِضُ أَمْرَهُ، وَسَلِيمٌ مِنْ كُلِّ إِرَادَةٍ تُزَاحِمُ مُرَادَهُ، وَسَلِيمٌ مِنْ كُلِّ  
قَاطِعٍ يَقْطَعُ عَنِ اللَّهِ، فَهَذَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ فِي جَنَّةٍ مُعَجَّلَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَفِي جَنَّةٍ فِي الْبَرْزَخِ،  
وَفِي جَنَّةٍ يَوْمُ الْمَعَادِ.  
**سَلَامَةُ الْقَلْبِ**

وَلَا تَتِمُّ لَهُ سَلَامَتُهُ مُطْلَقاً حَتَّى يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءٍ: مِنْ شُرُكٍ يُنَاقِضُ التَّوْحِيدَ،  
وَبِدْعَةٍ تُخَالِفُ السُّنَّةَ، وَشَهْوَةٍ تُخَالِفُ الْأَمْرَ، وَغُفْلَةٍ تُنَاقِضُ الذِّكْرَ، وَهُوَ يُنَاقِضُ  
الْتَّجْرِيدَ وَالْإِحْلَاصَ.

وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ حُجْبٌ عَنِ اللَّهِ، وَتَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، تَتَضَمَّنُ أَفْرَادًا  
لَا تَنْخَصِرُ.

## الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ

وَلِذلِكَ اشْتَدَتْ حَاجَةُ الْعَبْدِ بْلَ ضَرُورَتُهُ، إِلَى أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَوْجَ مِنْهُ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا.

فَإِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ يَنْصَمِنُ: عُلُومًا، وَإِرَادَةً، وَأَعْمَالًا، وَتُرُوكًا ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً تَجْرِي عَلَيْهِ كُلَّ وَقْتٍ، فَتَفَاصِيلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ قَدْ يَعْلَمُهَا الْعَبْدُ وَقَدْ لَا يَعْلَمُهَا، وَقَدْ يَكُونُ مَا لَا يَعْلَمُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُهُ، وَمَا يَعْلَمُهُ قَدْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَقَدْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَإِنْ عَجَزَ عَنْهُ، وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ قَدْ تُرِيدُهُ نَفْسُهُ وَقَدْ لَا تُرِيدُهُ كَسَالًا وَتَهَاوِنًا، أَوْ لِقِيَامِ مَانِعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا تُرِيدُهُ قَدْ يَفْعَلُهُ وَقَدْ لَا يَفْعَلُهُ، وَمَا يَفْعَلُهُ قَدْ يَقُولُ فِيهِ بِشْرُوتِ الْإِخْلَاصِ وَقَدْ لَا يَقُولُ، وَمَا يَقُولُ فِيهِ بِشْرُوتِ الْإِخْلَاصِ قَدْ يَقُولُ فِيهِ بِكَمَالِ الْمُتَابَعَةِ وَقَدْ لَا يَقُولُ، وَمَا يَقُولُ فِيهِ بِالْمُتَابَعَةِ قَدْ يَثْبُتُ عَلَيْهِ وَقَدْ يُصْرَفُ قَلْبُهُ عَنْهُ، وَهَذَا كُلُّهُ وَاقِعٌ سَارٌ فِي الْخَلْقِ، فَمُسْتَقِلٌ وَمُسْتَكْرِثٌ.

وَلَيْسَ فِي طِبَاعِ الْعَبْدِ الْهِدَايَةُ إِلَى ذَلِكَ، بَلْ مَتَى وُكِلَ إِلَى طِبَاعِهِ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ الْإِرْكَاسُ الَّذِي أَرْكَسَ اللَّهَ بِهِ الْمُنَافِقِينَ بِذُنُوبِهِمْ، فَأَعَادَهُمْ إِلَى طِبَاعِهِمْ وَمَا خُلِقْتُ عَلَيْهِ نُفُوسُهُمْ مِنَ الْجَهَلِ وَالظُّلْمِ، وَالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ فِي قَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَنَهِيَّهُ وَأَمْرِهِ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجَعَلَهُ الْهِدَايَةَ حِيثُ تَصْلُحُ، وَيَصْرِفُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، لِعَدَمِ صَلَاحِيَّةِ الْمَحَلِّ، وَذَلِكَ مُوْجِبُ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَصَبَ لِخَلْقِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوْصِلُهُمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ وَنَصَبَ لِعِبَادِهِ مِنْ أَمْرِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا دَعَاهُمْ جَمِيعًا إِلَيْهِ حُجَّةً مِنْهُ وَعَدْلًا، وَهَدَى مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ إِلَى سُلُوكِهِ نِعْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَلَمْ يَخْرُجْ بِهَذَا الْعَدْلِ وَهَذَا النَّفْضِ

عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمٌ لِقَائِهِ نَصَبَ لِخَلْقِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوَصِّلُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ، ثُمَّ صَرَفَ عَنْهُمْ مَنْ صَرَفَ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَقَامَ عَلَيْهِ مَنْ أَقامَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، نُورًا ظَاهِرًا يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ فِي ظُلْمَةِ الْحَسْرِ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ نُورَهُمْ حَتَّى قَطَعُوهُ كَمَا حَفِظَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ حَتَّى لَقُوهُ، وَأَطْفَأُوا نُورَ الْمُنَافِقِينَ أَحْوَاجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ، كَمَا أَطْفَأُوا مِنْ قُلُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

وَأَقَامَ أَعْمَالَ الْعُصَمَاءِ بِجَنْبَتِي الصَّرَاطِ كَلَالِبَ وَحَسَكًا تَخْطِفُهُمْ كَمَا خَطَفَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ قُوَّةَ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتِهِمْ عَلَى قَدْرِ قُوَّةِ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَنَصَبَ لِلْمُؤْمِنِينَ حَوْضًا يَسْرُبُونَ مِنْهُ بِإِزَاءِ شُرُبِهِمْ مِنْ شَرِّهِ فِي الدُّنْيَا، وَحَرَمَ مِنَ الشُّرُبِ مِنْهُ هُنَاكَ مَنْ حُرِمَ الشُّرُبَ مِنْ شَرِّهِ وَدِينِهِ هَاهُنَا.

فَانْظُرْ إِلَى الْآخِرَةِ كَانَهَا رَأَيُ عَيْنِ، وَتَأَمَّلْ حِكْمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الدَّارِيْنِ، تَعْلَمْ حِيَثُنِدِ عِلْمًا يَقِينًا لَا شَكَ فِيهِ: أَنَّ الدُّنْيَا مَزَرَّعَةُ الْآخِرَةِ وَعُنْوَانُهَا وَأَنْمُوذِجُهَا، وَأَنَّ مَنَازِلَ النَّاسِ فِيهَا مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقاوةِ عَلَى حَسَبِ مَنَازِلِهِمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَضِدِّهِمَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فَمِنْ أَعْظَمِ عَقُوبَاتِ الذُّنُوبِ - الْخُرُوجُ عَنِ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

\*\*\*

## [فَصْلُ أَصْلِ الدُّنُوبِ]

وَلَمَّا كَانَتِ الدُّنُوبُ مُتَفَاقِوَةً فِي دَرَجَاتِهَا وَمَفَاسِدِهَا تَفَاقَوْتُ عَقُوبَاتُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحَسْبِ تَفَاقُوْتِهَا.

وَنَحْنُ نَذْكُرُ فِيهَا بِعَوْنَى اللَّهِ وَحْسِنِ تَوْفِيقِهِ فَصَلَّ وَجِيزًا جَامِعًا، فَنَقُولُ:

أَصْلُهَا نَوْعَانِ: تَرْكُ مَأْمُورٍ، وَفِعْلُ مَحْظُورٍ، وَهُمَا الذَّنَبَانِ اللَّذَانِ ابْتَلَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ  
بِهِمَا أَبْوَيِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ.

وَكِلَّاهُمَا يَنْقَسِمُ بِاعْتِبَارِ مَحِلِّهِ إِلَى ظَاهِرٍ عَلَى الْجَوَارِحِ، وَبَاطِنٍ فِي الْقُلُوبِ.  
وَبِاعْتِبَارِ مُتَعَلَّقِهِ إِلَى حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ خَلْقِهِ.

وَإِنْ كَانَ كُلُّ حَقٌّ لِخَلْقِهِ فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِحَقِّهِ، لَكِنْ سُمِّيَ حَقًّا لِلْخَلْقِ لِأَنَّهُ يَجِبُ  
بِمُطَالَبِهِمْ وَيَسْقُطُ بِإِسْقَاطِهِمْ.

ثُمَّ هَذِهِ الذُّنُوبُ تَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَفْسَامٍ: مَلَكِيَّةٌ، وَشَيْطَانِيَّةٌ، وَسَبْعِيَّةٌ، وَبَهِيمِيَّةٌ، وَلَا  
تَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ.

فَالذُّنُوبُ الْمَلَكِيَّةُ أَنْ يَتَعَاطَى مَا لَا يَصْحُ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، كَالْعَظَمَةِ، وَالْكِبْرِيَاءِ،  
وَالْجَبْرُوتِ، وَالْقُهْرِ، وَالْعُلوِّ، وَاسْتِعْبَادِ الْخَلْقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا شِرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ نَوْعَانِ: شِرْكُ بِهِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَعْلُ  
الْإِلَهَيَّةِ أُخْرَى مَعْهُ، وَشِرْكُ بِهِ فِي مُعَامَلَتِهِ، وَهَذَا الثَّانِي قَدْ لَا يُوِجِّبُ دُخُولَ النَّارِ، وَإِنْ  
أَحْبَطَ الْعَمَلَ الَّذِي أَشْرَكَ فِيهِ مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ.

وَهَذَا الْقِسْمُ أَعْظَمُ أَنْوَاعِ الذُّنُوبِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ فِي خَلْقِهِ  
وَأَمْرِهِ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الذُّنُوبِ، فَقَدْ تَارَعَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ، وَجَعَلَ  
لَهُ نِدًّا، وَهَذَا أَعْظَمُ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ عَمَلٌ.

فَصُلُّ الذُّنُوبُ الشَّيْطَانِيَّةُ وَأَمَّا الشَّيْطَانِيَّةُ: فَالْتَّشَبُّهُ بِالشَّيْطَانِ فِي الْحَسَدِ، وَالْبَغْيِ  
وَالْغِشِّ وَالْغِلْ وَالْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ، وَالْأَمْرُ بِمَعَاصِي اللَّهِ وَتَحْسِينَهَا، وَالنَّهَيُّ عَنْ طَاعَتِهِ  
وَتَهْجِينَهَا، وَالْإِبْتِدَاعُ فِي دِينِهِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى الْبَدَعِ وَالضَّالِّ.

وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإن كانت مفسدة دونه.

فصل الذنوب السبعية وأما السبعية: فذنوب العداين والغضب وسفك الدماء، والتوبي على الضعفاء والعاجرين، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني والجرأة على الظلم والعدوان.

الذنوب البهيمية وأما الذنوب البهيمية: فمثل الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولد الزنا والسرقة وأكل أموال اليتامي، والبخل، والشح، والجبن، والهلع، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكيّة، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام، فهو يجرهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية، ثم إلى الشيطانية، ثم منازعة الربوبيّة، والشرك في الوحدانية، ومن تأمل هذا حق التأمل، تبيّن له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبيته.

\* \* \*

### [فصل الذنوب كبائر وصغرائير]

وقد دل القرآن والسنّة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة، على أن من الذنوب كبائر وصغرائير، قال الله تعالى: ﴿إِنْ جَعَلْنَا بِكُبَيْرًا مَا تُنَهَّنَّ عَنْهُ فَكَفَرْتُمْ كُمْ وَنَدْخَلُكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [سورة النساء: 31].

وقال تعالى: ﴿أَلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ [سورة النجم: 32].

وفي الصحيح عنه - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أنه قال: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر".

وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ الْمُكَفَّرَةُ لَهَا ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ:

إِحْدَاهَا: أَنْ تَقْصُرَ عَنْ تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ لِضَعْفِهَا وَضَعْفِ الْإِخْلَاصِ فِيهَا وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا، بِمَنْزِلَةِ الدَّوَاءِ الْمُسْعِفِ الَّذِي يَنْفُصُ عَنْ مُقاوَمَةِ الدَّاءِ كَمِيَّةً وَكَيْفِيَّةً.

الثَّانِيَةُ: أَنْ تُقاوِمَ الصَّغَائِرِ وَلَا تَرْتَقِي إِلَى تَكْفِيرِ شَيْءٍ مِنَ الْكَبَائِرِ.

الثَّالِثَةُ: أَنْ تَقْوَى عَلَى تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ وَتَبْقَى فِيهَا قُوَّةٌ تُكَفِّرُ بِهَا بَعْضَ الْكَبَائِرِ.

فَتَأْمَلُ هَذَا فَإِنَّهُ يُرِيُّلُ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كَثِيرَةً.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ: "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوْبِقَاتِ، قِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالسُّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتَيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالْتَّوْلِي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَدْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ".

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ سُئِلَ: "أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبُرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًا وَهُوَ خَلَقَكَ، قِيلَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتَلَ وَلَدَكَ مَخَافَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قِيلَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تَرْزُنِي بِحَلِيلَةِ جَارِكَ" فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَصْدِيقَهَا:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَكَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَاهَا أَخْرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَرْزُنُونَ﴾

[سُورَةُ الْفُرْقَانِ: 68].

### عَدْدُ الْكَبَائِرِ

وَأَخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْكَبَائِرِ: هَلْ لَهَا عَدْدٌ يَحْصُرُهَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ.

ثُمَّ الَّذِينَ قَالُوا بِحَصْرِهَا اخْتَلَفُوا فِي عَدَدِهَا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: هِيَ أَرْبَعٌ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: هِيَ سَبْعٌ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ: هِيَ تِسْعَةٌ، وَقَالَ غَيْرُهُ: هِيَ إِحْدَى عَشْرَةَ، وَقَالَ آخَرُ: هِيَ سَبْعُونَ.

## الذَّلَّةُ وَالذَّلَّةُ

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّيُّ: جَمَعْتُهَا مِنْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ، فَوَجَدْتُهَا: أَرْبَعَةً فِي الْقُلْبِ، وَهِيَ: الشُّرُكُ بِاللَّهِ، وَالْإِضْرَارُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَالْقُنُوتُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ. وَأَرْبَعَةً فِي الْلِسَانِ، وَهِيَ: شَهَادَةُ الرُّؤْرِ، وَقَدْفُ الْمُحْصَنَاتِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ، وَالسُّحْرُ.

وَثَلَاثٌ فِي الْبَطْنِ: شُرْبُ الْخَمْرِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتَيْمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا.

وَاثْتَانٌ فِي الْفَرْجِ، وَهُمَا: الْزِنَا، وَاللُّوَاطُ.

وَاثْتَانٌ فِي الْيَدَيْنِ، وَهُمَا: الْقَتْلُ، وَالسَّرِقَةُ.

وَوَاحِدَةٌ فِي الرِّجْلَيْنِ، وَهِيَ: الْفِرَارُ مِنَ الرَّحْفِ.

وَوَاحِدٌ يَتَعَلَّقُ بِجَمِيعِ الْجَسِدِ، وَهُوَ: عُقُوقُ الْوَالَّدِيْنِ.

وَالَّذِيْنَ لَمْ يَحْصُرُوهَا بِعَدَدٍ، مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كُلُّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا نَهَى عَنْهُ الرَّسُولُ - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: مَا اقْتَرَنَ بِالنَّهِيِّ عَنْهُ وَعِيدُ مِنْ لَعْنٍ أَوْ غَصَبٍ أَوْ عُقُوبَةٍ فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا تَرَبَّ عَلَيْهِ حَدٌّ فِي الدُّنْيَا أَوْ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ، فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا لَمْ يُرَتَّبْ عَلَيْهِ لَا هَذَا وَلَا هَذَا، فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ عَلَى تَحْرِيمِهِ فَهُوَ مِنَ الْكَبَائِرِ، وَمَا كَانَ تَحْرِيمُهُ فِي شَرِيعَةٍ دُونَ شَرِيعَةٍ فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا لَعَنَ اللَّهُ أَوْ رَسُولُهُ فَاعِلُهُ فَهُوَ كَبِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا ذُكِرَ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ النِّسَاءِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِن تَحْتَنُبُوا كَيْبَابِرَ مَا نَهَوْنَ عَنْهُ كُلُّكُفَرٌ عَنْكُمْ سَكِّيْرَاتِكُمْ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ: 31].

### الَّذِينَ لَمْ يُقْسِمُوهَا إِلَى كَبَائِرٍ

وَالَّذِينَ لَمْ يُقْسِمُوهَا إِلَى كَبَائِرٍ وَصَغَائِرٍ، قَالُوا: الْذُنُوبُ كُلُّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجَرَاءَةِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَمَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، كَبَائِرٌ، فَالنَّظَرُ إِلَى مَنْ عَصَى أَمْرَهُ وَأَنْتَهَكَ مَحَارِمَهُ، يُوْجِبُ أَنْ تَكُونَ الْذُنُوبُ كُلُّهَا كَبَائِرٌ، وَهِيَ مُسْتَوَيَّةٌ فِي هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ.

قَالُوا: وَيُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا تَضُرُّهُ الْذُنُوبُ وَلَا يَأْثِرُهَا، فَلَا يَكُونُ بَعْضُهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ أَكْبَرَ مِنْ بَعْضٍ، فَلَمْ يَقِنْ إِلَّا مُجَرَّدُ مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ، وَلَا فَرْقٌ فِي ذَلِكَ بَيْنَ ذَنْبٍ وَذَنْبٍ.

قَالُوا: وَيَدْلِلُ عَلَيْهِ أَنَّ مَفْسَدَةَ الْذُنُوبِ إِنَّمَا هِيَ تَابِعَةُ لِلْجَرَاءَةِ وَالْتَّوْثِ عَلَى حَقِّ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَهَذَا لَوْ شَرِبَ رَجُلٌ خَمْرًا، أَوْ وَطَعَ فَرْجًا حَرَامًا، وَهُوَ لَا يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَهُ، لَكَانَ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْجَهَلِ وَبَيْنَ مَفْسَدَةِ ارْتِكَابِ الْحَرَامِ، وَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ مَنْ يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَهُ، لَكَانَ آتِيًّا بِإِلْحَدَى الْمَفْسَدَتَيْنِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُ الْعُقُوبَةَ دُونَ الْأَوَّلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَفْسَدَةَ الذَّنْبِ تَابِعَةُ لِلْجَرَاءَةِ وَالْتَّوْثِ.

قَالُوا: وَيَدْلِلُ عَلَى هَذَا أَنَّ الْمَعْصِيَةَ تَضَمَّنُ الْإِسْتِهَانَةَ بِأَمْرِ الْمُطَاعِ وَنَهِيِّهِ وَأَنْتَهَاهُ كِحْرَمَتِهِ، وَهَذَا لَا فَرْقٌ فِيهِ بَيْنَ ذَنْبٍ وَذَنْبٍ.

قَالُوا: فَلَا يَنْظُرُ الْعَبْدُ إِلَى كِبَرِ الذَّنْبِ وَصِغَرِهِ فِي نَفْسِهِ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قَدْرِ مَنْ عَصَاهُ وَعَظَمَتِهِ، وَأَنْتَهَاهُ كِحْرَمَتِهِ بِالْمَعْصِيَةِ، وَهَذَا لَا يَفْتَرُ فِيهِ الْحَالُ بَيْنَ مَعْصِيَةِ وَمَعْصِيَةِ، فَإِنَّ مَلِكًا مُطَاعًا عَظِيمًا لَوْ أَمَرَ أَحَدًا مَمْلُوكِيْهِ أَنْ يَذْهَبَ فِي مُهِمَّ لَهُ إِلَى بَلَدٍ

بعيدٍ، وأمر آخر أن يذهب في سُغلٍ له إلى جَانِبِ الدَّارِ، فَعَصَيَاهُ وَخَالَفَأَمْرَهُ، لَكَانَا فِي مَقْتِهِ وَالسُّقُوطِ مِنْ عَيْنِهِ سَوَاءً.

قَالُوا: وَلِهَذَا كَانَتْ مَعْصِيَةُ مِنْ تَرْكِ الْحَجَّ مِنْ مَكَّةَ وَتَرْكَ الْجُمُعَةَ وَهُوَ جَارُ الْمَسْجِدِ، أَفْبَحَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مَعْصِيَةِ مِنْ تَرْكِ مِنَ الْمَكَانِ الْبَعِيدِ، وَالْوَاجِبُ عَلَى هَذَا أَكْثَرُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى هَذَا، وَلَوْ كَانَ مَعَ رَجُلٍ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ وَمَعَ زَكَاتَهَا، وَمَعَ آخَرِ مِائَتَيْ أَلْفٍ دِرْهَمٍ فَمَنْعَ مِنْ زَكَاتِهَا؛ لَا سَتُوا يَا فِي مَنْعِ مَا وَجَبَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَلَا يَبْعُدُ اسْتِواؤُهُمَا فِي الْعُقُوبَةِ، إِذَا كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا مُصِرًّا عَلَى مَنْعِ زَكَاهَا مَالِهِ، قَلِيلًا كَانَ الْمَالُ أَوْ كَثِيرًا.

\* \* \*

## [فَصْلُ الْحَقِّ فِي الْمَسَأَلَةِ الْحَقِّ فِي الْمَسَأَلَةِ]

وَكَشْفُ الْغِطَاءِ عَنْ هَذِهِ الْمَسَأَلَةِ أَنْ يُقَالُ:

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتبَهُ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيُعْرَفَ وَيُعْبَدَ وَيُوَحَّدَ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالطَّاعَةُ كُلُّهَا لَهُ، وَالدَّعْوَةُ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ لِجِنَّةٍ وَلِإِنْسَانٍ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: 56].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [سُورَةُ الْحِجْرِ: 85].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَّا هُوَ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزَلُ الْأَمْرُ بِيَنْهُنَّ لَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الْطَّلاقِ: 12].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَبِبَةَ أَبْيَاتَ الْحَرَامَ قِيمَةً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْمَهْدَى وَالْفَلَكُ لَدَكُ لَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 97].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقَصْدَ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ: أَنْ يُعْرَفَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ، وَأَنْ يَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِلَيْنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنَزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

بِالْقِسْطِ﴾ [الْحَجَّ: 25].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْعَدْلُ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْقِسْطِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ رَأْسُ الْعَدْلِ وَقِوَامُهُ، وَإِنَّ الشُّرُكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ، فَالشُّرُكُ أَظْلَمُ الظُّلْمِ، وَالْتَّوْحِيدُ أَعْدَلُ الْعَدْلِ، فَمَا كَانَ أَشَدَّ مُنَافَةً لِهَذَا الْمَقْصُودِ فَهُوَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ، وَتَنَافَوْتُهَا فِي دَرَجَاتِهَا بِحَسْبِ مُنَافَاتِهَا لَهُ، وَمَا كَانَ أَشَدَّ مُوَافَقَةً لِهَذَا الْمَقْصُودِ فَهُوَ أَوْجَبُ الْوَاجِبَاتِ وَأَفْرَضُ الطَّاعَاتِ.

فَتَكَمَّلْ هَذَا الْأَصْلَ حَقَّ التَّأْمِلِ، وَاعْتَبِرْ تَفَاصِيلَهُ تَعْرِفْ بِهِ حِكْمَةَ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ، وَأَعْلَمِ الْعَالَمِينَ فِيمَا فَرَضَهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَحَرَمَهُ عَلَيْهِمْ، وَتَنَافَوْتَ مَرَاتِبِ الطَّاعَاتِ وَالْمُعَاصِي.

فَلَمَّا كَانَ الشُّرُكُ بِاللَّهِ مُنَافِيًّا بِالذَّاتِ لِهَذَا الْمَقْصُودِ كَانَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَحَرَمَ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى كُلِّ مُشْرِكٍ، وَأَبَاكَ دَمَهُ وَمَالَهُ وَأَهْلَهُ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ، وَأَنْ يَتَخَذُوْهُمْ عَيْدًا لَهُمْ لَمَّا تَرَكُوا الْقِيَامَ بِعُبُودِيَّتِهِ، وَأَبَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُشْرِكٍ عَمَلًا أَوْ يَقْبَلَ فِيهِ شَفَاعَةً أَوْ يَسْتَجِيبَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ دَعْوَةً، أَوْ يُقْتَلَ لَهُ عَثْرَةً، فَإِنَّ الْمُشْرِكَ أَجْهَلُ الْجَاهِلِينَ بِاللَّهِ، حَيْثُ جَعَلَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ نِدًّا، وَذَلِكَ غَايَةُ الْجَهَلِ بِهِ، كَمَا أَنَّهُ غَايَةُ الظُّلْمِ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ الْمُشْرِكُ لَمْ يَظْلِمْ رَبَّهُ وَإِنَّمَا ظَلَمَ نَفْسَهُ.

\* \* \*

## [فصلُ شِرْكُ الْوَسَاطَةِ]

وَوَقَعَتْ مَسَأَلَةٌ وَهِيَ: أَنَّ الْمُشْرِكَ إِنَّمَا قَصْدُهُ تَعْظِيمُ جَنَابِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ لِعَظَمَتِهِ لَا يَبْغِي الدُّخُولُ عَلَيْهِ إِلَّا بِالْوَسَائِطِ وَالشُّفَعَاءِ كَحَالِ الْمُلُوكِ، فَالْمُشْرِكُ لَمْ يَقْصِدْ إِلَّا سَيْهَانَةَ بِجَنَابِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَإِنَّمَا قَصَدَ تَعْظِيمَهُ، وَقَالَ: إِنَّمَا أَعْبُدُ هَذِهِ الْوَسَائِطَ لِتُقْرِبَنِي إِلَيْهِ وَتُدْلِنِي وَتُدْخِلَنِي عَلَيْهِ، فَهُوَ الْمَقْصُودُ وَهَذِهِ وَسَائِلُ وَشُفَعَاءُ، فَلِمَ كَانَ هَذَا الْقَدْرُ مُوجِبًا لِسُخْطِهِ وَغَضِيَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمُخْلِدًا فِي النَّارِ، وَمُوجِبًا لِسَفْكِ دِمَاءِ أَصْحَابِهِ، وَاسْتِبَاحةِ حَرِيمِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؟

وَتَرَّبَ عَلَى هَذَا سُؤَالَ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّهُ هَلْ يَجُوزُ أَنْ يُشَرِّعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ التَّقْرُبُ إِلَيْهِ بِالشُّفَعَاءِ وَالْوَسَائِطِ، فَيَكُونُ تَحْرِيمُ هَذَا إِنَّمَا اسْتُفِيدَ مِنَ الشَّرْعِ، أَمْ ذَلِكَ قِبِحٌ فِي الْفِطْرِ وَالْعُقُولِ، يَمْتَنِعُ أَنْ تَأْتِيَ بِهِ شَرِيعَةٌ؟ بَلْ جَاءَتِ الشَّرَائِعُ بِتَقْرِيرِ مَا فِي الْفِطْرِ وَالْعُقُولِ مِنْ قِبِحِهِ الَّذِي هُوَ أَفْجَحُ مِنْ كُلِّ قِبِحٍ؟ وَمَا السَّبَبُ فِي كَوْنِهِ لَا يَغْفِرُهُ مِنْ دُونِ سَائِرِ الذُّنُوبِ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشَرِّكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنِ يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: 48]

فَتَأَمَّلُ هَذَا السُّؤَالَ، وَاجْمَعَ قَلْبُكَ وَذَهْنَكَ عَلَى جَوَابِهِ وَلَا تَسْتَهِنْهُ، فَإِنَّ بِهِ يَحْصُلُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُوَحَّدِينَ، وَالْعَالَمِينَ بِاللَّهِ وَالْجَاهِلِينَ بِهِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ.

### نَوْعًا الشَّرْكِ

فَنَقُولُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ وَالتَّأْيِيدُ، وَمِنْهُ نَسْتَمِدُ الْمَعْوَنَةَ وَالْتَّسْدِيدَ، فَإِنَّهُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلٌّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ.

الشّرُكُ شِرْكَانٌ:

شِرْكٌ يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ الْمَعْبُودِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَشِرْكٌ فِي عِبَادَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ.

وَالشّرُكُ الْأَوَّلُ نَوْعَانٌ:

أَحَدُهُمَا: شِرْكُ التَّعْطِيلِ: وَهُوَ أَقْبَحُ أَنْوَاعِ الشّرُكِ، كَشِرْكِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَ: ﴿وَمَا رَبُّ  
الْعَالَمِينَ﴾ [سُورَةُ الشُّعْرَاءِ: 23].

وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِهَا مَانَ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنْ أَبْنَ لِ صَرَحًا لَعَلَّهُ أَبْلُغُ  
الْأَسْبَبَ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: 36 - 37] فَالشّرُكُ وَالتَّعْطِيلُ مُتَلَازِمَانِ: فَكُلُّ مُشْرِكٍ مُعَطَّلٌ وَكُلُّ  
مُعَطَّلٌ مُشْرِكٌ، لَكِنَّ الشّرُكَ لَا يَسْتَلِزُمُ أَصْلَ التَّعْطِيلِ، بَلْ يَكُونُ الْمُشْرِكُ مُقْرَأً بِالْخَالِقِ  
سُبْحَانَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ مُعَطَّلٌ حَقَّ التَّوْحِيدِ.

### التَّعْطِيلُ

وَأَصْلُ الشّرُكِ وَقَاعِدُهُ التَّيْرِجُونَ إِلَيْهَا، هُوَ التَّعْطِيلُ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَسَامٍ

تَعْطِيلُ الْمَصْنُوعِ عَنْ صَانِعِهِ وَخَالِقِهِ.

وَتَعْطِيلُ الصَّانِعِ سُبْحَانَهُ عَنْ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، بِتَعْطِيلِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَتَعْطِيلُ مُعَامَلَتِهِ عَمَّا يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ مِنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ.

وَمِنْ هَذَا شِرْكُ طَائِفَةٌ أَهْلٌ وَحْدَةِ الْوُجُودِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: مَا ثَمَّ خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ وَلَا  
هَا هُنَا شَيْئًا، بَلِ الْحَقُّ الْمُنْتَهٌ هُوَ عَيْنُ الْخَلْقِ الْمُشَبَّهِ. وَمِنْهُ شِرْكُ الْمَلَائِكَةِ الْقَائِلِينَ

يُقْدِمُ الْعَالَمُ وَأَبْدِيَّهُ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعْدُومًا أَصْلًا، بَلْ لَمْ يَرْلُ وَلَا يَزَالُ، وَالْحَوَادِثُ  
بِأَسْرِهَا مُسْتَنِدٌ عِنْدُهُمْ إِلَى أَسْبَابٍ وَوَسَائِطٍ اقْتَضَتْ إِيْجَادَهَا، وَيُسَمُّونَهَا بِالْعُقُولِ  
وَالنُّفُوسِ. وَمِنْ هَذَا شِرْكُ مَنْ عَطَّلَ أَسْمَاءَ الرَّبِّ تَعَالَى وَأَوْصَافَهُ وَأَفْعَالَهُ مِنْ عُلَاةِ  
الْجَهَمِيَّةِ وَالْقَرَامِطَةِ، فَلَمْ يُشْبِهُ لَهُ أَسْمًا وَلَا صِفَةً، بَلْ جَعَلُوا الْمَخْلُوقَ أَكْمَلَ مِنْهُ، إِذْ  
كَمَالُ الذَّاتِ بِأَسْمَائِهَا وَصِفَاتِهَا.

\* \* \*

## [فَصْلُ شِرْكٍ مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ]

النَّوْعُ الثَّانِي: شِرْكُ مَنْ جَعَلَ مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ، وَلَمْ يُعَطِّلْ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَرُؤُوْبِيَّتُهُ،  
كَشِرْكِ النَّصَارَى الَّذِينَ جَعَلُوهُ ثَلَاثَةً، فَجَعَلُوا الْمَسِيحَ إِلَهًا، وَأَمَّهُ إِلَهًا.  
وَمِنْ هَذَا شِرْكُ الْمَجُوسِ الْقَائِلِينَ بِإِسْنَادِ حَوَادِثِ الْخَيْرِ إِلَى النُّورِ، وَحَوَادِثِ الشَّرِّ  
إِلَى الظُّلْمَةِ.

وَمِنْ هَذَا شِرْكُ الْقَدَرِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْحَيَّوَانَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ أَفْعَالَ نَفْسِهِ، وَأَنَّهَا  
تَحْدُثُ بِدُونِ مَشِيَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَلَهُذَا كَانُوا مِنْ أَشْبَاهِ الْمَجُوسِ.

وَمِنْ هَذَا شِرْكُ - الَّذِي حَاجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴿إِذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحِيِّي، وَيُمِيتُ﴾  
[سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 258].

فَهُذَا جَعَلَ نَفْسَهُ نِدًا لِلَّهِ، يُحِيِّي وَيُمِيتُ بِزَعْمِهِ، كَمَا يُحِيِّي اللَّهُ وَيُمِيتُ، فَلَزَمَهُ إِبْرَاهِيمُ  
أَنَّ طَرَدَ قَوْلِكَ أَنْ تَقْدِرَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِالشَّمْسِ مِنْ عَيْنِ الْجِهَةِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا اللَّهُ مِنْهَا، وَلَيْسَ  
هَذَا اتِّقَالًا كَمَا زَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْجَدَلِ بِلِ إِلْزَامًا عَلَى طَرْدِ الدَّلِيلِ إِنْ كَانَ حَقًّا.

وَمِنْ هَذَا شِرْكُ كَثِيرٍ مِّمَّنْ يُشْرِكُ بِالْكَوَاكِبِ الْعُلُوِّيَّاتِ، وَيَجْعَلُهَا أَرْبَابًا مُّدَبِّرَةً لِأَمْرِ هَذَا الْعَالَمِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مُشْرِكِي الصَّابِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ. وَمِنْ هَذَا شِرْكُ عُبَادِ الشَّمْسِ وَعُبَادِ النَّارِ وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنْ هُؤُلَاءِ مَنْ يَزُعمُ أَنَّ مَعْبُودَهُ هُوَ الْإِلَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزُعمُ أَنَّهُ أَكْبَرُ الْأَلِهَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزُعمُ أَنَّهُ إِلَهٌ مِنْ جُمْلَةِ الْأَلِهَةِ، وَأَنَّهُ إِذَا خَصَّهُ بِعِبَادَتِهِ وَالْتَّبَلُّ إِلَيْهِ وَالْإِنْقِطَاعُ إِلَيْهِ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَاعْتَنَى بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزُعمُ أَنَّ مَعْبُودَهُ الْأَدَنَى يُقْرِبُهُ إِلَى الْمَعْبُودِ الَّذِي هُوَ فَوْقَهُ، وَالْفَوْقَانِيَّ يُقْرِبُهُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ، حَتَّى تَقْرَبَهُ تِلْكَ الْأَلِهَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَتَارَةً تَكُثُرُ الْوَسَائِطُ وَتَارَةً تَقْلُ.

\* \* \*

## [فصل الشرك في العبادة]

وَأَمَّا الشُّرُكُ فِي الْعِبَادَةِ فَهُوَ أَسْهَلُ مِنْ هَذَا الشُّرُكَ، وَأَحَقُّ أَمْرًا، فَإِنَّهُ يَصْدُرُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَفْعُلُ وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَكِنْ لَا يُخُصُّ اللَّهُ فِي مُعَامَلَتِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ، بَلْ يَعْمَلُ لِحَظَّ نَفْسِهِ تَارَةً، وَلِطَلَبِ الدُّنْيَا تَارَةً، وَلِطَلَبِ الرُّفْعَةِ وَالْمُنْزِلَةِ وَالْجَاهِ عِنْدَ الْخَلْقِ تَارَةً، فَلِلَّهِ مِنْ عَمَلِهِ وَسَعْيِهِ نَصِيبٌ، وَلِنَفْسِهِ وَحَاظِهِ وَهَوَاهُ نَصِيبٌ، وَلِلشَّيْطَانِ نَصِيبٌ، وَلِلْخَلْقِ نَصِيبٌ، وَهَذَا حَالُ أَكْثَرِ النَّاسِ، وَهُوَ الشُّرُكُ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِيمَا رَوَاهُ أَبْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ: "الشُّرُكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، قَالُوا: كَيْفَ نَنْجُو مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَعْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ".

## الدَّلَالُ وَالدَّلَائِلُ

فَالرِّيَاءُ كُلُّهُ شِرْكٌ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّلْكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحْدَهُ فَنَّ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ، فَلَمْ يَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشَرِّكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [سُورَةُ الْكَهْفِ: 110].

أَيْ : كَمَا أَنَّهُ إِلَهٌ وَحْدَهُ، وَلَا إِلَهٌ سُواهُ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ لَهُ وَحْدَهُ، فَكَمَا نَفَرَدَ بِالْإِلَهِيَّةِ يَحِبُّ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعُبُودِيَّةِ، فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الْخَالِي مِنَ الرِّيَاءِ الْمُقِيدِ بِالسُّنَّةِ .  
وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - ﷺ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا .

وَهَذَا الشَّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ يُبْطِلُ ثَوَابَ الْعَمَلِ، وَقَدْ يُعَاقَبُ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ الْعَمَلُ وَاجِبًا، فَإِنَّهُ يُنْزِلُهُ مَنْزِلَةً مَنْ لَمْ يَعْمَلْهُ، فَيُعَاقَبُ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا أَمْرٌ بِعِبَادَتِهِ عِبَادَةً خَالِصَةً، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَمْرٌ وَإِلَّا يَعْبُدُوا اللَّهُ مُعْلَمِينَ لَهُ الَّذِينَ حُنَفَاءُ ﴾ [الْبَيْنَ: 5].

فَمَنْ لَمْ يُخَلِّصْ لِلَّهِ فِي عِبَادَتِهِ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرَبِهِ، بَلِ الَّذِي أَتَى بِهِ شَيْءٌ عَيْرُ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَلَا يَصِحُّ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ، وَيَقُولُ اللَّهُ : "أَنَا أَغْنَى الشَّرَكَاءِ عَنِ الشَّرْكِ، فَمَنْ عَمَلَ عَمَلاً أَشَرَّكَ مَعِي فِيهِ عَيْرِي فَهُوَ لِلَّذِي أَشَرَّكَ بِهِ، وَأَنَا مِنْهُ بَرِي" .

### أَقْسَامُ الشَّرْكِ

وَهَذَا الشَّرْكُ يَنْقَسِمُ إِلَيْ مَغْفُورٍ وَغَيْرِ مَغْفُورٍ، وَأَكْبَرُ وَأَصْغَرُ، وَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ يَنْقَسِمُ إِلَى كَبِيرٍ وَأَكْبَرَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ مَغْفُورٌ، فَمِنْهُ الشَّرْكُ بِاللَّهِ فِي الْمَحَاجَةِ وَالْتَّعْظِيمِ : أَنْ يُحِبَّ مَخْلُوقًا كَمَا يُحِبُّ اللَّهَ، فَهَذَا مِنَ الشَّرْكِ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وَهُوَ الشَّرْكُ الَّذِي قَالَ سُبْحَانَهُ فِيهِ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَسَدُ حُبَّ اللَّهِ ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 165] وَقَالَ أَصْحَابُ هَذَا الشَّرْكِ لِأَلْهَتِهِمْ وَقَدْ جَمَعَهُمُ الْجَحِيمُ :

﴿ تَالَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: 97 - 98].

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ مَا سَوَّوْهُمْ بِهِ سُبْحَانَهُ فِي الْخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَالإِمَاتَةِ، وَالإِحْيَاءِ، وَالْمُلْكِ، وَالْقُدْرَةِ، وَإِنَّمَا سَوَّوْهُمْ بِهِ فِي الْحُبُّ، وَالتَّالِهِ، وَالخُصُوصَةِ لَهُمْ وَالْتَّدْلِلِ، وَهَذَا غَايَةُ الْجَهَلِ وَالظُّلْمِ، فَكَيْفَ يُسَوِّي التُّرَابُ بِرَبِّ الْأَرْبَابِ، وَكَيْفَ يُسَوِّي الْعَيْدُ بِمَالِكِ الرَّقَابِ، وَكَيْفَ يُسَوِّي الْفَقِيرُ بِالذَّاتِ الْضَّعِيفُ بِالذَّاتِ الْعَاجِزُ بِالذَّاتِ الْمُحْتَاجُ بِالذَّاتِ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ إِلَّا الْعَدَمُ، بِالْغَنَّى بِالذَّاتِ، الْقَادِرُ بِالذَّاتِ، الَّذِي غَنَاهُ، وَقُدْرَتُهُ وَمُلْكُهُ وَجُودُهُ، وَإِحْسَانُهُ، وَعِلْمُهُ، وَرَحْمَتُهُ، وَكَمَالُهُ الْمُطْلُقُ التَّامُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ؟

فَأَيُّ ظُلْمٍ أَقْبَحُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ حُكْمٍ أَشَدُ جَوْرًا مِنْهُ؟ حَيْثُ عَدَلَ مَنْ لَا عَدْلَ لَهُ بِخَلْقِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلْمَتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدُلُونَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: 1].

فَعَدَلَ الْمُشْرِكُ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَجَعَلَ الظُّلْمَاتِ وَالنُّورَ، بِمَنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، فَيَا لَكَ مِنْ عَدْلٍ تَضَمَّنَ أَكْبَرَ الظُّلْمِ وَأَقْبَحَهُ.

\*\*\*

## [فَصْلُ الشَّرْكِ فِي الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ]

وَيَتَبَعُ هَذَا الشَّرْكُ الشَّرْكُ بِهِ سُبْحَانَهُ فِي الْأَفْعَالِ، وَالْأَقْوَالِ، وَالْإِرَادَاتِ، وَالنِّيَّاتِ، فَالشَّرْكُ فِي الْأَفْعَالِ كَالسُّجُودِ لِغَيْرِهِ، وَالطَّوَافِ بِغَيْرِ بَيْتِهِ، وَحَلْقِ الرَّأْسِ عُبُودِيَّةً وَخُضُوصَةً لِغَيْرِهِ، وَتَقْبِيلِ الْأَحْجَارِ غَيْرِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ الَّذِي هُوَ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَتَقْبِيلِ الْقُبُورِ وَاسْتِلَامِهَا، وَالسُّجُودِ لَهَا، وَقَدْ لَعَنَ النَّبِيِّ - ﷺ - مَنِ اتَّخَذَ قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَسَاجِدٍ يُصَلِّي لِلَّهِ فِيهَا، فَكَيْفَ يَمِنُ اتَّخَذَ الْقُبُورَ أَوْثَانًا يَعْبُدُهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟

فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ: "لَعْنَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ".

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ: "إِنَّ شَرَارَ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ".

وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْهُ: "إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنَّمَا يَأْتُهَا كُفُورٌ عَنْ ذَلِكَ".

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَصَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ عَنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : "لَعْنَ اللَّهِ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ".

وَقَالَ: "اشْتَدَّ عَصْبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ".

وَقَالَ: "إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، كَانَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، أَوْلَئِكَ شَرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

فَهَذَا حَالُ مَنْ سَجَدَ لِلَّهِ فِي مَسْجِدٍ عَلَى قَبْرٍ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ سَجَدَ لِلْقَبْرِ نَفْسِهِ؟

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : "اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنَاءً يُعبدُ، وَقَدْ حَمَى النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - جَانِبَ التَّوْحِيدِ أَعْظَمَ حِمَايَةً، حَتَّى نَهَى عَنْ صَلَاةِ التَّطَوُّعِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَعِنْدَ غُرُوبِهَا؛ لِئَلَّا يَكُونَ ذِرْيَةً إِلَى التَّشْبِيهِ بِعُبَادِ الشَّمْسِ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهَا فِي هَاتِينِ الْحَالَتَيْنِ".

وَسَدَ الدَّرِيْعَةَ بِأَنْ مَنْعَ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْعَصْرِ وَالصُّبْحِ؛ لِإِنْصَالِ هَذِينِ الْوَقْتَيْنِ بِالْوَقْتَيْنِ الَّذِينَ يَسْجُدُ الْمُشْرِكُونَ فِيهِمَا لِلشَّمْسِ.

وَأَمَّا السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ فَقَالَ: "لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ".

## الدَّلَاءُ وَالدَّلَاءُ

وَ "لَا يَنْبَغِي" فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ - ﷺ - لِلَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الْإِمْتَنَاعِ شَرْعًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِرَحْمَنِ أَنْ يَتَخَذَ وَلَدًا ﴾ [سُورَةُ مَرْيَمٍ: 92].

وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ [سُورَةُ يَسٍ: 69].

وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا نَزَّلْنَا بِهِ أَشَيَّطِينٌ ﴾ ٢١١ [سُورَةُ الشُّعْرَاءَ: ٢١١] وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِي عُوْنَانٌ ﴿ ٢١٢ ﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: ٢١٢].

. [211 - 210]

وَقَوْلِهِ : ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ تَتَخَذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أُولَئِكَ ﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: 18]

\* \* \*

## [فَصْلُ الشَّرْكِ فِي الْأَفْظَرِ]

وَمِنَ الشَّرْكِ بِهِ سُبْحَانَهُ الشَّرْكُ بِهِ فِي الْلَّفْظِ، كَالْحَلِفُ بِغَيْرِهِ، كَمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاؤِدَ عَنْهُ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ" صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَابْنُ حِبَّانَ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْقَائِلِ لِلْمَخْلُوقِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، كَمَا "بَيْتُ عَنِ النَّبِيِّ" - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: أَجْعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ قُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ".

هَذَا مَعَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَثْبَتَ لِلْعَبْدِ مَسِيئَةً، كَقَوْلِهِ : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ [سُورَةُ التَّحْوِيرِ: 28].

فَكِيفَ بِمَنْ يَقُولُ: أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ وَعَلَيْكَ، وَأَنَا فِي حَسْبِ اللَّهِ وَحْسِبِكَ، وَمَا لِي إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ، وَهَذَا مِنَ اللَّهِ وَمِنْكَ، وَهَذَا مِنْ بَرَكَاتِ اللَّهِ وَبَرَكَاتِكَ، وَاللَّهُ لِي فِي السَّمَاءِ وَأَنْتَ فِي الْأَرْضِ.

أَوْ يَقُولُ: وَاللَّهِ، وَحَيَاةٌ فُلَانٌ، أَوْ يَقُولُ نَذْرًا لِلَّهِ وَلِفُلَانٍ، وَأَنَا تَائِبٌ لِلَّهِ وَلِفُلَانٍ، أَوْ أَرْجُو اللَّهَ وَفُلَانًا، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَوَازِنْ يَبْنَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ وَبَيْنَ قَوْلِ الْقَائِلِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئَتْ. ثُمَّ انْظُرْ أَيْهُمَا أَفْحَشُ، يَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ قَائِلَهَا أَوْلَى بِجَوَابِ النَّبِيِّ - ﷺ - لِقَائِلِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ جَعَلَهُ نِدَّاً لِلَّهِ بِهَا، فَهَذَا قَدْ جَعَلَ مَنْ لَا يُدَانِي رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ - بَلْ لَعْلَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَعْدَائِهِ - نِدَّاً لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَالسُّجُودُ، وَالْعِبَادَةُ، وَالْتَّوْكُلُ، وَالْإِنْجَابُ، وَالْتَّقْوَى، وَالْخُشْيَةُ، وَالْحَسْبُ، وَالْتَّوْبَةُ، وَالنَّذْرُ، وَالْحَلْفُ، وَالسَّيْحُ، وَالْتَّكْبِيرُ، وَالنَّهَيْلُ، وَالْتَّحْمِيدُ، وَالْإِسْتَغْفَارُ، وَحَلْقُ الرَّأْسِ خُضُوعًا وَتَعْبُدًا، وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَالدُّعَاءُ، كُلُّ ذَلِكَ مَحْضُ حَقُّ اللَّهِ، لَا يَصْلُحُ وَلَا يَنْبَغِي لِسَوَادِهِ: مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ. وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّ رَجُلًا أَتَى بِهِ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - قَدْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوْبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوْبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقَالَ: عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ.

\* \* \*

### [فَصْلُ الشَّرْكِ فِي الْإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ]

وَأَمَّا الشَّرْكُ فِي الْإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ، فَذَلِكَ الْبَحْرُ الَّذِي لَا سَاحِلَ لَهُ، وَقَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُ، مَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ وَجْهِ اللَّهِ، وَتَوَى شَيْئًا غَيْرَ التَّقْرُبِ إِلَيْهِ، وَطَلَبَ الْجَزَاءَ مِنْهُ، فَقَدْ أَشَرَكَ فِي نَيْتِهِ وَإِرَادَتِهِ.

وَالْإِخْلَاصُ: أَنْ يُخْلَصَ لِلَّهِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَإِرَادَتِهِ وَنَيْتِهِ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَنِيفَيَّةُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ كُلَّهُمْ، وَلَا يَقْبِلُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرَهَا، وَهِيَ حَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ. ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِيرِينَ ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: 85].

وَهِيَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي مَنْ رَغَبَ عَنْهَا فَهُوَ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ.

\* \* \*

## فصلُ حَقِيقَةِ الشُّرُكِ

إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْمُقَدَّمَةَ انْفَتَحَ لَكَ بَابُ الْجَوَابِ عَنِ السُّؤَالِ الْمَذْكُورِ، فَنَقُولُ، وَمِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ سَتَمِدُ الصَّوَابَ:

حَقِيقَةُ الشُّرُكِ: هُوَ التَّشْبِيهُ بِالْخَالِقِ وَتَشْبِيهُ الْمَخْلُوقِ بِهِ، هَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ فِي الْحَقِيقَةِ، لَا إِثْبَاتٌ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ، وَوَصَفَهُ بِهَا رَسُولُهُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَعَكَسَ الْأَمْرُ مَنْ نَكَسَ اللَّهُ قَلْبَهُ وَأَعْمَى بَصِيرَتَهُ وَأَرْكَسَهُ بِكَسْبِهِ، وَجَعَلَ التَّوْحِيدَ تَشْبِيهًَا وَالْتَّشْبِيهَ تَعْظِيْمًا وَطَاعَةً، فَالْمُشْرِكُ مُشَبِّهٌ لِلْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ فِي خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ.

فَإِنَّ مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ التَّقْرَدُ بِمِلْكِ الْبُرُّ وَالنَّفْعُ وَالْعَطَاءُ وَالْمَنْعُ، وَذَلِكُ يُوجَبُ تَعْلِيقَ الدُّعَاءِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالْتَّوْكِلِ بِهِ وَحْدَهُ، فَمَنْ عَلَقَ ذَلِكَ بِمَخْلُوقٍ فَقَدْ شَبَهَهُ بِالْخَالِقِ وَجَعَلَ مَنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِ - شَبَهَهُ بِمَنْ لَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَأَزَمَّهُ الْأُمُورُ كُلُّهَا بِيَدِيهِ، وَمَرْجِعُهَا إِلَيْهِ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، بَلْ إِذَا فَتَحَ لِعِبْدِهِ بَابَ رَحْمَتِهِ لَمْ يُمْسِكْهَا أَحَدٌ، وَإِنْ أَمْسَكَهَا عَنْهُ لَمْ يُرْسِلْهَا إِلَيْهِ أَحَدٌ.

فَمِنْ أَقْبَحِ التَّشْبِيهِ: تَشْبِيهُ هَذَا الْعَاجِزِ الْفَقِيرِ بِالذَّاتِ بِالْقَادِرِ الْغَنِيِّ بِالذَّاتِ.

وَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ: الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ الَّذِي لَا نَقْصَ فِيهِ بِوْجِهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَذَلِكُ يُوجَبُ أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ كُلُّهَا لَهُ وَحْدَهُ، وَالْتَّعْظِيمُ وَالْإِجْلَالُ وَالْخُشْبَةُ وَالدُّعَاءُ وَالرَّجَاءُ وَالإِنَابَةُ وَالْتَّوْبَةُ وَالْتَّوْكِلُ وَالإِسْتِعَانَةُ، وَغَایَةُ الذَّلِّ مَعَ غَايَةِ الْحُبِّ - كُلُّ ذَلِكَ يَجِبُ عَقْلًا وَشَرْعًا وَفِطْرَةً أَنْ يَكُونَ لَهُ وَحْدَهُ، وَيَمْتَنِعُ عَقْلًا وَشَرْعًا وَفِطْرَةً أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ، فَمَنْ جَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَهَ ذَلِكَ الْغَيْرَ بِمَنْ لَا شَبَهِ

## الذل والذلة

لَهُ وَلَا مِثْلَهُ وَلَا نِدَّهُ، وَذَلِكَ أَقْبَحُ التَّشْبِيهِ وَأَبْطَلُهُ، وَلِشِدَّةِ قُبْحِهِ وَتَضْمِنِهِ غَايَةَ الظُّلْمِ  
أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، مَعَ أَنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ.

وَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ: الْعُبُودِيَّةُ الَّتِي قَامَتْ عَلَى سَاقِينِ لَا قِوَامَ لَهَا بِدُورِنَهُمَا: غَايَةُ  
الْحُبُّ، مَعَ غَايَةِ الدُّلُّ. هَذَا تَمَامُ الْعُبُودِيَّةِ، وَتَفَاقَوْتُ مَنَازِلِ الْخَلْقِ فِيهَا بِحَسْبِ تَفَاقُوتِهِمْ  
فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ.

فَمَنْ أَعْطَى حُبَّهُ وَذَلَّهُ وَخُصُوْعَهُ لِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ شَبَهَهُ بِهِ فِي خَالِصِ حَقِّهِ، وَهَذَا مِنْ  
الْمُحَالِ أَنْ تَجِيءَ بِهِ شَرِيعَةٌ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَقُبْحُهُ مُسْتَقِرٌ فِي كُلِّ فِطْرَةٍ وَعَقْلٍ، وَلَكِنْ غَيْرُ  
الشَّيَاطِينِ فِطْرَ الْخَلْقِ وَعُقُولَهُمْ وَأَفْسَدَتْهَا عَلَيْهِمْ، وَاجْتَالَتْهُمْ عَنْهَا، وَمَضَى عَلَى الْفِطْرَةِ  
الْأُولَى مِنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ بِمَا يُوَافِقُ  
فِطْرَهُمْ وَعُقُولَهُمْ، فَازْدَادُوا بِذَلِكَ نُورًا عَلَى نُورٍ، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النُّور: 35].  
إِذَا عِرِفَ هَذَا فَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ السُّجُودُ، فَمَنْ سَجَدَ لِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَهَ الْمَخْلُوقَ بِهِ.  
وَمِنْهَا: التَّوْكُلُ، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِهِ فَقَدْ شَبَهَهُ بِهِ.

وَمِنْهَا: التَّوْبَةُ، فَمَنْ تَابَ لِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَهَهُ بِهِ.

وَمِنْهَا: الْحَلِفُ بِاسْمِهِ تَعْظِيْمًا وَإِجْلَالًا لَهُ، فَمَنْ حَلَفَ بِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَهَهُ بِهِ، هَذَا فِي  
جَانِبِ التَّشْبِيهِ.

وَأَمَّا فِي جَانِبِ التَّشْبِيهِ بِهِ: فَمَنْ تَعَاظَمَ وَتَكَبَّرَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى إِطْرَائِهِ فِي الْمَدْحِ  
وَالْتَّعْظِيمِ وَالْخُضُوعِ وَالرَّجَاءِ، وَتَعْلِيقِ الْقُلُوبِ بِهِ حَوْفًا وَرَجَاءً وَالْتِجَاءَ وَاسْتِعَانَةً، فَقَدْ  
شَبَهَ بِاللَّهِ وَنَازَعَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُهِينَهُ غَايَةَ الْهُوَانِ، وَيُذَلِّلُهُ غَايَةَ  
الْذُلُّ، وَيَجْعَلُهُ تَحْتَ أَقْدَامِ خَلْقِهِ.

وَفِي الصَّحِّيْحِ عَنْهُ - ﷺ - قَالَ: "يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "الْعَظَمَةُ إِزَارِي، وَالْكَبِيرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَارَ عَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبَتِهُ".

وَإِذَا كَانَ الْمُصَوِّرُ الَّذِي يَصْنَعُ الصُّورَةَ بِيَدِهِ مِنْ أَشَدِ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِتَشَبَّهِهِ بِاللَّهِ فِي مُجَرَّدِ الصُّورَةِ، فَمَا الظَّنُّ بِالتشَبُّهِ بِاللَّهِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ؟ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - : "أَشَدُ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ، يُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ".

وَفِي الصَّحِّيْحِيْنِ عَنْهُ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: [وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي، فَلَيَخْلُقُوا ذَرَّةً، فَلَيَخْلُقُوا شَعِيرَةً]"، فَبَشَّهَ بِالذَّرَّةِ وَالشَّعِيرَةِ عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا وَأَكْبَرُ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ هَذَا حَالٌ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي صَنْعَةِ صُورَةِ، فَكَيْفَ حَالٌ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي خَوَاصِ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ؟ وَكَذَلِكَ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي الْإِسْمِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمِلِكِ الْمُلُوكِ، وَحَاكِمِ الْحُكَّامِ، وَنَحْوِهِ.

وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِّيْحِ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ أَخْنَعَ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِشَاهَانْ شَاهٌ - أَيْ مَلِكِ الْمُلُوكِ - لَا مَلِكَ إِلَّا اللَّهُ" وَفِي لَفْظٍ: "أَغِيظُ رَجُلٌ عَلَى اللَّهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ".

فَهَذَا مَقْتُ اللَّهِ وَغَضِبُهُ عَلَى مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي الْإِسْمِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَلِكُ الْمُلُوكِ وَحْدَهُ، وَهُوَ حَاكِمُ الْحُكَّامِ وَحْدَهُ، فَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ عَلَى الْحُكَّامِ كُلُّهُمْ، وَيَقْضِي عَلَيْهِمْ كُلُّهُمْ، لَا عَيْرُهُ.

\* \* \*

## [فصل سُوء الظن بِالله]

إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَهَا هُنَا أَصْلُ عَظِيمٍ يَكْسِفُ سَرَّ الْمَسْأَلَةِ، وَهُوَ أَنَّ أَعْظَمَ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ إِسَاعَةُ الظَّنِّ بِهِ، فَإِنَّ الْمُسِيَّ بِهِ الظَّنَّ قَدْ طَنَّ بِهِ خِلَافَ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، وَظَنَّ بِهِ مَا يُنَاقِضُ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الظَّانِينَ بِهِ ظَنَّ السُّوءِ بِمَا لَمْ يَتَوَعَّدْ بِهِ غَيْرُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآيْرَةٌ أَسْوَءٌ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَعْنَاهُمْ وَأَعْدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ [سُورَةُ الْفُتْحِ: 6].

وَقَالَ تَعَالَى لِمَنْ أَنْكَرَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ: ﴿وَذَلِكُمُ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرِبِّكُمْ أَرَدَنْتُمْ فَأَصَبَّهُمْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [سُورَةُ فُصْلِتْ: 23].

قَالَ تَعَالَى عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ٨٥ ﴿أَيْفَكَا إِلَهَهُ دُونَ اللَّهِ﴾ ٨٦ [الصَّافَاتِ: 85 - 87].

أَيْ فَمَا ظَنْتُمْ أَنْ يُجَازِيَكُمْ بِهِ إِذَا لَقِيْتُمُوهُ وَقَدْ عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ؟ وَمَا ظَنَنْتُمْ بِهِ حِينَ عَبَدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ؟

وَمَا ظَنَنْتُمْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَرَبِّوْيَتِهِ مِنَ النَّقْصِ حَتَّى أَحْوَجَكُمْ ذَلِكَ إِلَى عُبُودِيَّةِ غَيْرِهِ؟ فَلَوْ ظَنَنْتُمْ بِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْ أَنَّهُ يُكْلِّ شَيْءٍ عَلَيْمٌ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ لَا يُشَرِّكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، وَالْعَالَمُ بِتَفَاصِيلِ الْأُمُورِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَّةُ مِنْ خَلْقِهِ، وَالْكَافِي لَهُمْ وَحْدَهُ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مُعِينٍ، وَالرَّحْمَنُ بِذَاتِهِ، فَلَا يَحْتَاجُ فِي رَحْمَتِهِ إِلَى مَنْ يَسْتَعْطِفُهُ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْمُلْوُكِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الرُّؤُسَاءِ، فَإِنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى مَنْ يُعْرِفُهُمْ أَحْوَالَ الرَّعِيَّةِ وَحَوَائِجِهِمْ، وَيُعِينُهُمْ إِلَى قَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ، وَإِلَى مَنْ يَسْتَرِ حُمُّهُمْ

وَيَسْتَعْطِفُهُمْ بِالشَّفَاعَةِ، فَاحْتَاجُوا إِلَى الْوَسَائِطِ ضُرُورَةً، لِحَاجَتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ وَعَجْزِهِمْ  
وَقُصُورِ عِلْمِهِمْ.

فَأَمَّا الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الَّذِي وَسَعَتْ  
رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، فَإِذَا خَالُ الْوَسَائِطُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ نَقْصٌ بِحَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ،  
وَظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَهَذَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يُشَرِّعَهُ لِعِبَادِهِ، وَيَمْتَنِعُ فِي الْعُقُولِ وَالْفُطُرِ جَوَارِهُ،  
وَيُبْهِهُ مُسْتَقِرٌ فِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ فَوْقَ كُلِّ قَبِيحٍ.

يُوضَّحُ هَذَا: أَنَّ الْعَابِدَ مُعَظَّمٌ لِمَعْبُودِهِ، مَتَّالٌهُ خَاصِّ دَلِيلُهُ، وَالرَّبُّ تَعَالَى وَحْدَهُ  
هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُ كَمَالَ التَّعْظِيمِ وَالْجَلَالِ وَالْتَّالِهِ وَالْخُضُوعِ وَالذُّلُّ، وَهَذَا خَالِصٌ  
حَقَّهُ، فَمِنْ أَقْبَحِ الظُّلْمِ أَنْ يُعْطِيَ حَقَّهُ لِعِيْرِهِ، أَوْ يُشْرِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِيهِ، وَلَا سِيمَّا إِذَا كَانَ  
الَّذِي جُعِلَ شَرِيكَهُ فِي حَقِّهِ هُوَ عَبْدُهُ وَمَمْلُوكُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ  
أَنفُسِكُمْ هَلَ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكْتُ أَيْمَنَكُمْ مِنْ شَرَكَاءِ فِي مَا رَزَقْنَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ  
كَيْفَيَّتُكُمْ أَنْفُسُكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سُورَةُ الرُّومِ: 28].

أَيْ: إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يَأْنِفُ أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكًا شَرِيكَهُ فِي رِزْقِهِ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لِي مِنْ  
عِبِيدِي شَرَكَاءَ فِيمَا أَنَا بِهِ مُنْفَرِدٌ؟ وَهُوَ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي لَا تَنْبَغِي لِعِيْرِي، وَلَا تَصْحُ لِسَوَاءِي.

فَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَمَا قَدَرَنِي حَقُّ قَدْرِي، وَلَا عَظَمَنِي حَقُّ تَعْظِيمِي، وَلَا أَفْرَدَنِي بِمَا  
أَنَا مُفَرِّدٌ بِهِ وَحْدِي دُونَ خَلْقِي، فَمَا قَدَرَ اللَّهُ حَقُّ قَدْرِهِ مَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿ يَتَأْلِمُهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَأَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ  
أَجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبُوهُمُ الْذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنِقُهُو مِنْهُ ضَعْفُكَ الْطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ ٧٣  
قَدَرُوا اللَّهُ حَقُّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوْيٌ عَزِيزٌ [سُورَةُ الْحَجَّ: 73 - 74].

فَمَا قَدَرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ، مِمَّنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقٍ أَضْعَفِ حَيَوَانٍ وَأَصْغَرِهِ، وَإِنْ سَلَبُهُمُ الْذُبَابُ شَيْئًا مِمَّا عَلَيْهِ لَمْ يَقْدِرُ عَلَى اسْتِنْقَادِهِ مِنْهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ﴾ [سُورَةُ الرُّمُر: 67] فَمَا قَدَرَ مَنْ هَذَا شَانُهُ وَعَظَمَتُهُ حَقَّ قَلْدِرَهُ مَنْ أَشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ مَنْ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَتَّةَ، بَلْ هُوَ أَعْجَزُ شَيْءٍ وَأَضْعَفُهُ، فَمَا قَدَرَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ أَشْرَكَ مَعَهُ الْمُضَعِّفَ الذَّلِيلَ.

وَكَذَلِكَ مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يُرِسِّلْ إِلَى خَلْقِهِ رَسُولًا، وَلَا أَنْزَلَ كِتَابًا، بَلْ سَبَبَهُ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ وَلَا يَحْسُنُ مِنْهُ، مِنْ إِهْمَالِ خَلْقِهِ وَتَضْيِيعِهِمْ وَتَرْكِهِمْ سُدًّي، وَخَلْقِهِمْ بَاطِلًا وَعَبَثًا، وَلَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ نَفَى حَقَائِقَ أَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا، فَنَفَى سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَإِرَادَتَهُ وَأَخْتِيَارَهُ وَعُلُوَّهُ فَوْقَ خَلْقِهِ، وَكَلَامُهُ وَنَكْلِيمُهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا يُرِيدُهُ، أَوْ نَفَى عُمُومَ قُدْرَتِهِ وَتَعَلُّقَهَا بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ مِنْ طَاعَتِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، فَأَخْرَجَهَا عَنْ قُدْرَتِهِ وَمَسْيِّسَتِهِ وَخَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ يَخْلُقُونَ لِأَنفُسِهِمْ مَا يَشَاءُونَ بِدُونِ مَسِيَّةِ الرَّبِّ، فَيَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يَشَاءُ، وَيَشَاءُ مَا لَا يَكُونُ. تَعَالَى عَنْ قَوْلِ أَشْبَاهِ الْمَجُوسِ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَكَذَلِكَ مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُعَاقِبُ عَبْدَهُ عَلَى مَا لَا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ، وَلَا لَهُ عَلَيْهِ قُدْرَةٌ، وَلَا تَأْثِيرٌ لَهُ فِي الْبَتَّةِ، بَلْ هُوَ نَفْسٌ فِيْلُ الْرَبِّ جَلَّ جَلَلُهُ، فَيُعَاقِبُ عَبْدَهُ عَلَى فِعْلِهِ هُوَ سُبْحَانُهُ الَّذِي جَبَرَ الْعَبْدَ عَلَيْهِ. وَجَبْرُهُ عَلَى الْفِعْلِ أَعْظَمُ مِنْ إِكْرَاهِ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ، وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُسْتَقِرِّ فِي الْفِطْرِ وَالْعُقُولِ أَنَّ السَّيِّدَ لَوْ أَكْرَهَ عَبْدَهُ عَلَى فِعْلٍ، أَوْ أَلْجَاهُ إِلَيْهِ ثُمَّ عَاقَبَهُ عَلَيْهِ لَكَانَ قَبِيحاً، فَأَعْدَلُ الْعَادِلِينَ وَأَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ كَيْفَ يَجْبُرُ الْعَبْدَ عَلَى فِعْلٍ لَا يَكُونُ لِلْعَبْدِ فِيهِ صُنْعٌ وَلَا تَأْثِيرٌ، وَلَا هُوَ وَاقِعٌ

## الذَّلِكُ الْوَلَدُ

يَأْرَادِهِ، بَلْ وَلَا هُوَ فِعْلُهُ الْبَتَّةُ، ثُمَّ يُعَاقِبُ عَلَيْهِ عُقُوبَةَ الْأَبَدِ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ شُرُّ مِنْ أَقْوَالِ الْمَجُوسِ. وَالْطَّاغِتَانِ مَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ.

وَكَذَلِكَ مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ لَمْ يَصُنْهُ عَنْ نَنْ وَلَا حُشْ، وَلَا مَكَانٍ يُرْغَبُ عَنْ ذَكْرِهِ بَلْ جَعَلَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، صَانَهُ عَنْ عَرْشِهِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَوِيًّا عَلَيْهِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعُدُ الْكَلْمَ الْطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ: 10].

وَتَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ، وَتَنْزِلُ مِنْ عِنْدِهِ: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [سُورَةُ السَّجْدَةِ: 5].

فَصَانَهُ عَنِ اسْتِوَائِهِ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ، ثُمَّ جَعَلَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَنْفُدُ الْإِنْسَانُ، بَلْ غَيْرُهُ مِنَ الْحَيَّانِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ.

وَمَا قَدَرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ نَفَى حَقِيقَةَ مَحَبَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ وَرِضَاهُ وَغَضِبِهِ وَمَقْنِيهِ، وَلَا مَنْ نَفَى حَقِيقَةَ حِكْمَتِهِ الَّتِي هِيَ الْغَيَّاتُ الْمَحْمُودَةُ الْمَقْصُودَةُ بِفِعْلِهِ، وَلَا مَنْ نَفَى حَقِيقَةَ فِعْلِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ فِعْلًا اخْتِيَارِيًّا يَقُولُ بِهِ، بَلْ أَفْعَالُهُ مَفْعُولَاتٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، فَنَفَى حَقِيقَةَ مَجِيئِهِ وَإِتْيَانِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَتَكْلِيمِهِ مُوسَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ، وَمَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِعَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ بِنَفْسِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَوْصَافِ كَمَالِهِ، الَّتِي نَفَوْهَا وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ بِنَفْيِهَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ جَعَلَ لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا، أَوْ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ يَحِلُّ فِي جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، أَوْ جَعَلَهُ عَيْنَ هَذَا الْوُجُودِ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ رَفَعَ أَعْدَاءَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَأَهْلَ بَيْتِهِ - وَأَعْلَى ذِكْرَهُمْ، وَجَعَلَ فِيهِمُ الْمُلْكَ وَالْخِلَافَةَ وَالْعِزَّ، وَوَضَعَ أُولَيَاءَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -

## الذل والذلة

وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَأَهَانُهُمْ وَأَذَّهُمْ وَصَرَبَ عَلَيْهِمُ الذُّلَّ أَيْمَنًا ثُقُفُوا، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْقَدْحِ  
فِي جَنَابِ الرَّبِّ. تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الرَّافِضَةِ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَهَذَا القَوْلُ مُشَتَّقٌ مِنْ قَوْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنَّهُ أَرْسَلَ مَلِكًا  
ظَالِمًا، فَادَّعَى النُّبُوَّةَ لِنَفْسِهِ، وَكَذَبَ عَلَى اللَّهِ، وَمَكَثَ زَمَانًا طَوِيلًا يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ كُلَّ  
وَقْتٍ، وَيَقُولُ: قَالَ اللَّهُ كَذَا، وَأَمَرَ بِكَذَا، وَنَهَى عَنْ كَذَا، يَنْسَخُ شَرائِعَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ،  
وَيَسْتَبِحُ دِمَاءَ أَتَبَاعِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَحَرِيمَهُمْ، وَيَقُولُ: اللَّهُ أَبَاحَ لِي ذَلِكَ، وَالرَّبُّ تَعَالَى  
يُظْهِرُهُ وَيُؤْيِدُهُ، وَيُعْلِيهِ، وَيُعِزُّهُ، وَيُحِبُّ دَعَوَاتِهِ، وَيُمْكِنُهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، وَيُقْيِمُ الْأَدَلَّةَ عَلَى  
صِدْقِهِ، وَلَا يُعَادِيهِ أَحَدٌ إِلَّا ظَفَرَ بِهِ، فَيَصْدُقُهُ بِقَوْلِهِ وَفَعْلِهِ وَتَقْرِيرِهِ، وَيُحِدِّثُ أَدِلَّةَ تَصْدِيقِهِ  
شَيْئًا بَعْدَ شَيْئٍ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُذَا يَتَضَمَّنُ أَعْظَمَ الْقَدْحِ وَالطَّعْنِ فِي الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَعِلْمِهِ،  
وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ. تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الْجَاحِدِينَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

فَوَازِنْ بَيْنَ قَوْلِ هَؤُلَاءِ، وَقَوْلِ إِخْوَانِهِمْ مِنَ الرَّافِضَةِ، تَحِيدُ الْقَوْلَيْنِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

رَضِيعِي لِبَانِ ثَدِي أُمٌّ تَقَاسِمَا      بِأَسْحَمِ دَاحِ عَوْضٌ لَا تَتَفَرَّقُ

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُعَذَّبَ أُولَيَاءُهُ، وَمَنْ لَمْ يَعُصِهِ  
طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيُدْخِلُهُمْ دَارَ الْجَحِيمِ، وَيُنَعِّمَ أَعْدَاءُهُ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيُدْخِلُهُمْ  
دَارَ النَّعِيمِ، وَأَنَّ كِلَّا الْأَمْرَيْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَوَاءُ، وَإِنَّمَا الْخَبُرُ الْمَحْضُ جَاءَ عَنْهُ بِخِلَافِ  
ذَلِكَ، فَمَعْنَاهُ لِلْخَبَرِ لَا لِمُخَالَفَةِ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ.

وَقَدْ أَنْكَرَ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى مَنْ جَوَّزَ عَلَيْهِ ذَلِكَ غَايَةَ الْإِنْكَارِ، وَجَعَلَ الْحُكْمَ بِهِ  
مِنْ أَسْوَأِ الْحُكَّامِ.

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا حَلَقْنَا أَسْمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا يَنْهَمَا بَطْلًا ذَلِكَ طَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوْيِلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْأَنَارِ ﴾ ٢٧ ﴿ أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُقْرَبِينَ كَالْفَجَارِ ﴾ ٢٨ [سُورَةُ ص : 27 - 28]

وَقَالَ : ﴿ أَمْ حِسْبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَجْعَلُهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً حَسِيَّاً هُمْ وَمَمَأْوُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ٢٩ وَحَلَقَ اللَّهُ أَسْمَاءَ وَالْأَرْضَ بِالْعَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ٣٠ [سُورَةُ الْبَحَاثَةِ : 21 - 22]

وَقَالَ : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ٣١ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ٣٢ [سُورَةُ الْقَلْمَنِ : 35 - 36] وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقُّ قَدْرِهِ مِنْ رَعْمَ اللَّهِ لَا يُحِبِّي الْمَوْتَى، وَلَا يَعْتَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَلَا يَجْمَعُ خَلْقَهُ لِيَوْمٍ يُحَاجِزِي فِيهِ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ حَقَّهُ مِنْ ظَالِمِهِ، وَيُكْرِمُ الْمُتَحَمِّلِينَ الْمَشَاكِ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ أَجْلِهِ وَفِي مَرْضَاتِهِ بِأَفْضَلِ كَرَامَتِهِ، وَبَيْسِنُ لِخَلْقِهِ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَيَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقُّ قَدْرِهِ مِنْ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فَعَصَاهُ، وَنَهِيَهُ فَارْتَكَبَهُ، وَحَقُّهُ فَضَيَّعَهُ، وَذِكْرُهُ فَأَهْمَلَهُ، وَغَفَلَ قَلْبُهُ عَنْهُ، وَكَانَ هَوَاهُ أَثْرٌ عِنْدُهُ مِنْ طَلْبِ رِضَاهُ، وَطَاعَةُ الْمَخْلُوقِ أَهْمَّ مِنْ طَاعَتِهِ، فَلِلَّهِ الْفَضْلَةُ مِنْ قَلْبِهِ وَقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، هَوَاهُ الْمُقَدَّمُ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ الْمُهِمُّ عِنْدُهُ، يَسْتَحِفُ بِنَبَرِ اللَّهِ إِلَيْهِ، وَاطْلَاعِهِ عَلَيْهِ بِكُلِّ قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَيَسْتَحِي مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ، وَيَخْشَى النَّاسَ وَلَا يَخْشَى اللَّهَ، وَيُعَامِلُ الْخَلْقَ بِأَفْضَلِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَامَلَ اللَّهَ عَامَلَهُ بِأَهْوَانِ مَا عِنْدُهُ وَأَحْقَرِهِ، وَإِنْ قَامَ فِي خِدْمَةِ مَنْ يُحِبُّهُ مِنَ الْبَشَرِ قَامَ بِالْحِدْدِ وَالْإِجْهَادِ وَبَذْلِ النَّصِيحةِ، وَقَدْ أَفْرَغَ لَهُ قَلْبُهُ وَجَوَارِحُهُ، وَقَدَّمَهُ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ مَصَالِحِهِ، حَتَّى إِذَا قَامَ فِي حَقِّ رَبِّهِ - إِنْ سَاعَدَ الْقَدَرُ - قَامَ قِيَامًا لَا يَرْضَاهُ

مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، وَبَدَلَ لَهُ مِنْ مَالِهِ مَا يَسْتَحِي أَنْ يُوَاجِهَ بِهِ مَخْلُوقًا مِثْلُهُ، فَهَلْ قَدَرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ هَذَا وَصْفُهُ؟

وَهُلْ قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ شَارَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ فِي مَحْضِ حَقِّهِ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالْتَّعْظِيمِ وَالطَّاعَةِ وَالدُّلُّ وَالخُضُوعِ وَالْخُوفِ وَالرَّجَاءِ؟ فَلَوْ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَقْرَبِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ شَرِيكًا فِي ذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ جَرَاءَةً وَتَوْبَيَا عَلَى مَحْضِ حَقِّهِ وَاسْتِهَانَةً بِهِ وَتَشْرِيكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَلَا يَنْبَغِي وَلَا يَصْلُحُ إِلَّا لَهُ سُبْحَانَهُ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا شَرَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ عَلَيْهِ، وَأَهُونُهُمْ عَلَيْهِ، وَأَمْقَنُهُمْ عِنْدُهُ، وَهُوَ عُدُوُّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ؟ فَإِنَّهُ مَا عُيْدَ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَأَهُونُهُمْ عَلَيْهِ، وَأَمْقَنُهُمْ عِنْدُهُ، وَهُوَ عُدُوُّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ؟ فَإِنَّهُ مَا عُيْدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَتَبَيَّنَ أَنَّ لَا تَعْبُدُونَ الْشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عُدُوٌ مُّبِينٌ﴾ [سُورَةُ يُسْرَى : 60 - 61].

وَلَمَّا عَبَدَ الْمُشْرِكُونَ الْمَلَائِكَةَ بِزَعْمِهِمْ وَقَعَتْ عِبَادَتُهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لِلشَّيْطَانِ، وَهُمْ يَظْنُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةَ أَهْنَاهُ لَكُمْ كَافُورٌ يَعْبُدُونَ﴾ فَأَلْوَانُ سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيَشَانَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَافُورٌ يَعْبُدُونَ الْجِنَّةَ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ [سُورَةُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ : 40 - 41]. فَالشَّيْطَانُ يَدْعُو الْمُشْرِكَ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَيُوَهِّمُهُمْ أَنَّهُ مَلَكٌ، وَكَذَلِكَ عُبَادُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَافِكِ، وَهِيَ الَّتِي تُخَاطِبُهُمْ، وَتَقْضِي لَهُمُ الْحَوَائِجَ، وَلَهُذَا إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَارَنَهَا الشَّيْطَانُ، فَيَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، فَيَقُولُ سُجُودُهُمْ لَهُ، وَكَذَلِكَ عِنْدَ غُرُوبِهَا، وَكَذَلِكَ مَنْ عَبَدَ الْمَسِيحَ وَأَمْهُ لَمْ يَعْبُدُهُمَا وَإِنَّمَا عَبَدَ الشَّيْطَانَ.

فَإِنَّهُ يَرْعُمُ أَنَّهُ يَعْبُدُ مَنْ أَمْرَهُ بِعِبَادَتِهِ وَعِبَادَةِ أُمِّهِ، وَرَاضِيهَا لَهُمْ وَأَمْرَهُمْ بِهَا، وَهَذَا هُوَ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ، لَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَنَزَلَ هَذَا كُلُّهُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَتَبَيَّنَ أَنَّ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عُدُوٌ مُّبِينٌ﴾ [سُورَةُ يُسْرَى : 61].

فَمَا عَبَدَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ غَيْرَ اللَّهِ كَائِنًا مِنْ كَانَ إِلَّا وَقَعَتْ عِبَادَتُهُ لِلشَّيْطَانِ، فَيُسْتَمْتَعُ الْعَايِدُ بِالْمَعْبُودِ فِي حُصُولِ غَرَضِهِ، وَيُسْتَمْتَعُ الْمَعْبُودُ بِالْعَايِدِ فِي تَعْظِيمِهِ لَهُ، وَإِشْرَاكِهِ مَعَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ غَيْرُهُ رِضَا الشَّيْطَانِ، وَلَهُذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَوْمَعَشَرَ الْجِنِّينَ قَدِ اسْتَكْثَرُتْ مِنَ الْإِنْسَانِ﴾ أَيْ: مِنْ إِغْوَاهِهِمْ وَإِصْلَالِهِمْ ﴿وَقَالَ أَوْلَيَاهُمْ مِنَ الْإِنْسَانِ رَبُّنَا اسْتَمْتَعْ بَعْضُنَا بِعَضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلَتْ لَنَا قَالَ أَنَّا نَارٌ مَوْنِكُمْ خَلِيلُنَّ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلَيْهِ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامُ: 128].

فَهَذِهِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى السُّرُّ الَّذِي لِأَجْلِهِ كَانَ الشُّرُكُ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا يَعْفُرُهُ بِغَيْرِ التَّوْيِةِ مِنْهُ، وَأَنَّهُ يُوْجِبُ الْخُلُودَ فِي الْعَذَابِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ تَحْرِيمُهُ وَقِبْحُهُ بِمُجَرَّدِ النَّهْيِ عَنْهُ، بَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَشْرَعَ لِعِبَادِهِ عِبَادَةً إِلَهٍ غَيْرِهِ، كَمَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ مَا يُنَاقِضُ أَوْ صَافَ كَمَالِهِ، وَنُعُوتَ جَلَالِهِ، وَكَيْفَ يُظْنَ بِالْمُنْفَرِدِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ وَالْعَظَمَةِ وَالْإِجْلَالِ أَنْ يَأْذَنَ فِي مُشَارِكَتِهِ فِي ذَلِكَ، أَوْ يَرْضَى بِهِ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَيْرًا.

\* \* \*

## [فصلُ الشُّرُكُ وَالْكِبَرُ]

فَلَمَّا كَانَ الشُّرُكُ أَكْبَرُ شَيْءٍ مُنَافَاً لِلْأَمْرِ الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ لَهُ الْخَلْقَ، وَأَمْرَ لِأَجْلِهِ بِالْأَمْرِ، كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ.

وَكَذَلِكَ الْكِبَرُ وَتَوَابِعُهُ كَمَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ لِتَكُونَ الطَّاعَةُ لَهُ وَحْدَهُ، وَالشُّرُكُ وَالْكِبَرُ يُنَافِيَانِ ذَلِكَ.

وَلِذَلِكَ حَرَمَ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى أَهْلِ الشُّرُكِ وَالْكِبَرِ، فَلَا يَدْخُلُهَا مِنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبِيرٍ.

\* \* \*

## [فَصْلُ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ]

وَيَلِي ذَلِكَ فِي كِبِيرِ الْمَفْسَدَةِ: الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَوَصْفُهُ بِضَدِّ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصْفُهُ بِهِ رَسُولُهُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَهَذَا أَشَدُ شَيْءٍ مُنَاقَبَةً وَمُنَافَاةً لِكَمَالِ مَنْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَقَدْحٌ فِي نَفْسِ الرُّبُوبِيَّةِ وَخَصَائِصِ الرَّبِّ، فَإِنْ صَدَرَ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ فَهُوَ عِنَادٌ أَقْبُحُ مِنَ الشَّرْكِ، وَأَعْظَمُ إِنْمَاءً عِنْدَ اللَّهِ.

فَإِنَّ الْمُشْرِكَ الْمُؤْرِّ بِصِفَاتِ الرَّبِّ خَيْرٌ مِنَ الْمُعَطَّلِ الْجَاحِدِ لِصِفَاتِ كَمَالِهِ، كَمَا أَنَّ مَنْ أَقْرَرَ لِمَلِكٍ بِالْمُلْكِ، وَلَمْ يَجْحَدْ مُلْكَهُ وَلَا الصِّفَاتِ التَّيْيِيَّةِ اسْتَحْقَقَ بِهَا الْمُلْكُ، لَكِنْ جَعَلَ مَعَهُ شَرِيكًا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، يُقْرَبُهُ إِلَيْهِ، خَيْرٌ مِمَّنْ جَحَدَ صِفَاتِ الْمُلِكِ وَمَا يَكُونُ بِهِ مَلِكًا، وَهَذَا أَمْرٌ مُسْتَقْرِرٌ فِي سَائِرِ الْفِطْرِ وَالْعُقُولِ.

فَأَيْنَ الْقَدْحُ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَحْدِ لَهَا، مِنْ عِبَادَةٍ وَاسِطَةٍ بَيْنَ الْمَعْبُودِ الْحَقِّ وَبَيْنَ الْعَابِدِ، يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِعِبَادَةٍ تِلْكَ الْوَاسِطَةِ إِعْظَامًا لَهُ وَإِجْلَالًا؟

فَدَاءُ التَّعَطِيلِ هَذَا الدَّاءُ الْعُضَالُ الَّذِي لَا دَوَاءَ لَهُ، وَلَهَذَا حَكَى اللَّهُ عَنْ إِمَامِ الْمَعَطَّلَةِ فَرْعَوْنَ، أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَى مُوسَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَنَّ رَبَّهُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، فَقَالَ: ﴿أَبْنِ لِي صَرْحًا عَلَيْيَ أَبْلُغُ الْأَسْيَكَ﴾ <sup>٢٣</sup> أَسْبَدَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَيْهِ مُوسَى وَلِيَ لَأَظْنُهُ كَيْدًا وَكَيْدَكَ رَبِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ، وَصُدَّدَ عَنِ السَّيْلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿سُورَةُ غَافِرٍ: 36 - 37﴾.

وَاحْتَجَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ فِي كُتُبِهِ عَلَى الْمَعَطَّلَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ.

وَلَقَدْ ذَكَرْنَا لِفُظُوهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ. وَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ وَالشَّرْكُ مُتَلَازِمٌ. وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْبِدَعُ الْمُضِلَّةُ جَهَلًا بِصِفَاتِ اللَّهِ وَتَكْذِيَّاً بِمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَأَخْبَرَ

## الذَّلَّةُ وَالذُّلُّ

بِهِ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنَادًا وَجَهْلًا - كَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ، وَإِنْ قَصَرَتْ عَنِ الْكُفْرِ وَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنْ كِبَارِ الذُّنُوبِ.

كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْبِدْعَةُ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ: لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ يُتَابُ مِنْهَا وَالْبِدْعَةَ لَا يُتَابُ مِنْهَا.

وَقَالَ إِبْلِيسُ: أَهْلَكْتُ بَنِي آدَمَ بِالذُّنُوبِ وَأَهْلَكُونِي بِالإِسْتِغْفَارِ وَبِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ بَشَّثْتُ فِيهِمُ الْأَهْوَاءَ، فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يَتُوبُونَ، لِأَنَّهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُذْنِبَ إِنَّمَا ضَرَرُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَمَّا الْمُبْتَدِعُ فَضَرَرُهُ عَلَى النَّوْعِ، وَفِتْنَةُ الْمُبْتَدِعِ فِي أَصْلِ الدِّينِ، وَفِتْنَةُ الْمُذْنِبِ فِي الشَّهْوَةِ، وَالْمُبْتَدِعُ قَدْ قَعَدَ لِلنَّاسِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ يَصْدُهُمْ عَنْهُ، وَالْمُذْنِبُ لَيْسَ كَذِلِكَ، وَالْمُبْتَدِعُ قَادِحٌ فِي أَوْصَافِ الرَّبِّ وَكَمَالِهِ، وَالْمُذْنِبُ لَيْسَ كَذِلِكَ.

وَالْمُبْتَدِعُ يَقْطَعُ عَلَى النَّاسِ طَرِيقَ الْآخِرَةِ، وَالْعَاصِي بَطِيءُ السَّيِّرِ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِ.

\*\*\*

## [فَسْكُ الظُّلْمِ وَالْعُدُوانِ]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الظُّلْمُ وَالْعُدُوانُ مُنَافِيَنِ لِلْعِدْلِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَأَرْسَلَ لَهُ سُبْحَانَهُ رُسُلَهُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنْزَلَ كُتبَهُ لِيَقُومَ النَّاسُ بِهِ - كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَتْ دَرَجَتُهُ فِي الْعَظَمَةِ بِحَسِبِ مَفْسَدَتِهِ فِي نَفْسِهِ، وَكَانَ قَتْلُ الْإِنْسَانِ وَلَدَهُ الطَّفْلِ الصَّغِيرِ الَّذِي لَا ذَنْبَ لَهُ وَقَدْ جَبَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْقُلُوبَ عَلَى

## الذَّلَّالُ وَالْمُذَلَّ

مَحَبَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَطْفِهَا عَلَيْهِمْ، وَخَصَّ الْوَالِدَيْنِ مِنْ ذَلِكَ بِمَزِيَّةِ ظَاهِرَةٍ، فَقَتَلُهُ خَحْشِيَّةً أَنْ يُشَارِكَهُ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرِبِهِ وَمَالِهِ، مِنْ أَقْبَحِ الظُّلُمِ وَأَشَدِهِ، وَكَذَلِكَ قَتْلُهُ أَبُوَيْهِ الَّذِيْنِ كَانَا سَبَبَ وُجُودِهِ، وَكَذَلِكَ قَتْلُهُ ذَا رَحِمِهِ.

وَتَتَفَاقَّوْتُ دَرَجَاتُ الْقَتْلِ بِحَسْبِ قُبْحِهِ وَاسْتِحْقَاقِ مَنْ قَتَلَهُ لِلْسَّعْيِ فِي إِبْقَائِهِ وَنَصِيْحَتِهِ.  
وَلِهَذَا كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ قَتَلَهُ نَبِيًّا.

وَيَلِيهِ مَنْ قَتَلَ إِمَامًا عَادِلًا يَأْمُرُ النَّاسَ بِالْقِسْطِ، وَيَدْعُوْهُمْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ،  
وَيَنْصَحُهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَزَاءَ قَتْلِ النَّفْسِ الْمُؤْمِنَةِ عَمْدًا الْخُلُودَ  
فِي النَّارِ، وَغَضَبَ الْجَبَّارُ وَلَعْنَتُهُ، وَإِعْدَادُ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ لَهُ، هَذَا مُوْجِبُ قَتْلِ الْمُؤْمِنِ  
عَمْدًا مَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْهُ مَانِعُ.

وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْإِسْلَامَ الْوَاقِعَ بَعْدَ الْقَتْلِ طُوْعًا وَأَخْتِيَارًا مَانِعٌ مِنْ نُفُوذِ ذَلِكَ الْجَزَاءِ،  
وَهُلْ تَمْنَعْ تَوْبَةُ الْمُسْلِمِ مِنْهُ بَعْدَ وُقُوْعِهِ فِيهِ؟ قَوْلَانِ لِلْسَّلْفِ وَالْخَلَفِ، وَهُمَا رَوَاهُتَانِ عَنِ  
الْإِمَامِ أَحْمَدَ.

## تَوْبَةُ الْقَاتِلِ

وَالَّذِينَ قَالُوا: لَا تَمْنَعْ التَّوْبَةُ مِنْ نُفُوذِهِ. رَأَوْا أَنَّهُ حَقٌّ لِآدَمِيٍّ لَمْ يَسْتَوْفِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا  
وَخَرَجَ مِنْهُ بِظُلَّامِتِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُسْتَوْفَ فِي دَارِ الْعَدْلِ.

قَالُوا: وَمَا اسْتَوْفَاهُ الْوَارِثُ إِنَّمَا اسْتَوْفَى مَحْضَ حَقِّهِ الَّذِي خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ اسْتِيْفَائِهِ وَالْعَفْوِ  
عَنْهُ، وَمَا يَنْفَعُ الْمَقْتُولُ مِنِ اسْتِيْفَاءِ وَارِثِهِ؟ وَأَيُّ اسْتِدْرَائٍ لِظُلَّامِتِهِ حَصَلَ بِاسْتِيْفَاءِ وَارِثِهِ؟  
وَهَذَا أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ فِي الْمَسَالَةِ: أَنَّ حَقَّ الْمَقْتُولِ لَا يَسْقُطُ بِاسْتِيْفَاءِ الْوَارِثِ وَهُمَا  
وَجْهَانِ لِأَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِمَا.

وَرَأَتْ طَائِفَةٌ أَنَّهُ يَسْقُطُ بِالْتَّوْبَةِ وَاسْتِيَافِ الْوَارِثِ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا، وَالذَّنْبُ الَّذِي جَنَاهُ قَدْ أُقِيمَ عَلَيْهِ حَدُّهُ.

قَالُوا: وَإِذَا كَانَتِ التَّوْبَةُ تَمْحُو أَثَرَ الْكُفْرِ وَالسُّحْرِ، وَهُمَا أَعْظَمُ إِثْمًا مِنَ القَتْلِ، فَكَيْفَ تَقْصُرُ عَنْ مَحْوِ أَثَرِ القَتْلِ؟ وَقَدْ قَبِلَ اللَّهُ تَوْبَةُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ قَتَلُوا أُولَيَاءَهُ، وَجَعَلَهُمْ مِنْ خَيَارِ عِبَادِهِ، وَدَعَا الَّذِينَ أَحْرَقُوا أُولَيَاءَهُ وَفَتَنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ إِلَى التَّوْبَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فُلَّيَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا يَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْفُرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سُورَةُ الزُّمْرِ: 53] فَهَذَا فِي حَقِّ التَّائِبِ، وَهِيَ تَتَنَاهُ الْكُفْرُ وَمَا دُونَهُ.

قَالُوا: وَكَيْفَ يَتُوَّبُ الْعَبْدُ مِنَ الذَّنْبِ وَيُعَاقَبُ عَلَيْهِ بَعْدَ التَّوْبَةِ؟ هَذَا مَعْلُومٌ اِنْتَفَاؤُهُ فِي شَرْعِ اللَّهِ وَجَزَائِهِ.

قَالُوا: وَتَوْبَةُ هَذَا الْمُذْنِبِ تَسْلِيمُ نَفْسِهِ، وَلَا يُمْكِنُ تَسْلِيمُهَا إِلَى الْمَقْتُولِ، فَأَقَامَ الشَّارِعُ وَلِيَهُ مَقَامَهُ وَجَعَلَ تَسْلِيمَ النَّفْسِ إِلَيْهِ كَتَسْلِيمِهَا إِلَى الْمَقْتُولِ، بِمَنْزِلَةِ تَسْلِيمِ الْمَالِ الَّذِي عَلَيْهِ لِوَارِثِهِ، فَإِنَّهُ يَقُوْمُ مَقَامَ تَسْلِيمِهِ لِلْمُوَرِّثِ.

وَالْتَّحْقِيقُ فِي الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الْقَتْلَ يَتَعَلَّقُ بِهِ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ: حَقُّ اللَّهِ وَحَقُّ الْمَقْتُولِ، وَحَقُّ الْلِّوَلِيِّ، فَإِذَا سَلَّمَ الْقَاتِلُ نَفْسَهُ طَوْعًا وَاحْتِيَارًا إِلَى الْلِّوَلِيِّ نَدَمًا عَلَىٰ مَا فَعَلَ، وَخَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَتَوْبَةً نَصُوحاً، سَقَطَ حَقُّ اللَّهِ بِالْتَّوْبَةِ، وَحَقُّ الْلِّوَلِيِّ بِالإِسْتِيَافَةِ أَوِ الصُّلْحِ أَوِ الْعَفْوِ، وَبَقِيَ حَقُّ الْمَقْتُولِ يُعَوِّضُهُ اللَّهُ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَنْ عَبْدِهِ التَّائِبِ الْمُحْسِنِ، وَيُصْلِحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَلَا يَطْلُبُ حَقُّ هَذَا، وَلَا يَطْبُلُ تَوْبَةً هَذَا.

### التَّوْبَةُ مِنَ الْحُقُوقِ الْمَالِيَّةِ

وَأَمَّا مَسْأَلَةُ الْمَالِ: فَقَدِ اخْتَلَفَ فِيهَا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: إِذَا أَدَى مَا عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ إِلَى الْوَارِثِ بَرِئَ مِنْ عُهْدَتِهِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا بَرِئَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلِ الْمُطَالَبَةُ لِمَنْ ظَلَمَهُ بِأَخْدِهِ بِاِقِيَّةٍ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ لَمْ يَسْتَدِرِكْ طُلَامَتَهُ بِأَخْدِ وَارِثَهُ لَهُ، فَإِنَّهُ مَنَعَهُ مِنِ اِنْتِقَاعِهِ بِهِ فِي طُولِ حَيَاةِهِ، وَمَاتَ وَلَمْ يَتَّفَعَ بِهِ، وَهَذَا ظُلْمٌ لَمْ يَسْتَدِرِكْهُ، وَإِنَّمَا يَتَّفَعُ بِهِ عَيْرُهُ بِاسْتِدْرَاكِهِ، وَبَنَوَا عَلَى هَذَا أَنَّهُ لَوْ اِنْتَقَلَ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى وَاحِدٍ، وَتَعَدَّدَ الْوَرَثَةُ، كَانَتِ الْمُطَالَبَةُ لِلْجَمِيعِ؛ لِأَنَّهُ حَقٌّ كَانَ يَحِبُّ عَلَيْهِ دَفْعَهُ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عِنْدَ كُوْنِهِ هُوَ الْوَارِثُ، وَهَذَا قَوْلٌ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ.

وَفَصَلَ شَيْخُنَا - رَحِمَهُ اللَّهُ - بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ، فَقَالَ: إِنْ تَمَكَّنَ الْمَوْرُوثُ مِنْ أَخْدِ مَالِهِ وَالْمُطَالَبَةِ بِهِ فَلَمْ يَأْخُذْهُ حَتَّى مَاتَ، صَارَتِ الْمُطَالَبَةُ بِهِ لِلْوَارِثِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا هِيَ كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ طَلَبِهِ وَأَخْدِهِ، بَلْ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ظُلْمًا وَعُدُوًا، فَالْطَّلَبُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ.

وَهَذَا التَّفَصِيلُ مِنْ أَحْسَنِ مَا يُقَالُ، فَإِنَّ الْمَالَ إِذَا اسْتَهَلَكَهُ الظَّالِمُ عَلَى الْمَوْرُوثِ، وَتَعَدَّرَ أَخْدُهُ مِنْهُ، صَارَ بِمَنْزِلَةِ عَبْدِهِ الَّذِي قَتَلَهُ قَاتِلُ، وَدَارِهِ الَّتِي أَحْرَقَهَا غَيْرُهُ، وَطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ الَّذِي أَكَلَهُ وَشَرَبَهُ غَيْرُهُ، وَمِثْلُ هَذَا إِنَّمَا تَلَفَّ عَلَى الْمَوْرُوثِ لَا عَلَى الْوَارِثِ، فَحَقُّ الْمُطَالَبَةِ لِمَنْ تَلَفَّ عَلَى مِلْكِهِ. وَيَقِنَى أَنْ يُقَالُ: فَإِذَا كَانَ الْمَالُ عَقَارًا أَوْ أَرْضًا أَوْ أَعْيَانًا قَائِمَةً بِاِقِيَّةَ بَعْدَ الْمَوْتِ فَهِيَ مِلْكُ الْوَارِثِ يَحِبُّ عَلَى الْغَاصِبِ دَفْعُهَا إِلَيْهِ كُلَّ وَقْتٍ، فَإِذَا لَمْ يَدْفَعْ إِلَيْهِ أَعْيَانَ مَالِهِ اسْتَحْقَقَ الْمُطَالَبَةُ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا يَسْتَحْقُ الْمُطَالَبَةُ بِهَا فِي الدُّنْيَا.

وَهَذَا سُؤَالٌ قَوِيٌّ لَا مَخْلَصٌ مِنْهُ إِلَّا بِأَنْ يُقَالُ: الْمُطَالَبَةُ لَهُمَا جَمِيعًا، كَمَا لَوْ غَصَبَ مَالًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ جَمَاعَةٍ؛ اسْتَحْقَقَ كُلُّ مِنْهُمُ الْمُطَالَبَةَ لِحَقِّهِ مِنْهُ، كَمَا لَوْ اسْتَوْلَى عَلَى وَقْفٍ مُرَتَّبٍ عَلَى بُطُونِ، فَابْطَلَ حَقَّ الْبُطُونِ كُلَّهِمْ مِنْهُ، كَانَتِ الْمُطَالَبَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِجَمِيعِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

\* \* \*

## [فصلُ جَرِيمَةِ القَتْلِ]

وَلَمَّا كَانَتْ مَفْسَدَةُ القَتْلِ هَذِهِ الْمَفْسَدَةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَانَ أَنَّمَا قَتَلَ أَنَّاسٌ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَهَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 32].

وَقَدْ أَشْكَلَ فَهُمُ هَذَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَقَالَ: مَعْلُومٌ أَنَّ إِثْمَ قَاتِلٍ مِائَةٌ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ إِثْمِ قَاتِلٍ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّمَا أَتُوْهُ مِنْ ظَنِّهِمْ أَنَّ التَّشْيِهَ فِي مَقْدَارِ الْإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ، وَاللَّفْظُ لَمْ يَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ تَشْيِهِ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ أَخْذُهُ بِجَمِيعِ أَحْكَامِهِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَانُوكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوَعَّدُونَ لَمْ يَلْبِسُوكُمُ الْأَعْشَيَّةَ أَوْ صُحْنَهَا﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ: 46].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَانُوكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوَعَّدُونَ لَمْ يَلْبِسُوكُمُ الْأَسَاعَةَ مِنْ هَمَارٍ﴾ [سُورَةُ الْأَحْقَافِ: 35].

وَذَلِكَ لَا يُوجِبُ أَنْ لُبْثَهُمْ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا كَانَ هَذَا الْمِقْدَارُ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: "مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَانَمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الْفَجْرِ فِي جَمَاعَةٍ فَكَانَمَا قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ" ، أَيْ: مَعَ الْعِشَاءِ كَمَا جَاءَ فِي لَفْظٍ آخَرَ، وَأَصْرَحُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ: "مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَأَتَبَعَهُ بِسْتٌ مِنْ شَوَّالٍ فَكَانَمَا صَامَ الدَّهْرَ" ، وَقَوْلُهُ - ﷺ -: "مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَكَانَمَا قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ" ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ثَوَابَ فَاعِلِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لَمْ يَلْغِ ثَوَابَ الْمُشْبَهِ بِهِ، فَيَكُونُ قَدْرُهُمَا سَوَاءً، وَلَوْ كَانَ قَدْرُ التَّوَابِ سَوَاءً لَمْ يَكُنْ لِمُصَلِّي الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ جَمَاعَةً فِي قِيَامِ اللَّيْلِ مَنْفَعَةٌ غَيْرُ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ، وَمَا أُوْتِيَ أَحَدٌ - بَعْدَ الْإِيمَانِ - أَفْضَلُ مِنَ الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، ﷺ.

وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

فَإِنْ قِيلَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ وَقَعَ التَّشْبِيهُ بَيْنَ قَاتِلِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَقَاتِلِ النَّاسِ جَمِيعًا؟

قِيلَ: فِي وُجُوهٍ مُتَعَدِّدةٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ كُلَّاً مِنْهُمَا عَاصٍ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ - ﷺ - مُخَالِفٌ لِأَمْرِهِ مُتَعَرِّضٌ لِعُقُوبَتِهِ، وَكُلُّ مِنْهُمَا قَدْ بَاءَ بِغَضْبٍ مِنَ اللَّهِ وَلَعْنَتِهِ، وَاسْتِحْقَاقُ الْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَإِعْدَادِهِ عَذَابًا عَظِيمًا، وَإِنَّمَا التَّفَاوُتُ فِي دَرَجَاتِ الْعَذَابِ، فَلَيْسَ إِثْمُ مَنْ قُتِلَ نَيْمَانًا أَوْ إِمَامًا عَادِلًا أَوْ عَالِمًا يَأْمُرُ النَّاسَ بِالْقِسْطِ، كَإِثْمِ مَنْ قُتِلَ مَنْ لَا مَرِيَّةَ لَهُ مِنْ آحَادِ النَّاسِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُمَا سَوَاءٌ فِي اسْتِحْقَاقِ إِرْهَاقِ النَّفْسِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُمَا سَوَاءٌ فِي الْجَرَاءَةِ عَلَى سَفْكِ الدَّمِ الْحَرَامِ، فَإِنَّ مَنْ قُتِلَ نَفْسًا بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ، بَلْ لِمُجَرَّدِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، أَوْ لِأَخْذِ مَالِهِ: فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَى قُتْلِ كُلِّ مَنْ ظَفَرَ بِهِ وَأَمْكَنَهُ قَتْلُهُ، فَهُوَ مُعَادٍ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يُسَمَّى قَاتِلًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ ظَالِمًا أَوْ عَاصِيًا بِقُتْلِهِ وَاحِدًا، كَمَا يُسَمَّى كَذِيلَ بِقُتْلِهِ النَّاسَ جَمِيعًا.

وَمِنْهَا: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحِمِهِمْ وَتَوَاصِلِهِمْ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضُوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ، فَإِذَا أَتَلَفَ الْقَاتِلُ مِنْ هَذَا الْجَسَدِ عُضُوًا، فَكَانَمَا أَتَلَفَ سَائِرَ الْجَسَدِ، وَاللَّمْ جَمِيعَ أَعْصَائِهِ، فَمَنْ آذَى مُؤْمِنًا وَاحِدًا فَكَانَمَا آذَى جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَفِي آذَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ آذَى جَمِيعِ النَّاسِ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يُدَافِعُ عَنِ النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَيْنَهُمْ، فَإِيَّاهُ الْخَفِيرُ إِيَّاهُ الْمَخْفُورُ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - : "لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا بِغَيْرِ حَقٍّ، إِلَّا كَانَ عَلَى أَبْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا؛ لِإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَ الْقَتْلَ".

## الدَّاءُ وَالدَّاءُ

وَلَمْ يَجِدْ هَذَا الْوَعِيدُ فِي أَوَّلِ زَانِ وَلَا أَوَّلِ سَارِقٍ وَلَا أَوَّلِ شَارِبٍ مُسْكِرٍ، وَإِنْ كَانَ أَوَّلُ الْمُشْرِكِينَ قَدْ يَكُونُ أَوَّلَى بِذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ قَاتِلٍ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَ الشُّرُكَ؛ وَلِهَذَا رَأَى النَّبِيُّ - ﷺ - عَمْرَو بْنَ لَحْيَ الْخَرَاعِيَّ يُعَذَّبُ أَعْظَمَ العَذَابِ فِي النَّارِ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرِينَ ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 41].  
أَيْ فِيَقْتَدِي بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، فَيَكُونُ إِثْمُ كَفْرِهِ عَلَيْكُمْ، وَكَذِلِكَ حُكْمُ مَنْ سَنَ سُنَّةَ سَيِّئَةً فَاتَّبَعَ عَلَيْهَا.

وَفِي جَامِعِ التَّرْمِذِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: "يَجِيءُ الْمَقْتُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ، وَأَوْدَاجُهُ تَسْخَبُ دَمًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ سُلْ هَذَا فِيمَ قَاتَلَنِي؟" فَذَكَرُوا لِابْنِ عَبَّاسٍ التَّوْبَةَ، فَنَلَّا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَأَهُ جَهَنَّمُ خَلِدًا فِيهَا ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ: 93].

ثُمَّ قَالَ: مَا نُسِخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا بُدِّلَتْ، وَأَنَّى لَهُ التَّوْبَةُ؟ قَالَ التَّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ نَافِعٍ قَالَ: نَظَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْكَعْبَةِ، فَقَالَ: مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَنَاتِكِ، وَالْمُؤْمِنُ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنْكِ، قَالَ التَّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ سَمْرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ: أَوَّلُ مَا يُتَنَزَّلُ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لَا يَأْكُلَ إِلَّا طَيْبًا فَلَيَفْعَلُ، وَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَنَّةَ مِلْءٌ كَفٌّ مِنْ دَمَ أَهْرَاقَهُ فَلَيَفْعَلُ.

وَفِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: "لَا يَرَأُ الْمُؤْمِنُ فِي سُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا".

## اللَّدُّلُ وَاللَّدُّلُ

وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ أَبْنِ عُمَرَ قَالَ: مِنْ وَرَطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا: سَفْكُ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلَّهُ.

وَفِي الصَّحِّحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَرْفَعُهُ: "سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقَتَالُهُ كُفْرٌ".

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْهُ - ﷺ - "لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ".

وَفِي صَحِّحِ الْبُخَارِيِّ عَنْهُ - ﷺ - : "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يُرْحِ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوْجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا".

هَذِهِ عُقُوبَةُ قَاتِلِ عَدُوِّ اللَّهِ إِذَا كَانَ فِي عَهْدِهِ وَأَمَانِهِ، فَكَيْفَ عُقُوبَةُ قَاتِلِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ؟ وَإِذَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَدْ دَخَلَتِ النَّارَ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوْعًا وَعَطَشًا، فَرَأَهَا النَّبِيُّ - ﷺ - فِي النَّارِ وَالْهَرَّةِ تَحْدِسُهَا فِي وَجْهِهَا وَصَدْرِهَا، فَكَيْفَ عُقُوبَةُ مَنْ حَبَسَ مُؤْمِنًا حَتَّى مَاتَ بِغَيْرِ جُرْمٍ؟ وَفِي بَعْضِ السُّنْنِ عَنْهُ - ﷺ - : "لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ".

\*\*\*

## [فصلُ جَرِيمَةِ الزَّنِي]

وَلَمَّا كَانَتْ مَفْسَدَةُ الزَّنِي مِنْ أَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ وَهِيَ مُنَافِيَةُ لِمَصْلَحةِ نِظامِ الْعَالَمِ فِي حِفْظِ الْأَنْسَابِ، وَحِمَاءِ الْفُرُوجِ، وَصِيَانَةِ الْحُرُمَاتِ، وَتَوْقِيِّ مَا يُوْقِعُ أَعْظَمَ الْعَدَاؤَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ، مِنْ إِفْسَادِ كُلِّ مِنْهُمْ امْرَأَةٌ صَاحِبَهُ وَبِتُّهُ وَأُخْتِهِ وَأُمِّهِ، وَفِي ذَلِكَ خَرَابُ الْعَالَمِ، كَانَتْ تَلِيَ مَفْسَدَةَ الْقَتْلِ فِي الْكِبِيرِ، وَلِهَذَا قَرَنَاهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ وَرَسُولُهُ - ﷺ - فِي سُنْنِهِ كَمَا تَقدَّمَ.

الدَّاعُ وَالدَّوَاعُ

قال الإمام أَحْمَدُ: وَلَا أَعْلَمُ بَعْدَ قَتْلِ النَّفْسِ شَيْئاً أَعْظَمَ مِنَ الزَّنَى.

وَقَدْ أَكَدَ سُبْحَانَهُ حُرْمَتُهُ بِقُولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْوَنُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًاٰءَ أَخْرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفَسَ إِلَّيْ حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَرْتُكُ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَأْتِ أَشَاماً ٦٨﴾ يُضَعِّفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مَهْكَانًا ٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴿سُورَةُ الْفُرْقَانِ: 68 - 70﴾.

فَقَرَنَ الزَّنِي بِالشَّرِّ لِوَقْتِ النَّفْسِ، وَجَعَلَ حَزَاءً ذَلِكَ الْخَلُودَ فِي الْعَذَابِ الْمُضَاعِفِ،  
مَا لَمْ يَرْفَعِ الْعَبْدُ مُوْحَبٌ ذَلِكَ بِالْتَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا  
نَقْرِبُوا الْرِّجَنْتَ إِنَّهُ كَانَ فَنِحَشَةً وَسَاءَ سَيِّلًا ﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: 32].

فَأَخْبَرَ عَنْ فَحْشِهِ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ الْقَيْعُ الَّذِي قَدْ تَنَاهَى قِبْحُهُ حَتَّى اسْتَقَرَ فَحْشُهُ فِي الْعُقُولِ حَتَّى عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانِ، كَمَا ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَمْرُو بْنِ مَيْمُونٍ الْأَوَدِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قِرْدًا رَأَيْ بِقِرْدَةٍ، فَاجْتَمَعَ الْقُرُودُ عَلَيْهِمَا فَرَجُمُوهُمَا حَتَّى مَاتُوا].

نَمَّ أَخْبَرَ عَنْ عَائِتَهِ بَانَهُ "سَاءَ سَيِّلٌ هَلَكَةٌ وَبَوَارٌ وَافْتَقَارٌ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابٌ وَخَزْيٌ وَنَكَالٌ فِي الْآخِرَةِ.

وَلَمَّا كَانَ نِكَاحُ أَرْوَاحِ الْأَبَاءِ مِنْ أَقْبَحِهِ خَصَّهُ بِمَزِيدٍ ذَمًّا، فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ فَحِشَّةً وَمَفْتَأَوْ سَاءَ سَيِّلًا [سُورَةُ النِّسَاءِ: 22].

وَعَلَّقَ سُبْحَانَهُ فَلَاحَ الْعَبْدُ عَلَى حِفْظِ فَرْجِهِ مِنْهُ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْفَلَاحِ بِدُونِهِ، فَقَالَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ الْلَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِرِزْكِهِمْ فَاعْلَوْنَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِرُؤُجُونِهِمْ حَفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَى أَنْزُوْجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكْتُ أَيْمَنَهُمْ ٦ هُمْ لِرِزْكِهِمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٧ فَمَنْ أَبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ١ - ٧].

وَهَذَا يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ: أَنَّ مَنْ لَمْ يَحْفَظْ فَرْجَهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُفْلِحِينَ، وَأَنَّهُ مِنَ الْمُلُومِينَ، وَمِنَ الْعَادِينَ، فَفَاتَهُ الْفَلَاحُ، وَاسْتَحْقَ اسْمَ الْعُدُوانِ، وَوَقَعَ فِي اللَّوْمِ فَمُقَاسَةُ أَلْمِ الشَّهْوَةِ وَمُعَايَانُهَا أَيْسَرُ مِنْ بَعْضِ ذَلِكَ.

وَنَظِيرُ هَذَا أَنَّهُ ذَمَّ الْإِنْسَانَ، وَأَنَّهُ خُلِقَ هَلْوُعًا لَا يَصِيرُ عَلَى سَرَاءٍ وَلَا ضَرَاءَ، بَلْ إِذَا مَسَهُ الْخَيْرُ مَنَعَ وَبَخِلَ، وَإِذَا مَسَهُ الشَّرُّ جَزَعَ، إِلَّا مَنِ اسْتَشَأَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ النَّاجِينَ مِنْ خَلْقِهِ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ٢٩ إِلَّا لَعْنَ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكُتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلْمُوْمِينَ ٢٠ فَنَّ ابْنَيَ وَرَأَهُ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [سُورَةُ الْمَعَارِجِ: 29 - 31].

فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ أَنْ يَأْمُرَ الْمُؤْمِنِينَ بِغَضْ بَأْصَارِهِمْ، وَحِفْظِ فُرُوجِهِمْ، وَأَنْ يُعْلَمُهُمْ أَنَّهُ مُسَايِدٌ لِأَعْمَالِهِمْ، مُطَلِّعٌ عَلَيْهَا، ﴿يَعْلَمُ خَلِينَةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: 19]. وَلَمَّا كَانَ مَبْدَأً ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْبَصَرِ جُعِلَ الْأَمْرُ بِغَضْ بَأْصَارِهِ مُقَدَّمًا عَلَى حِفْظِ الْفَرْجِ، فَإِنَّ الْحَوَادِثَ مَبْدُؤُهَا مِنَ الْبَصَرِ، كَمَا أَنَّ مُعْظَمَ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْبَرِ الشَّرَّ، فَتَكُونُ نَظَرَةُ ثُمَّ تَكُونُ خَطْرَةُ، ثُمَّ خُطْوَةُ، ثُمَّ خَطِيئَةُ.

وَلِهَذَا قِيلَ: مَنْ حَفِظَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ أَحْرَزَ دِينَهُ: الْلَّحَظَاتِ، وَالْخَطَرَاتِ، وَاللَّفَظَاتِ، وَالْخُطُوَاتِ.

فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ بَوَّابَ نَفْسِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَبْوَابِ الْأَرْبَعَةِ، وَيُلَازِمَ الرِّبَاطَ عَلَى ثُغُورِهَا، فَمِنْهَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ، فَيَجُوْسُ خِلَالَ الدِّيَارِ وَيَتَسْرُّ مَا عَلَّا تَسْبِيرًا.

\* \* \*

## [فصلٌ مَدْخُلُ الْمَعَاصِي النَّظَرَةُ]

وَأَكْثُرُ مَا تَدْخُلُ الْمَعَاصِي عَلَى الْعَبْدِ مِنْ هَذِهِ الْأَبْوَابِ الْأَرْبَعَةِ، فَنَذْكُرُ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْهَا فَصْلًا يَلِيقُ بِهِ.

**النَّظَرَةُ**

فَأَمَّا الْلَّهَظَاتُ: فَهِيَ رَأِيدُ الشَّهْوَةِ وَرَسُولُهَا، وَحِفْظُهَا أَصْلُ حِفْظِ الْفَرْجِ، فَمَنْ أَطْلَقَ بَصَرَهُ أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوَارِدَ الْمُهْلِكَاتِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: "لَا تُتْبِعِ النَّظَرَةَ النَّظَرَةَ، فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخَرَى".  
وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْهُ - ﷺ -: "النَّظَرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سَهَامِ إِبْرَيْسِ، فَمَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ لِلَّهِ، أَوْرَثَ اللَّهُ قَلْبَهُ حَلَاوةً إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ" هَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ.

وَقَالَ: "غُضُّوا أَبْصَارُكُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ"، وَقَالَ: "إِيَّاكمُ وَالْجُلُوسَ عَلَى الْطُّرُقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَجَالِسُنَا مَا لَنَا بُدُّ مِنْهَا، قَالَ: فَإِنْ كُنْتُمْ لَا بُدَّ فَأَعِلِّيْنَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الْأَذَى وَرَدُّ السَّلَامِ".

وَالنَّظَرُ أَصْلُ عَامَّةِ الْحَوَادِثِ الَّتِي تُصِيبُ الْإِنْسَانَ، فَالنَّظَرَةُ تُولِّدُ حَطْرَةً، ثُمَّ تُولِّدُ الْخَطْرَةَ فِكْرَةً، ثُمَّ تُولِّدُ الْفِكْرَةَ شَهْوَةً، ثُمَّ تُولِّدُ الشَّهْوَةَ إِرَادَةً، ثُمَّ تَقْوَى فَتَصِيرُ عَرِيمَةً جَازِمَةً، فَيَقْعُدُ الْفِعْلُ وَلَا بُدَّ، مَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْهُ مَانِعٌ، وَفِي هَذَا قِيلَ: الصَّبْرُ عَلَى غَضُّ الْبَصَرِ أَيْسَرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى أَلْمِ مَا بَعْدَهُ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ  
وَمُعْظُمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَضْعِرِ الشَّرِ  
كَمْ نَظَرَةً بَلَغَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا  
كَمْ بَلَغَ السَّهْمِ يَبْيَنَ الْقُوَى وَالْوَقْرِ

## الْذَّلَّةُ وَالْوَلَأُ

وَالْعَبْدُ مَا دَامَ ذَا طَرْفٍ يُقْلِبُهُ      فِي أَعْيْنِ الْعَيْنِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطْرِ  
يَسْرُ مُقْلَتُهُ مَا حَرَّ مُهْجَتُهُ      لَا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرِّ  
وَمِنْ آفَاتِ النَّظَرِ: أَنَّهُ يُورِثُ الْحَسَرَاتِ وَالْزَّفَرَاتِ وَالْحَرَقَاتِ، فَيَرَى الْعَبْدُ مَا لَيْسَ  
قَادِرًا عَلَيْهِ وَلَا صَابِرًا عَنْهُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعَذَابِ، أَنْ تَرَى مَا لَا صَبَرَ لَكَ عَنْ بَعْضِهِ،  
وَلَا قُدْرَةَ عَلَى بَعْضِهِ.  
فَالَّذِي قَدْرَتْ عَلَى بَعْضِهِ:

وَكُنْتُ مَتَّ أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا      لِقَلْبِكَ يَؤْمَنُ أَثْعَبْتَ الْمَنَاظِرُ  
رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ      عَلَيْهِ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ  
وَهَذَا الْبَيْتُ يَحْتَاجُ إِلَى شَرْحٍ، وَمُرَادُهُ: أَنَّكَ تَرَى مَا لَا تَصْبِرُ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ وَلَا تَقْدِرُ  
عَلَيْهِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: "لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ" نَفِي لِقُدْرَتِهِ عَلَى الْكُلُّ الَّذِي لَا يَنْتَفِي إِلَّا بِنَفْيِ  
الْقُدْرَةِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ وَاحِدٍ.

وَكَمْ مَنْ أَرْسَلَ لَحْظَاتِهِ فَمَا قَلَعَتْ إِلَّا وَهُوَ يَتَسَحَّطُ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا، كَمَا قِيلَ:  
يَا نَاظِرًا مَا أَفْلَعَتْ لَحْظَاتُهُ      حَتَّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا  
وَلِي مِنْ أَبْيَاتٍ:

مَلَ السَّلَامَةَ فَاغْتَدَثْ لَحْظَاتُهُ      وَقَفَاعَلَى طَلَلٍ يَظْنُ جَمِيلًا  
مَا زَال يُشَبِّعُ إِثْرَهُ لَحْظَاتُهُ      حَتَّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا  
وَمِنْ الْعَجَبِ: أَنَّ لَحْظَةَ النَّاظِرِ سَهْمٌ لَا يَصِلُ إِلَى الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ حَتَّى يَتَبَوَّأُ مَكَانًا مِنْ  
قَلْبِ النَّاظِرِ، وَلِي مِنْ قَصِيدَةٍ:  
يَا رَامِيَا بِسَهَامِ الْلَّحْظِ مُجْتَهِدًا      أَنْتَ الْقَتِيلُ بِمَا تَرْمِي فَلَا تُصِبِ  
يَا بَاعِثَ الْطَّرْفِ يَرْتَادُ الشِّفَاءَ لَهُ      أَخِيشُ رَشْوَلَكَ لَا يَأْتِيكَ بِالْعَطَبِ

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ النَّظَرَةَ تَجْرُّ الْقَلْبَ جُرْحًا، فَيَبْعُثُهَا جُرْحٌ عَلَى جُرْحٍ، ثُمَّ لَا يَمْنَعُهُ أَلْمُ الْجِرَاحَةِ مِنِ اسْتِدْعَاءِ تَكْرِارِهَا، وَلِيُأْيَضًا فِي هَذَا الْمَعْنَى:

مَا زِلْتَ تُثْبِعُ نَظَرَةً فِي نَظَرَةٍ  
فِي إِثْرِ كُلِّ مَلِيْحَةٍ وَمَلِيْحَةٍ  
وَتَظْنُنَّ ذَلِكَ دَوَاءَ جُرْحِكَ وَهُوَ فِي الْ  
تَحْقِيقِ تَجْرِيْخٍ عَلَى تَجْرِيْخٍ  
فَالْقَلْبُ مِنْكَ ذَبِيْخٌ أَيْ ذَبِيْخٌ  
فَذَبَّحْتَ طَرْفَكَ بِاللِّحَاظِ وَبِالْبَكَا  
وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ حَبْسَ اللَّهَظَاتِ أَيْسَرُ مِنْ دَوَامِ الْحَسَرَاتِ.

\* \* \*

## [فصلُ الْخَطَرَةِ]

وَأَمَّا الْخَطَرَاتُ: فَشَانُهَا أَصْعَبُ، فَإِنَّهَا مَبْدُأُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَمِنْهَا تَتَوَلَّدُ الْإِرَادَاتُ  
وَالْهِمَمُ وَالْعَزَائِمُ، فَمَنْ رَاعَى خَطَرَاتِهِ مَلَكَ زِمَانَ نَفْسِهِ وَقَهَرَ هَوَاهُ، وَمَنْ غَلَبَتْهُ خَطَرَاتُهُ  
فَهُوَاهُ وَنَفْسُهُ لَهُ أَغْلَبُ، وَمَنْ اسْتَهَانَ بِالْخَطَرَاتِ قَادْهُ قَهْرًا إِلَى الْهَلَكَاتِ، وَلَا تَزَالُ  
الْخَطَرَاتُ تَتَرَدَّدُ عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى تَصِيرَ مُنْيَ بَاطِلَةً.

﴿كَسَرَ بِقِيَعَةِ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ، لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَجَدَ اللَّهَ عِنْهُ فَوْقَهُ حِسَابًا،  
وَلَلَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [سُورَةُ النُّورِ: 39].

وَأَخْسُ النَّاسِ هِمَةً وَأَوْضَعُهُمْ نَفْسًا، مَنْ رَضِيَ مِنَ الْحَقَائِقِ بِالْأَمَانِي الْكَادِيَةِ،  
وَاسْتَجْلَبَهَا لِنَفْسِهِ وَتَجَلَّى بِهَا، وَهِيَ لَعْمَرُ اللَّهِ رُؤُوسُ أَمْوَالِ الْمُفْلِسِينَ، وَمَتَاجِرُ  
الْبَطَالِينَ، وَهِيَ قُوتُ النَّفْسِ الْفَارِغَةِ، الَّتِي قَدْ قَنَعَتْ مِنَ الْوَصْلِ بِزَوْرَةِ الْخَيَالِ، وَمِنَ  
الْحَقَائِقِ بِكَوَادِبِ الْأَمَالِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَمَانِيٌّ مِنْ سُعْدَى رِوَاءَ عَلَى الظَّمَا  
سَقَّتَا بِهَا سُعْدَى عَلَى ظَمَاءَ بَرْدَ  
مُنْيٌّ إِنْ تَكُنْ حَقًا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمُنْيَ  
وَإِلَّا فَقَدْ عِشْتَا بِهَا زَمَنًا رَغْدَ  
وَهِيَ أَصْرُّ شَيْءٍ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَيَتَوَلَّدُ مِنْهَا الْعَجْزُ وَالْكَسْلُ، وَتَوَلَّدُ التَّفَرِيطُ  
وَالْحَسْرَةُ وَالنَّدَمُ، وَالْمُتَمَنِّي لَمَّا فَاتَهُ مُبَاشِرَةُ الْحَقِيقَةِ بِجِسْمِهِ حَوْلَ صُورَتَهَا فِي قَلْبِهِ،  
وَعَانَقَهَا وَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَقَنَعَ بِوَصَالِ صُورَةٍ وَهُمْيَةٍ خَيَالِيَّةٍ صَوْرَهَا فِكْرُهُ.  
وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَيْهِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا مَثَلُهُ مَثَلُ الْجَائِعِ وَالظَّمَانِ، يُصَوِّرُ فِي وَهْمِهِ  
صُورَةُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَهُوَ لَا يَأْكُلُ وَلَا وَيَشَرُّ.  
وَالسُّكُونُ إِلَى ذَلِكَ وَاسْتِجْلَابُهُ يَدْلُلُ عَلَى خَسَارَةِ النَّفْسِ وَوَضَاعَتِهَا، وَإِنَّمَا شَرْفُ  
النَّفْسِ وَزَكَاؤُهَا، وَطَهَارَتُهَا وَعُلُوُّهَا بِأَنْ يَنْفِيَ عَنْهَا كُلَّ خَطْرَةٍ لَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَلَا يَرْضَى  
أَنْ يُخْطِرَهَا بِبَالِهِ، وَيَأْنَفَ لِنَفْسِهِ مِنْهَا.  
ثُمَّ الْخَطَرَاتُ بَعْدَ أَقْسَامٍ تَدُورُ عَلَى أَرْبَعَةِ أُصُولٍ:  
خَطَرَاتٌ يَسْتَجْلِبُ بِهَا الْعَبْدُ مَنَافِعَ دُنْيَاهُ.  
وَخَطَرَاتٌ يَسْتَدْفِعُ بِهَا مَضَارَ دُنْيَاهُ.  
وَخَطَرَاتٌ يَسْتَجْلِبُ بِهَا مَصَالِحَ آخِرَتِهِ.  
وَخَطَرَاتٌ يَسْتَدْفِعُ بِهَا مَضَارَ آخِرَتِهِ.  
فَلِيَحْصِرِ الْعَبْدُ خَطَرَاتِهِ وَأَفْكَارَهُ وَهُمُومَهُ فِي هَذِهِ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ، فَإِذَا احْصَرَتْ  
لَهُ فِيهَا أَمْكَنَ اجْتِمَاعَهُ مِنْهَا وَلَمْ يَتُرْكِهُ لِغَيْرِهِ، وَإِذَا تَرَأَحَمْتُ عَلَيْهِ الْخَطَرَاتُ لِتَرَأَحِمُ  
مُتَعَلِّقَاتِهَا، قَدَمَ الْأَهَمَّ فَالْأَهَمَّ الَّذِي يَخْشَى فَوْتَهُ، وَأَخْرَ الَّذِي لَيْسَ بِأَهَمٍ وَلَا يَخَافُ فَوْتَهُ.

بِقِيَّ قِسْمَانِ آخَرَانِ:

أَحَدُهُمَا: مُهِمٌ لَا يَفُوتُ.

وَالثَّانِي: غَيْرُ مُهِمٌ وَلَكِنَّهُ يَفُوتُ.

فَفِي كُلِّ مِنْهُمَا مَا يَدْعُونَ إِلَى تَقْدِيمِهِ، فَهُنَا يَقْعُدُ التَّرْدُدُ وَالْحِيَّةُ، فَإِنْ قَدَمَ الْمُهِمَّ؛  
خَشِيَّ فَوَاتَ مَا دُونَهُ، وَإِنْ قَدَمَ مَا دُونَهُ فَاتَهُ الْإِشْتِغَالُ بِهِ عَنِ الْمُهِمَّ، وَكَذَلِكَ يَعْرِضُ لَهُ  
أَمْرَانِ لَا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، وَلَا يَحْصُلُ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِتَفْوِيتِ الْآخِرِ.

فَهُوَ مَوْضِعُ اسْتِعْمَالِ الْعُقْلِ وَالْفَقْهِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَمِنْ هَاهُنَا ارْتَفَعَ وَأَنْجَحَ مَنْ  
أَنْجَحَ، وَخَابَ مَنْ خَابَ، فَأَكْثَرُ مَنْ تَرَى مِمَّنْ يَعْظُمُ عَقْلُهُ وَمَعْرِفَهُ، يُؤْثِرُ غَيْرَ الْمُهِمِّ الَّذِي  
لَا يَفُوتُ عَلَى الْمُهِمِّ الَّذِي يَفُوتُ، وَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَسْلُمُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مُسْتَقْلٌ وَمُسْتَكْبِرٌ.

وَالْتَّحْكِيمُ فِي هَذَا الْبَابِ لِلْقَاعِدَةِ الْكُبْرَى الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الشَّرْعِ وَالْقَدْرِ، وَإِلَيْهَا  
مَرْجُعُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَهِيَ إِيْثَارُ أَكْبَرِ الْمَصْلَحَتَيْنِ وَأَعْلَاهُمَا، وَإِنْ فَاتَتِ الْمَصْلَحَةُ الَّتِي  
هِيَ دُونَهَا، وَالدُّخُولُ فِي أَدْنَى الْمَفْسَدَتَيْنِ لِدَفْعِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا.

فَيَقُولُ مَصْلَحَةً لِتَحْصِيلِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا، وَيَرْتَكِبُ مَفْسَدَةً لِدَفْعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا.

### خَطَرَاتُ الْعَاقِلِ

فَخَطَرَاتُ الْعَاقِلِ وَفِكْرُهُ لَا يُجَاوِرُ ذَلِكَ، وَبِذَلِكَ جَاءَتِ الشَّرَائِعُ، وَمَصَالِحُ الدُّنْيَا  
وَالآخِرَةِ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ، وَأَعْلَى الْفِكْرِ وَأَجَلُهَا وَأَنْفَعُهَا: مَا كَانَ لِلَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ  
فَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ أَنْوَاعٌ:

أَحَدُهَا: الْفِكْرَةُ فِي آيَاتِهِ الْمُنْزَلَةِ وَتَعَقُّلُهَا، وَفَهْمُهَا وَفَهْمُ مُرَادِهِ مِنْهَا، وَلِذَلِكَ أَنْرَأَهَا  
اللَّهُ تَعَالَى، لَا لِمُجَرَّدِ تِلَاقِهَا، بَلِ التَّلَاقُ وَسِيَّلَةً.

## الدَّلَاءُ وَالْوَاءُ

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلاً.

الثَّانِي: الْفِكْرَةُ فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ وَالْاعْتِيَارِ بِهَا، وَالْاسْتِدْلَالُ بِهَا عَلَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَحِكْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَبِرِّهِ وَجُودِهِ، وَقَدْ حَضَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ وَتَدْبِيرِهَا وَتَعْقِلَهَا، وَذَمَّ الْغَافِلَ عَنْ ذَلِكَ.

الثَّالِثُ: الْفِكْرَةُ فِي الْآيَاتِ وَإِحْسَانِهِ، وَإِنْعَامِهِ عَلَى خَلْقِهِ بِأَصْنَافِ النَّعَمِ، وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَحِلْمِهِ.

وَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ الْثَّلَاثَةُ تَسْتَخْرُجُ مِنَ الْقَلْبِ مَعْرِفَةَ اللَّهِ وَمَحَبَّتَهُ وَخَوْفَهُ وَرَجَاءُهُ. وَدَوَامُ الْفِكْرَةِ فِي ذَلِكَ مَعَ الذِّكْرِ يَصْبِعُ الْقَلْبَ فِي الْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ صِبْعَةً تَامَّةً.

الرَّابِعُ: الْفِكْرَةُ فِي عُيُوبِ النَّفْسِ وَآفَاتِهَا، وَفِي عُيُوبِ الْعَمَلِ، وَهَذِهِ الْفِكْرَةُ عَظِيمَةُ النَّفْعِ، وَهَذَا بَابٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَتَأْثِيرُهَا فِي كَسْرِ النَّفْسِ الْأَمَارَةِ بِالسُّوءِ، وَمَتَى كُسِرَتْ عَاشَتِ النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ وَأَبْعَثَتْ وَصَارَ الْحُكْمُ لَهَا، فَحَيَّيَ الْقَلْبُ، وَدَارَتْ كَلِمَتُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ، وَبَثَّ أُمَّرَاءَهُ وَجُنُودَهُ فِي مَصَالِحِهِ.

الخَامِسُ: الْفِكْرَةُ فِي وَاجِبِ الْوَقْتِ وَوَظِيفَتِهِ وَجَمْعِ الْهَمٍ كُلُّهُ عَلَيْهِ، فَالْعَارِفُ أَبْنُ وَقْتِهِ، فَإِنْ أَضَاعَهُ صَاعَتْ عَلَيْهِ مَصَالِحُهُ كُلُّهَا، فَجَمِيعُ الْمَصَالِحِ إِنَّمَا تَنْشَأُ مِنَ الْوَقْتِ، وَإِنْ ضَيَّعَهُ لَمْ يَسْتَدِرْ كُهُ أَبْدَا.

قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - : " صَحِبُ الصُّوفِيَّةَ فَلَمْ أَسْتَفِدْ مِنْهُمْ سَوَى حَرْفَيْنِ: أَحَدُهُمَا قَوْلُهُمْ: الْوَقْتُ سَيْفٌ، فَإِنْ قَطَعْتَهُ وَإِلَّا قَطَعَكَ ".

وَذَكَرَ الْكَلِمَةَ الْأُخْرَى: " وَنَفْسُكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالْحَقِّ وَإِلَّا شَغَلَتْكَ بِالْبَاطِلِ ".

فَوْقُتُ الْإِنْسَانِ هُوَ عُمُرُهُ فِي الْحَقِيقَةِ، وَهُوَ مَادَّةُ حَيَاتِهِ الْأَبْدِيَّةُ فِي النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَمَادَّةُ الْمُعِيشَةِ الضَّنْكِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَهُوَ يَمُرُّ أَسْرَعَ مِنَ السَّحَابِ، فَمَا كَانَ مِنْ وَقْتِهِ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ فَهُوَ حَيَاتُهُ وَعُمُرُهُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ لَيْسَ مَحْسُوبًا مِنْ حَيَاتِهِ، وَإِنْ عَاشَ فِيهِ عَاشَ عِيشَ الْبَهَائِمِ، فَإِذَا قَطَعَ وَقْتَهُ فِي الْغَفْلَةِ وَالسَّهُوِّ وَالْأَمَانِيِّ الْبَاطِلَةِ، وَكَانَ خَيْرُ مَا قَطَعَهُ بِالنَّوْمِ وَالْبِطَالَةِ، فَمَوْتُ هَذَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ.

وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ - وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ - لَيْسَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ مِنْهَا فَلَيْسَ لَهُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا مَا كَانَ فِيهِ بِاللَّهِ وَلِلَّهِ.

وَمَا عَدَاهُ هَذِهِ الْأَقْسَامُ مِنَ الْخَطَرَاتِ وَالْفَكَرِ، فَإِمَّا وَسَاوِسُ شَيْطَانِيَّةُ وَإِمَّا أَمَانِيُّ بَاطِلَةُ، وَخَدُعُ كَادِبَةُ، بِمَنْزِلَةِ خَوَاطِرِ الْمُصَابِينَ فِي عُقُولِهِمْ مِنَ السُّكَارَى وَالْمَحْسُوْشِينَ وَالْمُؤْسُوْسِينَ، وَلِسَانُ حَالٍ هَوْلَاءِ يَقُولُ عِنْدَ انْكِشَافِ الْحَقَائِقِ:

إِنْ كَانَ مَنْزِلَتِي فِي الْخَسْرِ عِنْدَكُمْ      مَا قَدْ لَقِيْتُ فَقَدْ ضَيْعْتُ أَيَّامِي  
أُمْنِيَّةً ظَفِرْتُ نَفْسِي بِهَا زَمَنًا      وَالْيَوْمُ أَخْسَبُهَا أَضْعَاثَ أَحْلَامِ

وَأَعْلَمُ أَنَّ وُرُودَ الْخَاطِرِ لَا يُضُرُّ، وَإِنَّمَا يُضُرُّ اسْتِدْعَاؤُهُ وَمُحَادَثَتُهُ، فَالْخَاطِرُ كَالْمَارُ عَلَى الطَّرِيقِ، فَإِنْ تَرْكَتْهُ مَرَّ وَانْصَرَفَ عَنْكَ، وَإِنْ اسْتَدْعَيْتَهُ سَحَرَكَ بِحَدِيثِهِ وَغُرُورِهِ، وَهُوَ أَخْفُ شَيْءٍ عَلَى النَّفْسِ الْفَارِغَةِ الْبَاطِلَةِ، وَأَنْقُلْ شَيْءٍ عَلَى الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ الشَّرِيفَةِ السَّمَاءِ وَيَةِ الْمُطْمَئِنَّةِ.

وَقَدْ رَكَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْإِنْسَانِ نَفْسِيْنِ: نَفْسًا أَمَارَةً وَنَفْسًا مُطْمَئِنَّةً، وَهُمَا مُتَعَاوِدَيْنَ، فَكُلُّ مَا حَفَّ عَلَى هَذِهِ ثَقُلَ عَلَى هَذِهِ، وَكُلُّ مَا التَّذَرَّتْ بِهِ هَذِهِ تَأَلَّمَتْ بِهِ الْأُخْرَى، فَلَيْسَ عَلَى النَّفْسِ الْأَمَارَةِ أَشَقُّ مِنَ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَإِيَّاهُ رِضَاهُ عَلَى هَوَاهَا، وَلَيْسَ لَهَا أَنْفَعُ مِنْهُ،

وَلَيْسَ عَلَى النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَةِ أَشَقُّ مِنَ الْعَمَلِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَمَا جَاءَ بِهِ دَاعِيُ الْهَوَى.

وَلَيْسَ عَلَيْهَا شَيْءٌ أَضَرُّ مِنْهُ، وَالْمَلَكُ مَعَ هَذِهِ عَنْ يَمْنَةِ الْقَلْبِ، وَالشَّيْطَانُ مَعَ تِلْكَ عَنْ يَسْرَةِ الْقَلْبِ، وَالْحُرُوبُ مُسْتَمِرَّةٌ لَا تَضَعُ أَوْزَارَهَا إِلَّا أَنْ يُسْتَوْفَى أَجْلُهَا مِنَ الدُّنْيَا، وَالْبَاطِلُ كُلُّهُ يَتَحِيزُ مَعَ الشَّيْطَانِ وَالْأَمَارَةِ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ يَتَحِيزُ مَعَ الْمَلَكِ وَالْمُطْمَئِنَةِ، وَالْحَرْبُ دُولُّ وَسِجَالُّ، وَالنَّصْرُ مَعَ الصَّبِرِ، وَمَنْ صَبَرَ وَصَابَرَ وَرَابَطَ وَاتَّقَى اللَّهَ فَلَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى حُكْمًا لَا يُبَدِّلُ أَبَدًا: أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى، وَالْعَاقِبَةَ لِلْمُمْكِنَى، فَالْقَلْبُ لَوْحٌ فَارِغٌ، وَالْخَوَاطِرُ نُقُوشٌ تَتَقَشُّ فِيهِ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ نُقُوشُ لَوْحِهِ مَا بَيْنَ كَذِبٍ وَغُرُورٍ وَخُدَعٍ، وَأَمَانِيٌّ بَاطِلَةٌ، وَسَرَابٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ؟ فَأَيُّ حِكْمَةٍ وَأَعْلَمُ وَهُدَى يَنْتَقِشُ مَعَ هَذِهِ النُّقُوشِ؟ وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْتَقِشَ ذَلِكَ فِي لَوْحِ قَلْبِهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ كِتَابَةِ الْعِلْمِ النَّافِعِ فِي مَحِلٍّ مَشْغُولٍ بِكِتَابَةِ مَا لَا مَفْعَةَ فِيهِ، فَإِنْ لَمْ يُفْرِغْ الْقَلْبَ مِنَ الْخَوَاطِرِ الرَّدِيَّةِ، لَمْ تَسْتَقِرْ فِيهِ الْخَوَاطِرُ النَّافِعَةُ، فَإِنَّهَا لَا تَسْتَقِرُ إِلَّا فِي مَحِلٍّ فَارِغٍ، كَمَا قِيلَ:

أَتَانِي هَوَاها قَبْلَ أَنْ أَغْرِفَ الْهَوَى فَصَادَقَ قَلْبًا فَارِغًا فَتَمَكَّنَا

وَهَذَا كَثِيرٌ مِنْ أَرْبَابِ السُّلُوكِ بَنَوَا سُلُوكَهُمْ عَلَى حِفْظِ الْخَوَاطِرِ، وَأَنْ لَا يُمَكِّنُوا خَاطِرًا يَدْخُلُ قُلُوبَهُمْ حَتَّى تَصِيرَ الْقُلُوبُ فَارِغَةً قَابِلَةً لِلْكُشْفِ وَظُهُورِ حَقَائِقِ الْعُلُوِّيَّاتِ فِيهَا، وَهُوَ لَا يَحْفَظُوا شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْهُمْ أَشْيَاءٌ، فَإِنَّهُمْ أَخْلَوُ الْقُلُوبَ مِنْ أَنْ يَطْرُقَهَا خَاطِرٌ فَبَقِيَتْ فَارِغَةً لَا شَيْءَ فِيهَا، فَصَادَفَهَا الشَّيْطَانُ خَالِيَّةً، فَبَدَرَ فِيهَا الْبَاطِلُ فِي قَوَالِبِ أَوْهَمَهُمْ أَنَّهَا أَعْلَى الْأَشْيَاءِ وَأَشَرَّفَهَا، وَعَوَّضَهُمْ بِهَا عَنِ الْخَوَاطِرِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْعِلْمِ وَالْهُدَى، وَإِذَا خَلَا الْقَلْبُ عَنْ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فَوَجَدَ الْمَحِلَّ خَالِيًّا، فَيُشَعِّلُهُ بِمَا يُنَاسِبُ حَالَ صَاحِبِهِ، حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَشْغُلَهُ بِالْخَوَاطِرِ السُّفْلِيَّةِ، فَشَغَلَهُ بِإِرَادَةِ

الْتَّجْرِيدُ وَالْفَرَاغُ مِنَ الْإِرَادَةِ الَّتِي لَا صَلَاحَ لِلْعَبْدِ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمُسْتَوْلِيَةُ عَلَى قَلْبِهِ، وَهِيَ إِرَادَةُ مُرَادِ اللَّهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيُرْضَاهُ، وَسُعْدُ الْقَلْبِ وَاهِمَامُهُ بِمَعْرِفَتِهِ عَلَى التَّفْصِيلِ بِهِ، وَالْقِيَامِ بِهِ، وَتَنْفِيذِهِ فِي الْخَلْقِ، وَالتَّطْرُقِ إِلَى ذَلِكَ، وَالْتَّوْسِلِ إِلَيْهِ بِالدُّخُولِ فِي الْخَلْقِ لِتَنْفِيذِهِ، فَيُضَلِّلُهُمُ الشَّيْطَانُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ دَعَاهُمُ إِلَى تَرْكِهِ وَتَعْطِيلِهِ مِنْ بَابِ الرُّهْدِ فِي خَوَاطِرِ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا.

وَأَوْهَمُهُمْ أَنَّ كَمَالَهُمْ فِي ذَلِكَ التَّجْرِيدِ وَالْفَرَاغِ، وَهَيَّهَاتٌ هَيَّهَاتٌ، إِنَّمَا الْكَمَالُ فِي امْتِلَاءِ الْقَلْبِ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ مَرَاضِي الرَّبِّ تَعَالَى مِنَ الْعَبْدِ وَمِنَ النَّاسِ، وَالْفِكْرُ فِي طُرُقِ ذَلِكَ وَالْتَّوْسِلِ إِلَيْهِ، فَأَكْمَلُ النَّاسِ أَكْثُرُهُمْ خَوَاطِرٌ وَفِكْرًا وَإِرَادَاتٍ لِذَلِكَ، كَمَا أَنَّ أَنْقَصَ النَّاسِ أَكْثُرُهُمْ خَوَاطِرٌ وَفِكْرًا وَإِرَادَاتٍ لِحُظُوظِهِ وَهَوَاهُ أَيْنَ كَانَتْ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَهَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - كَانَتْ تَتَزَاحِمُ عَلَيْهِ الْخَوَاطِرُ فِي مَرَاضِي الرَّبِّ تَعَالَى، فَرَبِّمَا اسْتَعْمَلَهَا فِي صَلَاتِهِ، فَكَانَ يُجَهِّزُ جَيْشَهُ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَيَكُونُ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْجِهَادِ وَالصَّلَاةِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ تَدَخُلِ الْعِبَادَاتِ فِي الْعِبَادَةِ الْوَاحِدَةِ، وَهُوَ مِنْ بَابِ عَزِيزٍ شَرِيفٍ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ إِلَّا صَادِقٌ حَادِقٌ الْطَّلَبُ، مُتَضَلِّلٌ مِنَ الْعِلْمِ، عَالِي الْهِمَةِ، بِحَيْثُ يَدْخُلُ فِي عِبَادَةٍ يَنْفُرُ فِيهَا بِعِبَادَاتٍ شَتَّى، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتَيْهِ مَنْ يَشَاءُ.

\* \* \*

## [فصل الأَفْظَلُهُ]

وَأَمَّا الْلَّفَظَاتُ: فَحِفْظُهَا بِأَنْ لَا يُخْرِجَ لَفْظَةً ضَائِعَةً، بَلْ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو فِيهِ الرِّبَحَ وَالزِّيادةَ فِي دِينِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ نَظَرَ: هَلْ فِيهَا رِبْحٌ وَفَائِدَةٌ أَمْ لَا؟ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا رِبْحٌ أَمْسَكَ عَنْهَا، وَإِنْ كَانَ فِيهَا رِبْحٌ، نَظَرَ: هَلْ تَفُوتُهُ بِهَا كَلِمَةً أَرْبَحَ مِنْهَا، فَلَا يُضِيعُهَا بِهَذِهِ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْتَدِلَّ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ، فَاسْتَدِلْ عَلَيْهِ بِحَرَكَةِ اللِّسَانِ، فَإِنَّهُ يُطْلِعُكَ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ، شَاءَ صَاحِبُهُ أَمْ أَبَى.

قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: الْقُلُوبُ كَالْقُدُورِ تَغْلِي بِمَا فِيهَا، وَأَسْتَهِنُهَا مَعَارِفُهَا، فَانْظُرْ إِلَى الرَّجُلِ حِينَ يَتَكَلَّمُ فَإِنَّ لِسَانَهُ يَغْتَرِفُ لَكَ بِمَا فِي قَلْبِهِ، حُلُوُّ وَحَامِضُ، وَعَذْبٌ وَأَجَاجُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَبَيْنُ لَكَ طَعْمٌ قَلْبِهِ اغْتِرَافٌ لِسَانِهِ، أَيْ كَمَا تَطْعُمُ بِلِسَانِكَ طَعْمَ مَا فِي الْقُدُورِ مِنَ الطَّعَامِ فَتَدْرِكُ الْعِلْمَ بِحَقِيقَتِهِ، كَذَلِكَ تَطْعُمُ مَا فِي قَلْبِ الرَّجُلِ مِنْ لِسَانِهِ، فَتَذُوقُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ لِسَانِهِ، كَمَا تَذُوقُ مَا فِي الْقِدْرِ بِلِسَانِكَ.

وَفِي حَدِيثِ أَنْسِ الْمَرْفُوعِ: "لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ".

"وَسَأَلَ النَّبِيَّ - ﷺ - عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ فَقَالَ: الْفُمُ وَالْفَرْجُ" قَالَ التَّرْمِذِيُّ: حَدِيثُ حَسَنٌ صَحِحٌ.

وَقَدْ "سَأَلَ مُعَاذُ النَّبِيَّ - ﷺ - عَنِ الْعَمَلِ الَّذِي يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُهُ مِنَ النَّارِ، فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ - ﷺ - بِرَأْسِهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَائِكَ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخْذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقَالَ: وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتَكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ الْسِتَّهِمْ؟" قَالَ التَّرْمِذِيُّ: حَدِيثُ حَسَنٌ صَحِحٌ.

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَهُونُ عَلَيْهِ التَّحْفِظُ وَالإِحْتِرَازُ مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ وَالظُّلْمِ وَالزُّنْى وَالسِّرَّقَةِ وَشُرُبِ الْخَمْرِ، وَمِنَ النَّظَرِ الْمُحَرَّمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَصْبُعُ عَلَيْهِ التَّحْفِظُ مِنْ حَرَكَةِ لِسَانِهِ، حَتَّى تَرَى الرَّجُلَ يُشَارِ إِلَيْهِ بِالدِّينِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَاتِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَنْزِلُ بِالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَكَمْ تَرَى مِنْ رَجُلٍ مُتَوَرِّعٍ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ، وَلِسَانُهُ يَفْرِي فِي أَعْرَاضِ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، وَلَا يُبَالِي مَا يَقُولُ.

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ فَانْظُرْ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : "قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنِّي لَا أَغْفِرُ لِفُلَانٍ؟ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ" فَهَذَا الْعَابِدُ الَّذِي قَدْ عَبَدَ اللَّهَ مَا شَاءَ أَنْ يَعْبُدُهُ، أَحْبَطْتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْوَاحِدَةَ عَمَلَهُ كُلَّهُ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ نَحْوُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَكَلَّمْ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقْتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - : "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا؛ يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا؛ يَهُوي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ"، وَعِنْدَ مُسْلِمٍ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ".

وَعِنْدَ التَّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُزَنِيِّ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - : "إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يَظْنُ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا يَظْنُ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ"، وَكَانَ عَلْقَمَةُ يَقُولُ: كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَنَعَنِيهِ حَدِيثُ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ.

وَفِي جَامِعِ التَّرْمِذِيِّ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَسِّي قَالَ: "تُوْفَّيَ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ أَبْشِرُ بِالْجَنَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّهُ تَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، أَوْ بَخَلَ بِمَا لَا يُنْقُصُهُ" قَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَفِي لَفْظٍ: "أَنَّ غُلَامًا اسْتُشْهِدَ يَوْمًا أُحْدِي، فَوُجِدَ عَلَى بَطْنِهِ صَخْرَةً مَرْبُوْطَةً مِنَ الْجُوعِ، فَمَسَحَتْ أُمُّهُ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَتْ: هَنِيَّتَا لَكَ يَا بُنَيَّ الْجَنَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - : وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَيَمْنَعُ مَا لَا يُضُرُّهُ".

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ يَرْفَعُهُ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمُّتْ".

وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَإِذَا شَهَدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لِيَسْكُتْ".

وَذَكَرَ التَّرْمِذِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْهُ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: "مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ".

وَعَنْ سُفِيَّانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّقِيِّ قَالَ: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، قَالَ: قُلْ آمِنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقَمْ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ تَفْسِيهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا"، وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ.

وَعَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ - ﷺ - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: "كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"، قَالَ التَّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: "إِذَا أَصْبَحَ الْعَبْدُ، فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلُّهَا تُكَفِّرُ الْلِّسَانَ، تَقُولُ: أَنِّي اللَّهُ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِذَا اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ أَعْوَجْجَبْتَ اعْوَجْجَنَا".

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يُحَاسِبُ أَحَدُهُمْ نَفْسَهُ فِي قَوْلِهِ: يَوْمٌ حَارٌ، وَيَوْمٌ بَارِدٌ.  
وَلَقَدْ رُئِيَ بَعْضُ الْأَكَابِرِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي النَّوْمِ فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ، فَقَالَ: أَنَا مَوْقُوفٌ  
عَلَى كَلِمَةٍ قُلْتُهَا، قُلْتُ: مَا أَحْوَاجُ النَّاسَ إِلَى غَيْثٍ، فَقَيْلَ لِي: وَمَا يُدْرِيكَ؟ أَنَا أَعْلَمُ  
بِمَصْلَحةِ عِبَادِي.

وَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ لِجَارِيَتِهِ يَوْمًا: هَاتِي السُّفْرَةَ نَعْبُثُ بِهَا، ثُمَّ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ  
مَا أَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ إِلَّا وَأَنَا أَخْطُمُهَا وَأَزْمُّهَا إِلَّا هَذِهِ الْكَلِمَةَ خَرَجَتْ مِنِّي بِغَيْرِ خَطَاطٍ وَلَا  
زِمَامٍ، أَوْ كَمَا قَالَ.

وَأَيْسَرُ حَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ حَرَكَةُ الْلِّسَانِ وَهِيَ أَضَرُّهَا عَلَى الْعَبْدِ.  
وَاحْتَلَفَ السَّلَفُ وَالخَلْفُ هَلْ يُكْتَبُ جَمِيعُ مَا يُلْفَظُ بِهِ أَوْ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ فَقَطُ؟ عَلَى  
قَوْلِيْنِ أَظْهَرُهُمَا الْأَوَّلُ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كُلُّ كَلَامٍ ابْنُ آدَمَ عَلَيْهِ لَا هُمْ، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَالَّهُ، وَكَانَ  
الصَّدِيقُ - ﷺ - يُمْسِكُ عَلَى لِسَانِهِ وَيَقُولُ: هَذَا أُورَدَنِي الْمَوَارِدُ، وَالْكَلَامُ أَسِيرُكَ، فَإِذَا خَرَجَ  
مِنْ فِيْكَ صِرْتَ أَنْتَ أَسِيرٌ، وَاللَّهُ عِنْدُ لِسَانٍ كُلُّ قَائِلٍ: ﴿مَا يَلِيقُهُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْدٌ﴾.

وَفِي الْلِّسَانِ أَفَتَانٌ عَظِيمَاتٌ، إِنْ خَلَصَ الْعَبْدُ مِنْ إِحْدَاهُمَا لَمْ يَخْلُصْ مِنَ الْأُخْرَى:  
أَفَةُ الْكَلَامِ، وَأَفَةُ السُّكُوتِ، وَقَدْ يَكُونُ كُلُّ مِنْهُمَا أَعْظَمَ إِنْمَاءً مِنَ الْأُخْرَى فِي وَقْتِهَا،  
فَالسَّاِكِتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسُ، عَاصِلٌ لِلَّهِ، مُرَاءٌ مُدَاهِنٌ إِذَا لَمْ يَخْفِ عَلَى نَفْسِهِ،  
وَالْمُتَكَلِّمُ بِالْبَاطِلِ شَيْطَانٌ نَاطِقُ، عَاصِلٌ لِلَّهِ، وَأَكْثَرُ الْخَلْقِ مُنْحَرِفٌ فِي كَلَامِهِ وَسُكُوتِهِ  
فَهُمْ بَيْنَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ، وَأَهْلُ الْوَسْطِ - وَهُمْ أَهْلُ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ - كَفُوا أَلِسْتَهُمْ  
عِنِ الْبَاطِلِ، وَأَطْلَقُوهَا فِيمَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ نَفْعُهُ فِي الْآخِرَةِ، فَلَا تَرَى أَحَدُهُمْ يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ

تَذَهَّبُ عَلَيْهِ ضَائِعَةً بِلَا مَنْفَعَةٍ، فَضْلًا أَنْ تَضْرِهُ فِي آخِرَتِهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتِ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيَجِدُ لِسَانَهُ قَدْ هَدَمَهَا عَلَيْهِ كُلَّهَا، وَيَأْتِي بِسَيِّئَاتِ أَمْثَالِ الْجِبَالِ فَيَجِدُ لِسَانَهُ قَدْ هَدَمَهَا مِنْ كُثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَا اتَّصَلَ بِهِ.

\* \* \*

## [فصل الخطوة]

الْخُطْوَةُ وَأَمْمَا الْخُطُواتُ: فَحَفْظُهَا بِأَنْ لَا يَنْقُلَ قَدَمَهُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو ثَوَابَهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي خُطَاهُ مَزِيدٌ ثَوَابٌ، فَالْقُوْدُ عَنْهَا خَيْرٌ لَهُ، وَيُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَخْرُجَ مِنْ كُلِّ مُبَاحٍ يَخْطُو إِلَيْهِ قُرْبَةً يُنْوِيهَا لِلَّهِ، فَتَقْعُدُ خُطَاهُ قُرْبَةً.

وَلَمَّا كَانَتِ الْعَشْرُ عَشْرَتَيْنِ: عَشْرَةُ الرِّجْلِ وَعَشْرَةُ اللُّسَانِ، جَاءَتْ إِحْدَاهُمَا قَرِينَةً الْأُخْرَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُوَنَا وَإِذَا خَاطَبُهُمْ الْجَنَّهُوْنَ قَالُوا سَلَّمًا ﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: 63].

فَوَصَفَهُمْ بِالإِسْتِقَامَةِ فِي لَفْظَاتِهِمْ وَخُطُوطِهِمْ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ الْلَّحَظَاتِ وَالْخَطَرَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَعَمُ خَلِينَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تَنْحِي الصُّدُورُ ﴾ [سُورَةُ غَافِرِ: 19].

وَهَذَا كُلُّهُ ذَكْرُنَاهُ مُقْدَمَةً بَيْنَ يَدِي تَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ وَوُجُوبِ حِفْظِ الْفَرْجِ، وَقَدْ قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: "أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ: الْفَمُ، وَالْفَرْجُ".

وَفِي الصَّحِّيْحَيْنِ عَنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: "لَا يَحْلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الشَّيْبُ الْزَّانِي، وَالْفَسِّرِ بِالنَّفْسِ، وَالْتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ"، وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي افْتَرَانِ الرِّزْنَى بِالْكُفْرِ وَقَتْلِ النَّفْسِ، نَظِيرُ الْأَيْةِ الَّتِي فِي الْفُرْقَانِ، وَنَظِيرُ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَبَدَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِالْأَكْثَرِ وُقُوعًا، وَالَّذِي يَلِيهِ، فَالْزَّنِي أَكْثَرُ وُقُوعًا مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ أَكْثَرُ وُقُوعًا مِنَ الرِّدَّةِ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ تَنَقَّلُ مِنَ الْأَكْبَرِ إِلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ، وَمَفْسَدَةُ الزَّنِي مُنَاقِضَةٌ لِصَالِحِ الْعَالَمِ: فَإِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا زَانَتْ أَدْخَلَتِ الْعَارَ عَلَى أَهْلِهَا وَزَوْجِهَا وَأَقْارِبِهَا، وَنَكَسَتْ رُءُوسَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِنْ حَمَلَتْ مِنَ الزَّنِي، فَإِنْ قَتَلَتْ وَلَدَهَا جَمَعَتْ بَيْنَ الزَّنِي وَالْقَتْلِ، وَإِنْ حَمَلَتْهُ عَلَى الرَّوْجِ أَدْخَلَتْ عَلَى أَهْلِهِ وَأَهْلِهَا أَجْنِيَّا لَيْسَ مِنْهُمْ، فَوَرِثُهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَرَاهُمْ وَخَلَا بِهِمْ وَاتَّسَبَ إِلَيْهِمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَفَاسِدِ زِنَاهَا.

وَأَمَّا زَنِي الرَّجُلِ فَإِنَّهُ يُوَحِّبُ اخْتِلَاطَ الْأَسَابِ أَيْضًا، وَإِفْسَادَ الْمَرْأَةِ الْمَصْوَنَةِ وَتَعْرِيَصَهَا لِلتَّلَفِ وَالْفَسَادِ، وَفِي هَذِهِ الْكَبِيرَةِ خَرَابُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، وَإِنْ عَمَرَتِ الْقُبُورَ فِي الْبَرَزَخِ وَالنَّارِ فِي الْآخِرَةِ، فَكَمْ فِي الزَّنِي مِنْ اسْتِحْلَالٍ لِحُرُمَاتٍ وَفَوَاتِ حُقُوقٍ وَوُقُوعِ مَظَالِمٍ؟

وَمِنْ خَاصِّيَّتِهِ: أَنَّهُ يُوَحِّبُ الْفَقَرَ، وَيُقْصِرُ الْعُمُرَ، وَيَكْسُو صَاحِبَهُ سَوَادَ الْوَجْهِ، وَثُوْبَ الْمَقْتَ بَيْنَ النَّاسِ.

وَمِنْ خَاصِّيَّتِهِ أَيْضًا: أَنَّهُ يُشَتَّتُ الْقَلْبَ وَيُمْرِضُهُ إِنْ لَمْ يُمْتَهِ، وَيَجْلِبُ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ وَالْخُوفَ، وَيُبَايِعُ صَاحِبَهُ مِنَ الْمَلَكِ وَيُقْرِبُهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلَيْسَ بَعْدَ مَفْسَدَةِ الْقَتْلِ أَعْظَمُ مِنْ مَفْسَدَتِهِ، وَلَهَذَا شُرَعَ فِيهِ الْقَتْلُ عَلَى أَشْنَعِ الْوُجُوهِ وَأَفْحَشَهَا وَأَصْبَعَهَا، وَلَوْ بَلَغَ الْعَبْدَ أَنَّ امْرَأَتَهُ أَوْ حُرْمَتَهُ قُتِلَتْ كَانَ أَسْهَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَبْلُغُهُ أَنَّهَا زَانَتْ.

"وَقَالَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ - رضي الله عنه -: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبَتْهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُضْفَحٍ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: تَعْجَبُونَ مِنْ عَيْرَةِ سَعْدٍ؟ وَاللَّهِ لَأَنَا أَغْيِرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيِرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ عَيْرَةِ اللَّهِ حَرَمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ". مُتَقَوْلَةٌ عَلَيْهِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْهُ - عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ - : "إِنَّ اللَّهَ يَغْأَرُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغْأَرُ، وَغَيْرُهُ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ الْعَبْدُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ".

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ - عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ - : "لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ".

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ فِي خُطْبَتِهِ - عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ - فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ أَنَّهُ قَالَ: "يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهُ إِنَّهُ لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرْزِقَنِي عَبْدُهُ أَوْ تَرْزِقَنِي أُمَّتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكْيْتُمْ كَثِيرًا، ثُمَّ رَفَعَ يَدِيهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟".

وَفِي ذِكْرِ هَذِهِ الْكَبِيرَةِ بِخُصُوصِهَا عَقِبَ صَلَاةِ الْكُسُوفِ سِرُّ بَدِيعٍ لِمَنْ تَأْمَلُهُ، وَظُهُورُ الرَّزْنَى مِنْ أَمَارَاتِ خَرَابِ الْعَالَمِ، وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: "لَا حَدَّثْنَاكُمْ حَدِيثًا لَا يُحَدِّثُكُمُوهُ أَحَدٌ بَعْدِي، سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ - يَقُولُ: مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَظْهُرَ الْجَهْلُ وَيُشَرِّبَ الْخَمْرُ وَيَظْهُرَ الرَّزْنَى وَيَقُولَّ الرِّجَالُ وَتَكْثُرُ النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيْمُ الْوَاحِدُ".

"وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي خَلْقِهِ أَنَّهُ عِنْدَ ظُهُورِ الرَّزْنَى يَعْصُبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَيَسْتَدُّ غَصْبُهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ غَصْبُهُ فِي الْأَرْضِ عُقوَبَةً".

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: مَا ظَهَرَ الرِّبَا وَالرَّزْنَى فِي قَرْيَةٍ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ بِإِهْلِكَهَا. وَرَأَى بَعْضُ أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ابْنَهُ يَغْمُزُ امْرَأَةً، فَقَالَ: مَهْلًا يَا بُنَيَّ، فَصُرِعَ الْأَبُ عَنْ سَرِيرِهِ فَانْقَطَعَ نُخَاعُهُ وَأَسْقَطَتِ امْرَأَتُهُ، وَقِيلَ لَهُ: هَكَذَا غَضَبُكَ لَيْ؟ لَا يَكُونُ فِي جِنْسِكَ خَيْرٌ أَبَدًا.

وَخَصَّ سُبْحَانَهُ حَدَّ الزَّنَى مِنْ بَيْنِ الْحُدُودِ بِثَلَاثٍ خَصَائِصَ:

أَحَدُهَا: الْقَتْلُ فِيهِ بِأَشْنَعِ الْقَتَلَاتِ، وَحَيْثُ خَفَّهُ جَمَعٌ فِيهِ بَيْنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى الْبَدَنِ  
بِالْجَلْدِ وَعَلَى الْقَلْبِ بِتَغْرِيبِهِ عَنْ وَطَنِهِ سَنَةً.

الثَّانِي: أَنَّهُ نَهَى عِبَادَهُ أَنْ تَأْخُذُهُمْ بِالْزُّنَاهَرِ رَأْفَهَهُ فِي دِينِهِ، بِحِيثُ تَمْنَعُهُمْ مِنْ إِقَامَةِ  
الْحَدِّ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ رَأْفَتِهِ بِهِمْ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ شَرَعَ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ؛ فَهُوَ أَرْحَمُ  
بِكُمْ، وَلَمْ تَمْنَعْهُ رَحْمَتُهُ مِنْ أَمْرِهِ بِهَذِهِ الْعُقُوبَةِ، فَلَا يَمْنَعُكُمْ أَنْتُمْ مَا يَقُولُونِيْكُمْ مِنَ  
الرَّأْفَهَهِ مِنْ إِقَامَةِ أَمْرِهِ.

وَهَذَا - وَإِنْ كَانَ عَامًا فِي سَائِرِ الْحُدُودِ - وَلَكِنْ ذُكْرُهُ فِي حَدِّ الزَّنَى خَاصَّهُ لِشَدَّةِ  
الْحَاجَةِ إِلَى ذُكْرِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَجِدُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِلْطَهُ وَالْقَسْوَهُ عَلَى الزَّانِي مَا  
يَجِدُونَهُ عَلَى السَّارِقِ وَالْقَادِفِ وَشَارِبِ الْخَمْرِ، فَقُلُوبُهُمْ تَرَحُّمُ الزَّانِي أَكْثَرَ مِمَّا تَرَحُّمُ  
غَيْرُهُ مِنْ أَرْبَابِ الْجَرَائِمِ، وَالْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ، فَهُوَا أَنْ تَأْخُذُهُمْ هَذِهِ الرَّأْفَهُ وَتَحْمِلُهُمْ  
عَلَى تَعْطِيلِ حَدِّ اللَّهِ.

وَسَبَبُ هَذِهِ الرَّحْمَهِ: أَنَّهَا ذَنْبٌ يَقَعُ مِنَ الْأَشْرَافِ وَالْأَوْسَاطِ وَالْأَرَادِلِ، وَفِي  
النُّفُوسِ أَقْوَى الدَّوَاعِي إِلَيْهِ، وَالْمُشَارِكُ فِيهِ كَثِيرٌ، وَأَكْثَرُ أَسْبَابِهِ الْعِشْقُ، وَالْقُلُوبُ  
مَجْبُولَهُ إِلَى رَحْمَهِ الْعَاشِقِ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَعُدُّ مُسَاعِدَتَهُ طَاعَهُ وَقُرْبَهُ، وَإِنْ كَانَتِ  
الصُّورَهُ الْمَعْشُوقَهُ مُحَرَّمَهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْتَكِرُ هَذَا الْأَمْرُ، فَهُوَ مُسْتَقِرٌ عِنْدَ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ  
أَشْبَاهِ الْأَنْعَامِ، وَلَقَدْ حَكَى لَنَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا كَثِيرًا نَقَاصُ الْعُقُولِ كَالْخُدَّامِ وَالنِّسَاءِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّهَا ذَنْبٌ غَالِبًا مَا يَقَعُ مَعَ التَّرَاضِيِّ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَلَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْعُدُوانِ  
وَالظُّلْمِ وَالْإِغْتِصَابِ مَا تَنْهَى النُّفُوسُ مِنْهُ.

وَفِي النُّفُوسِ شَهْوَةٌ غَالِبَةٌ لَهُ فَيُصَوِّرُ ذَلِكَ لَهَا، فَتَقْتُومُ بِهَا رَحْمَةٌ تَمْنَعُ إِقَامَةَ الْحَدِّ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ ضَعْفِ الإِيمَانِ. وَكَمَالُ الإِيمَانِ أَنْ تَقْتُومَ بِهِ قُوَّةٌ يُقْيِيمُ بِهَا أَمْرَ اللَّهِ، وَرَحْمَةٌ يَرْحَمُ بِهَا الْمَحْدُودَ، فَيَكُونُ مُوَافِقًا لِرَبِّهِ تَعَالَى فِي أَمْرِهِ وَرَحْمَتِهِ.

**الثَّالِثُ:** أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَرَ أَنْ يَكُونَ حَدُّهُمَا بِمَسْهِدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَا يَكُونُ فِي خَلْوَةٍ بِحَيْثُ لَا يَرَاهُمَا أَحَدٌ، وَذَلِكَ أَبْلَغُ فِي مَصْلَحَةِ الْحَدِّ، وَالْحِكْمَةِ التَّرْجُرُ، وَحَدُّ الزَّانِي الْمُحْصَنِ مُشْتَقٌ مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِقَوْمٍ لُوطٍ بِالْقَذْفِ بِالْحِجَارَةِ، وَذَلِكَ لِإِشْتِرَاكِ الْزِّنَا وَاللُّوَاطِ فِي الْفُحْشِ، وَفِي كُلِّ مِنْهُمَا فَسَادٌ يُنَاقِضُ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، فَإِنَّ فِي اللُّوَاطِ مِنَ الْمَفَاسِدِ مَا يَفْوَتُ الْحَصْرَ وَالْتَّعَدَادَ، وَلَا أَنْ يُقْتَلَ الْمَفْعُولُ بِهِ خَيْرُهُ لَهُ مِنْ أَنْ يُؤْتَى، فَإِنَّهُ يَفْسُدُ فَسَادًا لَا يُرْجِي لَهُ بَعْدَهُ صَلَاحٌ أَبَدًا، وَيَدْهُبُ خَيْرُهُ كُلُّهُ، وَتَمُصُّ الْأَرْضُ مَاءَ الْحَيَاءِ مِنْ وَجْهِهِ، فَلَا يَسْتَحِي بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ وَلَا مِنْ خَلْقِهِ، وَتَعْمَلُ فِي قَلْبِهِ وَرُوْحِهِ نُطْفَةُ الْفَاعِلِ مَا يَعْمَلُ السُّمُّ فِي الْبَدَنِ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَفْعُولٌ بِهِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ يَحْكِيَهُمَا.

**وَالَّذِينَ قَالُوا: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ احْتَجُوا بِأُمُورٍ:**

مِنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَدُ زَنِيَّةٍ" فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُ وَلَدِ الزَّنِي مَعَ أَنَّهُ لَا ذَنْبَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ مَظْنَنٌ كُلُّ شَرٍ وَخُبُثٍ، وَهُوَ جَدِيرٌ أَنْ لَا يَحْيِي أَنْهُ خَيْرٌ أَبَدًا، لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نُطْفَةٍ خَيْثَةٍ، وَإِذَا كَانَ الْجَسَدُ الَّذِي تَرَبَّى عَلَى الْحَرَامِ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ، فَكَيْفَ بِالْجَسَدِ الْمَخْلُوقِ مِنَ النُّطْفَةِ الْحَرَامِ؟

قالوا: والمَفْعُولُ بِهِ شَرٌّ مِنْ وَلَدِ الزَّنَى، وَأَخْرَى وَأَخْبَثُ وَأَوْقَحُ، وَهُوَ جَدِيرٌ أَنْ لَا يُوْفَقَ لِخَيْرٍ، وَأَنْ يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَكُلُّمَا عَمِلَ خَيْرًا قَيَضَ اللَّهُ لَهُ مَا يُفْسِدُهُ عُقُوبَةً لَهُ، وَقَلَّ أَنْ تَرَى مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فِي صِغْرِهِ إِلَّا وَهُوَ فِي كِبَرِهِ شَرٌّ مِمَّا كَانَ، وَلَا يُوْفَقُ لِعِلْمٍ نَافِعٍ، وَلَا عَمَلٍ صَالِحٍ، وَلَا تَوْبَةً نَصُوحٍ.

وَالْتَّحْقِيقُ فِي الْمَسْأَلَةِ أَنْ يُقَالُ: إِنْ تَابَ الْمُبْتَلَى بِهَذَا الْبَلَاءِ وَأَنَابَ، وَرُزِقَ تَوْبَةً نَصُوحًا وَعَمَلًا صَالِحًا، وَكَانَ فِي كِبَرِهِ خَيْرًا مِنْهُ فِي صِغْرِهِ، وَبَدَلَ سَيِّئَاتِهِ بِحَسَنَاتِهِ، وَغَسَلَ عَارَ ذَلِكَ عَنْهُ بِأَنَواعِ الطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ، وَغَضَّ بَصَرَهُ وَحَفَظَ فَرْجَهُ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَصَدَقَ اللَّهُ فِي مُعَامَلَتِهِ، فَهَذَا مَغْفُورُ لَهُ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، وَإِذَا كَانَتِ التَّوْبَةُ تَمْحُو كُلَّ ذَنْبٍ، حَتَّى الشُّرُكَ بِاللَّهِ وَقَتْلَ أَنْيَائِهِ وَأَوْلَيَائِهِ وَالسُّحْرَ وَالْكُفْرِ وَعِيرَ ذَلِكَ، فَلَا تَقْصُرُ عَنْ مَحْوِهَا الذَّنْبِ، وَقَدِ اسْتَقَرَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ عَدْلًا وَفَضْلًا أَنَّ: "الْتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ"، وَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِمَنْ تَابَ مِنَ الشُّرُكِ وَقَتْلِ النَّفْسِ وَالزَّنَى، أَنَّهُ يُبَدِّلُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا حُكْمٌ عَامٌ لِكُلِّ تَائِبٍ مِنْ ذَنْبٍ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْفُرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ: 53].

فَلَا يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ هَذَا فِي حَقِّ التَّائِبِينَ خَاصَّةً.

وَأَمَّا الْمَفْعُولُ بِهِ إِنْ كَانَ فِي كِبَرِهِ شَرًا مِمَّا كَانَ فِي صِغْرِهِ؛ لَمْ يُوْفَقَ لِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ، وَلَا لِعَمَلٍ صَالِحٍ، وَلَا اسْتِدْرَالٍ مَا فَاتَ، وَلَا أَبْدَلَ السَّيِّئَاتِ بِالْحَسَنَاتِ، فَهَذَا بَعِيدٌ أَنْ يُوْفَقَ عِنْدَ الْمَمَاتِ لِخَاتَمَةِ يَدْخُلُ بِهَا الْجَنَّةَ، عُقُوبَةً لَهُ عَلَى عَمَلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

يُعَاقِبُ عَلَى السَّيِّئَةِ بِسَيِّئَةٍ أُخْرَى، وَتَتَضَاعِفُ عُقُوبَةُ السَّيِّئَاتِ بَعْضِهَا بِيَعْضٍ، كَمَا يُثِيبُ عَلَى الْحَسَنَةِ بِحَسَنَةٍ أُخْرَى.

إِذَا نَظَرْتَ إِلَى حَالِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُحْتَضِرِينَ وَجَدْتُهُمْ يُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ حُسْنِ الْخَاتِمَةِ، عُقُوبَةُ لَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ.

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْحَقِّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْإِشْبِيلِيُّ رَحْمَهُ اللَّهُ:

وَاعْلَمُ أَنَّ لِسُوءِ الْخَاتِمَةِ - أَعْدَذَنَا اللَّهُ مِنْهَا - أَسْبَابًا، وَلَهَا طُرُقٌ وَآبُوابٌ، أَعْظَمُهَا الْإِنْكِبَابُ عَلَى الدُّنْيَا، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْأُخْرَى، وَالْإِقْدَامُ وَالْجَرَأَةُ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَبِّمَا غَلَبَ عَلَى الْإِنْسَانِ ضَرْبٌ مِنَ الْخَطِيَّةِ، وَنَوْعٌ مِنَ الْمُعْصِيَةِ، وَجَانِبٌ مِنَ الْإِعْرَاضِ، وَنَصِيبٌ مِنَ الْجَرَأَةِ وَالْإِقْدَامِ، فَمَلَكَ قَلْبَهُ، وَسَبَى عَقْلَهُ وَأَطْفَأَ نُورَهُ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِ حُجْبَهُ فَلَمْ تَنْفَعْ فِيهِ تَذَكِّرَةٌ، وَلَا نَجَحَتْ فِيهِ مَوْعِظَةٌ، فَرَبِّمَا جَاءَهُ الْمَوْتُ عَلَى ذَلِكَ، فَسَمِعَ النَّدَاءَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، فَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ الْمُرَادُ، وَلَا عِلْمَ مَا أَرَادَ، وَإِنْ كَرَرَ عَلَيْهِ الدَّاعِيُّ وَأَعَادَ.

قَالَ: وَيُرَوَى أَنَّ بَعْضَ رِجَالِ النَّاصِرِ نَزَلَ الْمَوْتُ بِهِ، فَجَعَلَ ابْنَهُ يَقُولُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: النَّاصِرُ مَوْلَايَ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ، فَأَعَادَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَصَابَتْهُ عَشِيشَةٌ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: النَّاصِرُ مَوْلَايَ، وَكَانَ هَذَا دَأْبُهُ كُلَّمَا قِيلَ لَهُ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: النَّاصِرُ مَوْلَايَ، ثُمَّ قَالَ لِابْنِهِ: يَا فُلَانُ، النَّاصِرُ إِنَّمَا يَعْرِفُكَ بِسَيِّفِكَ، وَالْقُتْلَ الْقُتْلَ، ثُمَّ مَاتَ.

قَالَ عَبْدُ الْحَقِّ: وَقِيلَ لِآخَرَ - مِمَّنْ أَعْرِفُهُ - قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَجَعَلَ يَقُولُ: الدَّارُ الْفَلَانِيَّةُ أَصْلِحُوا فِيهَا كَذَا، وَالْبُسْتَانُ الْفَلَانِيُّ افْعَلُوا فِيهِ كَذَا.

وَقَالَ: وَفِيمَا أَذِنَ أَبُو طَاهِرِ السَّلَفِيُّ أَنْ أُحَدِّثَ بِهِ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، فَقِيلَ لَهُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ بِالْفَارِسِيَّةِ: دَهْ يَأْرَدَهْ دَهْ وَأَرَدَهْ، تَفْسِيرُهُ: عَشْرُ بِأَحَدَ عَشَرَ.

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ:

أَيْنَ الظَّرِيقُ إِلَى حَمَامِ مِنْجَابِ

قَالَ: وَهَذَا الْكَلَامُ لَهُ قِصَّةُ، وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا كَانَ وَاقِفًا يَرِزَّاهُ دَارِهِ، وَكَانَ بَابُهَا يُسْبِهُ بَابَ هَذَا الْحَمَامِ، فَمَرَّتْ بِهِ جَارِيَةٌ لَهَا مَنْظَرٌ، فَقَالَتْ: أَيْنَ الظَّرِيقُ إِلَى حَمَامِ مِنْجَابِ؟ فَقَالَ: هَذَا حَمَامُ مِنْجَابِ، فَدَخَلَتِ الدَّارَ وَدَخَلَ وَرَاءَهَا، فَلَمَّا رَأَتْ نَفْسَهَا فِي دَارِهِ وَعَلِمَتْ أَنَّهُ قَدْ خَدَعَهَا، أَظْهَرَتْ لَهُ الْبُشْرَى وَالْفَرَحَ بِاجْتِمَاعِهَا مَعَهُ، وَقَالَتْ لَهُ: يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَعَنَا مَا يَطِيبُ بِهِ عَيْشُنَا وَتَقْرُبُ بِهِ عَيْوَنُنَا، فَقَالَ لَهَا: السَّاعَةُ أَتِيكِ بِكُلِّ مَا تُرِيدِينَ وَتَشَتَّهِينَ، وَخَرَجَ وَتَرَكَهَا فِي الدَّارِ وَلَمْ يُعْلِقْهَا، فَأَخَذَ مَا يَصْلُحُ وَرَجَعَ، فَوَجَدَهَا قَدْ خَرَجَتْ وَذَهَبَتْ، وَلَمْ تَخُنْهُ فِي شَيْءٍ، فَهَامَ الرَّجُلُ وَأَكْثَرَ الذِّكْرِ لَهَا، وَجَعَلَ يَمْشِي فِي الْطُّرُقِ وَالْأَزْقَةِ وَيَقُولُ:

يَا رَبَّ قَائِلَةٍ يَوْمًا وَقْدَ تَعَبَّثْ كَيْفَ الظَّرِيقُ إِلَى حَمَامِ مِنْجَابِ؟

فَبَيْنَمَا هُوَ يَوْمًا يَقُولُ ذَلِكَ، إِذَا بِجَارِيَتِهِ أَجَابَتْهُ مِنْ طَاقِ:

هَلَّا جَعَلْتَ سَرِيعًا إِذْ ظَرِفْتَ بِهَا حِزْرًا عَلَى الدَّارِ أَوْ قُفْلًا عَلَى الْبَابِ

فَأَزْدَادَ هَيَمَانَهُ وَأَشْتَدَّ، وَلَمْ يَزُلْ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى كَانَ هَذَا الْبَيْتُ آخرَ كَلَامَهُ مِنَ الدُّنْيَا.

وَلَقَدْ بَكَى سُفِيَّانُ الشَّوَّرِيُّ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قِيلَ لَهُ: كُلُّ هَذَا خَوْفًا مِنَ الذُّنُوبِ؟ فَأَخَذَ تِبْنَةً مِنَ الْأَرْضِ، وَقَالَ: الذُّنُوبُ أَهُونُ مِنْ هَذَا، وَإِنَّمَا أَبْكِي مِنْ خَوْفِ سُوءِ الْخَاتِمَةِ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِقَهِ: أَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ أَنْ تَخْذُلَهُ ذُنُوبُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَتَحُولُ بَيْنَ وَبَيْنَ الْخَاتِمَةِ الْحُسْنَى.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ لَمَّا احْتَضَرَ جَعَلَ يُغْمَى عَلَيْهِ ثُمَّ يَفِيقُ وَيَقُرَأُ: ﴿ وَنَقِلْبَ أَفِعِدَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُقْنُوْبِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامَ: 110].

فَمِنْ هَذَا خَافَ السَّلْفُ مِنَ الدُّنُوبِ، أَنْ تَكُونَ حِجَابًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَاتِمَةِ الْحُسْنَى.

قَالَ: وَاعْلَمُ أَنَّ سُوءَ الْخَاتِمَةِ - أَعَادَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا - لَا تَكُونُ لِمَنِ اسْتَقَامَ ظَاهِرُهُ وَصَلْحُ بَاطِنُهُ، مَا سُمِعَ بِهَذَا وَلَا عُلِمَ بِهِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لِمَنْ لَهُ فَسَادٌ فِي الْعَقْدِ، أَوْ إِصْرَارٌ عَلَى الْكَبَائِرِ، وَإِقْدَامٌ عَلَى الْعَظَائِمِ، فَرُبَّمَا غَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْزِلَ بِهِ الْمَوْتُ قَبْلَ التَّوْبَةِ، فَيَأْخُذُهُ قَبْلَ إِصْلَاحِ الطَّوْيَةِ، وَيَصْطَلِمُهُ قَبْلَ الْإِنَابَةِ فَيَظْفَرُ بِهِ الشَّيْطَانُ عِنْدِ تِلْكَ الصَّدْمَةِ، وَيَخْتَطِفُهُ عِنْدَ تِلْكَ الدَّهْشَةِ، وَالْعِيَادَ بِاللَّهِ.

قَالَ: وَيُرَوِّى أَنَّهُ كَانَ بِمِصْرَ رَجُلٌ يَلْزُمُ مَسْجِدًا لِلْأَذَانِ وَالصَّلَاةِ، وَعَلَيْهِ بَهَاءُ الطَّاعَةِ وَأَنُوَارُ الْعِبَادَةِ، فَرَقِيَ يَوْمًا الْمَنَارَةَ عَلَى عَادِتِهِ لِلْأَذَانِ، وَكَانَ تَحْتَ الْمَنَارَةِ دَارٌ لِنَصْرَانِيٍّ، فَأَطْلَلَ فِيهَا، فَرَأَى ابْنَةَ صَاحِبِ الدَّارِ فَافْتَنَ بِهَا، فَتَرَكَ الْأَذَانَ، وَنَزَلَ إِلَيْهَا، وَدَخَلَ الدَّارَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: مَا شَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُكِ، فَقَالَتْ: لِمَاذَا؟ قَالَ: قَدْ سَبَيْتِ لُبِّيَ، وَأَخْذَتِ بِمَجَامِعِ قَلْبِيِّ، قَالَتْ: لَا أُجِيْبُكَ إِلَى رِبِّيَّ أَبِدًا، وَقَالَ: أَتَزَوْجُكِ؟ قَالَتْ: أَنْتَ مُسْلِمٌ وَأَنَا نَصْرَانِيَّةٌ وَأَبِي لَا يُزَوْجُنِي مِنْكَ، قَالَ: أَتَنْصَرُ، قَالَتْ: إِنْ فَعَلْتَ أَفْعَلُ، فَتَنَصَّرَ الرَّجُلُ لِيَتَزَوْجَهَا، وَأَقَامَ مَعَهُمْ فِي الدَّارِ، فَلَمَّا كَانَ فِي أَنْتَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، رَقِيَ إِلَى سَطْحِ كَانَ فِي الدَّارِ فَسَقَطَ مِنْهُ فَمَاتَ، فَلَمْ يَظْفَرْ بِهَا، وَفَاتَهُ دِينُهُ.

قَالَ: وَيُرَوِّى أَنَّ رَجُلًا عَشِيقًا شَخْصًا فَاشْتَدَ كَلْفُهُ بِهِ، وَتَمَكَّنَ حُبُّهُ مِنْ قَلْبِهِ، حَتَّى وَقَعَ أَلْمٌ بِهِ وَلَزَمَ الْفِرَاشَ بِسَبِيلِهِ، وَتَمَنَّعَ ذَلِكَ الشَّخْصُ عَلَيْهِ، وَاشْتَدَ نِفَارُهُ عَنْهُ، فَلَمْ

تَرَلِ الْوَسَائِطُ يَمْشُونَ بَيْنَهُمَا حَتَّىٰ وَعَدَهُ بَأْنَ يَعُودُهُ، فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ النَّاسُ، فَفَرَحَ وَاشْتَدَّ سُرُورُهُ وَانْجَلَىٰ غَمْهُ، وَجَعَلَ يَنْتَظِرُ الْمِيَعَادَ الَّذِي ضَرَبَ لَهُ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ السَّاعِي بَيْنَهُمَا، فَقَالَ: إِنَّهُ وَصَلَ مَعِي إِلَى بَعْضِ الْطَّرِيقِ وَرَاجَعَ، وَرَغَبَتِ إِلَيْهِ وَكَلَّمَتُهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ ذَكَرَنِي وَصَرَحَ بِي، وَلَا أَدْخُلُ مَدَارِخَ الرِّيَةِ وَلَا أَعْرِضُ نَفْسِي لِمَوَاقِعِ التُّهَمِ، فَعَاوَدْتُهُ فَأَبَى وَانْصَرَفَ، فَلَمَّا سَمِعَ الْبَائِسُ أُسْقِطَ فِي يَدِهِ، وَعَادَ إِلَى أَشَدَّ مِمَّا كَانَ بِهِ، وَبَدَتْ عَلَيْهِ عَلَائِمُ، فَجَعَلَ يَقُولُ فِي تِلْكَ الْحَالِ:

يَا سَلْمٌ يَا رَاحَةَ الْعَلِيلِ  
وَيَا شَفَا الْمُذَلَّفِ التَّحِيلِ  
رِضَالِ أَشَهَسَ إِلَى فُؤَادِي  
مِنْ رَحْمَةِ الْخَالِقِ الْجَلِيلِ  
فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ اتَّقِ اللَّهَ، قَالَ: قَدْ كَانَ، فَقُمْتُ عَنْهُ، فَمَا جَاوَزْتُ بَابَ دَارِهِ حَتَّىٰ  
سَمِعْتُ صَيْحَةَ الْمَوْتِ، فَعِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَشُؤُمُ الْخَاتِمَةِ.

\* \* \*

### [فَصْلُ عُقُوبَةِ الْلَّوَاطِ]

وَلَمَّا كَانَتْ مَفْسَدَةُ الْلَّوَاطِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ؛ كَانَتْ عُقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ: هَلْ هُوَ أَغْلَظُ عُقُوبَةٍ مِنَ الزِّنِي، أَوِ الزِّنَى أَغْلَظُ عُقُوبَةٍ مِنْهُ، أَوْ عُقُوبَتُهُمَا سَوَاءٌ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

فَذَهَبَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْزُّبِيرِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَخَالِدُ بْنُ زَيْدٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْمَرٍ، وَالزُّهْرِيُّ، وَرَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَمَالِكُ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهْوَيْهِ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ - فِي أَصَحِّ الرِّوَايَتَيْنِ

عَنْهُ - وَالشَّافِعِيُّ - فِي أَحَدٍ قَوْلَيْهِ - إِلَى أَنَّ عُقُوبَتَهُ أَعْلَظُ مِنْ عُقُوبَةِ الرَّنَى، وَعُقُوبَتَهُ الْقَتْلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، مُحْسَنًا كَانَ أَوْ غَيْرُ مُحْسَنٍ.

وَذَهَبَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخْعَنِيُّ، وَقَتَادَةُ، وَالْأَوْزَاعِيُّ، وَالشَّافِعِيُّ - فِي ظَاهِرِ مَذْهِبِهِ -، وَالإِمَامُ أَحْمَدُ - فِي الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ عَنْهُ -، وَأَبُو يُوسُفَ، وَمُحَمَّدٌ: إِلَى أَنَّ عُقُوبَتَهُ وَعُقُوبَةَ الزَّانِي سَوَاءٌ. وَذَهَبَ الْحَاكِمُ وَأَبُو حَنِيفَةَ إِلَى أَنَّ عُقُوبَتَهُ دُونَ عُقُوبَةِ الزَّانِي، وَهِيَ التَّعْزِيرُ.

قَالُوا: لِأَنَّهُ مَعْصِيَةٌ مِنَ الْمَعَاصِي لَمْ يُقْدِرِ اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ - عَنْهُمَا - فِيهِ حَدًّا مُقَدَّرًا، فَكَانَ فِيهِ التَّعْزِيرُ، كَأَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخَنْزِيرِ.

قَالُوا: وَلِأَنَّهُ وَطْءٌ فِي مَحَلٍ لَا تَشْتَهِيهِ الطَّبَاعُ، بَلْ رَكَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّفَرَةِ مِنْهُ حَتَّى الْحَيَوَانُ الْبَهِيمُ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ حَدٌ كَوْطِءِ الْأَتَانِ وَغَيْرِهَا.

قَالُوا: وَلِأَنَّهُ لَا يُسَمَّى زَانِيَ لُغَةً وَلَا شَرْعًا وَلَا عُرْفًا، فَلَا يَدْخُلُ فِي النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى حَدِّ الزَّانِينَ.

قَالُوا: وَقَدْ رَأَيْنَا قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ، أَنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا كَانَ الْوَازْعُ عَنْهَا طَبِيعِيًّا اكْتُفِيَ بِذَلِكَ الْوَازِعِ مِنَ الْحَدِّ، وَإِذَا كَانَ فِي الطَّبَاعِ تَقَاضِيهَا، جُعِلَ فِي الْحَدِّ بِحَسْبِ اقْتِضَاءِ الطَّبَاعِ لَهَا، وَلِهَذَا جُعِلَ الْحَدُّ فِي الزَّنَى وَالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْمُسْكِرِ دُونَ أَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخَنْزِيرِ.

قَالُوا: وَطَرَدُ هَذَا، أَنَّهُ لَا حَدٌ فِي وَطْءِ الْبَهِيمَةِ وَلَا الْمَيْتَةِ، وَقَدْ جَبَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الطَّبَاعَ عَلَى النَّفَرَةِ مِنْ وَطْءِ الرَّجُلِ رَجُلًا مِثْلَهُ أَشَدَّ نَفَرَةً، كَمَا جَبَلَهَا عَلَى النَّفَرَةِ مِنْ اسْتِدْعَاءِ الرَّجُلِ مَنْ يَطُوَهُ بِخِلَافِ الزَّنَى، فَإِنَّ الدَّاعِيَ فِيهِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ.

قَالُوا: وَلَأَنَّ أَحَدَ النَّوْعَيْنِ إِذَا اسْتَمْتَعَ بِشَكْلِهِ لَمْ يَحِبْ عَلَيْهِ الْحَدُّ، كَمَا تَسَاحَقَتِ الْمَرْأَاتِنَ وَاسْتَمْتَعَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِالْأُخْرَى.

قَالَ أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ: وَهُوَ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ، وَحَكَاهُ عَيْرُ وَاحِدٍ إِجْمَاعًا لِلصَّحَابَةِ، لَيْسَ فِي الْمَعَاصِي أَعْظَمُ مَفْسَدَةً مِنْ هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ، وَهِيَ تَلِي مَفْسَدَةَ الْكُفْرِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ أَعْظَمَ مِنْ مَفْسَدَةِ الْقَتْلِ، كَمَا سَنَبَّيْنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قَالُوا: وَلَمْ يَبْتَلِ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْكَبِيرَةِ قَبْلَ قَوْمٍ لُوْطٍ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَعَاقَبَهُمْ عُقُوبَةً لَمْ يُعَاقِبْ بِهَا أَحَدًا غَيْرَهُمْ، وَجَمِيعَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ بَيْنَ الْإِهْلَاكِ، وَقَلْبِ دِيَارِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَالْحَسْفِ بِهِمْ، وَرَجْمِهِمْ بِالْحِجَارَةِ مِنَ السَّمَاءِ، فَنَكَلَ بِهِمْ نَكَالًا لَمْ يُنَكِّلْهُ أُمَّةٌ سِوَاهُمْ، وَذَلِكَ لِعَظِيمِ مَفْسَدَةِ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ الَّتِي تَكَادُ الْأَرْضُ تَمِيدُ مِنْ جَوَانِبِهَا إِذَا عُمِلَتْ عَلَيْهَا، وَتَهَرُّبُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِذَا شَاهَدُوهَا، خَشِيَّةً نُزُولِ الْعَذَابِ عَلَى أَهْلِهَا، فَيُصِيبُهُمْ مَعَهُمْ، وَتَعْجُبُ الْأَرْضُ إِلَى رَبِّهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَكَادُ الْجِبَالُ تَرْزُولُ عَنْ أَمَانِهَا، وَقَتْلُ الْمَفْعُولِ بِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ وَطَئِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا وَطَئَهُ قَتَلَهُ قَتْلًا لَا يُرْجِي الْحَيَاةُ مَعْهُ بِخِلَافِ قَتْلِهِ فَإِنَّهُ مَظْلُومٌ شَهِيدٌ، وَرُبَّمَا يَتَّفَقُ بِهِ فِي آخِرَتِهِ.

قَالُوا: وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَدَّ الْقَاتِلِ إِلَى خِيرَةِ الْوَلِيِّ، إِنْ شَاءَ قَتَلَ وَإِنْ شَاءَ عَفَا، وَحَتَّمَ قَتْلَ الْلُّوْطِيِّ حَدًّا، كَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ سُنْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الصَّرِيْحَةُ الَّتِي لَا مُعَارِضَ لَهَا، بَلْ عَلَيْهَا عَمَلٌ أَصْحَابِهِ وَحُلْفَائِهِ الرَّاشِدِينَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أَجْمَعِينَ -.

وَقَدْ ثَبَّتَ عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ: أَنَّهُ وَجَدَ فِي بَعْضِ ضَوَاحِي الْعَرَبِ رَجُلًا يُنْكُحُ كَمَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبِي بَكْرِ الصَّدِيقِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَاسْتَشَارَ أَبُو بَكْرَ الصَّدِيقَ الصَّحَابَةَ

## الدَّلَاءُ وَالدَّلَاءُ

– فَكَانَ عَلَيْيُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَشَدُهُمْ قَوْلًا فِيهِ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ هَذَا إِلَّا أُمَّةٌ مِنَ الْأَمَمِ وَاحِدَةٌ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلَ اللَّهُ بِهَا، أَرَى أَنْ يُحَرِّقَ بِالنَّارِ، فَكَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى خَالِدٍ فَحَرَقَهُ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: يُنْظَرُ أَعْلَى بَنَاءً فِي الْقُرْيَةِ، فَيُرْمَى اللُّوْطِيُّ مِنْهَا مُنْكَبًا، ثُمَّ يُتَبَعُ بِالْحِجَارَةِ.

وَأَحَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ هَذَا الْحَدَّ مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ قَوْمُ لُوطٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ الَّذِي رَوَى عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمٍ لُوطٍ، فَاقْتُلُوهُ الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ".

رَوَاهُ أَهْلُ السُّنْنَ وَصَحَّحَهُ أَبْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُ، وَاحْتَجَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ.

قَالُوا: وَبَئَتْ عَنْهُ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: "لَعَنَ اللَّهِ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمٍ لُوطٍ، لَعَنَ اللَّهِ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمٍ لُوطٍ، لَعَنَ اللَّهِ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمٍ لُوطٍ" وَلَمْ يَجِدْ عَنْهُ لَعْنَةُ الْرَّانِي ثَلَاثَ مَرَاتٍ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ لَعَنَ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ، فَلَمْ يَتَجَاوِزْ بِهِمْ فِي الْلَّعْنِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَكَرَرَ لَعْنَ الْلُّوْطِيَّةِ، وَأَكَدَهُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، وَأَطْبَقَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى قَتْلِهِ، لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ فِيهِ رَجُلًا، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي صَفَةِ قَتْلِهِ، فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ اخْتِلَافًا مِنْهُمْ فِي قَتْلِهِ، فَحَكَاهَا مَسْأَلَةً نِزَاعٍ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَهِيَ بَيْنُهُمْ مَسْأَلَةٌ إِجْمَاعٌ لَا مَسْأَلَةٌ نِزَاعٍ.

قَالُوا: وَمَنْ تَأْمَلَ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَلَا نَقْرِبُوا أَلْزِقَ إِنَّهُ كَانَ فَنِحْشَةً وَسَاءَ سَيْلًا ﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: 32].

وَقَوْلَهُ فِي اللَّوَاطِ: ﴿ أَكَلُونَ الْفَنِحْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَلَمَينَ ﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: 80].

تَبَيَّنَ لَهُ تَقَauُtُ مَا بَيْنَهُمَا، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَكْرُ الْفَاحِشَةِ فِي الزَّنِي، أَيْ هُوَ فَاحِشَةٌ مِنَ الْفَوَاحِشِ، وَعَرَّفَهَا فِي الْلَّوَاطِ، وَذَلِكَ يُفِيدُ أَنَّهُ جَامِعٌ لِمِعَانِي اسْمِ الْفَاحِشَةِ، كَمَا تَقُولُ: زَيْدُ الرَّجُلُ، وَنَعْمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ، أَيْ أَتَأْتُونَ الْخَصْلَةَ الَّتِي اسْتَقَرَ فُحْشُهَا عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ، فَهِيَ لِطَهُورِ فُحْشِهَا وَكَمَالِهِ غَيْيَةٌ عَنْ ذِكْرِهَا، بِحِيثُ لَا يَنْصَرِفُ الْاسْمُ إِلَى غَيْرِهَا، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى: ﴿وَقَعَلَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ [سُورَةُ الشُّعْرَاءِ: 19].

أَيِّ الْفَعْلَةِ الشَّنْعَاءِ الظَّاهِرَةِ الْمَعْلُومَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ.

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ شَأْنَ فُحْشِهَا بِأَنَّهَا لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ قَبْلَهُمْ، فَقَالَ: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، ثُمَّ زَادَ فِي التَّأْكِيدِ بِأَنَّ صَرَّحَ بِمَا تَشْمِئِزُ مِنْهُ الْقُلُوبُ، وَتَنْبُو عَنْهُ الْأَسْمَاعُ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ الْطَّبَاعُ أَشَدَّ نَفْرَةً، وَهُوَ إِتْيَانُ الرَّجُلِ رَجُلًا مِثْلَهُ يَنْكِحُهُ كَمَا يَنْكِحُ الْأُنْثَى، فَقَالَ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: 81].

ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى اسْتِغْنَائِهِمْ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْحَامِلَ لَهُمْ عَلَيْهِ لَيْسَ إِلَّا مُجَرَّدُ الشَّهْوَةِ لَا الْحَاجَةِ الَّتِي لَا جُلِّهَا مَالُ الذَّكْرِ إِلَى الْأُنْثَى، وَمِنْ قَضَاءِ الْوَطَرِ وَلَدَّةِ الْإِسْتِمْتَاعِ، وَحُصُولِ الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ الَّتِي تَنْسَى الْمَرْأَةُ لَهَا أَبْوَيْهَا، وَتَنْذِكُرُ بَعْلَهَا، وَحُصُولِ النَّسْلِ الَّذِي هُوَ حِفْظُ هَذَا النَّوْعِ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَتَحْصِينِ الْمَرْأَةِ وَقَضَاءِ وَطَرِهَا، وَحُصُولِ عَلَاقَةِ الْمُصَاهَرَةِ الَّتِي هِيَ أَنْتُ النَّسْبِ، وَقِيَامِ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ، وَخُرُوجِ أَحَبِّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ مِنْ جِمَاعِهِنَّ كَالْأَبْيَاءِ وَالْأُولَيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَمُكَاثَرَةِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْأَنْبِيَاءِ بِأُمَّتِهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ النِّكَاحِ، وَالْمَفْسَدَةِ الَّتِي فِي الْلَّوَاطِ تُقاوِمُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَتُرْبِي عَلَيْهِ بِمَا لَا يُمْكِنُ حَسْرُ فَسَادِهِ، وَلَا يَعْلَمُ تَفْصِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ.

ثُمَّ أَكَّدَ قِبَحَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْلُّوَطِيَّةَ عَكَسُوا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا الرِّجَالَ، وَقَلَّبُوا الطَّبِيعَةَ الَّتِي رَكَّبَهَا اللَّهُ فِي الذُّكُورِ، وَهِيَ شَهْوَةُ النِّسَاءِ دُونَ الذُّكُورِ، فَقَلَّبُوا الْأَمْرَ، وَعَكَسُوا

## الذَّلَّالُ وَالْأَلَّالُ

الْفِطْرَةَ وَالطَّبِيعَةَ فَأَتَوْا الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، وَلِهَذَا قَلَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ، فَجَعَلَ عَالِيَّهَا سَافِلَهَا، وَكَذَلِكَ قُلُوبُهُمْ، وَنُكَسُوا فِي الْعَذَابِ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. ثُمَّ أَكَدَ سُبْحَانَهُ فُبَحَ ذَلِكَ بِأَنْ حَكْمَ عَلَيْهِمْ بِالْإِسْرَافِ وَهُوَ مُجَاوِزُ الْحَدِّ، فَقَالَ: {بِلَّ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسَرِّفُونَ} [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: 81].

فَتَأَمَّلْ هَلْ جَاءَ مِثْلُ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبُ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ؟ وَأَكَدَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: {وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْجُنُبَاتِ} [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: 74].

ثُمَّ أَكَدَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمُ الذَّمَّ بِوَصْفَيْنِ فِي غَايَةِ الْقُبْحِ فَقَالَ: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوْعَرَ فَسِيقِينَ} [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: 74].

وَسَمَّاهُمْ مُفْسِدِينَ فِي قُولِ نَبِيِّهِمْ: {رَبِّ أَنْصَرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ} [سُورَةُ الْعَنكُبُوتِ: 30].

وَسَمَّاهُمْ ظَالِمِينَ فِي قُولِ الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ: {إِنَّا مُهَلِّكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرِيَّةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَلَمِينَ} [سُورَةُ الْعَنكُبُوتِ: 31].

فَتَأَمَّلْ مَنْ عُوَقَبَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْعَقُوبَاتِ، وَمَنْ ذَمَّهُ اللَّهُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَذَمَّاتِ، وَلَمَّا جَادَلَ فِيهِمْ خَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ الْمَلَائِكَةَ، وَقَدْ أَخْبَرُوهُ بِإِهْلَاكِهِمْ قِيلَ لَهُ: {يَأَبْرَاهِيمُ أَغْرِضْ عَنْ هَذِنَّ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ إِاتَّهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} [سُورَةُ هُودٍ: 76].

وَتَأَمَّلْ خُبْثَ الْلُّوْطِيَّةِ وَفَرْطَ تَمَرِّدِهِمْ عَلَى اللَّهِ حَيْثُ جَاءُوا بِهِمْ لُوْطًا لَمَّا سَمِعُوا بِأَنَّهُ قَدْ طَرَقَهُ أَصْيَافُهُمْ مِنْ أَحْسَنِ الْبَشَرِ صُورًَا، فَأَقْبَلَ الْلُّوْطِيَّةُ إِلَيْهِمْ يُهَرِّلُونَ، فَلَمَّا رَأَهُمْ قَالَ لَهُمْ: {يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ} [سُورَةُ هُودٍ: 78].

فَفَدَى أَصْيَافَهُ بِبَنَاتِهِ يُزَوِّجُهُمْ بِهِمْ حَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ وَأَصْيَافِهِ مِنَ الْعَارِ الشَّدِيدِ، فَقَالَ:  
 ﴿يَنَّقُومُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِهِ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُونَ فِي ضَيْفَنِ اللَّهِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [٧٨]، فَرَدُوا  
 عَلَيْهِ، وَلَكِنْ رَدَ جَبَارٍ عَنِيدٍ: ﴿لَقَدْ عِلِّمْتَ مَا تَنَاهَى فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَعَلَمَ مَا نَرِيدُ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ٧٩].

فَنَفَّثَ نَبِيُّ اللَّهِ مِنْهُ نَفْثَةً مَصْدُورٍ خَرَجَتْ مِنْ قَلْبٍ مَكْرُوبٍ، فَقَالَ: ﴿لَوْاَنَّ لِي إِكْمَلَةً  
 أَوْ إِاوِيَّةً إِلَى رَجْنَ شَدِيدٍ﴾ فَنَفَّسَ لَهُ رُسُلُ اللَّهِ عَنْ حَقِيقَةِ الْحَالِ، وَأَعْلَمُوهُ أَنَّهُمْ مِمَّنْ لَيُسُوا  
 يُوَصَّلُ إِلَيْهِمْ، وَلَا إِلَيْهِ بِسَبِيلِهِمْ، فَلَا تَخَفْ مِنْهُمْ، وَلَا تَعْبُأْ بِهِمْ، وَهَوْنٌ عَلَيْكَ، فَقَالُوا:  
 ﴿يَلْوُطُ إِنَّا رَسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُّوا إِلَيْكَ﴾ وَبَشَّرُوهُ بِمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْوَعْدِ لَهُ وَلَقُومُهُ مِنَ  
 الْوَعِيدِ الْمُصِيبِ فَقَالُوا: ﴿فَاسْرِ بِاهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْأَيْلَلِ وَلَا يَلْدِفْتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَأُنَّكَ  
 إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ يَقْرِيبُ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ٨١].

فَأَسْتَبَطَ نَبِيُّ اللَّهِ مَوْعِدَهَا لَكُمْ، وَقَالَ: أُرِيدُ أَعْجَلَ مِنْ هَذَا، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: ﴿أَلِّيسَ  
 الصُّبْحُ يَقْرِيبُ﴾ فَوَاللَّهِ مَا كَانَ بَيْنَ إِهْلَكِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَنَجَاهَةِ نَبِيِّهِ وَأَوْلَائِهِ إِلَّا مَا بَيْنَ السَّحَرِ  
 وَطُلُوعِ الْفَجْرِ، وَإِذَا بَدِيَارِهِمْ قَدِ اقْتُلَعْتِ مِنْ أَصْلِهَا، وَرُفِعَتْ نَحْوَ السَّمَاءِ حَتَّى سَمِعْتِ  
 الْمَلَائِكَةَ نُبَاخَ الْكِلَابِ وَنَهِيقَ الْحَمِيرِ، فَبَرَزَ الْمَرْسُومُ الَّذِي لَا يُرَدُّ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ الْجَلِيلِ،  
 إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ جِبْرِيلَ، بِأَنْ قَلْبَهَا عَلَيْهِمْ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ  
 قَائِلٍ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرَنَا جَعَلَنَا عَنِّيهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ﴾ [سُورَةُ هُودٍ:  
 ٨٢] فَجَعَلَهُمْ آيَةً لِلْعَالَمِينَ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ، وَنَكَالًا وَسَلْفًا لِمَنْ شَارَكُهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ مِنَ  
 الْمُجْرِمِينَ، وَجَعَلَ دِيَارَهُمْ بِطْرَيقَ السَّالِكِينَ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّنِ لِلْمُتَّوَسِّمِينَ﴾ [٧٥] وَإِنَّهَا لِسَبِيلِ  
 مُقْبِلٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ [سُورَةُ الْحِجْرِ: ٧٥ - ٧٧].

أَخَذَهُمْ عَلَى غَرَّهُ وَهُمْ نَائِمُونَ، وَجَاءَهُمْ بِأَسْهُ وَهُمْ فِي سَكْرٍ تِهِمْ يَعْمَهُونَ، فَمَا  
 أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَقُلِّبَتْ تِلْكَ اللَّذَّةُ آلَامًا، فَأَصْبَحُوهُوا بِهَا يُعذَّبُونَ.

مَآرِبُ گَائِثٍ فِي الْحَيَاةِ لِأَهْلِهَا  
عَذَابًا فَصَارَتِ الْمَمَاتِ عَذَابًا

ذَهَبَتِ الَّذَّاتُ وَأَعْقَبَتِ الْحَسَرَاتِ، وَانْقَضَتِ الشَّهَوَاتُ، وَأَوْرَثَتِ الشُّقَوَاتِ،  
وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا، وَعَدُّبُوا طَوِيلًا، رَتَّعُوا مَرْتَعًا وَخِيمًا فَأَعْقَبَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، أَسْكَرَتْهُمْ  
خَمْرَةُ تِلْكَ الشَّهَوَاتِ، فَمَا اسْتَفَاقُوا مِنْهَا إِلَّا فِي دِيَارِ الْمُعَذَّبِينَ، وَأَرْقَدَتْهُمْ تِلْكَ الْغَفَلَةُ،  
فَمَا اسْتَيْقَظُوا مِنْهَا إِلَّا وَهُمْ فِي مَنَازِلِ الْهَاكِينِ، فَنَدِمُوا وَاللَّهُ أَشَدَ النَّدَامَةِ حِينَ لَا يَنْفَعُ  
النَّدَمُ، وَبَكَوْا عَلَى مَا أَسْلَفُوهُ بَدَلَ الدُّمُوعِ بِالدَّمِ، فَلَوْ رَأَيْتَ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلَ مِنْ هَذِهِ  
الطَّائِفَةِ، وَالنَّارُ تَخْرُجُ مِنْ مَنَافِذِ وُجُوهِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ وَهُمْ بَيْنَ أَطْبَاقِ الْجَحِيمِ، وَهُمْ  
يَشْرَبُونَ بَدَلَ لِذِيذِ الشَّرَابِ كُثُرَسِ الْحَمِيمِ، وَيُقَالُ لَهُمْ وَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ يُسْحَبُونَ  
﴿أَصْلَوْهَا فَاصْرِرُوا أَوْ لَا تَصْرِرُوا سَوَاءٌ عَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سُورَةُ الطُّورِ: 16].

وَقَدْ قَرَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَسَافَةُ الْعَذَابِ بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَبَيْنَ إِخْرَانِهِمْ فِي الْعَمَلِ، فَقَالَ  
مُحَوْفًا لَهُمْ أَنْ يَقَعَ الْوَعِيدُ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: 83].

فِيَوْمِ مَعَادِ النَّاسِ إِنَّ لَكُمْ أَجْرًا  
فَإِنَّ لَكُمْ رَفَرًا إِلَى الْجَنَّةِ الْحَمْرَ  
وَقَالُوا إِلَيْنَا عَجِلُوا لَكُمُ الْبُشْرَى  
سَيِّجْمَعُنَا الْجَبَارُ فِي نَارِهِ الْكُبْرَى  
يَغِيْبُونَ عَنْكُمْ بَلْ تَرَوْنَهُمْ حَهْرًا  
وَيَسْقَى بِهِ الْمَخْرُونُ فِي الْكَرَّةِ الْأُخْرَى  
كَمَا اشْتَرَكَا فِي لَذَّةٍ ثُوْجُبُ الْوِزَرَ

فِيَا نَاكِحِي الْذُّكْرَانِ يَهْنِيْكُمُ الْبُشْرَى  
كُلُّوا وَاشْرَبُوا وَأَرْزُنُوا وَلُوْطُوا وَأَبْشِرُوا  
فِإِخْرَانُكُمْ قَدْ مَهَدُوا الدَّارَ قَبْلَكُمْ  
وَهَا نَحْنُ أَشْلَافُ لَكُمْ فِي انتِظَارِكُمْ  
وَلَا تَحْسِبُوا أَنَّ الَّذِينَ نَكْحَثُمُ  
وَيَلْعَنُ كُلُّا مِنْكُمَا بِخَلِيلِهِ  
يُعَذِّبُ كُلُّا مِنْهُمَا بِشَرِيكِهِ

\*\*\*

## [فصل عقوبة اللواط وعقوبة الرذى]

في الأرجوبة عمما احتاج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الرذى.

أما قولهم: إنها معصية لم يجعل الله فيه حدًا معيناً، فجوابه من وجوه:

أحدها: أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتماً، وما شرعه رسول الله -عليه السلام- فإنما شرعه عن الله، فإن أردتم أن حدتها غير معلوم بالشرع فهو باطل، وإن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لشبوته بالسنة.

الثاني: أن هذا ينتقض عليكم بالرجم، فإن إنما ثبت بالسنة.

إإن قلتم: بل ثبت بقرآن سخ لفظه وبقي حكمه.

فلننا: فینقض عليكم بحد شارب الخمر.

الثالث: أن نفي دليل معين لا يستلزم نفي مطلق الدليل ولا نفي المدلول، فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيموه غير متفق؟

وأما قولكم: إنه وطء لا تستهيه الطياع، بل ركب الله الطياع على النفرة منه، فهو كوطء المية والبهيمة، فجوابه من وجوه:

أحدها: أنه قياس فاسد الاعتبار، مردود بسنة رسول الله -عليه السلام- وإن جماع الصحابة كما تقدم بيانه.

الثاني: أن قياس وطء الأمر الجميل الذي فتنته تربو على كل فتنه، على وطء أتان أو امرأة مية من أفسد القياس، وهل يعدل ذلك أحد قط باتان أو بقرة أو مية، أو سبي ذلك عقل عاشق، أو أسر قلبه، أو استولى على فكره ونفسه؟ فليس في القياس أفسد من هذا.

الثالث: أنَّ هَذَا مُسْتَقْضٌ بِوَطْءِ الْأُمُّ وَالْبَنْتِ وَالْأُخْتِ، فَإِنَّ النَّفَرَةَ الطَّبِيعِيَّةَ عَنْهُ حَاصِلَةٌ مَعَ أَنَّ الْحَدَّ فِيهِ مِنْ أَغْلَظِ الْحُدُودِ - فِي أَحَدِ الْقُولَيْنِ - وَهُوَ الْقَتْلُ بِكُلِّ حَالٍ مُحْصَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ، وَهَذِهِ إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَهُوَ قَوْلٌ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهْوَيْهِ وَجَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ.

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاؤُدَ وَالْتَّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ "لَقِيْتُ عَمِّي وَمَعَهُ الرَّأْيَةَ، فَقُلْتُ: إِلَى أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ بَعْثَنِي رَسُولُ اللَّهِ - وَسَلَّمَ - إِلَى رَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةً أَبِيهِ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ أَضْرِبَ عُنْقَهُ وَأَخْذَ مَالَهُ.

"قَالَ الْتَّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِحٌ، قَالَ الْجَوْزِجَانِيُّ: عَمُ الْبَرَاءِ اسْمُهُ الْمَحَارِثُ بْنُ عَمْرِو. فِي سُنْنِ أَبِي دَاؤُدَ وَابْنِ مَاجَهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - وَسَلَّمَ -: مَنْ وَقَعَ عَلَى ذَاتِ مَحْرَمٍ فَاقْتُلُوهُ".

وَرُفِعَ إِلَى الْحَجَاجِ رَجُلٌ اغْتَصَبَ أُخْتَهُ عَلَى نَفْسِهَا، فَقَالَ: احْسِنُوهُ وَسَلُوا مَنْ هَا هُنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - وَسَلَّمَ -، فَسَأَلُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُطَرَّفٍ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - وَسَلَّمَ - يَقُولُ: "مَنْ تَخَطَّى حُرَمَ الْمُؤْمِنِينَ، فَخُطُوا وَسَطَهُ بِالسَّيْفِ".

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الْقَتْلِ بِالْتَّوْسِيطِ، وَهَذَا دَلِيلٌ مُسْتَقْلٌ فِي الْمَسَالَةِ، وَأَنَّ مَنْ لَا يُبَاخُ وَطُوْهُ بِحَالٍ فَحَدُّ وَطَبِّهُ الْقَتْلُ، دَلِيلُهُ: مَنْ وَقَعَ عَلَى أُمِّهِ أَوْ ابْنَتَهُ، وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي وَطْءِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ، وَوَطْءِ مَنْ لَا يُبَاخُ وَطُوْهُ بِحَالٍ، فَكَانَ حَدُّ الْقَتْلَ كَالْلُوْطِيِّ.

وَالْتَّحْقِيقُ: أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَى الْمَسَالَتَيْنِ بِالنَّصِّ، وَالْقِيَاسُ يَشْهُدُ لِصِحَّةِ كُلِّ مِنْهُمَا، وَقَدْ اتَّقَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ زَنَى بِذَاتِ مَحْرَمٍ فَعَلَيْهِ الْحَدُّ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي صِفَةِ الْحَدِّ، هُلْ هُوَ الْقَتْلُ بِكُلِّ حَالٍ، أَوْ حَدُّهُ حَدُّ الزَّانِي، عَلَى قَوْلَيْنِ:

فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَمَالِكُ وَأَحْمَدُ - فِي إِحْدَى رِوَايَتَيْهِ - أَنَّ حَدَّهُ حَدُّ الزَّانِي .  
وَذَهَبَ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ وَجَمَاعَةُ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِلَى: أَنَّ حَدَّهُ الْقَتْلُ بِكُلِّ حَالٍ .  
وَكَذَلِكَ اتَّقَوْا كُلُّهُمْ عَلَى اللَّهِ لَوْ أَصَابَهَا بِاسْمِ النَّكَاحِ عَالِمًا بِالْتَّحْرِيمِ اللَّهُ يُحِدُّ، إِلَّا  
أَبَا حَنِيفَةَ وَحْدَهُ، فَإِنَّهُ رَأَى ذَلِكَ شُبْهَةً مُسْقَطَةً لِلْحَدِّ .  
وَمُنَازِعُهُ يَقُولُونَ: إِذَا أَصَابَهَا بِاسْمِ النَّكَاحِ فَقَدْ رَادَ الْجَرِيمَةَ غِلَظًا وَشَدَّةً، فَإِنَّهُ  
اَرْتَكَبَ مَحْذُورَيْنِ عَظِيمَيْنِ: مَحْذُورَ الْعَقْدِ، وَمَحْذُورَ الْوَطْءِ، فَكَيْفَ تُخَفَّفُ عَنْهُ  
الْعُقُوبَةُ بِضَمِّ مَحْذُورِ الزَّنَنِ؟  
وَأَمَّا وَطْءُ الْمَيْتَةِ فَفِيهِ قَوْلَانِ لِلْفُقَهَاءِ، وَهُمَا فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ .  
أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَحِبُّ بِهِ الْحَدِّ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَوْزَاعِيِّ، فَإِنَّ فِعْلَهُ أَعْظَمُ جُرْمًا وَأَكْبَرُ ذَنْبًا  
أَنْضَمَ إِلَى فَاحِشَتِهِ هَتْكُ حُرْمَةِ الْمَيْتَةِ .

\*\*\*

### [فَصْلُ وَاطِئِ الْبَهِيمَةِ]

وَأَمَّا وَاطِئِ الْبَهِيمَةِ فَلِلْفُقَهَاءِ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:  
أَحَدُهَا: أَنَّهُ يُؤَدَّبُ، وَلَا حَدَّ عَلَيْهِ، وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ فِي أَحَدِ  
قَوْلَيْهِ، وَهُوَ قَوْلُ إِسْحَاقَ.  
وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ الزَّانِي، يُجْلَدُ إِنْ كَانَ بُكْرًا، وَيُرْجَمُ إِنْ كَانَ مُحْصَنًا،  
وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ .

## اللَّوَاطِ وَالسَّحَاقِ

وَالْقَوْلُ التَّالِثُ: أَنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ الْلُّوَطِيِّ، نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ، فَيُخْرُجُ عَلَى الرِّوَايَتَيْنِ فِي حَدِّهِ، هَلْ هُوَ الْقَتْلُ حَتَّمًا أَوْ هُوَ كَالْزَانِي؟

وَالَّذِينَ قَالُوا: "حَدُّهُ الْقَتْلُ" احْتَجُوا بِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاؤِدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -: "مَنْ أَتَى بِهِمَةً فَاقْتُلُوهُ، وَاقْتُلُوهَا مَعَهُ".

قَالُوا: وَلَا إِنَّهُ وَطْءٌ لَا يُبَاخُ بِحَالٍ؛ فَكَانَ فِيهِ الْقَتْلُ كَحَدِّ الْلُّوَطِيِّ.

وَمَنْ لَمْ يَرَ حَدًّا قَالُوا: لَمْ يَصْحَّ فِيهِ الْحَدِيثُ، وَلَمْ يَصْحَّ لَقْلُنَا بِهِ، وَلَمْ يَحْلِّ لَنَا مُخَالَفَتُهُ.

قَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ سَعِيدِ الشَّالْنَجِيُّ: سَأَلْتُ أَحْمَدَ عَنِ الَّذِي يَأْتِي الْبَهِيمَةَ، فَوَقَفَ عِنْدَهَا، وَلَمْ يَثْبُتْ حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو فِي ذَلِكَ.

وَقَالَ الطَّحَّاوِيُّ: الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ، وَأَيْضًا فَرَأَوْيَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَدْ أَفْتَى بِأَنَّهُ لَا حَدَّ عَلَيْهِ، قَالَ أَبُو دَاؤِدَ: وَهَذَا يُضَعِّفُ الْحَدِيثَ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الزَّاجِرَ الطَّبَعِيَّ عَنِ إِتْيَانِ الْبَهِيمَةِ أَقْوَى مِنَ الزَّاجِرِ الطَّبَعِيِّ عَنِ التَّلُوُّطِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ أَنَّهُمَا فِي طِبَاعِ النَّاسِ سَوَاءُ، فَإِلَّا حَاقَ أَحَدُهُمَا بِالْأَخْرِ مِنْ أَفْسَدِ الْقِيَاسِ كَمَا تَقَدَّمَ.

\*\*\*

## [فَصْلُ الْلَّوَاطِ وَالسَّحَاقِ]

وَأَمَّا قِيَاسُكُمْ وَطَءَ الرَّجَالِ لِمِثْلِهِ عَلَى تَدَالِكِ الْمَرَاتِينِ، فَمِنْ أَفْسَدِ الْقِيَاسِ، إِذَا إِلَاجَ هُنَاكَ، وَإِنَّمَا نَظِيرُهُ مُبَاشِرَةُ الرَّجُلِ الرَّجُلَ مِنْ غَيْرِ إِلَاجٍ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ الْمَرْفُوعَةِ: "إِذَا أَتَتِ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ فَهُمَا زَانِيَتَانِ" وَلَكِنْ لَا يَجِدُ الْحَدُّ بِذَلِكَ، لِعَدَمِ الْإِلَاجِ، وَإِنْ أَطْلَقَ عَلَيْهِمَا اسْمُ الزَّنِي الْعَامُ، كَزِنَى الْعَيْنِ وَالْيَدِ وَالرَّجْلِ وَالْفَمِ.

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا: فَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ حُكْمَ التَّلُوْطِ مَعَ الْمَمْلُوكِ كَحُكْمِهِ مَعَ غَيْرِهِ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ تَلُوْطَ الْإِنْسَانِ بِمَمْلُوكِهِ جَائِزٌ، وَاحْتَجَ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عَلَّ أَرْزَقَهُمْ أَوْ مَا مَلَكُتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلَوْمِينَ﴾ [سُورَةُ الْمَعَارِجِ: 30].

وَقَاسَ ذَلِكَ عَلَى أَمْتِهِ الْمَمْلُوكَةِ فَهُوَ كَافِرٌ، يُسْتَابُ كَمَا يُسْتَابُ الْمُرْتَدُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا ضَرِبَتْ عُقُودُهُ، وَتَلُوْطَ الْإِنْسَانِ بِمَمْلُوكِهِ كَتَلُوْطِهِ بِمَمْلُوكِ غَيْرِهِ فِي الْإِثْمِ وَالْحُكْمِ.

\*\*\*

## [فصل دواء اللواط]

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ مَعَ هَذَا كُلُّهُ دَوَاءُ لِهَذَا الدَّاءِ الْعُضَالِ؟ وَرُقْيَةُ لِهَذَا السُّحْرِ الْقَتَّالِ؟ وَمَا الْإِحْتِيَالُ لِدَفْعِ هَذَا الْخَبَالِ؟ وَهَلْ مِنْ طَرِيقٍ قَاصِدٍ إِلَى التَّوْفِيقِ؟ وَهَلْ يُمْكِنُ السَّكْرَانَ بِخَمْرِ الْهَوَى أَنْ يُفْعِقَ؟ وَهَلْ يَمْلِكُ الْعَاشُقُ قُلْبَهُ وَالْعِشْقُ قَدْ وَصَلَ إِلَى سُوَيْدَائِهِ؟ وَهَلْ لِلْطَّيِّبِ بَعْدَ ذَلِكَ حِيلَةٌ فِي بُرْئِهِ مِنْ سُوَيْدَائِهِ؟ وَإِنْ لَأَمِّهُ الْتَّدِ بِمَلَامِهِ ذِكْرًا لِمَحْبُوبِهِ، وَإِنْ عَذَّلَهُ عَادِلٌ أَغْرَاهُ عَذْلُهُ، وَسَارَ بِهِ فِي طَرِيقِ مَطْلُوبِهِ، يُنَادِي عَلَيْهِ شَاهِدٌ حَالِهِ بِلِسَانِ مَقَالِهِ:

لِي مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدِّمٌ	وَقَفَ الْهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ
مَا مَنْ يَهُونُ عَلَيْكِ مَمَنْ يُكَرِّمُ	وَأَهَنْتِي فَأَهَنْتُ نَفْسِي جَاهِدًا
إِذْ كَانَ حَظِّي مِنْكِ حَظِّي مِنْهُمْ	أَشَبَّهْتُ أَغَدَائِي فَصِرْتُ أُحَبِّهُمْ
حُبًا لِذِكْرِكِ فَلِيُلْمَنِي اللُّؤْمُ	أَحِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَالِ لَذِيَّدَةً
وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِالسُّؤَالِ الْأَوَّلِ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ الْإِسْتِفَتَاءُ، وَالدَّاءُ الَّذِي	طَلَبَ لَهُ الدَّوَاءَ.

قِيلَ: نَعَمْ، الْجَوَابُ مِنْ رَأْسِ: "مَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ دَاءٍ إِلَّا جَعَلَ لَهُ دَوَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهَلَهُ مَنْ جَهَلَهُ".

وَالْكَلَامُ فِي دَاءٍ دَاءٍ تَعَلَّقُ الْقَلْبُ بِالْمَحَبَّةِ الْهَوَائِيَّةِ مِنْ طَرِيقَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: حَسْمُ مَادَّتِهِ قَبْلَ حُصُولِهَا.

وَالثَّانِي: قَلْعُهَا بَعْدَ نُزُولِهِ، وَكِلَّاهُمَا يَسِيرُ عَلَى مَنْ يَسِّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمُتَعَذِّرٌ عَلَى مَنْ لَمْ يُعِنْهُ اللَّهُ، فَإِنَّ أَزِمَّةَ الْأُمُورِ يَبْدِيهِ.

فَأَمَّا الطَّرِيقُ الْمَانِعُ مِنْ حُصُولِ هَذَا الدَّاءِ، فَأَمْرَانِ:

### مَنَافِعُ غَضْبِ الْبَصَرِ

غَضْبُ الْبَصَرِ كَمَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ النَّظَرَةَ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ، وَمَنْ أَطْلَقَ لَحَظَاتِهِ دَامَتْ حَسَرَاتُهُ، وَفِي غَضْبِ الْبَصَرِ عِدَّةُ مَنَافِعَ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ امْتِشَالٌ لِأَمْرِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، فَلَيْسَ لِالْعَبْدِ فِي دُنْيَا وَآخِرَتِهِ أَنْفُعٌ مِنْ امْتِشَالٍ أَوْ أَمْرِهِ، وَمَا شَقِّيَ مَنْ شَقِّيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِتَضْسِيعِ أَوْ أَمْرِهِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَمْنَعُ مِنْ وُصُولِ أَثَرِ السَّهْمِ الْمَسْمُومِ - الَّذِي لَعَلَّ فِيهِ هَلَاكَهُ - إِلَى قَلْبِهِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يُورِثُ الْقَلْبَ أُنْسًا بِاللَّهِ وَجَمْعِيَّةَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ إِطْلَاقَ الْبَصَرِ يُفَرِّقُ الْقَلْبَ وَيُشَتِّتُهُ، وَيَبْعِدُهُ عَنِ اللَّهِ، وَلَيْسَ عَلَى الْقَلْبِ شَيْءٌ أَضَرُّ مِنْ إِطْلَاقِ الْبَصَرِ، فَإِنَّهُ يُورِثُ الْوَحْشَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يُقْوِيُ الْقَلْبَ وَيُفْرِحُهُ، كَمَا أَنَّ إِطْلَاقَ الْبَصَرِ يُضْعِفُهُ وَيُحْزِنُهُ.

## الْدَّاءُ وَالدَّاءُ

الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ يُكْسِبُ الْقُلُبَ نُورًا، كَمَا أَنَّ إِطْلَاقَهُ يُلْبِسُهُ ظُلْمًا، وَلِهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ آيَةَ النُّورِ عُقِيْبَ الْأَمْرِ بِغَضْبِ الْبَصَرِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْشُوُا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [سُورَةُ النُّورِ: 30].

ثُمَّ قَالَ إِثْرَ ذَلِكَ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَيْشَكُورٌ فِيهَا مِصَابِحٌ﴾ [سُورَةُ النُّورِ: 35].

أَيْ مَثْلُ نُورِهِ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي امْتَلَأَ أَوْ امْرَهُ وَاجْتَنَبَ نَوَاهِيَهُ، وَإِذَا اسْتَنَارَ الْقُلُبُ أَقْبَلَتْ وُفُودُ الْخَيْرَاتِ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، كَمَا أَنَّهُ إِذَا أَظْلَمَ أَقْبَلَتْ سَحَابَاتُ الْبَلَاءِ وَالشَّرِّ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَمَا سِئَتْ مِنْ بَدْعٍ وَضَلَالَةٍ، وَاتِّبَاعٌ هَوَّى، وَاجْتِنَابٌ هُدَى، وَإِغْرَاصٌ عَنْ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ، وَاشْتِغَالٌ بِأَسْبَابِ الشَّقَاوَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكْسِفُهُ لَهُ النُّورُ الَّذِي فِي الْقُلُبِ، فَإِذَا نَفَدَ ذَلِكَ النُّورُ بَقَى صَاحِبُهُ كَالْأَعْمَى الَّذِي يَجُوسُ فِي حَنَادِسِ الظَّلَامِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يُورِثُ فِرَاسَةً صَادِقَةً يُمْيِزُ بَهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ، وَكَانَ شُجَاعُ الْكِرْمَانِيُّ يَقُولُ: مَنْ عَمَرَ ظَاهِرَهُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَبَاطِنَهُ بِدَوَامِ الْمُرَاقَبَةِ، وَغَضَّ بَصَرَهُ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الشُّبُهَاتِ، وَاعْتَدَى بِالْحَلَالِ، لَمْ تُخْطِئْ لَهُ فِرَاسَةً وَكَانَ شُجَاعًا لَا تُخْطِئْ لَهُ فِرَاسَةً.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَجْزِي الْعَبْدَ عَلَى عَمَلِهِ بِمَا هُوَ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ لِلَّهِ شَيْئًا عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ، فَإِذَا غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، عَوَّضَهُ اللَّهُ بِأَنْ يُطْلِقَ نُورَ بَصِيرَتِهِ، عِوَضًا عَنْ حَبْسِ بَصَرِهِ لِلَّهِ، وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ بَابَ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ، وَالْمَعْرِفَةِ وَالْفِرَاسَةِ الصَّادِقَةِ الْمُصِبِّيَةِ الَّتِي إِنَّمَا تُنَالُ بِبَصِيرَةٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَمْرَكَ إِنَّهُمْ لِفِي سَكْرِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سُورَةُ الْحِجْرِ: 27].

## اللَّدُاعُ وَاللَّوَاعُ

فَوَصَفَهُمْ بِالسَّكْرَةِ الَّتِي هِيَ فَسَادُ الْعُقْلِ، وَالْعَمَّهُ الَّذِي هُوَ فَسَادُ الْبَصِيرَةِ، فَالْتَّعْلُقُ  
بِالصُّورِ يُوجِبُ فَسَادَ الْعُقْلِ، وَعَمَّةَ الْبَصِيرَةِ، وَسُكْرَ الْقُلُوبِ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

سُكْرَانُ سُكْرُ هَوَىٰ وَسُكْرُ مُدَامَةٍ ٰ وَمَمَّىٰ إِفَاقَةٌ مَمْنَ بِهِ سُكْرَانٌ

وَقَالَ الْآخَرُ:

قَالُوا جُنِّتَ بِمَنْ تَهَوَىٰ فَقُلْتُ لَهُمْ  
الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينَ  
وَإِنَّمَا يُضْرِعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحَيْنِ

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يُورِثُ الْقُلُوبَ ثَبَاتًا وَشَجَاعَةً وَقُوَّةً، فَجَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ سُلْطَانِ النُّصْرَةِ  
وَالْحُجَّةِ، وَسُلْطَانِ الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ، كَمَا فِي الْأَثْرِ: الَّذِي يُخَالِفُ هَوَاهُ، يَفْرُّ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ.

وَضِدُّ هَذَا تَجِدُ فِي الْمُتَّبَعِ لِهَوَاهُ - مِنْ ذُلِّ النَّفْسِ وَوَضَاعَتِهَا وَمَهَانَتِهَا وَخَسِّنَتِهَا  
وَحَقَّارَتِهَا - مَا جَعَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِيمَنْ حَصَاهُ.

كَمَا قَالَ الْحَسَنُ: "إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقْطَقْتُ بِهِمُ الْبِيَالُ، وَهَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَادِينُ، إِنْ ذُلَّ  
الْمَعْصِيَةِ فِي رِقَابِهِمْ، أَبَى اللَّهِ إِلَّا أَنْ يُذْلِّ مَنْ عَصَاهُ".

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْعِزَّزَ قَرِينَ طَاعَتِهِ، وَالذُّلُّ قَرِينَ مَعْصِيَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَلَّهِ  
الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ: 8].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ أَلَّا عَلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمَرَانَ: 139].  
وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلَلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا  
إِلَيْهِ يَصْدُعُ الْكَلِمُ الْطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يُرَفَعُ﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ: 10].

أَيْ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلَيُطْلُبُهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ مِنَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَفِي دُعَاءِ الْقُنُوتِ: "إِنَّهُ لَا يَذَلُّ مَنْ وَالْيَتْ، وَلَا يَعْزُّ مَنْ عَادَيْتَ" وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَقَدْ وَالْأَهُ فِيمَا أَطَاعَهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنَ الْعِزِّ بِحَسَبِ طَاعَتِهِ، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَادَهُ فِيمَا عَصَاهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنَ الذُّلِّ بِحَسَبِ مَعْصِيَتِهِ.

الثَّامِنُ: أَنَّهُ يُسَدِّلُ عَلَى الشَّيْطَانِ مَدْخَلُهُ مِنَ الْقَلْبِ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ مَعَ النَّظَرِ وَيَنْفَذُ مَعَهَا إِلَى الْقَلْبِ أَسْرَعَ مِنْ نُفُوذِ الْهَوَاءِ فِي الْمَكَانِ الْخَالِيِّ، فَيُمَثِّلُ لَهُ صُورَةً الْمُنْظُورِ إِلَيْهِ وَيَزِّينُهَا، وَيَجْعَلُهَا صَنَمًا يَعْكُفُ عَلَيْهِ الْقَلْبُ ثُمَّ يَعْدُهُ وَيَمْنِيَهُ، وَيُوَقِّدُ عَلَى الْقَلْبِ نَارَ الشَّهْوَةِ، وَيُلْقِي عَلَيْهَا حَطَبَ الْمَعَاصِي الَّتِي لَمْ يَكُنْ يُتَوَصَّلُ إِلَيْهَا بِدُونِ تِلْكَ الصُّورَةِ، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ فِي اللَّهَبِ.

فَمِنْ ذَلِكَ اللَّهَبِ تِلْكَ الْأَنْفَاسُ الَّتِي يَجِدُ فِيهَا وَهَجَ النَّارِ، وَتِلْكَ الزَّرَفَاتُ وَالْحَرَقَاتُ، فَإِنَّ الْقَلْبَ قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ النَّيْرَانُ بِكُلِّ جَانِبٍ، فَهُوَ فِي وَسْطِهَا كَالشَّاشَةِ فِي وَسْطِ التَّنُورِ، وَلَهَذَا كَانَتْ عُقُوبَةً أَصْحَابِ الشَّهَوَاتِ لِلصُّورِ الْمُحَرَّمَةِ: أَنْ جُعِلَ لَهُمْ فِي الْبَرِّ رَخْ تَنُورٌ مِنَ النَّارِ، وَأُوْدِعُتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي إِلَى يَوْمِ حَسْرٍ أَجْسَادِهِمْ، كَمَا أَرَاهَا اللَّهُ لِنَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْمَنَامِ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَرِّبِ عَلَى صِحَّتِهِ.

الثَّاسِعَةُ: أَنَّهُ يُفْرَغُ الْقَلْبَ لِلْفِكْرَةِ فِي مَصَالِحِهِ وَالْأَشْتِغَالِ بِهَا، وَإِطْلَاقُ الْبَصَرِ يُنْسِيهِ ذَلِكَ وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَيَنْفِرِطُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَيَقْعُدُ فِي اتِّبَاعِ هَوَاهُ وَفِي الْغَفَلَةِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُنْطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ، قُرُطًا﴾

[سُورَةُ الْكَهْفِ: 28].

وَإِطْلَاقُ النَّظَرِ يُوجِبُ هَذِهِ الْأُمُورَ الْثَّالِثَةِ بِحَسَبِهِ.

العاشرة: أَنَّ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ مَنْفَدًا وَطَرِيقًا يُوجِبُ اتِّقَالَ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، وَأَنْ يَصْلُحَ بِصَالِحِهِ، وَيَفْسُدَ بِفَسَادِهِ، فَإِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ؛ فَسَدَ النَّظَرُ، وَإِذَا فَسَدَ النَّظَرُ؛ فَسَدَ الْقَلْبُ، وَكَذَلِكَ فِي جَانِبِ الصَّالِحِ، فَإِذَا خَرَبَتِ الْعَيْنُ وَفَسَدَتْ؛ خَرَبَ الْقَلْبُ وَفَسَدَ، وَصَارَ كَالْمَزْبَلَةِ الَّتِي هِيَ مَحَلُ النَّجَاسَاتِ وَالْقَادُورَاتِ وَالْأَوْسَاخِ، فَلَا يَصْلُحُ لِسُكُنَّ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحِبَّتِهِ وَالْإِنْبَاتِ إِلَيْهِ، وَالْأَنْسِ بِهِ وَالسُّرُورِ بِقُرْبِهِ فِيهِ، وَإِنَّمَا يَسْكُنُ فِيهِ أَصْدَادُ ذَلِكَ.

فَهَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى بَعْضِ فَوَائِدِ غَضْبِ الْبَصَرِ نُطْلِعُكَ عَلَى مَا وَرَاءَهَا:

### مَنْعُ تَعْلُقِ الْقُلُوبِ

الطَّرِيقُ الثَّانِي الْمَانِعُ مِنْ حُصُولِ تَعْلُقِ الْقُلُوبِ: اسْتِغَالُ الْقَلْبِ بِمَا يَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُقُوعِ فِيهِ، وَهُوَ إِمَّا خَوْفٌ مُقْلِقٌ أَوْ حُبٌّ مُزْعِجٌ، فَمَتَّ خَلَا الْقَلْبُ مِنْ خَوْفِ مَا فَوَّاتُهُ أَصْرُ عَلَيْهِ مِنْ حُصُولِ هَذَا الْمَحْبُوبِ، أَوْ خَوْفِ مَا حُصُولُهُ أَصْرُ عَلَيْهِ مِنْ فَوَاتِ هَذَا الْمَحْبُوبِ، أَوْ مَحِبَّتِهِ مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ وَخَيْرُهُ مِنْ هَذَا الْمَحْبُوبِ، وَفَوَّاتُهُ أَصْرُ عَلَيْهِ مِنْ فَوَاتِ هَذَا الْمَحْبُوبِ، لَمْ يَجِدْ بُدُّا مِنْ عِشْقِ الصُّورِ.

وَشَرُّ هَذَا: أَنَّ النَّفَسَ لَا تَتْرُكُ مَحْبُوبًا إِلَّا لِمَحْبُوبٍ أَعْلَى مِنْهُ، أَوْ خَشْيَةَ مَكْرُوهٍ حُصُولُهُ أَصْرُ عَلَيْهِ مِنْ فَوَاتِ هَذَا الْمَحْبُوبِ، وَهَذَا يَحْتَاجُ صَاحِبُهُ إِلَى أَمْرَيْنِ إِنْ فَقَدَهُمَا أَوْ أَحَدَهُمَا لَمْ يَنْتَفِعْ بِنَفْسِهِ.

أَحَدُهُمَا: بَصِيرَةٌ صَحِيحَةٌ يَفْرَقُ بِهَا بَيْنَ دَرَجَاتِ الْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ، فَيُؤْثِرُ أَعْلَى الْمَحْبُوبِينَ عَلَى أَدْنَاهُمَا، وَيَحْتَمِلُ أَدْنَى الْمَكْرُوهِينَ لِيَخْلُصَ مِنْ أَعْلَاهُمَا، وَهَذَا خَاصَّةُ الْعَقْلِ، وَلَا يُعَدُّ عَاقِلًا مَنْ كَانَ بِيَصْدِ ذَلِكَ، بَلْ قَدْ تَكُونُ الْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ.

الثاني: قُوَّةُ عَزْمٍ وَصَبْرٍ يَمْكُنُ بِهِ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ وَالْتَّرَكِ، فَكَثِيرًا مَا يَعْرُفُ الرَّجُلُ قُدْرَ التَّفَاوُتِ، وَلَكِنْ يَأْبَى لَهُ ضَعْفُ نَفْسِهِ وَهَمَّتِهِ وَعَزِيمَتِهِ عَلَى أَشْيَاءَ لَا يَتَنَعَّمُ مِنْ خِسْتِهِ وَحِرْصِهِ وَوَضَاعَةِ نَفْسِهِ وَخِسْسَةِ هِمَّتِهِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَتَنَعَّمُ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَتَنَعَّمُ بِهِ غَيْرُهُ، وَقَدْ مَنَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِمَامَةَ الدِّينِ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، فَقَالَ تَعَالَى، وَبِقَوْلِهِ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ مِنْهُمْ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا يَأْتِنَا بِوْقُنُونَ ﴾ [سُورَةُ السَّجْدَةِ: 24].

وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَتَنَعَّمُ بِعِلْمِهِ، وَيَتَنَعَّمُ بِهِ النَّاسُ، وَضِدُّهُ لَا يَتَنَعَّمُ بِهِ غَيْرُهُ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَنَعَّمُ بِعِلْمِهِ فِي نَفْسِهِ وَلَا يَتَنَعَّمُ بِهِ غَيْرُهُ، فَالْأَوَّلُ يَمْشِي فِي نُورِهِ وَيَمْشِي النَّاسُ فِي نُورِهِ، وَالثَّانِي قَدْ طُفِيَ نُورُهُ، فَهُوَ يَمْشِي فِي الظُّلُمَاتِ وَمَنْ تَبَعَهُ فِي ظُلْمَتِهِ، وَالثَّالِثُ يَمْشِي فِي نُورِهِ وَحْدَهُ.

\* \* \*

## [فَصْلُ تَوْحِيدِ الْمَحْبُوبِ]

إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْمُقْدَمَةَ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَ فِي الْقَلْبِ حُبُّ الْمَحْبُوبِ الْأَعْلَى وَعِشْقُ الصُّورِ أَبْدًا، بَلْ هُمَا مِضَدَّانِ لَا يَتَلَاقِيَانِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَمَنْ كَانَتْ قُوَّةُ حُبِّهِ كُلُّهَا لِلْمَحْبُوبِ الْأَعْلَى الَّذِي مَحَبَّهُ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةً وَعَذَابٌ عَلَى صَاحِبِهَا صَرَفَهُ ذَلِكَ عَنْ مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ، وَإِنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُحِبَّهُ إِلَّا لِأَجْلِهِ، أَوْ لِكَوْنِهِ وَسِيلَةً إِلَى مَحَبَّتِهِ، أَوْ قَاطِعًا لَهُ عَمَّا يُضَادُ مَحَبَّتَهُ وَيُنْقِصُّهَا، وَالْمَحَبَّةُ الصَّادِقَةُ تَقْتَضِي تَوْحِيدَ الْمَحْبُوبِ، وَأَنْ لَا يُشْرِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي مَحَبَّتِهِ، وَإِذَا كَانَ الْمَحْبُوبُ مِنَ الْخَلْقِ يَأْنُفُ وَيَغَارُ أَنْ يُشْرِكَ مَعَهُ مَحَبَّةً غَيْرِهِ فِي مَحَبَّتِهِ، وَيَمْقُتُهُ لِذَلِكَ، وَيُبَعِّدُهُ لَا يُحْظِي بِقُرْبِهِ، وَيَعْدُهُ كَادِبًا فِي

دَعْوَى مَحَبَّتِهِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ أَهْلًا لِصَرْفِ كُلِّ قُوَّةِ الْمَحَبَّةِ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ بِالْحَيْبِ الْأَعْلَى  
الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْمَحَبَّةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَكُلُّ مَحَبَّةٍ لِغَيْرِهِ فَهِيَ عَذَابٌ عَلَى صَاحِبِهَا وَوَبَالٌ؟  
وَلَهُذَا لَا يَغْفِرُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ فِي هَذِهِ الْمَحَبَّةِ، وَيَغْفِرَ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.  
فَمَحَبَّةُ الصُّورِ تَفُوتُ مَحَبَّةَ مَا هُوَ أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ، بَلْ تَفُوتُ مَحَبَّةَ مَا لَيْسَ لَهُ صَلَاحٌ وَلَا  
نَعِيمٌ، وَلَا حَيَاةً نَافِعَةً إِلَّا بِمَحَبَّتِهِ وَحْدَهُ، فَلَيَخْتُرْ إِحْدَى الْمَحَبَّتَيْنِ فَإِنَّهُمَا لَا يَجْتَمِعَا نَفْعًا فِي  
الْقَلْبِ وَلَا يَرْتَقِعَا نِعْمَةً، بَلْ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ، ابْتَلَاهُ بِمَحَبَّةِ  
غَيْرِهِ؛ فَيُعَذِّبُهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَفِي الْبَرْزَخِ وَفِي الْآخِرَةِ، فَإِنَّمَا أَنْ يُعَذِّبَهُ بِمَحَبَّةِ الْأَوْثَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ  
الصُّلْبَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ الْمُرْدَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ النِّسَوانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ الْعُشَرَاءِ وَالْإِخْوَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ مَا  
دُونُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ فِي غَيَاةِ الْحَقَارَةِ وَالْهُوَانِ، فَالإِنْسَانُ عَبْدٌ مَحْبُوبٌ بِهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ، كَمَا قِيلَ:

أَتَ الْقَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبَتْهُ فَأَخْتَرْ لِتَفْسِيكَ فِي الْهُوَى مَنْ تَصْطَفِي

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَهُهُ مَا لِكُهُ وَمَوْلَاهُ، كَانَ إِلَهُهُ هَوَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَنْخَذَ إِلَهَهُ  
هَوَاهُ وَأَضَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ  
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سُورَةُ الْجَاثِيَّةِ: 23].

\*\*\*

### [فَصَلُّ خَاصِيَّةُ التَّعْبُدِ]

وَخَاصِيَّةُ التَّعْبُدِ: الْحُبُّ مَعَ الْخُضُوعِ، وَالذُّلُّ لِلْمَحْبُوبِ، فَمَنْ أَحَبَّ مَحْبُوبًا  
وَخَضَعَ لَهُ فَقَدْ تَعَبَّدَ قَلْبُهُ لَهُ، بَلِ التَّعْبُدُ آخِرُ مَرَاتِبِ الْحُبِّ، وَيُقَالُ لَهُ التَّسْتِيمُ أَيْضًا، فَإِنَّ  
أَوَّلَ مَرَاتِبِهِ الْعَلَاقَةُ، وَسُمِّيَتْ عَلَاقَةُ لِتَعْلُقِ الْمُحِبِّ بِالْمَحْبُوبِ.  
قَالَ الشَّاعِرُ:

وَعُلِّقْتُ لَيْلَى وَهُيَ ذَاتُ تَمَائِيمٍ وَلَمْ يَئِدْ لِلأَتْرَابِ مِنْ ثَدِيهَا حَجْمٌ

وَقَالَ الْأَخْرُ:

أَعْلَاقَةُ أُمِّ الْوَلِيدِ بُعْيَدَ مَا      أَفْنَانُ رَأْسَكَ كَالثِّقَامِ الْمُخْلِسِ  
 ثُمَّ بَعْدَهَا الصَّبَابَةُ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنْصِبَابِ الْقَلْبِ إِلَى الْمَحْبُوبِ، قَالَ الشَّاعِرُ:  
 تَشَكُّ الْمُحِبُّونَ الصَّبَابَةَ لَيْتَنِي      تَحْمَلُتْ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ يَنِينِهِمْ وَحْدِي  
 فَكَانَتْ لِقْلِيَ لَذَّةُ الْحُبِّ كُلُّهَا      فَلَمْ يَلْقَهَا قَبْلِي مُحِبٌّ وَلَا بَعْدِي  
 ثُمَّ الْغَرَامُ، وَهُوَ لِزُومُ الْحُبِّ لِلْقَلْبِ لِرُوْمَا لَا يَنْفَكُ عَنْهُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْغَرِيمُ غَرِيمًا؛  
 لِمُلَازِمَتِهِ صَاحِبُهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: 65].  
 وَقَدْ أُولَئِكُ الْمُتَّاخِرُونَ بِاسْتِعْمَالِ هَذَا الْفَظْلِ فِي الْحُبِّ، وَقَدْ أَنْ تَجِدُهُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ.  
 ثُمَّ الْعِشْقُ وَهُوَ إِفْرَاطُ الْمَحَيَّةِ، وَلَهَذَا لَا يُوَصَّفُ بِهِ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا يُطْلُقُ  
 فِي حَقِّهِ.

ثُمَّ الشَّوْقُ وَهُوَ سَقْرُ الْقَلْبِ إِلَى الْمَحْبُوبِ أَحَثَ السَّفَرِ، وَقَدْ جَاءَ إِطْلَاقُهُ فِي حَقِّ  
 الرَّبِّ تَعَالَى كَمَا فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ: "إِنَّهُ صَلَّى صَلَاةً فَأَوْجَزَ فِيهَا،  
 فَقَبَلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ أَمَا إِنِّي دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعْوَاتٍ كَانَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ  
 - يَدْعُو بِهِنَّ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْسِنْيَ إِذَا كَانَتْ  
 الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاءُ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ  
 وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَا، وَأَسْأَلُكَ الْفَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى،  
 وَأَسْأَلُكَ نَعِيْمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرْةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ،  
 وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا  
 فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاءً مُهْتَدِينَ."

وَفِي أَثْرٍ آخَرَ : " طَالَ شَوْقُ الْأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِي ، وَأَنَا إِلَى لِقَائِهِمْ أَشَدُ شَوْقًا " .

وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي عَبَرَ عَنْهُ - عَزِيزُ اللَّهِ - بِقَوْلِهِ : " مَنْ أَحَبَ لِقاءَ اللَّهِ أَحَبَ اللَّهَ لِقاءَهُ " .

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتِيٌ﴾

[سُورَةُ الْغُنْبُوتِ : 5]

لَمَّا عَلِمَ سُبْحَانَهُ شِدَّةَ شَوْقِ أُولَائِهِ إِلَى لِقَائِهِ ، وَأَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تَهْتَدِي دُونَ لِقَائِهِ ،  
ضَرَبَ لَهُمْ أَجَالًا وَمَوْعِدًا لِلِّقَاءِ ، وَتَسْكُنُ نُفُوسُهُمْ بِهِ ، وَأَطْيَبُ الْعَيْشِ وَأَلَّدُهُ عَلَى  
الْإِطْلَاقِ عَيْشُ الْمُحِبِّينَ الْمُشْتَأْقِينَ الْمُسْتَأْنِسِينَ ، فَحَيَا تُهُمْ هِيَ الْحَيَاةُ الْطَّيِّبَةُ الْحَقِيقَيَّةُ ،  
وَلَا حَيَاةً لِلْقُلُوبِ أَطْيَبَ وَلَا أَنْعَمَ وَلَا أَهْنَأَ مِنْهَا ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الْطَّيِّبَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿مَنْ  
عَمِلَ صَدِيقًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيهِ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ : 97].

لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهَا الْحَيَاةُ الْمُشْتَرَكَةُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ ، وَالْأَبْرَارِ وَالْفُجَارِ ، وَمِنْ  
طِيبِ الْمَأْكُولِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَسْرَبِ وَالْمَنْكَحِ ، بَلْ رُبَّمَا زَادَ أَعْدَاءُ اللَّهِ عَلَى أُولَائِهِ فِي ذَلِكَ  
أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، وَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا أَنْ يُحْيِيهِ حَيَاةً طَيِّبَةً ، فَهُوَ  
صَادِقُ الْوَعْدِ الَّذِي لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ ، وَأَيُّ حَيَاةٍ أَطْيَبُ مِنْ حَيَاةٍ مَنِ اجْتَمَعَتْ هُمُومُهُ كُلُّهَا  
وَصَارَتْ هَمَّا وَاحِدًا فِي مَرْضَاهُ اللَّهِ ؟ وَلَمْ يَتَشَعَّبْ قَلْبُهُ ، بَلْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ ، وَاجْتَمَعَتْ  
إِرَادَتُهُ وَأَفْكَارُهُ الَّتِي كَانَتْ مُنَقَّسَمَةً بِكُلِّ وَادٍ مِنْهَا شُعْبَةً عَلَى اللَّهِ ، فَصَارَ ذِكْرُهُ بِمَحْبُوبِهِ  
الْأَعْلَى وَحْبُهُ وَالشَّوْقُ إِلَى لِقَائِهِ ، وَالْأَنْسُ بِقُرْبِهِ هُوَ الْمُسْتَوْلِي عَلَيْهِ ، وَعَلَيْهِ تَدُورُ هُمُومُهُ  
وَإِرَادَتُهُ وَقُصُودُهُ بِكُلِّ حَطَرَاتِ قَلْبِهِ ، فَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ بِاللَّهِ ، وَإِنْ نَطَقَ نَطَقَ بِاللَّهِ ، وَإِنْ  
سَمِعَ فِيهِ يَسْمَعُ ، وَإِنْ أَبْصَرَ فِيهِ يُصْرُ ، وَبِهِ يَبْطِشُ ، وَبِهِ يَمْشِي ، وَبِهِ يَسْكُنُ ، وَبِهِ يَحْيَا ، وَبِهِ

يَمُوتُ، وَبِهِ يُبْعَثُ، كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْهُ - حَمْدَلِلَهُ - فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: "مَا تَقْرَبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَرَأُلُ عَبْدِي يَتَقْرَبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحِبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلْنِي لَا عُطِينَهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَا عِذَنَهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، كَتَرَدَّدِي عَنْ قَضِيَّنِي عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ".

فَتَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ الْإِلَهِيُّ - الَّذِي حَرَامٌ عَلَى غَلِيلِ الطَّبَعِ كَسِيفِ الْقَلْبِ فَهُمْ مَعْنَاهُ وَالْمُرَادُ بِهِ - حَصْرَ أَسْبَابِ مَحَبَّتِهِ فِي أَمْرَيْنِ: أَدَاءِ فَرَائِضِهِ، وَالْتَّقْرِبِ إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ.

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَدَاءَ فَرَائِضِهِ أَحَبُّ مَا يَتَقْرَبُ بِهِ إِلَيْهِ الْمُتَقْرِبُونَ، ثُمَّ بَعْدَهَا النَّوَافِلُ، وَأَنَّ الْمُحِبَّ لَا يَرَأُلُ يُكْثِرُ مِنَ النَّوَافِلِ حَتَّى يَصِيرَ مَحْبُوبًا لِلَّهِ، فَإِذَا صَارَ مَحْبُوبًا لِلَّهِ أَوْ جَبَتْ مَحَبَّتُهُ لِلَّهِ مَحَبَّةُ أُخْرَى مِنْهُ فَوَقَ الْمَحَبَّةِ الْأُولَى، فَشَغَلَتْ هَذِهِ الْمَحَبَّةُ قَلْبُهُ عَنِ الْفِكْرَةِ وَالْإِهْتِمَامِ بِغَيْرِ مَحْبُوبِهِ، وَمَلَكَتْ عَلَيْهِ رُوحَهُ، وَلَمْ يَقِنْ فِيهِ سِعَةً لِغَيْرِ مَحْبُوبِهِ الْأَبْتَهَ، فَصَارَ ذِكْرُ مَحْبُوبِهِ وَحْبَهُ وَمَثْلُهُ الْأَعْلَى، وَمَالِكًا لِرِمَامِ قَلْبِهِ مُسْتَوْلِيًّا عَلَى رُوحِهِ اسْتِيَلَاءَ الْمَحْبُوبِ عَلَى مَحَبَّةِ الصَّادِقِ فِي مَحَبَّتِهِ، الَّتِي قَدِ اجْتَمَعَتْ قُوَّى مَحَبَّةِ حُبِّهِ كُلُّهَا لَهُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الْمُحِبَّ إِنْ سَمَعَ سَمِعَ بِمَحْبُوبِهِ، وَإِنْ أَبْصَرَ أَبْصَرَ بِهِ، وَإِنْ بَطَشَ بَطَشَ بِهِ، وَإِنْ مَشَى مَشَى بِهِ، فَهُوَ فِي قَلْبِهِ وَمَعْهُ وَأَنِسُهُ وَصَاحِبُهُ، فَالْبَلَاءُ هَا هُنَا لِلْمُصَاحِبَةِ، وَهِيَ مُصَاحِبَةٌ لَا نَظِيرَ لَهَا، وَلَا تُدْرِكُ بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ عَنْهَا وَالْعِلْمِ بِهَا، فَالْمَسْأَلَةُ حَالَيَّةٌ لَا عِلْمِيَّةٌ مَحْضَةٌ.

## الذَّلَّةُ وَالذَّلَّةُ

وَإِذَا كَانَ الْمَخْلُوقُ يَحْدُّ هَذَا فِي مَحَبَّةِ الْمَخْلُوقِ الَّتِي لَمْ يُخْلِقْ لَهَا وَلَمْ يُفْطِرْ عَلَيْهَا،  
كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ:

خَيْالُكَ فِي عَيْنِي وَذُكْرُكَ فِي فَمِي  
وَقَالَ الْآخَرُ:

وَمِنْ عَجَبِ أَنِّي أَحِنُ إِلَيْهِمْ  
فَأَشَّالُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعِي  
وَيَسْتَأْقِهُمْ قَلْيَ وَهُمْ يَيْنَ أَصْلُعِي  
وَتَظْلِبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا  
وَهَذَا الْطَّفُّ مِنْ قَوْلِ الْآخِرِ:

إِنْ قُلْتُ غِبْتَ فَقَلْيَ لَا يُصَدِّقُنِي  
أَوْ قُلْتُ مَا غِبْتَ قَالَ الظَّرْفُ ذَا كَذِبِ  
فَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْنَى إِلَى الْمُحِبِّ مِنْ مَحْبُوبِهِ، وَرُبَّمَا تَمَكَّنْتُ مِنْهُ الْمَحَبَّةُ، حَتَّى يَصِيرَ  
أَدْنَى إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، بِحَيْثُ يَنْسَى نَفْسَهُ وَلَا يَنْسَاهُ، كَمَا قَالَ:

أُرِيدُ لَأَنْتِي ذِكْرَهَا فَكَانَمَا تُمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلِ  
وَقَالَ الْآخَرُ:

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نِسْيَانُكُمْ      وَتَأْبَيُ الظِّبَابُ عَلَى التَّاقِلِ

وَخَصَّ فِي الْحَدِيثِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْيَدُ وَالرِّجْلُ بِالذِّكْرِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآلَاتِ آلَاتُ  
الْإِدْرَاكِ وَالْآلَاتُ الْفِعْلِ، وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ يُورِدَانِ عَلَى الْقَلْبِ الْإِرَادَةَ وَالْكَرَاهَةَ، وَيَجْلِبَانِ  
إِلَيْهِ الْحُبَّ وَالْبُعْضَ، فَيَسْتَعْمِلُ الْيَدَ وَالرِّجْلَ، فَإِذَا كَانَ سَمْعُ الْعَبْدِ بِاللَّهِ، وَبَصَرُهُ بِاللَّهِ  
كَانَ مَحْفُوظًا فِي آلَاتِ إِدْرَاكِهِ، وَكَانَ مَحْفُوظًا فِي حُبِّهِ وَبُعْضِهِ، فَحُفِظَ فِي بَطْسِهِ وَمَشِيهِ.

وَتَأَمَّلُ كَيْفَ أَكْتَمَ بِذِكْرِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْيَدِ وَالرِّجْلِ عَنِ الْلِّسَانِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ إِدْرَاكُ السَّمْعِ الَّذِي يَحْصُلُ بِاِخْتِيَارِهِ تَارَةً، وَبِغَيْرِ اِخْتِيَارِهِ تَارَةً، وَكَذَلِكَ الْبَصَرُ قَدْ يَقَعُ بِغَيْرِ الْإِخْتِيَارِ فَجَاهَةً، وَكَذَلِكَ حَرَكَةُ الْيَدِ وَالرِّجْلِ الَّتِي لَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْهُمَا، فَكَيْفَ بِحَرَكَةِ الْلِّسَانِ الَّتِي لَا تَقْعُدُ إِلَّا بِقَصْدٍ وَإِخْتِيَارٍ؟ وَقَدْ يَسْتَعْنِي الْعَبْدُ عَنْهَا إِلَّا حَيْثُ أُمِرَّ بِهَا.

وَأَيْضًا فَانْفَعَ الْلِّسَانُ عَنِ الْقَلْبِ أَتْمُ مِنْ اِنْفَعَالِ سَائِرِ الْجَوَارِحِ، فَإِنَّهُ تِرْجُمَانُهُ وَرَسُولُهُ.

وَتَأَمَّلُ كَيْفَ حَقَّقَ تَعَالَى كَوْنَ الْعَبْدِ بِهِ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَبَطْشُهُ وَمَشِيهُ بِقَوْلِهِ: "كُنْتُ سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبَصِّرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا" تَحْقِيقًا لِكَوْنِهِ مَعَ عَبْدِهِ، وَكَوْنِ عَبْدِهِ فِي إِدْرَاكَاتِهِ، يَسْمَعُهُ وَبَصِرُهُ وَحَرَكَاتِهِ يَدِيهِ وَرِجْلِهِ.

وَتَأَمَّلُ كَيْفَ قَالَ: "فَيَسْمَعُ، وَبِي يُبَصِّرُ" وَلَمْ يَقُلْ: فَلِي يَسْمَعُ، وَلِي يُبَصِّرُ، وَرُبَّمَا يَطْنُ الظَّنَّانُ أَنَّ الَّلَّامَ أَوْلَى بِهَذَا الْمَوْضِعِ، إِذْ هِيَ أَدْلُّ عَلَى الْغَایَةِ، وَوُقُوعُ هَذِهِ الْأُمُورِ لِلَّهِ، وَذَلِكَ أَخَصُّ مِنْ وُقُوعِهَا بِهِ، وَهَذَا مِنَ الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ، إِذْ لَيْسَتِ الْبَأْءَاهَا هُنَّا بِمُجَرَّدِ الْإِسْتِعَانَةِ، فَإِنَّ حَرَكَاتِ الْأَبَرَارِ وَالْفُجَارِ وَإِدْرَاكَاتِهِمْ إِنَّمَا هِيَ بِمَعْنَوَةِ اللَّهِ لَهُمْ، وَإِنَّ الْبَأْءَاهَا هُنَّا لِلْمُصَاحَّةِ، أَيْ: إِنَّمَا يَسْمَعُ وَيُبَصِّرُ وَيَبْطِشُ وَيَمْشِي وَأَنَا صَاحِبُهُ مَعَهُ، كَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْأَخْرِ: "أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكْتُ بِي شَفَّاتِهِ" وَهَذِهِ هِيَ الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنْكَا﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: 40].

وَقَوْلِ النَّبِيِّ - ﷺ -: "مَا ظَنَّكَ بِاِثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا"، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنَّ اللَّهَ لَمَعَ

الْمُحْسِنِينَ﴾ [سُورَةُ الْعُنْكُبُوتِ: 69].

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ أَتَقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: 128].

## الذَّلَّالُ وَالْمُؤْمِنُ

وَقَوْلِهِ: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: 46].

وَقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيِّدِيْنِ﴾ [سُورَةُ الشُّعْرَاءِ: 62].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ: [سُورَةُ طه: 46].

فَهَذِهِ الْبَأْءُ مُفِيْدَةٌ لِمَعْنَى هَذِهِ الْمَعِيْةِ دُونَ الْلَّامِ، وَلَا يَتَّسِعُ إِلَيْهِ الْعَبْدُ إِلَّا بِهَذِهِ الْبَأْءِ وَهَذِهِ الْمَعِيْةِ.  
وَالْتَّوْكُلُ، وَنُزُولُهُ فِي مَنَازِلِ الْعُبُودِيَّةِ إِلَّا بِهَذِهِ الْبَأْءِ وَهَذِهِ الْمَعِيْةِ.

فَمَتَّى كَانَ الْعَبْدُ بِاللَّهِ هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَشَاقُ، وَانْقَلَبَتِ الْمَخَاوِفُ فِي حَقِّهِ، فَبِاللَّهِ يَهُونُ كُلُّ صَعْبٍ، وَيَسْهُلُ كُلُّ عَسِيرٍ، وَيَقْرُبُ كُلُّ بَعِيدٍ، وَبِاللَّهِ تَزُولُ الْهُمُومُ وَالْغُمُومُ وَالْأَحْزَانُ، فَلَا هُمَّ مَعَ اللَّهِ، وَلَا غَمَّ وَلَا حَزَنٌ إِلَّا حَيْثُ يُوْتِهُ الْعَبْدُ مَعْنَى هَذِهِ الْبَأْءِ، فَيَصِيرُ قَلْبُهُ حِينَئِذٍ كَالْحُوتِ، إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ يَشُبُّ وَيَنْقَلِبُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ.

وَلَمَّا حَصَلَتْ هَذِهِ الْمُوْافَقَةُ مِنَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ فِي مَحَايِّهِ؛ حَصَلَتْ مُوْافَقَةُ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ فِي حَوَائِجهِ وَمَطَالِيهِ، فَقَالَ: "وَلَئِنْ سَأَلْنِي لَأُعْطِيَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعْيَدَنَّهُ". أَيْ: كَمَا وَافَقْنِي فِي مُرَادِي بِاِمْتِشَالِ أَوْ اِمْرِي وَالْتَّقْرِبِ بِمَحَايِّي، فَأَنَا أَوْ اِفْقُهُ فِي رَغْبَتِهِ وَرَهْبَتِهِ فِيمَا يَسْأَلُنِي أَنْ أَفْعَلَهُ بِهِ، وَيَسْتَعِيْدُنِي أَنْ يَنَالَهُ، وَقَوْيَ أَمْرُ هَذِهِ الْمُوْافَقَةِ مِنَ الْجَانِبِينَ حَتَّى اقْتَضَى تَرْدُدُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فِي إِمَاتَةِ عَبْدِهِ؛ لِأَنَّهُ يَكْرُهُ الْمَوْتَ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يَكْرُهُ مَا يَكْرُهُهُ عَبْدُهُ، وَيَكْرُهُ مُسَاءَتَهُ، فَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ يَقْتَصِي أَنْ لَا يُمْتَهِّنَ وَلَكِنَّ مَصْلَحَتَهُ فِي إِمَاتَتِهِ، فَإِنَّهُ مَا أَمَاتَهُ إِلَّا لِيُحْيِيَهُ، وَلَا أَمْرَضَهُ إِلَّا لِيُصْحِّهُ، وَلَا أَفْقَرَهُ إِلَّا لِيُغْنِيَهُ، وَلَا مَنْعَهُ إِلَّا لِيُعْطِيَهُ، وَلَمْ يُخْرِجْ مِنَ الْجَنَّةِ فِي صُلْبِ أَيِّهِ إِلَّا لِيُعِيَّدَ إِلَيْهَا عَلَى أَحْسَنِ أَحْوَالِهِ، وَلَمْ يُقْلِ لِأَيِّهِ أَخْرُجْ مِنْهَا إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُعِيَّدَ إِلَيْهَا، فَهَذَا هُوَ الْحَيْثُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا سِوَاهُ، بَلْ لَوْ كَانَ فِي كُلِّ مَبْتَ شَعْرَةٍ مِنَ الْعَبْدِ مَحَبَّةٌ تَامَّةٌ لِلَّهِ، لَكَانَ بَعْضُ مَا يَسْتَحِقُهُ عَلَى عَبْدِهِ.

نَقْلٌ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى  
مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ  
كُمْ مَثْنِيْلٌ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَقِيْهُ  
وَحَنِيْنُهُ أَبَدًا لَأَوَّلِ مَثْنِيْلٍ

\*\*\*

### [فَصْلٌ: آخرِ مَرَاتِبِ الْحُبِّ]

ثُمَّ التَّسْتُمُ، وَهُوَ آخِرُ مَرَاتِبِ الْحُبِّ، وَهُوَ تَعْبُدُ الْمُحِبِّ لِمَحْبُوبِهِ، يُقَالُ تَيْمَهُ الْحُبُّ  
إِذَا عَبَدَهُ، وَمِنْهُ: تَيْمُ اللَّهِ، أَيْ عَبْدُ اللَّهِ، وَحَقِيقَةُ التَّعْبُدِ: الْذُّلُّ وَالْخُضُوعُ لِلْمَحْبُوبِ، وَمِنْهُ  
قَوْلُهُمْ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ أَيْ مُذَلٌّ، قَدْ ذَلَّتُهُ الْأَقْدَامُ، فَالْعَبْدُ هُوَ الَّذِي ذَلَّهُ الْحُبُّ وَالْخُضُوعُ  
لِمَحْبُوبِهِ، وَلَهُذَا كَانَتْ أَشْرَفُ أَحْوَالِ الْعَبْدِ وَمَقَامَاتِهِ فِي الْعُبُودِيَّةِ، فَلَا مَنْزِلَ لَهُ أَشْرَفُ مِنْهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَيْهِ وَأَحَبَّهُمْ إِلَيْهِ، وَهُوَ رَسُولُهُ مُحَمَّدُ - ﷺ -  
- بِالْعُبُودِيَّةِ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ، وَهِيَ مَقَامُ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَمَقَامُ التَّحَدِّي بِالنُّبُوَّةِ، وَمَقَامُ  
الْإِسْرَاءِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ بِدُعَوَةٍ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ [سُورَةُ الْحِجَّةِ: 19].

وَقَالَ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مَمَّا زَلَّنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 23].

وَقَالَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيَلَّا مِنَ الْمَسِّيْدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسِّيْدِ الْأَقْصَا﴾ [سُورَةُ  
الْإِسْرَاءِ: 1].

حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ: "اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدُ غَفَرِ اللَّهِ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ"،  
فَنَالَ مَقَامَ الشَّفَاعَةِ بِكَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ، وَكَمَالِ مَغْفِرَةِ اللَّهِ لَهُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ  
لِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ مَعَ أَكْمَلِ أَنْوَاعِ الْخُضُوعِ، وَهَذَا  
هُوَ حَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ وَمَلَةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي مَنْ رَغَبَ عَنْهَا فَقَدْ سَفَهَ نَفْسَهُ، قَالَ تَعَالَى:

## الذَّلَّةُ وَالذُّلُّ

﴿ وَمَنْ يَرْعَبْ عَنِ الْمَلَأِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفَهَهُ ، وَلَقَدْ أَصْطَفَنَا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنْ أَصْنَلِحَنَ ﴾ ١٣٢ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ وَأَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمَتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ١٣٣ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بْنَيْهِ وَيَعْقُوبَ بْنَيَّهِ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنَ لَكُمُ الْدِينَ فَلَا تَمُونُنَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ١٣٤ أَمْ كُنْتُمْ شَهِدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبْنَيْهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ أَبَابِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَحِيدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣٥ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٣٠ - ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥].

وَلِهَذَا كَانَ أَعْظَمَ الدُّنْوِبِ عِنْدَ اللَّهِ الشُّرُكُ .

\* \* \*

## [الشُّرُكُ فِي الْمَحَبَّةِ]

وَأَصْلُ الشُّرُكِ بِاللَّهِ ، وَالْأَشْرَكُ فِي الْمَحَبَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْخُذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنَّدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَمَّ حُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ أَمْنَوْا أَشَدُ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٦٥]. فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُشْرِكُ بِهِ نِدَادًا يُحِبُّهُ كَمَا يُحِبُّ اللَّهَ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الَّذِينَ أَمْنَوْا أَشَدُ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ أَصْحَابِ الْأَنَدَادِ لِأَنَّدَادِهِمْ .

وَقِيلَ : بِلِ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ أَشَدُ حُبًّا لِلَّهِ ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ أَحَبُّوا اللَّهَ ، لَكِنْ لَمَّا شَرِكُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنَدَادِهِمْ فِي الْمَحَبَّةِ ضَعَفَتْ مَحَبَّتُهُمْ لِلَّهِ ، وَالْمُؤْمِنُونَ لِلَّهِ لَمَّا خَلَصَتْ مَحَبَّتُهُمْ لَهُ كَانَتْ أَشَدَّ مِنْ مَحَبَّةِ أُولَئِكَ ، وَالْعَدْلُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالْتَّسْوِيَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنَدَادِ هُوَ فِي هَذِهِ الْمَحَبَّةِ ، كَمَا تَقَدَّمَ .

وَلَمَّا كَانَ مُرَادُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ خُلُوصَ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ لَهُ ، أَنْكَرَ عَلَى مَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ قَرِيبًا أَوْ شَفِيعًا عَایَةَ الْإِنْكَارِ ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ تَارَةً ، وَإِفْرَادُ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ ، فَقَالَ تَعَالَى :

## اللَّهُ أَكْبَرُ الْحَمْدُ لِلَّهِ

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سُورَةُ يُونُسَ: 3].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سُورَةُ السَّجْدَةِ: 4].

وَقَالَ فِي الْإِفْرَادِ: ﴿ أَمْ أَنْخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شَفَعَاءً قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ٤٣ ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْسَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ: 43 - 44].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنِّي رَبُّ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِيَّهِ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: 51].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَنْخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلَيَاءٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سُورَةُ الْجَاثِيَّةِ: 10].

فَإِذَا وَالَّى الْعَبْدُ رَبَّهُ وَحْدَهُ أَقَامَ لَهُ الشُّفَعَاءُ، وَعَقَدَ الْمُوَالَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَصَارُوا أَوْلَيَاءُهُ فِي اللَّهِ، بِخِلَافِ مَنِ اتَّخَذَ مَخْلُوقًا وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ.

فَهَذَا لَوْنٌ وَذَاكَ لَوْنٌ، كَمَا أَنَّ الشَّفَاعَةَ الشَّرِكِيَّةَ الْبَاطِلَةَ لَوْنٌ، وَالشَّفَاعَةَ الْحَقَّ التَّابِتَةَ الَّتِي إِنَّمَا تُتَّالِي بِالْتَّوْحِيدِ لَوْنٌ، وَهَذَا مَوْضِعُ فُرْقَانٍ بَيْنَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَأَهْلِ الْإِشْرَاكِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ لَا تَحْصُلُ مَعَ الإِشْرَاكِ بِاللَّهِ فِي الْمَحَبَّةِ، بِخِلَافِ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ، فَإِنَّهَا مِنْ لَوَازِمِ الْعُبُودِيَّةِ وَمُوجَبَاتِهَا، فَإِنَّ مَحَبَّةَ الرَّسُولِ - بَلْ تَقْدِيمُهُ فِي الْحُبِّ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ - لَا يَتِيمُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهَا، إِذْ مَحَبَّهُ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ حُبٍّ فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوةَ الْإِيمَانِ".

وَفِي لُفْظٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ: "لَا يَجِدُ حَلَاوةَ الْإِيمَانِ إِلَّا مَنْ كَانَ فِيهِ ثَلَاثٌ خَصَالٌ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفُرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ".

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي السُّنْنِ: "مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ".

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: "مَا تَحَابَ رَجُلًا نَفِي اللَّهُ إِلَّا كَانَ أَفْضَلُهُمَا أَشَدُهُمَا حُبًا لِصَاحِبِهِ". فَإِنَّ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ مِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمُوجَبَاتِهَا، وَكُلُّمَا كَانَتْ أَقْوَى كَانَ أَصْلُهَا كَذَلِكَ.

\*\*\*

### [فَصْلُ أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ]

وَهَا هُنَا أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَحَبَّةِ يَحِبُّ التَّفْرِيقَ بَيْنَهَا، وَإِنَّمَا صَلَّ مَنْ صَلَّ بِعَدَمِ التَّمِيزِ بَيْنَهَا.

أَحَدُهَا: مَحَبَّةُ اللَّهِ، وَلَا تَكُفِي وَحْدَهَا فِي النَّجَاهَةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَالْفَوْزِ بِشَوَّابِهِ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَعَبَادَ الصَّلِيبِ وَالْيَهُودَ وَغَيْرُهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ.

**الثاني:** مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّ اللَّهُ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تُدْخِلُهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَتُخْرِجُهُ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَقْوَمُهُمْ بِهَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَأَشَدُهُمْ فِيهَا.

**الثالث:** الْحُبُّ لِلَّهِ وَفِيهِ، وَهِيَ مِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّةِ مَا يُحِبُّ، وَلَا تَسْتَقِيمُ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّ إِلَّا فِيهِ وَلَهُ.

**الرابع:** الْمَحَبَّةُ مَعَ اللَّهِ، وَهِيَ الْمَحَبَّةُ الشَّرِيكَيَّةُ، وَكُلُّ مَنْ أَحَبَ شَيْئًا مَعَ اللَّهِ لَا لِلَّهِ وَلَا مِنْ أَجْلِهِ، وَلَا فِيهِ، فَقَدِ اتَّخَذَهُ نِدًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهَذِهِ مَحَبَّةُ الْمُشْرِكِينَ.

وَبَقِيَ قِسْمٌ خَامِسٌ لَيْسَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ: وَهِيَ الْمَحَبَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ، وَهِيَ مَيْلُ الْإِنْسَانِ إِلَى مَا يُلَاءُهُ طَبَعُهُ، كَمَحَبَّةِ الْعَطْشَانِ لِلْمَاءِ، وَالْجَائِعِ لِلطَّعَامِ، وَمَحَبَّةِ النَّوْمِ وَالزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ، فَتِلْكَ لَا تُدْمِ إِلَّا إِذَا أَلْهَتْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَشَغَلَتْ عَنْ مَحَبَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِمُوكُمْ وَلَا أُولَئِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ: 9].

وَقَالَ تَعَالَى ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ تَحْرِرَةٌ وَلَا يَبْعُدُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [سُورَةُ التُّوْرَى: 37].

\*\*\*

## [فصلٌ كَمَالُ الْمَحَبَّةِ]

ثُمَّ الْخُلْلَةُ وَهِيَ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ وَنَهَايَتَهَا، بِحِينَثُ لَا يَقِنُ فِي الْقَلْبِ سَعَةً لِعِيْرِ مَحْبُوبِهِ، وَهِيَ مَنْصِبٌ لَا يَقْبِلُ الْمُشَارِكَةَ بِوَجْهِهِ مَا، وَهَذَا الْمَنْصِبُ خَاصٌ لِلْخَلِيلِينَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا -: إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ، كَمَا قَالَ - ﷺ -: "إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا".

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: "لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ".

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: "إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلْتِهِ" وَلَمَّا سَأَلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْوَلَدَ فَأَعْطَيْهُ، وَتَعَلَّقَ حُبُّهُ بِقَلْبِهِ، فَأَخَذَ مِنْهُ شُعْبَةً، غَارَ الْحَبِيبُ عَلَى خَلِيلِهِ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ مَوْضِعٌ لِغَيْرِهِ، فَأَمَرَهُ بِذَبْحِهِ، وَكَانَ الْأَمْرُ فِي الْمَنَامِ لِيَكُونَ تَفْعِيلُ الْمَأْمُورِ بِهِ أَعْظَمَ ابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا، وَلَمْ يَكُنْ الْمَقْصُودُ ذَبْحُ الْوَلَدِ، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودُ ذَبْحُهُ مِنْ قَلْبِهِ؛ لِيَخْلُصَ الْقَلْبُ لِلرَّبِّ، فَلَمَّا بَادَرَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الْإِمْسَالِ، وَقَدَّمَ مَحَبَّةَ اللَّهِ عَلَى مَحَبَّةِ وَلَدِهِ، حَصَّلَ الْمَقْصُودُ فَرْفَعَ الذَّبْحُ، وَفُدِيَ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى مَا أَمَرَ بِشَيْءٍ، ثُمَّ أَبْطَلَهُ رَأْسًا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُبْقَى بَعْضُهُ أَوْ بَدَلَهُ، كَمَا أَبْقَى شَرِيعَةُ الْفِدَاءِ، وَكَمَا أَبْقَى اسْتِحْجَابَ الصَّدَقَةِ بَيْنَ يَدَيِ الْمُنَاجَاةِ، وَكَمَا أَبْقَى الْخَمْسَ الصَّلَوَاتِ بَعْدَ رَفْعِ الْخَمْسِينَ وَأَبْقَى ثَوَابَهَا، وَقَالَ: "وَلَا يُدَلِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، هِيَ خَمْسٌ فِي الْفِعْلِ، وَهِيَ خَمْسُونَ فِي الْأَجْرِ".

\* \* \*

## [فَصْلُ الْمَحَبَّةِ وَالْخُلَّةِ]

وَأَمَّا مَا يَظْهُرُ بَعْضُ الْغَالِطِينَ - أَنَّ الْمَحَبَّةَ أَكْمَلُ مِنَ الْخُلَّةِ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ، وَمُحَمَّداً حَبِيبُ اللَّهِ - فَمِنْ جَهْلِهِ، فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ عَامَّةٌ، وَالْخُلَّةُ خَاصَّةٌ، وَالْخُلَّةُ نَهَايَةُ الْمَحَبَّةِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ - وَسَلَّمَ - أَنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَنَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ خَلِيلٌ غَيْرُ رَبِّهِ مَعَ إِخْبَارِهِ بِحُبِّهِ لِعَائِشَةَ وَلَا يُبَاهِنُهَا وَلِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَغَيْرِهِمْ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُنْتَهَمِينَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 222].

وَ﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: 146].

وَ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: 148].

وَ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 42].

وَالشَّابُ التَّائِبُ حَبِيبُ اللَّهِ، وَخُلْتُهُ خَاصَّةً بِالْخَلِيلِينَ، وَإِنَّمَا هَذَا مِنْ قِلَّةِ الْعِلْمِ  
وَالْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ - ﷺ - .

\* \* \*

### [فَصْلٌ إِيَّشَارُ الْأَعْلَى]

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَتُرُكُ مَا يُحِبُّهُ وَيَهْوَاهُ، وَلَكِنْ يَرُكُ أَصْعَفَهُمَا مَحَبَّةً لِأَقْوَاهُمَا  
مَحَبَّةً، كَمَا أَنَّهُ يَفْعُلُ مَا يَكْرُهُهُ؛ لِحُصُولِ مَا مَحَبَّتُهُ أَقْوَى عِنْدُهُ مِنْ كَرَاهَةِ مَا يَفْعَلُهُ، أَوْ  
لِخَلَاصِهِ مِنْ مَكْرُوهِهِ.

وَتَقَدَّمَ أَنَّ خَاصِيَّةَ الْعَقْلِ إِيَّشَارُ الْأَعْلَى الْمَحْبُوبِينَ عَلَى أَدْنَاهُمَا، وَأَيْسَرِ الْمَكْرُوهِينَ  
عَلَى أَقْوَاهُمَا، وَتَقَدَّمَ أَنَّهُمَا مِنْ كَمَالِ قُوَّةِ الْحُبُّ وَالْبَعْضِ.

وَلَا يَتَمُّ لَهُ هَذَا إِلَّا بِأَمْرِينِ: قُوَّةِ الْإِدْرَاكِ، وَشَجَاعَةِ الْقُلُوبِ، فَإِنَّ التَّخَلُّفَ عَنْ ذَلِكَ  
وَالْعَمَلِ بِخَلَافِهِ يَكُونُ إِمَّا لِصَعْفِ الْإِدْرَاكِ بِحِينُ إِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ مَرَاتِبَ الْمَحْبُوبِ  
وَالْمَكْرُوهِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، إِمَّا لِصَعْفِ فِي النَّفْسِ، وَعَجْزٍ فِي الْقُلُوبِ، بِحِينُ لَا يُطَاوِعُهُ  
عَلَى إِيَّشَارِ الْأَصْلَحِ؛ لِرَفْعِ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ الْأَصْلَحُ، فَإِذَا صَحَّ إِدْرَاكُهُ، وَقَوِيَّتْ نَفْسُهُ، وَشَجَعَ  
قَلْبُهُ عَلَى إِيَّشَارِ الْمَحْبُوبِ الْأَعْلَى وَالْمَكْرُوهِ الْأَدْنَى فَقَدْ وُفِّقَ لِأَسْبَابِ السَّعَادَةِ.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ شَهْوَتِهِ أَقْوَى مِنْ سُلْطَانِ عَقْلِهِ وَإِيمَانِهِ، فَيَقْهُرُ الْغَالِبُ  
الضَّعِيفَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ إِيمَانِهِ وَعَقْلِهِ أَقْوَى مِنْ سُلْطَانِ شَهْوَتِهِ، وَإِذَا كَانَ  
كَثِيرٌ مِنَ الْمَرْضَى يَحْمِيَ الطَّيْبَ عَمَّا يَضُرُّهُ، فَتَأْبَى عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَشَهْوَتُهُ إِلَّا تَنَوَّلَهُ، وَيُقَدِّمُ

شَهْوَتُهُ عَلَى عَقْلِهِ، وَتُسَمِّيهُ الْأَطِيَاءُ: عَدِيمُ الْمُرْوَعَةِ، فَهَكَذَا أَكْثَرُ مَرَضَى الْقُلُوبِ يُؤْثِرُونَ مَا يَرِيدُ مَرَضَهُمْ، لِقُوَّةِ شَهْوَتِهِمْ لَهُ.

فَأَصْلُ الشَّرِّ مِنْ ضَعْفِ الْإِدْرَاكِ وَضَعْفِ النَّفْسِ وَدَنَاءَتِهَا، وَأَصْلُ الْخَيْرِ مِنْ كَمَالِ الْإِدْرَاكِ وَقُوَّةِ النَّفْسِ وَشَرَفِهَا وَشَجَاعَتِهَا.

فَالْحُبُّ وَالْإِرَادَةُ أَصْلُ كُلِّ فِعْلٍ وَمَبْدُوهُ، وَالْبَعْضُ وَالْكَرَاهَةُ أَصْلُ كُلِّ تَرْكٍ وَمَبْدُوهُ، وَهَاتَانِ الْقُوَّاتَانِ فِي الْقُلُوبِ، أَصْلُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ وَشَقاوَتِهِ.

وَوُجُودُ الْفِعْلِ الْإِخْتِيَارِيِّ لَا يَكُونُ إِلَّا بِوُجُودِ سَبَبِهِ مِنَ الْحُبِّ وَالْإِرَادَةِ.

وَأَمَّا عَدَمُ الْفِعْلِ: فَتَارَةً يَكُونُ لِعَدَمِ مُقْتَضِيهِ وَسَبَبِهِ، وَتَارَةً يَكُونُ لِوُجُودِ الْبُغْضِ وَالْكَرَاهَةِ الْمَانِعَةِ مِنْهُ، وَهَذَا مُتَعَلِّقُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَهُوَ الَّذِي يُسَمِّي الْكُفَّ، وَهُوَ مُتَعَلِّقُ الشَّوَّابِ وَالْعِقَابِ، وَبِهَذَا يُزُولُ الْإِشْتِيَاهُ فِي مَسَالَةِ التَّرْكِ وَهَلْ هُوَ أَمْرٌ وَجُودِيٌّ أَوْ عَدَمِيٌّ؟ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُ قِسْمَانِ: فَالْتَّرْكُ الْمُضَافُ إِلَى عَدَمِ السَّبِبِ الْمُقْتَضِي عَدَمِيُّ، وَالْمُضَافُ إِلَى السَّبِبِ الْمَانِعِ مِنَ الْفِعْلِ وَجُودِيُّ.

\*\*\*

## [فَصْلُ إِيَّاثَرِ الْأَنْفَعِ]

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفِعْلِ وَالْتَّرْكِ الْإِخْتِيَارَيَّيْنِ إِنَّمَا يُؤْثِرُ الْحَيُّ لِمَا فِيهِ مِنْ حُصُولِ الْمَنْفَعَةِ الَّتِي يُلْتَدُ بِحُصُولِهَا، أَوْ زَوَالِ الْأَلَمِ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ الشَّفَاءُ بِزَوَالِهِ، وَلَهَذَا يُقَالُ: شَفَى صَدَرَهُ، وَشَفَى قَلْبَهُ، وَقَالَ:

هِيَ الشَّفَاءُ لِدَائِي لَوْ ظَفِرْتُ بِهَا وَلَيْسَ مِنْهَا شَفَاءُ الدَّاءِ مَبْذُولٌ

وَهَذَا مَطْلُوبٌ يُؤْثِرُ الْعَاقِلُ بَلِ الْحَيَوَانُ الْبَهِيمُ، وَلَكِنْ يَغْلَطُ فِيهِ أَكْثُرُ النَّاسِ غَلَطًا قِبِّحًا، فَيَقْسِدُ حُصُولَ اللَّهِ بِمَا يُعَقِّبُ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الْأَلَمِ، فَيُؤْلِمُ نَفْسَهُ مِنْ حَيْثُ يَظْنُ أَنَّهُ يُحَصِّلُ لَذَّتَهَا، وَيَسْفِي قَلْبَهُ بِمَا يُعَقِّبُ عَلَيْهِ عَايَةُ الْمَرَضِ، وَهَذَا شَأْنٌ مَنْ قَصَرَ نَظَرُهُ عَلَى الْعَاجِلِ وَلَمْ يُلَاحِظِ الْعَوَاقِبَ، وَخَاصَّةً الْعَقْلُ النَّاظِرُ فِي الْعَوَاقِبِ، فَأَعْقَلُ النَّاسِ مِنْ أَثْرِ لَذَّتِهِ وَرَاحَتِهِ فِي الْأَجْلَةِ الدَّائِمَةِ عَلَى الْعَاجِلَةِ الْمُنْقَضِيَّةِ الزَّائِلَةِ، وَأَسْفَهُ الْخَلْقِ مَنْ بَاعَ نَعِيمَ الْأَبْدِ وَطَيَّبَ الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَاللَّذَّةِ الْعَظِيمَيِّ التَّيِّي لَا تَنْغِيصُ فِيهَا وَلَا نَقْصٌ بِوَجْهِهِ مَا، بِلَذَّةِ مُنْقَضِيَّةِ مَشْوِبَةِ الْأَلَامِ وَالْمَخَاوِفِ، وَهِيَ سَرِيعَةُ الزَّوَالِ وَشِيكَةُ الْإِنْقَضَاءِ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: "فَكَرَرْتُ فِيمَا يَسْعَى فِيهِ الْعُقْلَاءُ، فَرَأَيْتُ سَعِيهِمْ كُلَّهُمْ فِي مَطْلُوبٍ وَاحِدٍ وَإِنْ اخْتَلَفَ طُرُقُهُمْ فِي تَحْصِيلِهِ، رَأَيْتَهُمْ جَمِيعَهُمْ إِنَّمَا يَسْعَوْنَ فِي دَفْعِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ عَنْ نُفُوسِهِمْ، فَهَذَا بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَهَذَا بِالْتِجَارَةِ وَالْكَسْبِ، وَهَذَا بِالنِّكَاحِ، وَهَذَا بِسَمَاعِ الْغِنَاءِ وَالْأَصْوَاتِ الْمُطْرِبَةِ، وَهَذَا بِاللَّهُو وَاللَّعِبِ، فَقُلْتُ: هَذَا الْمَطْلُوبُ مَطْلُوبُ الْعُقْلَاءِ، وَلَكِنَّ الطُّرُقَ كُلَّهَا عَيْرُ مُوَصِّلَةٍ إِلَيْهِ، بَلْ لَعَلَّ أَكْثَرَهَا إِنَّمَا يُوَصِّلُ إِلَى ضِدِّهِ، وَلَمْ أَرْ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الطُّرُقِ طَرِيقًا مُوَصِّلَةً إِلَيْهِ إِلَّا الْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، وَمُعَامَلَتِهِ وَحْدَهُ، وَإِيَّاشَارَ مَرْضَاتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ".

فَإِنَّ سَالِكَ هَذَا الطَّرِيقِ إِنْ فَاتَهُ حَشْهُهُ مِنَ الدُّنْيَا فَقَدْ ظَفَرَ بِالْحَظْظِ الْعَالِيِّ الَّذِي لَا فَوْتَ مَعَهُ، وَإِنْ حَصَلَ لِلْعَبْدِ حَصَلَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِنْ فَاتَهُ فَاتَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِنْ ظَفَرَ بِحَظْهُ مِنَ الدُّنْيَا نَالَهُ عَلَى أَهْنَاءِ الْوُجُوهِ، فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْفَعُ مِنْ هَذِهِ الطُّرُقِ، وَلَا أَوْصَلُ مِنْهَا إِلَى لَذَّتِهِ وَبَهْجَتِهِ وَسَعَادَتِهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

\*\*\*

## [فصل أقسام المحبوب]

وَالْمَحْبُوبُ قِسْمَانِ: مَحْبُوبٌ لِنَفْسِهِ، وَمَحْبُوبٌ لِغَيْرِهِ، وَالْمَحْبُوبُ لِغَيْرِهِ، لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِي إِلَى الْمَحْبُوبِ لِنَفْسِهِ، دَفْعًا لِلتَّسْلِيلِ الْمُحَالِ، وَكُلُّ مَا سِوَى الْمَحْبُوبِ الْحَقِّ فَهُوَ مَحْبُوبٌ لِغَيْرِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُحِبُّ لِذَاتِهِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مِمَّا يُحِبُّ فَإِنَّمَا مَحَبَّتُهُ تَبَعُ لِمَحَبَّةِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كَمَحَبَّةِ مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَأُولَيَائِهِ، فَإِنَّهَا تَبَعُ لِمَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وَهِيَ مِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّتِهِ، فَإِنَّ مَحَبَّةَ الْمَحْبُوبِ تُوْجِبُ مَحَبَّةَ مَا يُحِبُّ، وَهَذَا مَوْضِعٌ يَحِبُّ الْإِعْتِنَاءُ بِهِ، فَإِنَّهُ مَحَلُّ فُرْقَانٍ بَيْنَ الْمَحَبَّةِ النَّافِعَةِ لِغَيْرِهِ، وَالَّتِي لَا تَنْفَعُ بَلْ قَدْ تَضَرُّ.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُحِبُّ لِذَاتِهِ إِلَّا مَنْ كَانَ كَمَالُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَإِلَهِيَّتُهُ وَرُبُوبِيَّتُهُ وَغَيْرَاهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَمَا سِوَاهُ فَإِنَّمَا يُيَغْضُبُ وَيُكْرِهُ لِمَنَافَاتِهِ مَحَابَّهُ وَمُضَادَّهُ لَهَا، وَيُغْضُبُ وَكَرَاهَتُهُ بِحَسَبِ قُوَّةِ هَذِهِ الْمُنَافَّةِ وَضَعْفِهَا، فَمَا كَانَ أَشَدَّ مُنَافَّةً لِمَحَابَّهِ، كَانَ أَشَدَّ كَرَاهَةً مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ وَالْإِرَادَاتِ وَغَيْرِهَا، فَهَذَا مِيزَانٌ عَادِلٌ تُوزَنُ بِهِ مُوافَقَةُ الرَّبِّ وَمُخَالَفَتُهُ وَمُوَالَاتُهُ وَمُعَادَاتُهُ، فَإِذَا رَأَيْنَا شَخْصًا يُحِبُّ مَا يُكْرِهُ الرَّبُّ تَعَالَى وَيُكْرِهُ مَا يُحِبُّهُ، عَلِمْنَا أَنَّ فِيهِ مِنْ مُعَادَاتِهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَإِذَا رَأَيْنَا الشَّخْصَ يُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ الرَّبُّ وَيُكْرِهُ مَا يُكْرِهُهُ، وَكُلُّمَا كَانَ الشَّيْءُ أَحَبَّ إِلَى الرَّبِّ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ وَأَثَرَهُ عِنْدَهُ، وَكُلُّمَا كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ وَأَبْعَدَ مِنْهُ، عَلِمْنَا أَنَّ فِيهِ مِنْ مُوَالَاتِ الرَّبِّ بِحَسَبِ ذَلِكَ.

فَتَمَسَّكْ بِهَذَا الْأَصْلِ فِي نَفْسِكَ وَفِي عَيْرِكَ، فَالْوِلَايَةُ عِبَارَةٌ عَنْ مُوافَقَةِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ فِي مَحَابَّهِ وَمَسَاخِطِهِ، وَلَيْسَتْ بِكَثْرَةِ صُومٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَا تَمَزُّقٍ وَلَا رِيَاضَةٍ.

وَالْمَحْبُوبُ لِغَيْرِهِ قِسْمَانِ أَيْضًا:

أَحَدُهُمَا: مَا يَلْتَذُ الْمُحِبُّ بِإِدْرَاكِهِ وَحُصُولِهِ.

وَالثَّانِي: مَا يَتَالُ بِهِ وَلَكِنْ يَحْتَمِلُهُ لِإِفْضَائِهِ إِلَى الْمَحْبُوبِ، كَشُرُبِ الدَّوَاءِ الْكَرِيَّةِ،  
قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرُهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 216].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقِتَالَ مَكْرُوهٌ لَّهُمْ مَعَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَّهُمْ لِإِفْضَائِهِ إِلَى أَعْظَمِ مَحْبُوبٍ وَأَنْفَعَهُ،  
وَالنُّفُوسُ تَحْتَ الرَّاحَةِ وَالدَّعَةِ وَالرَّفَاهِيَّةِ، ذَلِكَ شُرٌّ لَّهَا لِإِفْضَائِهِ إِلَى فَوَاتِ الْمَحْبُوبِ،  
فَالْعَاقِلُ لَا يَنْظُرُ إِلَى لَذَّةِ الْمَحْبُوبِ الْعَاجِلِ فَيُؤْثِرُهَا، وَأَلَمِ الْمَمْكُرُوهُ الْعَاجِلُ فَيُرَغِّبُ عَنْهُ،  
فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ شَرًا لَّهُ، بَلْ قَدْ يَجْلِبُ عَلَيْهِ غَايَةَ الْأَلَمِ وَيُفَوِّتُهُ أَعْظَمَ اللَّذَّةِ، بَلْ عُقَلَاءُ  
الدُّنْيَا يَتَحَمَّلُونَ الْمَشَاقَ الْمَكْرُوهَةَ لِمَا يَعْقِبُهُمْ مِنَ اللَّذَّةِ بَعْدَهَا، وَإِنْ كَانَتْ مُنْقَطِعَةً.

فَالْأُمُورُ أَرْبَعَةٌ: مَكْرُوهٌ يُوَصَّلُ إِلَى مَكْرُوهٍ، وَمَكْرُوهٌ يُوَصَّلُ إِلَى مَحْبُوبٍ، وَمَحْبُوبٌ  
يُوَصَّلُ إِلَى مَحْبُوبٍ، وَمَحْبُوبٌ يُوَصَّلُ إِلَى مَكْرُوهٍ، فَالْمَحْبُوبُ الْمُوَصَّلُ إِلَى الْمَحْبُوبِ  
قَدِ اجْتَمَعَ فِيهِ دَاعِيُ الْفَعْلِ مِنْ وَجْهَيْنِ، وَالْمَكْرُوهُ الْمُوَصَّلُ إِلَى مَكْرُوهٍ، قَدِ اجْتَمَعَ فِيهِ  
دَاعِيُ التَّرَكِ مِنْ وَجْهَيْنِ.

بَقِيَ الْقِسْمَانُ الْأَخْرَانِ يَتَجَادِبُهُمَا الدَّاعِيَانِ - وَهُمَا مُعْتَرَكُ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ -  
فَالنَّفْسُ تُؤْثِرُ أَقْرَبَهُمَا جَوَارًا مِنْهَا، وَهُوَ الْعَاجِلُ، وَالْعُقْلُ وَالْإِيمَانُ يُؤْثِرُ أَنْفَعَهُمَا وَأَبْقَاهُمَا،  
وَالْقَلْبُ بَيْنَ الدَّاعِيَيْنِ، وَهُوَ إِلَى هَذَا مَرَّةً، وَإِلَى هَذَا مَرَّةً، وَهَاهُنَا مَحَلُّ الْإِبْتِلَاءِ شَرْعًا  
وَقَدْرًا، فَدَاعِيُ الْعُقْلِ وَالْإِيمَانِ يُنَادِي كُلَّ وَقْتٍ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ

الْقَوْمُ السُّرَى، وَفِي الْمَمَاتِ يَحْمَدُ الْعَبْدُ التَّقِى، فَإِنِ اسْتَدَّ ظَلَامٌ لِيْلَ الْمَحَبَّةِ، وَتَحَكَّمَ سُلْطَانُ الشَّهْوَةِ وَالْإِرَادَةِ، يَقُولُ: يَا نَفْسُ اصْبِرِي فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِي وَيَذْهَبُ هَذَا كُلُّهُ وَيَرْوُلُ.

\* \* \*

## [فَصْلُ الْحُبُّ أَصْلُ كُلِّ عَمَلٍ]

وَإِذَا كَانَ الْحُبُّ أَصْلَ كُلَّ عَمَلٍ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، فَأَصْلُ الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا أَصْلُ الْأَقْوَالِ الدِّينِيَّةِ تَصْدِيقُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَكُلُّ إِرَادَةٍ تَمْنَعُ كَمَالَ الْحُبِّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَرَاحِمُ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ أَوْ شُبُهَةٍ تَمْنَعُ كَمَالَ التَّصْدِيقِ، فَهَيَّإِ مُعَارِضَةً لِأَصْلِ الْإِيمَانِ أَوْ مُضْعِفَةً لَهُ، فَإِنْ قَوِيَتْ حَتَّى عَارَضَتْ أَصْلَ الْحُبُّ وَالْتَّصْدِيقِ كَانَتْ كُفْرًا أَوْ شُرًّا كَأَكْبَرِ، وَإِنْ لَمْ تُعَارِضْهُ قَدَحَتْ فِي كَمَالِهِ، وَأَثَرَتْ فِيهِ ضَعْفًا وَفَتُورًا فِي الْعَزِيْمَةِ وَالْطَّلَبِ، وَهِيَ تَحْجُبُ الْلَّوَاعِصِلَ، وَتَقْطَعُ الطَّالِبَ، وَتُنْكِسُ الرَّاغِبَ، فَلَا تَصْحُ الْمُوَالَةُ إِلَّا بِالْمُعَاوَدَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ الْمُحِبِّينَ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَفَرَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: 75 - 77].

فَلَمْ يَصْحَ لِخَلِيلِ اللَّهِ هَذِهِ الْمُوَالَةُ وَالْخُلْلَةُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْمُعَاوَدَةِ، فَإِنَّهُ لَا وَلَاءَ إِلَّا بِالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سَوَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَهُ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَاتَلُوا لِقَوْمِهِ إِنَّا بُرِءُوا مِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدُوُّ وَالْعَضَائِمُ أَبْدَأُوكُنْتُمْ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [سُورَةُ الْمُمْتَحَنَةِ: 4].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَأُ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهُدِينَ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلْمَةً بَاقِيَّةً فِي عَقِيْمَهِ لَعَاهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ: 26 - 28].

أَيْ جَعَلَ هَذِهِ الْمُوَالَةَ لِلَّهِ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيمِهِ يَتَوَارَثُهَا الْأَنْسِيَاءُ وَاتَّبَاعُهُمْ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَهِيَ كَلِمَةٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهِيَ الَّتِي وَرَّثَهَا إِمَامُ الْحُنَفَاءِ لِاتَّبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

## كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ

وَهِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي قَامَتْ بِهَا الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَفَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَعَلَيْهَا أَسْسَتِ الْمِلَةَ وَنَصَبَتِ الْقِبْلَةَ، وَجُرِّدَتْ سُيُوفُ الْجِهَادِ، وَهِيَ مَحْضُ حَقِّ اللَّهِ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الْعَاصِمَةُ لِلَّدَمِ وَالْمَالِ وَالْدُّرِّيَّةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالْمُنْجِيَّةُ مِنْ عَذَابِ الْقِبِيرِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَهِيَ الْمَنْشُورُ الَّذِي لَا يُدْخِلُ الْجَنَّةَ إِلَّا بِهِ، وَالْحَبْلُ الَّذِي لَا يَصِلُّ إِلَى اللَّهِ مَنْ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِسَبِيلِهِ، وَهِيَ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ، وَمَفْتَاحُ دَارِ السَّلَامِ، وَبِهَا انْقَسَمَ النَّاسُ إِلَى شَقِّيٍّ وَسَعِيدٍ، وَمَقْبُولٍ وَطَرِيدٍ، وَبِهَا انْفَصَلَتْ دَارُ الْكُفْرِ مِنْ دَارِ الإِيمَانِ، وَتَمَيَّزَتْ دَارُ النَّعِيمِ مِنْ دَارِ الشَّقَاءِ وَالْهَوَانِ، وَهِيَ الْعُمُودُ الْحَامِلُ لِلْفَرَضِ وَالسُّنْنَةِ، وَ"مَنْ كَانَ أَخْرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ".

## رُوحُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ

وَرُوحُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَسِرُّهَا: إِفْرَادُ الرَّبِّ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَتَقْدَسُتْ أَسْمَاؤُهُ، وَتَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ - بِالْمَحَبَّةِ وَالْإِجْلَالِ وَالْتَّعْظِيمِ وَالْخُوفِ وَالرَّجَاءِ وَتَوَابِعِ ذَلِكَ: مِنَ التَّوْكِلِ وَالْإِنَابَةِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، فَلَا يُحَبُّ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا كَانَ يُحَبُّ غَيْرُهُ فَإِنَّمَا يُحَبُّ تَبَعًا لِمَحَبَّتِهِ، وَكَوْنِهِ وَسِيَّلَةً إِلَى زِيَادَةِ مَحَبَّتِهِ، وَلَا يُخَافُ سِوَاهُ، وَلَا يُؤْجِي سِوَاهُ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يُرْغَبُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُرْهَبُ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يُحَلِّفُ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا يُنْظَرُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُتَابُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُطَاعُ إِلَّا أَمْرُهُ، وَلَا يُتَحَسَّبُ إِلَّا بِهِ،

وَلَا يُسْتَغْاثُ فِي الشَّدَائِدِ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُلْتَجَأُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُسْجَدُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُذْبَحُ إِلَّا لَهُ  
وَبِاسْمِهِ، وَيَجْتَمِعُ ذَلِكَ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ: أَنْ لَا يُعْبُدَ إِلَّا إِلَيَّاهُ بِجُمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ،  
فَهَذَا هُوَ تَحْقِيقُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلِهَذَا حَرَمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ مَنْ شَهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ  
إِلَّا اللَّهُ حَقِيقَةُ الشَّهَادَةِ، وَمُحَالٌ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ مَنْ تَحَقَّقَ بِحَقِيقَةِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ وَقَامَ بِهَا،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ شَهِدُوا لَهُمْ قَالَ مُؤْمِنُونَ﴾ [سُورَةُ الْمَعَارِجِ: 33].

فَيُكُونُ قَائِمًا بِشَهَادَتِهِ فِي ظَاهِرِهِ وَبِأَطْنَابِهِ، فِي قَلْبِهِ وَقَالِبِهِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَكُونُ  
شَهَادَتُهُ مَيِّتَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ نَائِمَةً، إِذَا نَبَّهَتْ أَنْتَبَهَتْ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ مُضْطَجَعَةً، وَمِنْهُمْ  
مَنْ تَكُونُ إِلَى الْقِيَامِ أَقْرَبَ، وَهِيَ فِي الْقَلْبِ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ فِي الْبَدَنِ، فَرُوحٌ مَيِّتَةٌ، وَرُوحٌ  
مَرِيضَةٌ إِلَى الْمَوْتِ أَقْرَبُ، وَرُوحٌ إِلَى الْحَيَاةِ أَقْرَبُ، وَرُوحٌ صَحِيقَةٌ قَائِمَةٌ بِمَصَالِحِ الْبَدَنِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : "إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ الْمَوْتِ  
إِلَّا وَجَدَتْ رُوحُهُ لَهَا رَوْحًا" فَحَيَاهُ هَذِهِ الرُّوحُ بِحَيَاةِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِيهَا، فَكَمَا أَنَّ حَيَاةَ  
الْبَدَنِ يُوْجُدُ الرُّوحُ فِيهِ، وَكَمَا أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ يَتَقَلَّبُ فِيهَا،  
فَمَنْ عَاشَ عَلَى تَحْقِيقِهَا وَالْقِيَامِ بِهَا فَرُوحُهُ تَتَقَلَّبُ فِي جَنَّةِ الْمَأْوَى وَعِيشُهُ وَأَطْيَبُ  
عِيشٍ قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْمَوْتِ﴾ [فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى] [سُورَةُ  
الْأَنْعَامِ: 40 - 41]. فَالْجَنَّةُ مَأْوَاهُ يَوْمَ الْلَّقَاءِ.

وَجَنَّةُ الْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْأُنْسِ بِاللَّهِ وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ وَالْفَرَحِ بِهِ وَالرِّضَا بِهِ، وَعَنْهُ  
مَأْوَى رُوحِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ الْجَنَّةُ مَأْوَاهُ هَاهُنَا، كَانَتْ جَنَّةُ الْخُلُدِ مَأْوَاهُ  
يَوْمَ الْبَيْعَادِ، وَمَنْ حُرِمَ هَذِهِ الْجَنَّةَ فَهُوَ لِتْلُكَ الْجَنَّةِ أَشَدُ حِرْمَانًا، وَالْأَبْرَارُ فِي النَّعِيمِ وَإِنِّي  
أَشَدَّ بِهِمُ الْعِيشَ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، وَالْفُجَّارُ فِي جَحِيمٍ وَإِنْ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا،

قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَلِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَنَحْبِنَّهُ حَيَّةً طَيْبَةً ﴾ [سُورَةُ التَّحْلِيل : ٩٧] وَطِيبُ الْحَيَاةِ جَنَّةُ الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يُشَرِّحَ صَدَرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلِلَهُ يُجْعَلَ صَدَرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ : ١٢٥].

فَأَيُّ نَعِيمٍ أَطِيبُ مِنْ شَرِّ الصَّدْرِ؟ وَأَيُّ عَذَابٍ أَمْرُ مِنْ ضِيقِ الصَّدْرِ؟

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَا إِنَّكَ أَقْرَبَ إِلَيْنَا اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ ﴾ ٦١ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٦٢ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٦٤ ﴾ [سُورَةُ يُونُسَ : ٦٢ - ٦٤] فَالْمُؤْمِنُ مِنْ الْمُخْلِصِ لِلَّهِ مِنْ أَطْيَبِ النَّاسِ عَيْشًا، وَأَنْعَمِهِمْ بَالًا، وَأَشْرَحِهِمْ صَدَرًا، وَأَسْرَرَهُمْ قَلْبًا، وَهَذِهِ جَنَّةٌ عَاجِلَةٌ قَبْلَ الْجَنَّةِ الْآجِلَةِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - : "إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: حِلْقُ الدَّكْرِ".

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ - ﷺ - : "مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ".

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ وَقَدْ سَأَلُوهُ عَنْ وِصَالِهِ فِي الصَّوْمِ: "إِنِّي لَسْتُ كَهَيْتَكُمْ إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي".

فَأَخْبَرَ - ﷺ - أَنَّ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْغِذَاءِ عِنْدَ رَبِّهِ يَقُومُ مَقَامَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الْحُسْنَى، وَأَنَّ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ يَخْتَصُّ بِهِ وَلَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، فَإِذَا أَمْسَكَ عِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَلَهُ عَنْهُ عَوْضٌ يَقُومُ مَقَامَهُ وَيَنْوِبُ مَنَابَهُ، وَيُغْنِي عَنْهُ، كَمَا قِيلَ:

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَكَ تَشْغُلُهَا عَنِ الْزَادِ

لَهَا بِوْجِهِكَ نُورٌ تَسْتَخِيُّهُ بِهِ

إِذَا اشْتَكَتْ مِنْ كَلَالِ السَّيِّرِ أُوْعِدُهَا رَوْحَ الْلِقَاءِ فَتَخْيَا عِنْدَ مِيعَادِ

وَكُلَّمَا كَانَ وُجُودُ الشَّيْءِ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ وَهُوَ إِلَيْهِ أَحْوَاجُ، كَانَ تَالِمُهُ بِفَقْدِهِ أَشَدَّ، وَكُلَّمَا كَانَ عَدْمُهُ أَنْفَعَ لَهُ كَانَ تَالِمُهُ بِوُجُودِهِ أَشَدَّ، وَلَا شَيْءَ عَلَى الْإِطْلَاقِ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ، وَاسْتِغَالِهِ بِذِكْرِهِ، وَتَنْعِمَهُ بِحُبِّهِ، وَإِيَّا رِه لِمَرْضَاتِهِ، بَلْ لَا حَيَاةَ لَهُ وَلَا نَعِيمَ وَلَا سُرُورَ وَلَا بَهْجَةَ إِلَّا بِذَلِكَ، فَعَدْمُهُ الْأَلْمُ شَيْءٌ لَهُ، وَأَشَدُهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا تَغِيبُ الرُّوحُ عَنْ شُهُودِ هَذَا الْعَذَابِ وَالْأَلْمِ لِإِشْتِغَالِهَا بِغَيْرِهِ، وَاسْتِغْرَاقُهَا فِي ذَلِكَ الْغَيْرِ، تَتَغَيَّبُ بِهِ عَنْ شُهُودِ مَا هِيَ فِيهِ مِنْ الْأَلْمِ الْفَوَاتِ بِفَرَاقِ أَحَبِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا، وَأَنْفَعِهِ لَهَا، وَهَذِهِ مَنْزِلَةُ السَّكْرَانِ الْمُسْتَغْرِقِ فِي سُكْرِهِ، الَّذِي احْتَرَقَ دَارُهُ وَأَمْوَالُهُ وَأَهْلُهُ وَأَوْلَادُهُ، وَهُوَ لِإِسْتِغْرَاقِهِ فِي السُّكْرِ لَا يَشْعُرُ بِأَلْمِ ذَلِكَ الْفَوَاتِ وَحَسْرَتِهِ، حَتَّى إِذَا صَحَا، وَكُشِّفَ عَنْهُ غِطَاءُ السُّكْرِ، وَأَنْتَهَ مِنْ رَقْدَةِ الْخَمْرِ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِحَالِهِ حِينَئِذٍ.

وَهَكَذَا الْحَالُ سَوَاءٌ عِنْدَ كَشْفِ الْغِطَاءِ، وَمُعَايِنَةِ طَلَائِعِ الْآخِرَةِ، وَالْإِشْرَافِ عَلَى مُفَارَقَةِ الدُّنْيَا وَالِإِتْنَاقَالِ مِنْهَا إِلَى اللَّهِ، بَلِ الْأَلْمُ وَالْحَسْرَةُ وَالْعَذَابُ هُنَّا أَشَدُّ بِأَصْعَافِ مُضَاعَفَةٍ، فَإِنَّ الْمُصَابَ فِي الدُّنْيَا يَرْجُو جَرْ مُصِيبَتِهِ بِالْعِوْضِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ أَصْبَبَ بِشَيْءٍ زَائِلٍ لَا بَقَاءَ لَهُ، فَكَيْفَ بِمَنْ مُصِيبَتُهُ بِمَا لَا عِوْضَ عَنْهُ، وَلَا بَدَلَ مِنْهُ، وَلَا نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُّنْيَا جَمِيعَهَا؟ فَلَوْ قَضَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ مِنْ هَذِهِ الْحَسْرَةِ وَالْأَلْمِ لَكَانَ الْعَبْدُ جَدِيرًا بِهِ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لَيَعُودُ أَعْظَمَ أَمْبَيَتِهِ وَأَكْبَرَ حَسَرَاتِهِ، هَذَا لَوْ كَانَ الْأَلْمُ عَلَى مُجَرَّدِ الْفَوَاتِ، فَكَيْفَ وَهُنَاكَ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى الرُّوحِ وَالْبَدْنِ بِأَمْوَالِ أُخْرَى وُجُودِيَّةٌ مَا لَا يُقْدِرُهُ قَدْرُهُ؟ فَبَيْارَكَ مَنْ حَمَلَ هَذَا الْخَلْقَ الْمُعِيْفَ هَذَيْنِ الْأَلْمَيْنِ الْعَظِيْمَيْنِ اللَّذَيْنِ لَا تَحْمِلُهُمَا الْجِبَالُ الرَّوَاسِيُّ.

فَأَعْرَضْ عَلَى نَفْسِكَ الْأَنَّ أَعْظَمَ مَحْبُوبٍ لَكَ فِي الدُّنْيَا، بِحَيْثُ لَا تَطِيبُ لَكَ الْحَيَاةُ إِلَّا مَعَهُ، فَأَصْبَحْتَ وَقَدْ أَخِذَ مِنْكَ، وَحِيلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَحْوَاجٌ مَا كُنْتَ إِلَيْهِ، كَيْفَ يَكُونُ حَالُكَ؟ هَذَا وَمِنْهُ كُلُّ عِوْضٍ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَا عِوْضَ عَنْهُ؟ كَمَا قِيلَ:

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتَهُ عِوَضٌ  
وَمَا مِنَ اللَّهِ إِنْ ضَيَّعْتَهُ عِوَضٌ  
وَفِي أَثْرِ إِلَهِيٍّ: "ابنَ آدَمَ، خَلَقْتَ لِعِبَادِي فَلَا تَلْعَبْ، وَتَكْفُلْ بِرِزْقِكَ فَلَا تَتَعَبْ،  
ابْنَ آدَمَ، اطْلُبْنِي تَجَدُّنِي، فَإِنْ وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِنْ فُتُّكَ فَاتَّكَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنَا  
أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ".

\* \* \*

## [فَصْلُ الْمَحَبَّةِ الْمَحْمُودَةِ وَالْمَحَبَّةِ الْمَذَمُومَةِ]

وَلَمَّا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ جِنْسًا تَحْتَهُ أَنْوَاعُ مُتَفَاقِوَتَهُ فِي الْقُدْرِ وَالْوُصْفِ، كَانَ أَغْلَبُ مَا يُذَكِّرُ  
فِيهَا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُخَصُّ بِهِ وَيُلْيِقُ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِهَا، وَمَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، مِثْلُ  
الْعِبَادَةِ وَالإِنْتَابَةِ وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَكَذَا الإِنْتَابَةُ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمَحَبَّةَ  
بِاسْمِهَا الْمُطْلُقِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 54].  
وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْجِدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنَّدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا  
أَشَدُ حُبًّا لَّهُ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 165].

وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ الْمَذَمُومَةِ: الْمَحَبَّةُ مَعَ اللَّهِ الَّتِي يُسَوِّي الْمُحِبُّ فِيهَا بَيْنَ مَحَبَّتِهِ  
لِلَّهِ وَمَحَبَّتِهِ لِلنَّدِ الَّذِي اتَّخَذَهُ مِنْ دُونِهِ.

وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِهَا الْمَحْمُودَةُ: مَحَبَّةُ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ أَصْلُ السَّعَادَةِ وَرَأْسُهَا  
الَّتِي لَا يَنْجُو أَحَدٌ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا بِهَا، وَالْمَحَبَّةُ الْمَذَمُومَةُ الشُّرُكِيَّةُ هِيَ أَصْلُ الشَّقاوةِ  
وَرَأْسُهَا الَّتِي لَا يَبْقَى فِي الْعَذَابِ إِلَّا أَهْلَهَا، فَأَهْلُ الْمَحَبَّةِ الَّذِينَ أَحَبُّوا اللَّهَ وَعَبَدُوهُ وَحْدَهُ  
لَا شَرِيكَ لَهُ لَا يَدْخُلُونَ النَّارَ، وَمَنْ دَخَلَهَا مِنْهُمْ بِذُنُوبِهِ فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى فِيهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ.  
وَمَدَارُ الْقُرْآنِ عَلَى الْأَمْرِ بِتِلْكَ الْمَحَبَّةِ وَلَوَازِمِهَا، وَالنَّهِيِّ عَنِ الْمَحَبَّةِ الْأُخْرَى  
وَلَوَازِمِهَا، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ وَالْمَقَايِيسَ لِلنَّوْعَيْنِ، وَذَكَرَ فَصَصَ النَّوْعَيْنِ، وَتَنْصِيلَ أَعْمَالِ

النَّوْعَيْنِ وَأَوْلَيَّاهُمْ وَمَعْبُودَ كُلِّ مِنْهُمَا، وَإِخْبَارِهِ عَنْ فِعْلِهِ بِالنَّوْعَيْنِ، وَعَنْ حَالِ النَّوْعَيْنِ فِي الدُّورِ الْثَّلَاثَةِ: دَارِ الدُّنْيَا، وَدارِ الْبَرْزَخِ، وَدارِ الْقَرَارِ، وَالْقُرْآنُ جَاءَ فِي شَأنِ النَّوْعَيْنِ. وَأَصْلُ دَعْوَةِ جَمِيعِ الرُّسُلِ مِنْ أَوْلَيْهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، إِنَّمَا هِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الْمُتَضَمِّنَةُ لِكَمَالِ حُبِّهِ، وَكَمَالِ الْخُضُوعِ وَالذُّلُّ لَهُ، وَالْإِجْلَالِ وَالْتَّعْظِيمِ، وَلَوَازِمِ ذَلِكَ مِنَ الطَّاعَةِ وَالنَّقْوَى.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَّسٍ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ". وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - ﷺ - قَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، قَالَ: وَالَّذِي بَعْثَكَ بِالْحَقِّ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، قَالَ: الْآنَ يَا عُمَرُ. "فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنَ مَحَبَّةِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ - ﷺ - وَوُجُوبِ تَقْدِيمِهَا عَلَى مَحَبَّةِ نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَوَلَدِهِ وَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَمَا الظُّنُونُ بِمَحَبَّةِ مُرْسِلِهِ سُبْحَانُهُ وَتَعَالَى، وَوُجُوبِ تَقْدِيمِهَا عَلَى مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ؟.

وَمَحَبَّةُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ تَخْتَصُّ عَنْ مَحَبَّةِ غَيْرِهِ فِي قَدْرِهَا وَصِفَتِهَا وَإِفْرَادِهِ سُبْحَانَهُ بِهَا: فَإِنَّ الْوَاحِدَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ يَكُونَ أَحَبَّ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ، بَلْ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَنَفْسِهِ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ، فَيَكُونُ إِلَهُ الْحَقِّ وَمَعْبُودُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَالشَّيْءُ قَدْ يُحَبُّ مِنْ وَجْهِ دُونَ وَجْهٍ، وَقَدْ يُحَبُّ بِغَيْرِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُحَبُّ لِذِنَاتِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، وَلَا تَصْلُحُ الْأُلُوهِيَّةُ إِلَّا لَهُ، وَ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: 22]. وَالْتَّالِهُ: هُوَ الْمَحَبَّةُ وَالطَّاعَةُ وَالْخُضُوعُ.

\* \* \*

## [فصلُ الْحُبُّ أَصْلُ الْحَرْكَةِ]

وَكُلُّ حَرْكَةٍ فِي الْعَالَمِ الْعُلُوِّيِّ وَالسُّفْلَيِّ فَأَصْلُهَا الْمَعْبَةُ، فَهِيَ عَلَيْهَا الْفَاعِلِيَّةُ وَالْغَائِيَّةُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَرَكَاتِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: حَرْكَةُ اخْتِيَارِيَّةٍ إِرَادِيَّةٌ، وَحَرْكَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، وَحَرْكَةٌ قَسْرِيَّةٌ.

وَالْحَرْكَةُ الطَّبِيعِيَّةُ أَصْلُهَا السُّكُونُ، وَإِنَّمَا يَتَحَرَّكُ الْجِسمُ إِذَا خَرَجَ عَنْ مُسْتَقْرَرٍ وَمَرْكَزِهِ الطَّبِيعِيِّ، فَهُوَ يَتَحَرَّكُ لِلْعَوْدِ إِلَيْهِ، وَخُرُوجُهُ عَنْ مَرْكَزِهِ وَمُسْتَقْرِرِهِ إِنَّمَا هُوَ يَتَحَرَّكُ الْقَاصِرُ الْمُحَرِّكُ لَهُ، فَلَهُ حَرْكَةٌ قَسْرِيَّةٌ تَتَحَرَّكُ بِتَحْرِيكِ مُحَرِّكِهِ وَقَاسِرِهِ، وَحَرْكَةٌ طَبِيعِيَّةٌ بِذَانِهَا يَطْلُبُ بِهَا الْعَوْدَ إِلَى مَرْكَزِهِ، وَكِلَّا حَرْكَتِهِ تَابِعَةٌ لِلْقَاسِرِ الْمُحَرِّكِ، فَهُوَ أَصْلُ الْحَرَكَاتِ.

وَالْحَرْكَةُ الْإِخْتِيَارِيَّةُ الْإِرَادِيَّةُ هِيَ أَصْلُ الْحَرَكَاتِ الْأُخْرَيَّينِ، وَهِيَ تَابِعَةٌ لِلْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى انْحِصَارِ الْحَرَكَاتِ فِي هَذِهِ الْثَّلَاثِ: أَنَّ الْمُتَحَرِّكَ إِنْ كَانَ لَهُ شُعُورٌ بِالْحَرْكَةِ فَهِيَ الْإِرَادِيَّةُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شُعُورٌ بِهَا، فَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ عَلَى وَقْتٍ طَبِيعِهِ أَوْ لَا، فَالْأُولَى هِيَ الطَّبِيعِيَّةُ، وَالثَّانِيَةُ الْقَسْرِيَّةُ، إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ حَرَكَاتِ الْأَفْلَاكِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ وَالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ وَحَرَكَاتِ الْأَجْنَةِ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهَا، فَإِنَّمَا هِيَ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُدَبَّراتِ أَمْرًا وَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ فِي نُصُوصٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنْنَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَالْإِيمَانُ بِذَلِكَ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ وَكَلَّ بِالرَّحْمَمِ مَلَائِكَةً، وَبِالْقَطْرِ مَلَائِكَةً، وَبِالنَّبَاتِ مَلَائِكَةً، وَبِالرِّيَاحِ مَلَائِكَةً، وَبِالْأَفْلَاكِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

وَالنُّجُومُ، وَوَكَلَ بِكُلِّ عَبْدٍ أَرْبَعَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، كَاتِبِينَ عَنْ يَمِينِهِ وَشَمَائِلِهِ، وَحَافِظِينَ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَوَكَلَ مَلَائِكَةً بِقُبْضِ رُوحِهِ وَتَجْهِيزِهَا إِلَى مُسْتَقْرِرِهَا فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَمَلَائِكَةً بِمُسَاءِلَتِهِ وَامْتِحَانِهِ فِي قَبْرِهِ، وَمَلَائِكَةً بِتَعْذِيبِهِ فِي النَّارِ أَوْ نَعِيمِهِ فِي الْجَنَّةِ، وَوَكَلَ بِالْجِبَالِ مَلَائِكَةً، وَبِالسَّحَابِ مَلَائِكَةً تَسْوُفَهُ حَيْثُ أُمِرَتْ بِهِ، وَبِالْقَطْرِ مَلَائِكَةً تَنْزِلُ بِأَمْرِ اللَّهِ بِقَدْرِ مَعْلُومٍ كَمَا شَاءَ اللَّهُ، وَوَكَلَ مَلَائِكَةً بِغَرْسِ الْجَنَّةِ وَعَمَلِ الْتَّهَا وَفُرْشَهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا، وَمَلَائِكَةً بِالنَّارِ كَذِلِكَ.

فَأَعْظَمُ جُنْدِ اللَّهِ الْمَلَائِكَةَ، وَلَفْظُ الْمَلَكِ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مُنَفَّذٌ غَيْرِهِ وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَهُمْ يُدْبِرُونَ الْأَمْرَ وَيُقْسِمُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ وَإِذْنِهِ، قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿وَمَا نَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيَ﴾ [سُورَةُ مُرْيَمْ: 64].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُقْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبَرَضَهُ﴾ [سُورَةُ النَّجْمِ: 26].

وَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِطَوَافَتِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُنَفَّدِينَ لِأَمْرِهِ فِي الْخَلِيفَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفَا ١ فَالْتَّرَجَّاتِ رَجَّا ٢ فَالنَّلَّاتِ نَلَّا ٣ فَالنَّرِقَاتِ فَرَّقَا ٤ فَالْمُلْقَيَّاتِ ذَكَرَا ٥ مُذْرَأً أَوْنُذَرَا﴾ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ: 1 - 5].

وَقَالَ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفَا ١ فَالْعَصَفَاتِ عَصْفَا ٢ وَالنَّثَرَاتِ نَثَرَا ٣ فَالْفَرِقَاتِ فَرَقَا ٤ فَالْمُلْقَيَّاتِ ذَكَرَا ٥ مُذْرَأً أَوْنُذَرَا﴾ [سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ: 1 - 6].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّرِقَاتِ نَرِقَا ١ وَالنَّشِطَاتِ نَشَطَا ٢ وَالسَّيِّحَاتِ سَيِّحَا ٣ فَالسَّيِّقَاتِ سَيِّقَا ٤ فَالْمُدَبَّرَاتِ أَمْرَا ٥﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ: 1 - 5].

وَقَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى ذَلِكَ وَسِرَّ الْإِقْسَامِ بِهِ فِي كِتَابِ (الْتَّبَيَانِ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ).

وَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَجَمِيعُ تِلْكَ الْمُحَبَّاتِ وَالْمُحَرَّكَاتِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْأَفْعَالِ: هِيَ عِبَادَةٌ مِنْهُمْ لِرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَجَمِيعُ الْحَرَكَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْقَسْرِيَّةِ تَابِعَةٌ لَهَا، فَلَوْلَا الْحُبُّ مَا دَارَتِ الْأَفْلَاكُ، وَلَا تَحَرَّكَتِ الْكَوَافِكُ النَّيَّرَاتُ، وَلَا هَبَّتِ الرِّيَاحُ الْمُسْخَرَاتُ، وَلَا مَرَّتِ السُّحُبُ الْحَامِلَاتُ، وَلَا تَحَرَّكَتِ الْأَجْنَةُ فِي بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ، وَلَا انْصَدَعَ عَنِ الْحَبِّ أَنْوَاعُ النَّبَاتِ، وَلَا اضْطَرَبَتْ أَمْوَاجُ الزَّاَخِرَاتِ، وَلَا تَحَرَّكَتِ الْمُدَبِّرَاتُ وَالْمُقْسَمَاتُ، وَلَا سَبَّحَتْ بِحَمْدٍ فَاطِرِهَا الْأَرْضُونَ وَالسَّمَاوَاتُ، وَمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَسُبْحَانَ مَنْ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مَنْ شَئَ إِلَّا يُسَبِّحُ بِمَحْمِدِهِ، وَلِكُنْ لَا نَفَقَهُونَ تَسْبِحُهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا عَفُورًا﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: 44].

\* \* \*

### [فَصْلُ الْحُبُّ لِلَّهِ وَحْدَهُ]

فَإِذَا عُرِفَ ذَلِكَ فَكُلُّ حَيٍّ لَهُ إِرَادَةٌ وَمَحَبَّةٌ وَعَمَلٌ بِحَسِيبٍ، وَكُلُّ مُتَحَرِّكٍ فَأَصْلُ حَرَكَتِهِ الْمَحَبَّةُ وَالْإِرَادَةُ، وَلَا صَلَاحٌ لِلْمُوْجُودَاتِ إِلَّا بِأَنْ تَكُونَ حَرَكَاتُهَا وَمَحَبَّتُهَا لِفَاطِرِهَا وَبَارِئَهَا وَحْدَهُ، كَمَا لَا وُجُودٌ لَهَا إِلَّا بِإِبْدَاعِهِ وَحْدَهُ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْكَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَهَا﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: 22].

وَلَمْ يُقْلِلْ سُبْحَانَهُ: لَمَّا وُجِدَتَا وَلَكَانَتَا مَعْدُوْمَتَيْنِ، وَلَا قَالَ: لَعِدَمَتَا، إِذْ هُوَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُبْيِقَهُمَا عَلَى وَجْهِ الْفَسَادِ، لَكِنْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَا عَلَى وَجْهِ الصَّالِحِ وَالْإِسْتِقَامَةِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ مَعْبُودُهُمَا، وَمَعْبُودٌ مَا حَوَّتَاهُ وَسَكَنَ فِيهِمَا،

فَلَوْ كَانَ فِي الْعَالَمِ إِلَهٌ أَنْ لَفَسَدَ نِظَامُهُ غَايَةَ الْفَسَادِ، فَإِنَّ كُلَّ إِلَهٍ كَانَ يَطْلُبُ مُغَابَةَ الْآخِرِ، وَالْعُلُوُّ عَلَيْهِ، وَتَفَرُّدُهُ دُونَهِ بِالْهِيَّةِ، إِذَا الشَّرِكَةُ نَقْصٌ فِي كَمَالِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْإِلَهُ لَا يَرْضِي لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا نَاقِصًا، فَإِنْ قَهَرَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ كَانَ هُوَ الْإِلَهُ وَحْدَهُ، وَالْمَقْهُورُ لَيْسَ بِإِلَهٍ، وَإِنْ لَمْ يَقْهُرْ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ لَزِمَ عَجْزٌ كُلُّ مِنْهُمَا، وَلَمْ يَكُنْ تَامَ الْإِلَهِيَّةِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ فَوْقَهُمَا إِلَهٌ قَاهِرٌ لَهُمَا حَاكِمٌ عَلَيْهِمَا، وَإِلَّا ذَهَبَ كُلُّ مِنْهُمَا بِمَا خَلَقَ، وَطَلَبَ كُلُّ مِنْهُمَا الْعُلُوُّ عَلَى الْآخَرِ، وَفِي ذَلِكَ فَسَادٌ أَمْرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا، كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ مِنْ فَسَادِ الْبَلَدِ إِذَا كَانَ فِيهَا مَلِكًا نِمْتَكَافِئًا، وَفَسَادِ الزَّوْجَةِ إِذَا كَانَ لَهَا بَعْلًا، وَالشَّوْلِ: إِذَا كَانَ فِيهِ فَحْلَانٍ.

وَأَصْلُ فَسَادِ الْعَالَمِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ اخْتِلَافِ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ، وَلِهَذَا لَمْ يَطْمَعْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ فِيهِ فِي زَمِنٍ مِنَ الْأَزْمَنَةِ إِلَّا فِي زَمِنٍ تَعَدُّدِ الْمُلُوكِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَاخْتِلَافِهِمْ، وَانْفَرَادُ كُلِّ مِنْهُمْ بِيَلَادِهِ، وَطَلَبَ بَعْضُهُمُ الْعُلُوَّ عَلَى بَعْضٍ.

فَصَالَحُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاسْتِقَامَتْهَا، وَانْتِظَامُ أَمْرِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى أَتَمِّ نِظامٍ مِنْ أَظْهَرِ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْبِي وَيُمِيَّتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ مِنْ لَدُنْ عَرْشِهِ إِلَى قَرَارِ أَرْضِهِ بَاطِلٌ إِلَّا وَجْهَهُ الْأَعْلَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا أَنْخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ، مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبِّحَنَ اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾١٦١ عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَدَةُ فَتَعْلَمَ عَمَّا يُشَرِّكُونَ ﴿١٦٢ قُلْ رَبِّ إِمَامٍ أَتَرَيْنِي مَا يُوَعِّدُونَ ﴾١٦٣ [سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: 91 - 93].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَنْخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنَشِّرُونَ ﴾١٦٤ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَنَا فَسُبِّحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾١٦٥ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُشَلُّونَ ﴾١٦٦ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءُ: 21 - 23].

## الذَّلَّالُ وَالْمُنْذَرُ

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأْتَنَّهُمْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَيِّلًا ﴾ [سُورَةُ

الإِسْرَاءِ : 42]

فَقَيْلَ : لَأَتَبْغُوا السَّبِيلَ إِلَيْهِ بِالْمُغَالَبَهِ وَالْقَهْرِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ ،  
وَيَدْلُلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي الْآيَهِ الْأُخْرَى : ﴿ وَلَعَلَّ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

قَالَ شَيْخُنَا - ﷺ : وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمَعْنَى : لَأَتَبْغُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا بِالْتَّقْرِبِ إِلَيْهِ وَطَاعَهِ ،  
فَكَيْفَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِهِ ؟ وَهُمْ لَوْ كَانُوا لِهِ كَمَا يَقُولُونَ لَكَانُوا عَبِيدًا لَهُ ، قَالَ : وَيَدْلُلُ  
عَلَى هَذَا وُجُوهٌ :

مِنْهَا : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِنَّ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَهُ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ  
رَحْمَتَهُ ، وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ : 57] .

أَيْ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِي هُمْ عِبَادِي كَمَا أَنْتُمْ عِبَادِي ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتِي  
وَيَخَافُونَ عَذَابِي ، فَلِمَاذَا تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِي ؟

الثَّانِي : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُقْلِ لَأَتَبْغُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا ، بَلْ قَالَ : لَأَتَبْغُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَهَذَا الْفَطْحُ  
إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي التَّقْرِبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَتَقُولُوا لَهُ وَأَتَبْغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَهُ ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَهُ : 35] .

وَأَمَّا فِي الْمُغَالَبَهِ فَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ بِعَلَى كَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّ أَطْعَنَّكُمْ فَلَا يَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾  
[سُورَةُ النَّسَاءِ : 34] .

وَالثَّالِثُ : أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِنَّ الْهَتَّهُمْ تُغَالِبُهُ وَتَطْلُبُ الْعُلُوَّ عَلَيْهِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ  
قَالَ : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ وَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَقُولُونَ : إِنَّ الْهَتَّهُمْ تَبْتَغِي التَّقْرِبَ  
إِلَيْهِ وَتَقْرِبُهُمْ زُلْفَى إِلَيْهِ ، فَقَالُوا : لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ لَكَانَتْ تِلْكَ الْأَلِهَهُ عَبِيدًا لَهُ ،  
فَلِمَاذَا تَعْبُدُونَ عَبِيدَهُ مِنْ دُونِهِ ؟

## [فصلُ آثارُ المَحَبَّةِ]

وَالْمَحَبَّةُ لَهَا آثَارٌ وَتَوَابِعٌ وَلَوَازِمٌ وَأَحْكَامٌ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَحْمُودَةً أَوْ مَذْمُومَةً، نَافِعَةً أَوْ ضَارَّةً، مِنَ الْوَجْدَ وَالذُّوقِ وَالحَلَوَةِ، وَالشَّوْقِ وَالْأُنْسِ، وَالإِنْصَالِ بِالْمَحْبُوبِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ، وَالإِنْفَصَالِ عَنْهُ وَالْبُعْدِ عَنْهُ، وَالصَّدِّ وَالْهُجْرَانِ، وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ، وَالْبُكَاءِ وَالْحُزْنِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِهَا وَلَوَازِمِهَا.

وَالْمَحَبَّةُ الْمَحْمُودَةُ: هِيَ الْمَحَبَّةُ النَّافِعَةُ الَّتِي تَجْلِبُ لِصَاحِبِهَا مَا يَنْفَعُهُ فِي دُنْيَا وَآخِرَتِهِ، وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ، وَالضَّارَّةُ: هِيَ الَّتِي تَجْلِبُ لِصَاحِبِهَا مَا يَضُرُّهُ فِي دُنْيَا وَآخِرَتِهِ، وَهِيَ عُنْوَانُ الشَّقَاوَةِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَيَّ الْعَاقِلَ لَا يَخْتَارُ مَحَبَّةً مَا يَضُرُّهُ وَيُشْقِيهِ، وَإِنَّمَا يَصُدُّرُ ذَلِكَ عَنْ جَهْلِ وَظُلْمٍ، فَإِنَّ النَّفْسَ قَدْ تَهْوَى مَا يَضُرُّهَا وَلَا يَنْفَعُهَا، وَذَلِكَ مِنْ ظُلْمِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ، إِمَّا بِأَنْ تَكُونَ جَاهِلَةً بِحَالِ مَحْبُوبِهَا بِأَنْ تَهْوَى الشَّيْءَ وَتُتْحِبَّهُ غَيْرَ عَالِمَةٍ بِمَا فِي مَحَبَّتِهِ مِنَ الْمَضَرَّةِ، وَهَذَا حَالٌ مِنْ اتَّبَاعِ هَوَاهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِمَّا عَالِمَةٌ بِمَا فِي مَحَبَّتِهِ مِنَ الضَّرِّ لَكِنْ تُؤْتِرُ هَوَاهَا عَلَى عِلْمِهَا، وَقَدْ تَرَكَبُ مَحَبَّتِهَا عَلَى أَمْرَيْنِ: اعْتِقَادٍ فَاسِدٍ، وَهُوَ مَذْمُومٌ، وَهَذَا حَالٌ مِنْ اتَّبَاعِ الظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ، فَلَا تَقْعُ الْمَحَبَّةُ الْفَاسِدَةُ إِلَّا مِنْ جَهْلٍ أَوْ اعْتِقَادٍ فَاسِدٍ أَوْ هَوَى غَالِبٍ، أَوْ مَا تَرَكَبَ مِنْ ذَلِكَ فَأَعْنَانَ بَعْضُهُ بَعْضًا فَتَنَقَّقُ شُبْهَةً وَشَهْوَةً، شُبْهَةً يُشْتَهِيهِ بِهَا الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ وَتُرْزِقُ لَهُ أَمْرَ الْمَحْبُوبِ، وَشَهْوَةً تَدْعُهُ إِلَى حُصُولِهِ، فَيَسَّاَدُ جَيْشُ الشُّبْهَةِ وَالشَّهْوَةِ عَلَى جَيْشِ الْعُقْلِ وَالإِيمَانِ، وَالْغَلَبةُ لِأَقْوَاهُمَا.

وَإِذَا عُرِفَ هَذَا فَتَوَابِعُ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ لَهُ حُكْمٌ مَتْبُوعِهِ، فَالْمَحَبَّةُ النَّافِعَةُ الْمَحْمُودَةُ الَّتِي هِيَ عُنْوَانُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ وَتَوَابِعُهَا كُلُّهَا نَافِعَةٌ لَهُ، فَحُكْمُهَا حُكْمٌ مَتْبُوعِهَا،

فَإِنْ بَكَى نَفَعُهُ، وَإِنْ حَزِنَ نَفَعُهُ، وَإِنْ فَرَحَ نَفَعُهُ، وَإِنْ انْقَبَضَ نَفَعُهُ، وَإِنْ انْبَسَطَ نَفَعُهُ، فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي مَنَازِلِ الْمَحَبَّةِ وَأَحْكَامِهَا فِي مَزِيدٍ وَرِبْحٍ وَفُوْرَةٍ  
وَالْمَحَبَّةُ الضَّارَّةُ الْمَذْمُومَةُ، تَوَابِعُهَا وَآثَارُهَا كُلُّهَا ضَارَّةٌ لِصَاحِبِهَا، مُبِعْدَةٌ لَهُ مِنْ رَبِّهِ، كَيْفَمَا تَقَلَّبَ فِي آثَارِهَا وَنَزَلَ فِي مَنَازِلِهَا فِي خَسَارَةٍ وَبُعْدٍ.

وَهَذَا شَأنُ كُلِّ فِعْلٍ تَوَلَّدَ عَنْ طَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، فَكُلُّ مَا تَوَلَّدَ مِنَ الطَّاعَةِ فَهُوَ زِيَادَةٌ لِصَاحِبِهَا وَقُرْبَةٌ، وَكُلُّ مَا تَوَلَّدَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فَهُوَ خُسْرَانٌ لِصَاحِبِهِ وَبَعْدُ، قَالَ تَعَالَى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَّاً وَلَا نَصَّبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَيِّلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا يَعِظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيَّلًا إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ بِهِ، عَمَلٌ صَنَعَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًّا إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ

لِيَجْرِيْهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: 120 - 121].

فَأَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى: أَنَّ الْمُتَوَلَّدَ عَنْ طَاعَتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ يُكْتَبُ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، وَأَخْبَرَ فِي الثَّانِيَةِ: أَنَّ أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ الَّتِي بَاشَرُوهَا تُكْتَبُ لَهُمْ أَنْفُسُهَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ الْأَوَّلَ لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَإِنَّمَا تَوَلَّدَ عَنْهُ فَكُتُبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، وَالثَّانِي نَفْسُ أَعْمَالِهِمْ فَكُتُبَ لَهُمْ.

فَلِيَتَّأْمَلْ قَتِيلُ الْمَحَبَّةِ هَذَا الْفَصَلَ حَقَّ التَّأَمْلِ؛ لِيَعْلَمَ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ.

سِيَغْلَمُ يَوْمُ الْعَرْضِ أَيَّ بِضَاعَةٍ أَصَاعَ وَعِنْدَ الْوَزْنِ مَا كَانَ حَصَّلَ

\*\*\*

## [فصل المحبة أصل كل دين]

وَكَمَا أَنَّ الْمَحَبَّةَ وَالْإِرَادَةَ أَصْلُ كُلِّ فِعْلٍ كَمَا تَقْدَمَ، فَهِيَ أَصْلُ كُلِّ دِينٍ سَوَاءً أَكَانَ حَقًا أَوْ بَاطِلًا، فَإِنَّ الدِّينَ هُوَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، وَالْمَحَبَّةُ وَالْإِرَادَةُ أَصْلُ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ وَالْخُلُقُ، فَهُوَ الطَّاعَةُ الْلَّازِمَةُ الدَّائِمَةُ الَّتِي صَارَتْ خُلُقًا وَعَادَةً، وَلَهَا فُسْرَ الرُّخْلُقِ بِالدِّينِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سُورَةُ الْقَلْمَنْ: 4].

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ أَبْنُ عَبَّاسٍ: لَعَلَى دِينِ عَظِيمٍ.

"وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَتْ: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"."

وَالَّذِينُ فِيهِ مَعْنَى الْإِذْلَالِ وَالْقَهْرِ، وَفِيهِ مَعْنَى الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ، فَلِذَلِكَ يَكُونُ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَسْفَلِ، كَمَا يُقَالُ: دِنْتُهُ فَدَانَ، أَيْ قَهَرَتُهُ فَذَلَّ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

هُوَ دَانَ الرَّبَّابَ إِذْ كَرِهُوا الدِّينَ فَأَضْحَوْا بِعَزَّةِ وَصَيْالِ  
وَيَكُونُ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى، كَمَا يُقَالُ: دِنْتُ اللَّهَ، وَدِنْتُ لِلَّهِ، وَفُلَانُ لَا يَدِينُ اللَّهَ  
دِينًا، وَلَا يَدِينُ اللَّهَ بِدِينِ، فَدَانَ اللَّهَ: أَيْ أَطَاعَ اللَّهَ وَأَحَبَّهُ وَخَافَهُ، وَدَانَ اللَّهَ: تَخَشَّعَ لَهُ  
وَخَضَعَ وَذَلَّ وَانْقَادَ.

وَالَّذِينُ الْبَاطِنُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْحُبِّ وَالْخُضُوعِ كَالْعِبَادَةِ سَوَاءً، بِخِلَافِ الدِّينِ  
الظَّاهِرِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَلِزِمُ الْحُبُّ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ اقْتِيَادٌ وَذَلُّ فِي الظَّاهِرِ.

وَسَمَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةَ [يَوْمَ الدِّينِ] فَإِنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي يَدِينُ فِيهِ النَّاسُ فِيهِ  
بِأَعْمَالِهِمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ جَزَاءَهُمْ وَحِسَابَهُمْ، فَلِذَلِكَ  
فَسَرُّهُ يَوْمُ الْجَزَاءِ، وَيَوْمُ الْحِسَابِ.

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾٨٧ ﴿ تَرَجَّحُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ﴾٨٨ ﴿ سُورَةُ الْوَاقِعَةِ :

.[87 - 86]

أَيْ هَلَّا تَرُدُّونَ الرُّوحَ إِلَى مَكَانِهَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَرْبُوِينَ مَقْهُورِينَ وَلَا مَحْزُرِينَ ، وَهَذِهِ  
الْآيَةُ تَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ ، فَإِنَّهَا سِيَقَتْ لِلْحِتْجَاجِ عَلَيْهِمْ فِي إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَالْحِسَابَ ،  
وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الدَّلِيلُ مُسْتَلِزٌ مَا لِمَذْلُولِهِ ، بِحَيْثُ يَتَكَلَّمُ الدَّهْنُ مِنْهُ إِلَى الْمَذْلُولِ ، لِمَا  
بَيْنَهُمَا مِنَ التَّلَازُمِ ، فَيَكُونُ الْمُلْزُومُ دَلِيلًا عَلَى لَازِمِهِ ، وَلَا يَجِدُ الْعَكْسُ .

وَوَجْهُ الْإِسْتِدْلَالِ : أَنَّهُمْ إِذَا أَنْكَرُوا الْبَعْثَ وَالْجَزَاءَ فَقَدْ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، وَأَنْكَرُوا قُدْرَتَهُ  
وَرُبُوبِيَّتَهُ وَحِكْمَتَهُ ، فَإِنَّمَا أَنْ يُقْرِرُوا بِأَنَّ لَهُمْ رَبًّا قَاهِرًا مُتَصَرِّفًا فِيهِمْ ، كَمَا سَيِّمُتُهُمْ إِذَا شَاءَ  
وَيُحِبِّيهِمْ إِذَا شَاءَ ، وَيَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ ، وَيُثْبِتُ مُحْسِنَهُمْ وَيُعَاقِبُ مُسِيَّهُمْ ، وَإِنَّمَا أَنْ لَا  
يُقْرِرُوا بِرَبِّ هَذَا شَانِهِ ، فَإِنْ أَقْرَرُوا بِهِ آمَنُوا بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ، وَالَّذِينَ الْأَمْرِيُّ وَالْجَزَائِيُّ ،  
وَإِنْ أَنْكَرُوهُ كَفَرُوا بِهِ ، فَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرَ مَرْبُوِينَ وَلَا مَحْكُومٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا لَهُمْ رَبٌّ  
يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَمَا أَرَادَ ، فَهَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ الْمَوْتِ عَنْهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ، وَعَلَى رَدِّ  
الرُّوحِ إِلَى مُسْتَقِرِّهَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ، وَهَذَا خِطَابٌ لِلْحَاضِرِينَ وَهُمْ عِنْدَ الْمُحْتَضِرِ ،  
وَهُمْ يُعَايِنُونَ مَوْتَهُ ، أَيْ : فَهَلَّا تَرُدُّونَ الرُّوحَ إِلَى مَكَانِهَا إِنْ كَانَ لَكُمْ قُدْرَةٌ وَتَصْرُفٌ ،  
وَلَسْتُمْ بِمَرْبُوِينَ وَلَا بِمَقْهُورِينَ لِقَاهِرٍ قَادِرٍ ، تَمْضِي عَلَيْكُمْ أَحْكَامُهُ ، وَتَنْفَذُ أَوْأَمْرُهُ ،  
وَهَذِهِ غَايَةُ التَّعْجِيزِ لَهُمْ ، إِذْ بَيْنَ عَجْزِهِمْ عَنْ رَدِّ نَفْسٍ وَاحْدَادِهِ إِلَى مَكَانِهَا ، وَلَوْ اجْتَمَعَ  
عَلَى ذَلِكَ الشَّقْلَانِ ، فَيَا لَهَا مِنْ آيَةٍ دَالِّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ ، وَتَصْرُفُهِ فِي  
عِبَادِهِ ، وَنُفُوذُ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ ، وَجَرَيَانِهَا عَلَيْهِمْ .

والدّين دينان: دين شرعى أمرى، ودين حسابي جزائى، وكلاهما لله وحده، فالدين كله لله أبداً أو جزاء، والمحبة أصل كل واحيد من الدينين، فإن ما شرعاه سبحانه وتعالى وأمر به يحبه ويرضاه، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويغضبه؛ لمنافاته لاما يحبه ويرضاه، فهو يحب صيده، فعاد دينه الأمى كله إلى محبته ورضاه.

ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبته ورضاه، كما قال النبي - ﷺ: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربنا، وبالإسلام دينا، وبمحمد - ﷺ - رسولاً"، فهذا مدين قائم بالمحبة وسببها شرع، ولا جلها شرع، وعليها أسس، وكذلك دينه الجزائي، فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءاته، وكل من الأمرين محبوب للرب، فإنهما عدل وفضل، وكلاهما من صفات كماله، وهو سبحانه يحب صفاته وأسماءه، ويحب من يحبها، وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذي هو عليه سبحانه فهو على صراط مستقيم، في أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، كما قال تعالى إخباراً عن بيته هود عليه الصلاة والسلام إذ قال لقومه: ﴿إِنِّي أَشْهُدُ اللَّهَ وَأَشْهُدُ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا شَرَكُونَ﴾ [٥٦] من دونه، فكيدون في جياعاً ثم لا ينظرون ﴿إِنِّي تَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَمِّا دَأَبْتُ إِلَّا هُوَ أَخْذُ بِنَا صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٥٦] [سورة هود: 56].

ولما علم نبي الله هود ﷺ أن ربّه على صراط مستقيم في خلقه وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته وبلاه، و توفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس، الذي يقتضيه أسماؤه وصفاته، من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب مواضعه، والعقوبة في

مَوْضِعُهَا الْلَّاْتِقِ بِهَا، وَوَضْعُ التَّوْفِيقِ وَالْخَدْلَانِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ وَالْهَدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ، كُلُّ ذَلِكَ فِي أَمَاكِنِهِ وَمَحَالِهِ الْلَّاْتِقَةِ بِهِ، بِحِيثُ يَسْتَحِقُّ عَلَى ذَلِكَ كَمَالَ الْحَمْدِ وَالشَّاءِ، أَوْ جَبَ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمُ وَالْعِرْفَانَ، إِذْ نَادَى عَلَى رُؤُوسِ الْمَلَائِمِ مِنْ قَوْمِهِ بِجَنَانِ ثَابِتٍ وَقَلْبٍ غَيْرِ خَائِفٍ بَلْ مُتَجَرِّدٍ لِلَّهِ ﷺ إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَنَا بَعْضُ إِلَهَتَنَا سُوءٌ قَالَ إِنِّي أَشْهُدُ اللَّهَ وَآشَهُدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَمَّا إِنْ دَآبَتْ إِلَّا هُوَ أَخِذٌ بِنَاصِيَّهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ .

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ عُمُومِ قُدْرَتِهِ وَقَهْرِهِ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ، وَذُلُّ كُلِّ شَيْءٍ لِعَظَمَتِهِ، فَقَالَ: مَامِنْ دَآبَةٍ إِلَّا هُوَ أَخِذٌ بِنَاصِيَّهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾، فَكَيْفَ أَخَافُ مَنْ نَاصِيَّتُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ، وَهُوَ فِي قَهْرِهِ وَقَبْصِتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ دُونَهُ، وَهُلْ هَذَا إِلَّا مِنْ أَجْهَلِ الْجَهَلِ، وَأَقْبَحِ الظُّلْمِ؟

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، فَكُلُّ مَا يَقْضِيهِ وَيُقْدِرُهُ فَلَا يَخَافُ الْعَبْدُ جَوْرَهُ وَلَا ظُلْمَهُ، فَلَا أَخَافُ مَا دُونَهُ، فَإِنَّ نَاصِيَّتَهُ بِيَدِهِ، وَلَا أَخَافُ جَوْرَهُ وَظُلْمَهُ، فَإِنَّهُ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، فَهُوَ سُبْحَانُهُ مَاضٍ فِي عَبْدِهِ حُكْمُهُ، عَدْلٌ فِيهِ قَضَاؤُهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَلَا يَخْرُجُ فِي تَصْرِفِهِ فِي عِبَادِهِ عَنِ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، إِنْ أَعْطَى وَأَكْرَمَ وَهَدَى وَوَفَّقَ فِي فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَإِنْ مَنَعَ وَأَهَانَ وَأَضَلَّ وَخَذَلَ وَأَشْقَى فِي عَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ فِي هَذَا وَهَذَا .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيفِ: "مَا أَصَابَ عَبْدًا قَطُّ هُمْ وَلَا حَزْنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمْتَكَ، نَاصِيَّتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ: أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ

صَدِّرِي، وَجِلَاءُ حُزْنِي، وَذَهَابُ هَمِّي وَغَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرْجًَا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَعْلَمُهُنَّ؟ قَالَ: بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ .

وَهَذَا يَتَنَاهُ حُكْمُ الرَّبِّ الْكَوْنِيَّ وَالْأَمْرِيَّ وَقَضَاءُهُ الَّذِي يَكُونُ بِاِخْتِيَارِ الْعَدِّ وَغَيْرِ اِخْتِيَارِهِ، وَكِلَّا الْحُكْمَيْنِ مَاضٍ فِي عَبْدِهِ، وَكِلَّا الْقَضَائِيْنِ عَدْلٌ فِيهِ، فَهَذَا الْحَدِيثُ مُشْتَقٌ مِّنْ هَذِهِ الْآيَةِ، بَيْنُهُمَا أَقْرَبُ نَسَبٍ .

\* \* \*

## [فَصْلُ عِشْقِ الصُّورِ]

وَنَخْتِمُ الْجَوَابَ بِفَصْلٍ مُتَعَلِّقٍ بِعِشْقِ الصُّورِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَفَاسِدِ الْعَاجِلَةِ وَالْأَجِلَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ أَصْعَافَ مَا ذَكَرُهُ ذَاكِرًا، فَإِنَّهُ يُفْسِدُ الْقُلُوبَ بِالذَّاتِ، وَإِذَا فَسَدَ الْقُلُوبُ؛ فَسَدَتِ الْإِرَادَاتُ وَالْأَقْوَالُ وَالْأَعْمَالُ، وَفَسَدَ ثَغْرُ التَّوْحِيدِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَكَمَا سَنَقَرُرُهُ أَيْضًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا حَكَى هَذَا الْمَرْضَ عَنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ، وَهُمُ الْلُّوَطِيَّةُ وَالنِّسَاءُ، فَأَخْبَرَ عَنْ عِشْقِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ لِيُوسُفَ، وَمَا رَأَوَدَتْهُ وَكَادَتْهُ بِهِ، وَأَخْبَرَ عَنِ الْحَالِ الَّتِي صَارَ إِلَيْهَا يُوسُفُ بِصَبَرَهُ وَعَفَّتْهُ وَتَقَوَّاهُ، مَعَ أَنَّ الَّذِي ابْتَلَيَهُ بِهِ أَمْرٌ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ صَبَرَهُ اللَّهُ، فَإِنَّ مُوَاقَعَةَ الْفَعْلِ بِحَسَبِ قُوَّةِ الدَّاعِيِّ وَرَوَالِ الْمَانِعِ، وَكَانَ الدَّاعِيُّ هَا هُنَا فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ:

أَحَدُهَا: مَا رَكَبَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي طَبَعِ الرَّجُلِ مِنْ مَيْلِهِ إِلَى الْمَرْأَةِ، كَمَا يَمْيِلُ الْعَطْشَانُ إِلَى الْمَاءِ، وَالْجَائِعُ إِلَى الطَّعَامِ، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَصْبِرُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا يَصْبِرُ عَنِ النِّسَاءِ، وَهَذَا لَا يُدَمِّرُ إِذَا صَادَفَ حَلَالًا، بَلْ يُحَمِّدُ كَمَا فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِلْإِمَامِ

## الذَّلِيلُ وَالْأَوَّلُ

أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ يُوسُفَ بْنِ عَطِيَّةَ الصَّفَارِ عَنْ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -  
حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ ذُنُبِكُمُ النِّسَاءُ وَالطَّيْبُ، أَصْبِرُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا أَصْبِرُ عَنْهُنَّ .

الثَّانِي: أَنَّ يُوسُفَ كَانَ شَابًا، وَشَهْوَةُ الشَّبَابِ وَحِدَتُهُ أَقْوَى.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ كَانَ عَزَبًا، لَيْسَ لَهُ زَوْجٌ وَلَا سُرِّيَّةٌ تَكِسِّرُ شِدَّةَ الشَّهْوَةِ .

الرَّابِعُ: أَنَّهُ كَانَ فِي بِلَادِ غُرْبَةٍ، يَتَّأْتِي لِلْغَرِيبِ فِيهَا مِنْ قَضَاءِ الْوَطَرِ مَا لَا يَتَّأْتِي لَهُ فِي  
وَطْنِهِ وَبَيْنَ أَهْلِهِ وَمَعَارِفِهِ .

الخَامِسُ: أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ ذَاتَ مَنْصِبٍ وَجِمَالٍ، بِحَيْثُ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِينِ  
الْأَمْرَيْنِ يَدْعُو إِلَى مُوَاقِعَتِهَا .

السَّادِسُ: أَنَّهَا غَيْرُ مُمْتَنَعَةٍ وَلَا آبِيَّةٍ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُزِيلُ رَغْبَتَهُ فِي الْمَرْأَةِ إِبَاوُهَا  
وَامْتِنَاعُهَا، لِمَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ مِنْ ذُلُّ الْخُصُوصِ وَالسُّؤَالِ لَهَا، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَزِيدُهُ  
الْإِبَاءُ وَالْإِمْتِنَاعُ إِرَادَةً وَحُبًّا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَزَادَنِي كَلَفًا فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعَتْ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مَنَعَا  
فَطَبَاعُ النَّاسِ مُخْتَلِفٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَضَاعِفُ حُبُّهُ عِنْدَ بَذْلِ الْمَرْأَةِ وَرَغْبَتِهَا، وَيَضْمَحِلُّ  
عِنْدَ إِبَاوُهَا وَامْتِنَاعِهَا، وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ الْفُقَادَاءِ أَنَّ إِرَادَتَهُ وَشَهْوَتَهُ تَضْمَحِلُّ عِنْدَ امْتِنَاعِ  
أَمْرَأَتِهِ أَوْ سُرِّيَّتِهِ وَإِبَاوُهَا، بِحَيْثُ لَا يُعَاوِدُهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَضَاعِفُ حُبُّهُ وَإِرَادَتُهُ بِالْمَنْعِ  
فَيُشَتَّتُ شَوْقُهُ كُلَّمَا مُنَعَ، وَيَحْصُلُ لَهُ مِنَ اللَّذَّةِ بِالظَّفَرِ بِالضِّدِّ بَعْدَ امْتِنَاعِهِ وَنِفَارِهِ، وَاللَّذَّةُ  
يُإِدِرَكُ الْمَسْأَلَةَ بَعْدَ اسْتِصْبَاعِهَا، وَشِدَّةُ الْحِرْصِ عَلَى إِدْرَاكِهَا .

السَّابِعُ: أَنَّهَا طَلَبَتْ وَأَرَادَتْ وَبَذَلَتِ الْجُهْدَ، فَكَفَتُهُ مُؤْنَةُ الْطَّلَبِ وَذُلُّ الرَّغْبَةِ إِلَيْها،  
بَلْ كَانَتْ هِيَ الرَّاغِبَةُ الذَّلِيلَةُ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْمَرْغُوبُ إِلَيْهِ .

الثَّامِنُ: أَنَّهُ فِي دَارِهَا، وَتَحْتَ سُلْطَانِهَا وَقَهْرِهَا، بِحَيْثُ يَخْشَى إِنْ لَمْ يُطَاوِعْهَا مِنْ أَذَاهَا لَهُ، فَاجْتَمَعَ دَاعِي الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ.

النَّاسُ: أَنَّهُ لَا يَخْشَى أَنْ تَنَمَّ عَلَيْهِ هِيَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ جِهَتِهَا، فَإِنَّهَا هِيَ الطَّالِبُ الرَّاغِبُ، وَقَدْ غَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَغَيَّبَتِ الرُّفَبَاءَ.

الْعَاشِرُ: أَنَّهُ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَمْلُوكًا لَهَا فِي الدَّارِ، بِحَيْثُ يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَحْضُرُ مَعَهَا وَلَا يُنْكِرُ عَلَيْهِ، وَكَانَ الْأَنْسُ سَابِقًا عَلَى الْطَّلَبِ وَهُوَ مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي، كَمَا قِيلَ لِأَمْرَأَةِ شَرِيفَةٍ مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ: مَا حَمَلَكِ عَلَى الزَّنَى؟ قَالَتْ: قُرْبُ الْوِسَادِ، وَطُولُ السَّوَادِ، تَعْنِي قُرْبَ وِسَادِ الرَّجُلِ مِنْ وِسَادَتِي، وَطُولُ السَّوَادِ بَيْنَنَا.

الْحَادِيَ عَشَرَ: أَنَّهَا اسْتَعَانَتْ عَلَيْهِ بِأَئِمَّةِ الْمَكْرِ وَالْإِخْتِيَالِ، فَأَرَتْهُ إِيَاهُنَّ، وَشَكَتْ حَالَهَا إِلَيْهِنَّ؛ لِتَسْتَعِينَ بِهِنَّ عَلَيْهِ، وَاسْتَعَانَ هُوَ بِاللَّهِ عَلَيْهِنَّ، فَقَالَ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبِ إِلَيْهِنَّ وَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ: 33].

الثَّانِيَ عَشَرَ: أَنَّهَا تَوَعَّدَتُهُ بِالسُّجْنِ وَالصَّغَارِ، وَهَذَا نَوْعٌ إِكْرَاهٌ، إِذْ هُوَ تَهْدِيدٌ مِنْ يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ وَقُوَّةٌ مَا هَدَدَ بِهِ، فَيَجْتَمِعُ دَاعِي الشَّهْوَةِ، وَدَاعِي السَّلَامَةِ مِنْ ضِيقِ السُّجْنِ وَالصَّغَارِ.

الثَّالِثَ عَشَرَ: أَنَّ الزَّوْجَ لَمْ يَظْهُرْ مِنْهُ الْغَيْرُ وَالنَّخْوَةُ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَهُمَا، وَيُبَعْدُ كُلَّا مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ، بَلْ كَانَ غَایَةَ مَا قَابَلَهَا بِهِ أَنْ قَالَ لِيُوسُفَ: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ وَلِلْمَرْأَةِ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدَنِيَكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ وَشَدَّةُ الْغَيْرَةِ لِلرَّجُلِ مِنْ أَقْوَى الْمَوَانِعِ، وَهُنَا لَمْ يَظْهُرْ مِنْهُ عَيْرَةً.

وَمَعَ هَذِهِ الدَّوَاعِي كُلُّهَا فَاثِرَ مَرْضَاهُ اللَّهِ وَخَوْفَهُ، وَحَمَلَهُ حُبُّهُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ اخْتَارَ السَّجْنَ عَلَى الرِّزْقِ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ: 33].

وَعِلْمَ أَنَّهُ لَا يُطِيقُ صَرْفَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ، وَأَنَّ رَبَّهُ تَعَالَى إِنْ لَمْ يَعْصِمْهُ وَيَصْرِفُ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ؛ صَبَا إِلَيْهِنَّ بِطَبَعِهِ، وَكَانَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ وَبِنَفْسِهِ. وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنَ الْعِبَرِ وَالْفَوَائِدِ وَالْحِكَمِ مَا يَزِيدُ عَلَى الْأَلْفِ فَائِدَةً، لَعَلَّنَا إِنْ وَفَّقَ اللَّهُ أَنْ فُرِّدَهَا فِي مُصَنَّفٍ مُسْتَقِلٍّ.

\* \* \*

## [فَصْلُ عِشْقُ الْلُّوْطِيَّةِ]

وَالطَّائِفَةُ الثَّانِيَّةُ، الَّذِينَ حَكَى اللَّهُ عَنْهُمُ الْعِشْقَ: هُمُ الْلُّوْطِيَّةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَشْرِفُونَ﴾ ٦٧ ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَنْقَضُونِ﴾ ٦٨ ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُونِ﴾ ٦٩ ﴿قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَاكُ عَنِ الْعَلَمِينَ﴾ ٧٠ ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاقٍ إِنْ كُنْتُ فَنَعِلِينَ﴾ ٧١ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكَرٍ يَعْمَهُونَ﴾ [سُورَةُ الْحِجْرِ: 67 - 72].

فَهَذِهِ الْأُمَّةُ عَشِقَتْ فَحَكَاهُ سُبْحَانَهُ عَنْ طَائِفَتَيْنِ، عَشِقَ كُلُّ مِنْهُمَا مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ مِنَ الصُّورِ، وَلَمْ يُبَالِ بِمَا فِي عِشْقِهِ مِنَ الْضَّرِّ.

وَهَذَا دَاءُ أَعْيَا الْأَطِيَاءِ دَوَاؤُهُ، وَعَزَّ عَلَيْهِمْ شِفَاؤُهُ، وَهُوَ وَاللَّهُ الدَّاءُ الْعُضَالُ، وَالسُّمُّ الْقَتَّالُ، الَّذِي مَا عَلِقَ بِقَلْبٍ إِلَّا وَعَزَّ عَلَى الْوَرَى خَلَاصُهُ مِنْ إِسَارِهِ، وَلَا اشْتَعَلَتْ نَارُهُ فِي مُهْجَةٍ إِلَّا وَصَعُبَ عَلَى الْخَلْقِ تَخْلِيصُهَا مِنْ نَارِهِ.

وَهُوَ أَقْسَامٌ:

تَارَةً يَكُونُ كُفْرًا: لِمَنِ اتَّخَذَ مَعْشُوقَهُ نِدًا يُحِبُّهُ كَمَا يُحِبُّ اللَّهَ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ مَحَبَّتُهُ أَعْظَمَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ؟ فَهَذَا عِشْقٌ لَا يُغْفِرُ لِصَاحِبِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْشَّرِكِ، وَاللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ، وَإِنَّمَا يَغْفِرُ بِالْتَّوْبَةِ الْمَاحِيَّةِ مَا دُونُ ذَلِكَ.

وَعَلَامَةُ الْعِشْقِ الشَّرِكِيُّ الْكُفْرِيُّ: أَنْ يُقْدِمَ الْعَاشِقُ رِضَاءً مَعْشُوقِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَإِذَا تَعَارَضَ عِنْدُهُ حَقُّ مَعْشُوقِهِ وَحَاظُهُ، وَحَقُّ رَبِّهِ وَطَاعَتُهُ، قَدَّمَ حَقًّا مَعْشُوقِهِ عَلَى حَقِّ رَبِّهِ، وَأَثَرَ رِضَاهُ عَلَى رِضَاهُ، وَبَذَلَ لَهُ أَنْفَسَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَبَذَلَ لِرَبِّهِ - إِنْ بَذَلَ - أَرْدَأَ مَا عِنْدَهُ، وَاسْتَفْرَغَ وُسْعَهُ فِي مَرْضَاهُ مَعْشُوقِهِ وَطَاعَتِهِ وَالْتَّقْرِبُ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ لِرَبِّهِ - إِنْ أَطَاعَهُ - الْفَضْلَةَ الَّتِي تَفَضَّلَ مَعْشُوقُهُ مِنْ سَاعَاتِهِ.

فَتَأَمَّلُ حَالَ أَكْثَرِ عُشَّاقِ الصُّورِ تَجِدُهَا مُطَابِقَةً لِذَلِكَ، ثُمَّ ضَعْ حَالُهُمْ فِي كَفَّةٍ وَتَوْحِيدُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ فِي كَفَّةٍ، ثُمَّ زِنْ وَزْنًا يَرْضَى اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَيُطَابِقُ الْعَدْلَ، وَرُبَّمَا صَرَّحَ الْعَاشِقُ مِنْهُمْ بِأَنَّ وَصْلَ مَعْشُوقِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ رَبِّهِ، كَمَا قَالَ الْعَاشِقُ الْخَيِّثُ:

يَرْشَفُنَ مِنْ قَمَيِ رَشَفَاتٍ هُنَّ أَخْلَى فِيهِ مِنَ التَّوْحِيدِ

وَكَمَا صَرَّحَ الْخَيِّثُ الْآخَرُ أَنَّ وَصْلَ مَعْشُوقِهِ أَشْهَى إِلَيْهِ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ، وَقَدْ مَرَ.

بِلَا رَيْبٍ إِنَّ هَذَا الْعِشْقَ مِنْ أَعْظَمِ الْشَّرِكِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يُصْرُحُ بِأَنَّهُ لَمْ يَقِنْ فِي قَلْبِهِ مَوْضِعُ لِغَيْرِ مَعْشُوقِهِ الْبَتَّةَ، بَلْ قَدْ مَلَكَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ كُلُّهُ فَصَارَ عَبْدًا مَحْضًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لِمَعْشُوقِهِ، فَقَدْ رَضِيَ هَذَا مِنْ عُبُودِيَّةِ الْخَالقِ جَلَّ جَلَالُهُ بِعُبُودِيَّةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ: فَإِنَّ الْعُبُودِيَّةَ هِيَ كَمَالُ الْحُبُّ وَالْخُضُوعِ، وَهَذَا قَدْ اسْتَفْرَغَ قُوَّةَ حُبِّهِ وَخُضُوعِهِ وَذُلِّهِ لِمَعْشُوقِهِ فَقَدْ أَعْطَاهُ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ.

وَلَا نِسْبَةَ بَيْنَ مَفْسَدَةِ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ وَمَفْسَدَةِ الْفَاحِشَةِ، فَإِنَّ تِلْكَ ذَنْبٌ كَبِيرٌ لِقَاعِلِهِ حُكْمُ أَمْثَالِهِ، وَمَفْسَدَةُ هَذَا الْعِشْقِ مَفْسَدَةُ الشُّرُكِ، وَكَانَ بَعْضُ الشُّيُوخِ مِنَ الْعَارِفِينَ يَقُولُ: لَأَنْ أَبْتَلَى بِالْفَاحِشَةِ مَعَ تِلْكَ الصُّورَةَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَبْتَلَى فِيهَا بِعِشْقٍ يَتَعَبَّدُ لَهَا قَلْبِي وَيَشْغُلُهُ عَنِ اللَّهِ.

\*\*\*

### [فصل دواء العشق]

وَدَوَاءُ هَذَا الدَّاءِ الْقَنَاعُ: أَنْ يَعْرِفَ أَنْ مَا ابْتُلَى بِهِ مِنْ هَذَا الدَّاءِ الْمُضَادُ لِلتَّوْحِيدِ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ جَهْلِهِ وَغَفْلَةِ قَلْبِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ تَوْحِيدَ رَبِّهِ وَسُرْتَهُ أَوْلًا، ثُمَّ يَأْتِي مِنَ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ بِمَا يَشْغُلُ قَلْبَهُ عَنْ دَوَامِ الْفِكْرَةِ فِيهِ، وَيُكْثِرُ اللَّجَأَ وَالتَّضَرُّعَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي صَرْفِ ذَلِكَ عَنْهُ، وَأَنْ يُرَاجِعَ بِقَلْبِهِ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ أَنْفَعُ مِنَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَهُوَ الدَّوَاءُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ: 24].

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ صَرَفَ عَنْهُ السُّوءَ مِنَ الْعِشْقِ وَالْفَحْشَاءِ مِنَ الْفِعْلِ بِإِخْلَاصِهِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أَخْلَصَ وَأَخْلَصَ عَمَلَهُ لِلَّهِ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْهُ عِشْقُ الصُّورِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنْ قَلْبٍ فَارِغٍ، كَمَا قَالَ:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَغْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا حَالِبًا فَتَمَكَّنَ

وَلَيَعْلَمِ الْعَاقِلُ أَنَّ الْعُقْلَ وَالشَّرْعَ يُوجِبَانِ تَحْصِيلَ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلَهَا، وَإِعْدَامَ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلَهَا، فَإِذَا عَرَضَ لِلْعَاقِلِ أَمْرٌ يَرَى فِيهِ مَصْلَحَةً وَمَفْسَدَةً، وَجَبَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ:

أَمْرٌ عِلْمِيٌّ، وَأَمْرٌ عَمَلِيٌّ، فَالْعِلْمِيُّ: مَعْرِفَةُ الرَّاجِحِ مِنْ طَرَفِ الْمَصْلَحَةِ وَالْمَفْسَدَةِ، فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ الرُّجْحَانُ وَجَبَ عَلَيْهِ إِيَّاهُ الْأَصْلَحُ لَهُ.

### أَضْرَارُ الْعِشْقِ

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي عِشْقِ الصُّورِ مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ وَلَا دُنْيَوِيَّةٌ، بَلْ مَفْسَدَتُهُ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ أَضْعَافُ أَضْعَافٍ مَا يُقَدَّرُ فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ:

أَحَدُهَا: الْإِشْتِغَالُ بِحُبِّ الْمَخْلُوقِ وَذِكْرِهِ عَنْ حُبِّ الرَّبِّ تَعَالَى وَذِكْرِهِ، فَلَا يَجْتَمِعُ فِي الْقَلْبِ هَذَا وَهَذَا إِلَّا وَيَقْهَرُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، وَيَكُونُ السُّلْطَانُ وَالْغَلَبَةُ لَهُ.

الثَّانِي: عَذَابُ قَلْبِهِ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ عُذْبَ بِهِ وَلَا بُدَّ، كَمَا قِيلَ: فَمَا فِي الْأَرْضِ أَشَقَّ مِنْ مُحِبٍّ  
وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى حُلْوَ الْمَذَاقِ  
تَرَاهُ بَاكِيًا فِي كُلِّ حِينِ  
مَحَافَةً فُرْقَةً أَوْ لَا شَتِيَاقِ  
فَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا شَوْقًا إِلَيْهِمْ  
وَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الْفِرَاقِ  
وَالْعِشْقُ وَإِنْ اسْتَلَدَ بِهِ صَاحِبُهُ، فَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ عَذَابِ الْقَلْبِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ قَلْبَهُ أَسِيرٌ قَبْضَةٌ غَيْرِهِ يَسُومُهُ الْهَوَانُ، وَلَكِنْ لِسَكْرِتِهِ لَا يَشْعُرُ بِمُصَابِهِ، فَقَبْلُهُ كَعْصُفُورَةٌ فِي كَفِّ طِفْلٍ يَسُومُهَا حِيَاضُ الرَّدَى، وَالطِّفْلُ يَلْهُو وَيَلْعَبُ، كَمَا قَالَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ:

مَلَكَتْ فُؤَادِي بِالْقَطِيْعَةِ وَالْجَفَافِ  
وَأَنْتَ خَلِيُّ الْبَالِ تَلْمُو وَتَلْعَبُ  
فَعَيْشُ الْعَاشِقِ عَيْشُ الْأَسِيرِ الْمُوْثِقِ، وَعَيْشُ الْخَلِيُّ عَيْشُ الْمُسَيَّبِ الْمُطْلَقِ.

ظَلِيلٌ عَلَى قُظْبِ الْهَلَالِ يَدُورُ

وَمَيْتُ يُرَى فِي صُورَةِ الْحَيِّ غَادِيَا

أَخُو غَمَرَاتٍ صَاعَ فِيهِنَّ قَلْبُهُ

الرَّابِعُ: أَنَّهُ يَشْتَغِلُ بِهِ عَنْ مَصَالِحِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَضَيْعُ لِمَصَالِحِ الدِّينِ  
وَالدُّنْيَا مِنْ عِشْقِ الصُّورِ، أَمَّا مَصَالِحُ الدِّينِ فَإِنَّهَا مَنْوَطَةٌ بِلَمْ شَعَثِ الْقَلْبِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى  
اللَّهِ، وَعِشْقُ الصُّورِ أَعْظَمُ شَيْءٍ تَشْعِيْنَا وَتَشْتَتِيْنَا لَهُ.

وَأَمَّا مَصَالِحُ الدُّنْيَا فَهِيَ تَابِعَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ لِمَصَالِحِ الدِّينِ، فَمَنْ انْفَرَطَتْ عَلَيْهِ  
مَصَالِحُ دِينِهِ وَضَاعَتْ عَلَيْهِ، فَمَصَالِحُ دُنْيَاهُ أَضَيْعُ وَأَضَيْعُ.

الْخَامِسُ: أَنَّ آفَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَسْرَعُ إِلَى عُشَاقِ الصُّورِ مِنَ النَّارِ فِي يَابِسِ  
الْحَطَبِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ: أَنَّ الْقَلْبَ كُلَّمَا قَرُبَ مِنَ الْعِشْقِ وَقَوِيَ اتِّصَالُهُ بِهِ بَعْدَ مِنَ اللَّهِ،  
فَأَبَعَدَ الْقُلُوبِ مِنَ اللَّهِ قُلُوبُ عُشَاقِ الصُّورِ، وَإِذَا بَعْدَ الْقَلْبُ مِنَ اللَّهِ طَرَقَتُهُ الْآفَاتُ،  
وَتَوَلَّهُ الشَّيْطَانُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَاسْتَوَلَ عَلَيْهِ لَمْ يَدْعُ أَذْى يُمْكِنُهُ إِيْصَالُهُ إِلَيْهِ إِلَّا أَوْصَلَهُ،  
فَمَا الظُّنُونُ بِقَلْبٍ تَمَكَّنَ مِنْهُ عَدُوُهُ وَأَحْرَصُ الْخَلْقِ عَلَى غَيِّهِ وَفَسَادِهِ، وَبَعْدَ مِنْهُ وَلِيُّهُ، وَمَنْ  
لَا سَعَادَةَ لَهُ وَلَا فَرَحَ وَلَا سُرُورٌ إِلَّا بِقُرْبِهِ وَوِلَايَتِهِ؟

السَّادِسُ: أَنَّهُ إِذَا تَمَكَّنَ مِنَ الْقَلْبِ وَاسْتَحْكَمَ وَقَوِيَ سُلْطَانُهُ، أَفْسَدَ الدَّهْنَ، وَأَحْدَثَ  
الْلَّوْسَانَ، وَرُبَّمَا الْحَقَّ صَاحِبُهُ بِالْمَجَانِينِ الَّذِينَ فَسَدَتْ عُقُولُهُمْ فَلَا يَتَنَعَّمُونَ بِهَا.

وَأَخْبَارُ الْعُشَاقِ فِي ذَلِكَ مَوْجُودَةٌ فِي مَوَاضِعِهَا، بَلْ بَعْضُهَا مَشَاهِدٌ بِالْعَيَانِ،  
وَأَشْرَفُ مَا فِي الْإِنْسَانِ عَقْلُهُ، وَبِهِ يَتَمَيَّزُ عَنْ سَائِرِ الْحَيَّانَاتِ، فَإِذَا عُدِمَ عَقْلُهُ التَّحَقَّ

## الذَّلَّةُ وَالذَّلَّةُ

بِالْحَيَّانِ الْبَهِيمِ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ حَالُ الْحَيَّانِ أَصْلَحَ مِنْ حَالِهِ، وَهُلْ أَذْهَبَ عَقْلَ مَجْنُونٍ  
لَيْلَى وَأَضْرَابِهِ إِلَّا ذَلِكَ؟ وَرُبَّمَا زَادَ جُنُونُهُ عَلَى جُنُونِ غَيْرِهِ كَمَا قِيلَ:

قَالُوا جِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ      الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينَ  
وَإِنَّمَا يُضْرِعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحَيْنِ      الْعِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ

السَّابُعُ: عَنْهُ رُبَّمَا أَفْسَدَ الْحَوَاسَّ أَوْ بَعْضَهَا، إِمَّا إِفْسَادًا مَعْنَوِيًّا أَوْ صُورِيًّا، أَمَّا الْفَسَادُ  
الْمَعْنَوِيُّ فَهُوَ تَابُعُ لِفَسَادِ الْقَلْبِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا فَسَدَ فَسَدَتِ الْعَيْنُ وَالْأُذْنُ وَاللِّسَانُ،  
فِيَرَى الْقِبَحَ حَسَنًا مِنْهُ وَمِنْ مَعْشُوقِهِ كَمَا فِي الْمُسْنَدِ مَرْفُوعًا: "حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي  
وَيُصِّمُ" فَهُوَ يُعْمِي عَيْنَ الْقَلْبِ عَنْ رُؤْيَةِ مَسَاوِيِ الْمَحْبُوبِ وَعُيُوبِهِ، فَلَا تَرَى الْعَيْنُ  
ذَلِكَ، وَيُصِّمُ أُذْنَهُ عَنِ الْإِصْغَاءِ إِلَى الْعَدْلِ فِيهِ، فَلَا تَسْمَعُ الْأُذْنُ ذَلِكَ، وَالرَّغَبَاتُ تَسْتُرُ  
الْعُيُوبَ، فَالرَّاغِبُ فِي الشَّيْءِ لَا يَرَى عُيُوبَهُ، حَتَّى إِذْ رَأَتْ رَغْبَتُهُ فِيهِ أَبْصَرَ عُيُوبَهُ، فَشِدَّةُ  
الرَّغْبَةِ غِشَاوَةٌ عَلَى الْعَيْنِ، تَمْنَعُ مِنْ رُؤْيَةِ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ بِهِ، كَمَا قِيلَ:

هَوَيْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةً      فَلَمَّا اجْلَتْ قَطَعْتُ نَفْسِي أَلْوَمُهَا

وَالَّذِي أَخْلَى فِي الشَّيْءِ لَا يَرَى عُيُوبَهُ، وَالْخَارِجُ مِنْهُ الَّذِي لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ لَا يَرَى عُيُوبَهُ،  
وَلَا يَرَى عُيُوبَهُ إِلَّا مَنْ دَخَلَ فِيهِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهُ، وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي  
الإِسْلَامِ بَعْدَ الْكُفْرِ خَيْرًا مِنَ الَّذِينَ وُلِّدُوا فِي الْإِسْلَامِ.

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - إِنَّمَا تَنْتَقِضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، إِذَا وُلِّدَ فِي  
الإِسْلَامِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْجَاهِلِيَّةَ.

وَأَمَّا فَسَادُ الْحَوَاسَّ ظَاهِرًا، فَإِنَّهُ يُمْرُضُ الْبَدَنَ وَيُنْهِكُهُ، وَرُبَّمَا أَدَى إِلَى تَلَفِّهِ، كَمَا  
هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي أَخْبَارِ مَنْ قَتَلَهُمُ الْعِشْقُ.

وَقَدْ رُفِعَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ بِعِرَفَةَ شَابٌ قَدِ انْتَهَى حَتَّى عَادَ جِلْدًا عَلَى عَظِيمٍ، فَقَالَ: مَا شَاءَنُ هَذَا؟ قَالُوا: بِهِ الْعِشْقُ، فَجَعَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَسْتَعِدُ بِاللَّهِ مِنَ الْعِشْقِ عَامَةً يَوْمِهِ.

الثَّامِنُ: أَنَّ الْعِشْقَ كَمَا تَقَدَّمَ هُوَ الْإِفْرَاطُ فِي الْمَحَبَّةِ، بِحِينُّ يَسْتَوْلِي الْمَعْشُوقُ عَلَى قَلْبِ الْعَاشِقِ، حَتَّى لَا يَخْلُو مِنْ تَخْيِيلِهِ وَذِكْرِهِ وَالْفَكْرِ فِيهِ، بِحِينُّ لَا يَغِيبُ عَنْ خَاطِرِهِ وَذِهْنِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَشْتَغِلُ النَّفْسُ عَنِ اسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَالنَّفْسَانِيَّةِ فَتَعَطَّلُ تِلْكَ الْقُوَّةُ، فَيَحْدُثُ بِتَعْطِيلِهَا مِنَ الْأَفَاتِ عَلَى الْبَدَنِ وَالرُّوحِ مَا يَعْزُزُ دَوَاؤُهُ وَيَتَعَدَّرُ، فَتَغِيرُ أَفْعَالُهُ وَصِفَاتُهُ وَمَقَاصِدُهُ، وَيَخْتَلُ جَمِيعُ ذَلِكَ، فَتَعْجِزُ الْبَشَرُ عَنْ صَالِحِهِ، كَمَا قِيلَ:

الْحُبُّ أَوْلُ مَا يَكُونُ لِجَاجَةٍ يَأْتِي بِهَا وَتَسْوُقُهُ الْأَقْدَارُ  
حَتَّى إِذَا خَاصَ الْفَتَى لُجُجَ الْهَوَى جَاءَتْ أُمُورُ لَا تُظَاقُ كِبَارُ  
وَالْعِشْقُ مِبَادِيهِ سَهْلَةُ حُلُوَّةُ، وَأَوْسَطُهُ هُمُ وَشُغْلُ قَلْبُ وَسَقْمُ، وَآخِرُهُ عَطَبُ وَقَتْلُ،  
إِنْ لَمْ تَتَدَارَكُهُ عِنَانِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قِيلَ:

وَعِشْ خَالِيَا فَالْحُبُّ أَوْلُهُ عَنَا وَأَوْسَطُهُ سَقْمٌ وَآخِرُهُ قَتْلٌ  
وَقَالَ آخِرُ:

تَوَلَّعَ بِالْعِشْقِ حَتَّى عَشِيقٌ فَلَمَّا اسْتَقَلَّ بِهِ لَمْ يُطِقْ  
رَأَى بُجُّهَةَ ظَنَّهَا مَوْجَةً فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا غَرِّقَ  
وَالذَّنْبُ لَهُ، فَهُوَ الْجَانِي عَلَى نَفْسِهِ، وَقَدْ قَعَدَ تَحْتَ الْمَثَلِ السَّائِرِ: "يَدَاكَ أَوْكَتا،  
وَفُوكَ نَفَخَ".

\*\*\*

## الفصلُ مَقَامَاتُ الْعَاشِقِ

وَالْعَاشِقُ لَهُ ثَلَاثُ مَقَامَاتٍ: مَقَامُ ابْتِدَاءٍ، وَمَقَامُ تَوْسُطٍ، وَمَقَامُ انْتِهَاٍ.

فَأَمَّا مَقَامُ ابْتِدَاءِهِ: قَالُوا: يَجِبُ عَلَيْهِ مُدَافَعَتُهُ بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، إِذَا كَانَ الْوُصُولُ إِلَى مَعْشُوقِهِ مُتَعَذِّرًا قَدْرًا وَشَرُعًا، فَإِنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ وَأَبَى قَلْبُهُ إِلَّا السَّفَرُ إِلَى مَحْبُوبِهِ - وَهَذَا مَقَامُ التَّوْسُطِ وَالْإِنْتِهَاٍ - فَعَلَيْهِ كِتْمَانُهُ ذَلِكَ، وَأَنْ لَا يُفْسِيَهُ إِلَى الْخَلْقِ، وَلَا يُشْمَتَ بِمَحْبُوبِهِ وَبِهِتْكِهِ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَجْمَعُ بَيْنَ الشُّرُكِ وَالظُّلُمِ، فَإِنَّ الظُّلُمَ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الظُّلُمِ، وَرُبَّمَا كَانَ أَعْظَمَ ضَرَرًا عَلَى الْمَعْشُوقِ وَأَهْلِهِ مِنْ ظُلْمِهِ فِي مَالِهِ، فَإِنَّهُ يُرَرِّضُ الْمَعْشُوقَ بِهِتْكِهِ فِي عِشْقِهِ إِلَى وُقُوعِ النَّاسِ فِيهِ، وَانْقِسَامِهِمْ إِلَى مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَصَدِّقُ فِي هَذَا الْبَابِ بِأَدْنَى شُبْهَةٍ، وَإِذَا قِيلَ فُلَانٌ فَعَلَ بِفُلَانٍ أَوْ بِفُلَانَةٍ، كَذَبَهُ وَاحِدٌ وَصَدَّقَهُ تِسْعَمَاَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ.

وَخَبْرُ الْعَاشِقِ الْمُتَهَتِّكِ عِنْدَ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ يُفِيدُ الْقَطْعَ الْيَقِينِيَّ، بَلْ إِذَا أَخْبَرَهُمْ الْمَفْعُولُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ كَذِبًا وَافْتِرَاءً عَلَى غَيْرِهِ جَزَمُوا بِصَدْقَهِ جَزْمًا لَا يَحْتَمِلُ النَّقِيضَ، بَلْ لَوْ جَمَعُهُمَا مَكَانٌ وَاحِدٌ اتَّفَاقَا؛ لَجَزَمُوا أَنَّ ذَلِكَ عَنْ وَعِدِ وَاتَّفَاقِ بَيْنَهُمَا، وَجَزْمُهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى الْطُّنُونِ وَالْتَّخْلِيلِ وَالشُّبُهَ وَالْأُوهَامِ وَالْأَخْبَارِ الْكَاذِبَةِ، كَجَزْمِهِمْ بِالْحِسَيَّاتِ الْمُشَاهَدَةِ، وَبِذِلِّكَ وَقَعَ أَهْلُ الْإِلْفِكِ فِي الطَّيِّبَةِ الْمُطَيَّبَةِ، حَبِيبَةِ رَسُولِ اللَّهِ - وَسَلَّمَ -، الْمُبَرَّأَةِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، بِشُبْهَةِ مَجِيِّءِ صَفْوَانَ بْنِ الْمَعَطَلِ بِهَا وَحْدَهُ خَلْفَ الْعَسْكَرِ حَتَّى هَلَكَ، وَلَوْلَا أَنْ تَوَلَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِرَاءَتَهَا، وَالذَّبَّ عَنْهَا، وَتَكْذِيبَ قَادِفَهَا، لَكَانَ أَمْرًا آخَرَ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ فِي إِظْهَارِ الْمُبْتَلَى عِشْقَ مَنْ لَا يَحْلُّ لَهُ الْإِتْصَالُ بِهِ مِنْ ظُلْمِهِ وَأَذَاهُ مَا هُوَ عُدُوًّا لَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ، وَتَعْرُضُ لِتَصْدِيقِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ظُنُونَهُمْ فِيهِ، فَإِنْ اسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِمَنْ يَسْتَمِيلُهُ إِلَيْهِ، إِمَّا بِرَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ، تَعَدَّ الظُّلْمُ وَاتَّسَرَ، وَصَارَ ذَلِكَ الْوَاسِطَةُ دَيْوِثًا ظَالِمًا، وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - قَدْ لَعَنَ الرَّأْيَشَ - وَهُوَ الْوَاسِطَةُ بَيْنَ الرَّأْيِيِّ وَالْمُرْتَشِيِّ فِي إِيَصَالِ الرِّشْوَةِ - فَمَا ظَنَكَ بِالْدَيْوِثِ الْوَاسِطَةِ بَيْنَ الْعَاشِقِ وَالْمَعْشُوقِ فِي الْوَصْلِ، فَيَسْتَأْدُ الْعَاشِقُ وَالْدَيْوِثُ عَلَى ظُلْمِ الْمَعْشُوقِ وَظُلْمِ غَيْرِهِ مِمَّنْ يَتَوَقَّفُ حُصُولُ غَرَضِهِ عَلَى ظُلْمِهِ فِي نَفْسٍ أَوْ مَالٍ أَوْ عِرْضٍ، فَإِنَّ كَثِيرًا مَا يَتَوَقَّفُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ عَلَى قَتْلِ نَفْسٍ يَكُونُ حَيَاتُهَا مَانِعَةً مِنْ غَرَضِهِ، وَكَمْ قَتَلَ طَلَّ دَمَهُ بِهَذَا السَّبَبِ، مِنْ رَوْجِ وَسَيِّدِ وَقَرِيبِهِ، وَكَمْ خُبِّيَّتِ امْرَأَةٌ عَلَى بَعْلِهَا، وَجَارِيَةٌ وَعَبْدٌ عَلَى سَيِّدِهِمَا، وَقَدْ لَعَنَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَتَبَرَّأَ مِنْهُ، وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - قَدْ نَهَى أَنْ يَخْطُبَ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ، وَأَنْ يَسْتَأْمِنَ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ، فَكَيْفَ يَمْنَ يَسْعَى فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ رَجُلٍ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ وَأَمْتَهِ حَتَّى يَتَصَلَّ بِهِمَا؟ وَعُشَّاقُ الصُّورِ وَمُسَاعِدُو هُمْ مِنَ الْدَّيَّاِثَةِ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ ذَبَّاً، فَإِنْ طَلَبَ الْعَاشِقُ وَصَلَ مَعْشُوقِهِ وَمُشَارِكَةَ الزَّوْجِ وَالسَّيِّدِ، فَفِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ ظُلْمُ الْغَيْرِ مَا لَعَلَهُ لَا يَقْصُرُ عَنْ إِثْمِ الْفَاحِشَةِ، وَإِنْ لَمْ يُرِبَّ عَلَيْهَا، وَلَا يَسْقُطُ حَقُّ الْغَيْرِ بِالْتَّوْبَةِ مِنَ الْفَاحِشَةِ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ وَإِنْ أَسْقَطَتْ حَقَّ اللَّهِ فَحَقُّ الْعَبْدِ بَاقٍ لَهُ الْمُطَالَبُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ مِنْ ظُلْمِ الْوَالِدِ إِفْسَادِ وَلَدِهِ وَفِلْذَةِ كِبِيرِهِ، وَمَنْ هُوَ أَعْزَزُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، فَظُلْمُ الزَّوْجِ بِإِفْسَادِ حَيْثِيَّهِ وَالْجِنَانِيَّةِ عَلَى فِرَاشِهِ - أَعْظَمُ مِنْ ظُلْمِهِ بِأَخْذِ مَالِهِ كُلِّهِ، وَلِهَذَا يُؤْذِيَهُ ذَلِكَ أَعْظَمُ مِمَّا يُؤْذِيَهُ أَخْذُ مَالِهِ، وَلَا يَعْدِلُ ذَلِكَ عِنْهُ إِلَّا سَفْكُ دَمِهِ، فَيَا لَهُ مِنْ ظُلْمٍ أَعْظَمَ إِثْمًا مِنْ فِعْلٍ

الْفَاحِشَةُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لِغَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وُقِفَ لَهُ الْجَانِي الْفَاعِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقِيلَ لَهُ: "خُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ،" كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : فَمَا ظَنُّكُمْ؟ أَيْ: فَمَا تَظُنُّونَ يَقِنَّ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ؟ فَإِنْ أَنْصَافَ إِلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْمَظْلُومُ جَارًا، أَوْ ذَا رَحْمٌ مُحَرَّمٌ، تَعَدَّ الظُّلُمُ فَصَارَ ظُلْمًا مُؤَكَّدًا لِقَطِيعَةِ الرَّحْمِ وَإِيذَاءِ الْجَارِ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحْمٍ، وَلَا مَنْ لَا يَأْمُنُ جَارُهُ بِوَاقْتَهُ.

فَإِنْ اسْتَعَانَ الْعَاشِقُ عَلَى وِصَالٍ مَعْشُوقِهِ بِشَيَاطِينِ الْجَنِّ - إِمَّا بِسُحْرٍ أَوْ اسْتِخْدَامٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ - ضُمِّ إِلَى الشَّرِكِ وَالظُّلُمِ كُفُرُ السُّحْرِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ هُوَ وَرَاضِيٌّ بِهِ، كَانَ رَاضِيًّا بِالْكُفْرِ عَيْرَ كَارِهٍ لِحُصُولِ مَقْصِدِهِ، وَهَذَا لَيْسَ بِيَعِيدٍ مِنَ الْكُفْرِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ التَّعَاوُنَ فِي هَذَا الْبَابِ، تَعَاوُنٌ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُوَانِ.

وَأَمَّا مَا يَقْتَرِنُ بِحُصُولِ غَرَضِ الْعَاشِقِ مِنَ الظُّلُمِ الْمُنْتَشِرِ الْمُتَعَدِّي ضَرَرُهُ فَأَمْرٌ لَا يُخْفِي، فَإِنَّهُ إِذَا حَصَلَ لَهُ مَقْصُودُهُ مِنَ الْمَعْشُوقِ، فَلِلْمَعْشُوقِ أَغْرَاضٌ أُخْرَى يُرِيدُ مِنَ الْعَاشِقِ إِعَانَتُهُ عَلَيْهَا، فَلَا يَجِدُ مِنْ إِعَانَتِهِ بُدَّا، فَيَبْقَى كُلُّ مِنْهُمَا يُعِينُ الْآخَرَ عَلَى الظُّلُمِ وَالْعُدُوَانِ، فَالْمَعْشُوقُ يُعِينُ الْعَاشِقَ عَلَى ظُلْمٍ مَنْ يَتَّصِلُّ بِهِ مِنْ أَهْلِهِ وَأَقْارِبِهِ وَسَيِّدِهِ وَزَوْجِهِ، وَالْعَاشِقُ يُعِينُ الْمَعْشُوقَ عَلَى ظُلْمٍ مَنْ يَكُونُ غَرَضُ الْمَعْشُوقِ مُتَوَقَّفًا عَلَى ظُلْمِهِ، فَكُلُّ مِنْهُمَا يُعِينُ الْآخَرَ عَلَى أَغْرَاضِهِ التَّيْفِيَّةِ ظُلْمُ النَّاسِ، فَيَحْصُلُ الْعُدُوَانُ وَالظُّلُمُ بِسَبِّبِ اشْتِرَاكِهِمَا فِي الْقُبْحِ لِتَعَاوُنِهِمَا بِذَلِكَ عَلَى الظُّلُمِ، كَمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ بَيْنَ الْعُشَّاقِ وَالْمَعْشُوقَيْنِ، مِنْ إِعَانَةِ الْعَاشِقِ لِمَعْشُوقِهِ عَلَى مَا فِيهِ ظُلْمٌ وَعُدُوَانٌ وَبَغْيٌ، حَتَّى رُبَّمَا يَسْعَى لَهُ فِي مَنْصِبٍ لَا يَلِيقُ بِهِ وَلَا يَصْلُحُ لِمَثَلِهِ، وَفِي تَحْصِيلِ مَالٍ مِنْ غَيْرِ حِلْلِهِ، وَفِي اسْتِطَالَتِهِ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِذَا اخْتَصَّمَ مَعْشُوقُهُ وَغَيْرُهُ أَوْ تَشَاكَّيَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا فِي

جَانِبُ الْمَعْشُوقِ ظَالِمًا كَانَ أَوْ مَظْلُومًا، هَذَا إِلَى مَا يَنْضَمُ إِلَى ذَاكَ مِنْ ظُلْمِ الْعَاشِقِ لِلنَّاسِ بِالْتَّحِيلِ عَلَى أَخْدِ أَمْوَالِهِمْ، وَالْتَّوْصِلِ بِهَا إِلَى مَعْشُوقِهِ بِسَرْقَةٍ أَوْ غَصْبٍ أَوْ خِيَانَةٍ أَوْ يَمِينٍ كَاذِبَةٍ أَوْ قَطْعٍ طَرِيقٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَرَبَّمَا أَدَى ذَلِكَ إِلَى قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، لِيَأْخُذَ مَالُهُ لِيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى مَعْشُوقِهِ.

فَكُلُّ هَذِهِ الْأَفَاتِ وَأَصْعَافُهَا وَأَصْعَافِهَا تَشَاءُ مِنْ عِشْقِ الصُّورِ، وَرَبَّمَا حَمَلَ عَلَى الْكُفْرِ الْصَّرِيحِ، وَقَدْ تَنَصَّرَ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ نَشَأُوا فِي الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ الْعِشْقِ، كَمَا جَرَى لِبَعْضِ الْمُؤْذِنِينَ حِينَ أَبْصَرَ امْرَأَةً جَمِيلَةً عَلَى سَطْحِ فَقْتِنَ بِهَا، وَنَزَلَ، وَدَخَلَ عَلَيْها، وَسَأَلَهَا نَفْسَهَا، فَقَالَتْ: هِيَ نَصْرَانِيَّةٌ، فَإِنْ دَخَلْتَ فِي دِينِي تَرَوَجْتُ بِكَ، فَفَعَلَ، فَرَقِيَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى دَرَجَةٍ عِنْدَهُمْ فَسَقَطَ مِنْهَا فَمَاتَ، ذَكَرَ هَذَا عَبْدُ الْحَقِّ فِي كِتَابِ الْعَاقِبَةِ لَهُ.

وَإِذَا أَرَادَ النَّصَارَى أَنْ يُنْصِرُوا الْأَسِيرَ، أَرَوْهُ امْرَأَةً جَمِيلَةً وَأَمْرُوهَا أَنْ تُطْمِعَهُ فِي نَفْسِهَا حَتَّى إِذَا تَمَكَّنَ حُبُّهَا مِنْ قَلْبِهِ، بَذَلَتْ لَهُ نَفْسَهَا إِنْ دَخَلَ فِي دِينِهَا، فَهُنَالِكَ: ﴿يُثِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ أَمَنُوا بِالْقَوْلِ الْثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعُلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ إِنْرَاهِيمَ: 27].

وَفِي الْعِشْقِ مِنْ ظُلْمٍ كُلٌّ وَاحِدٌ مِنَ الْعَاشِقِ وَالْمَعْشُوقِ لِصَاحِبِهِ بِمُعَاوَنَتِهِ لَهُ عَلَى الْفَاحِشَةِ، وَظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ مَا فِيهِ، فَكُلُّ مِنْهُمَا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَصَاحِبِهِ، وَظُلْمُهُمَا مُتَعَدٌ إِلَى الْغَيْرِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ظُلْمُهُمَا بِالشُّرُكِ، فَقَدْ تَضَمَّنَ الْعِشْقُ أَنْوَاعَ الظُّلْمِ كُلَّهَا. وَالْمَعْشُوقُ إِذَا لَمْ يَتَّقِي اللَّهَ فَإِنَّهُ يُعَرِّضُ الْعَاشِقَ لِلتَّلَفِ، وَذَلِكَ ظُلْمٌ مِنْهُ، بِأَنْ يُطْمِعَهُ فِي نَفْسِهِ وَيَتَّزَيَّنَ لَهُ وَيَسْتَمِيلُهُ بِكُلِّ طَرِيقٍ حَتَّى يَسْتَخْرِجَ مِنْهُ مَالُهُ وَنَفْعُهُ وَلَا يُمَكِّنُهُ مِنْ

نَفْسِهِ، لِئَلَّا يَرُوَلْ غَرَضُهُ بِقَضَاءِ وَطَرِهِ مِنْهُ، فَهُوَ يَسُوِّمُهُ سُوءَ الْعَذَابِ، وَالْعَاشِقُ رُبَّمَا قَتَّلَ مَعْشُوقَهُ لِيُشْفِي نَفْسَهُ مِنْهُ، وَلَا سِيمَاءٌ إِذَا جَادَ بِالْوِصَالِ لِغَيْرِهِ، فَكَمْ لِلْعِشْقِ مِنْ قَتِيلٍ مِنَ الْجَانِيَّينَ، وَكَمْ أَزَّالَ مِنْ نِعْمَةٍ، وَأَفْقَرَ مِنْ غَنِّيٍّ، وَأَسْقَطَ مِنْ مَرْتَبَةٍ، وَشَتَّتَ مِنْ شَمْلٍ، وَكَمْ أَفْسَدَ مِنْ أَهْلٍ لِلرَّجُلِ وَوَلِيَّهِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا رَأَتْ بَعْلَهَا عَاشِقًا لِغَيْرِهَا اتَّخَذَتْ هِيَ مَعْشُوقًا لِنَفْسِهَا، فَيَصِيرُ الرَّجُلُ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ خَرَابِ بَيْتِهِ بِالظَّلَاقِ وَبَيْنَ الْقِيَادَةِ، فِيمَنَ النَّاسِ مَنْ يُؤْثِرُ هَذَا، وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْثِرُ هَذَا.

فَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يُحَكِّمَ عَلَى نَفْسِهِ عِشْقَ الصُّورِ، لِئَلَّا يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى هَذِهِ الْمَفَاسِدِ أَوْ أَكْثِرَهَا أَوْ بَعْضَهَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ الْمُفْرَطُ بِنَفْسِهِ الْمُغَرِّرُ بِهَا، فَإِذَا هَلَكَتْ فَهُوَ الَّذِي أَهْلَكَهَا، فَلَوْلَا تَكْرَأُهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ مَعْشُوقِهِ وَطَمَعُهُ فِي وِصَالِهِ لَمْ يَتَمَكَّنْ عِشْقُهُ مِنْ قَلْبِهِ، فَإِنَّ أَوَّلَ أَسْبَابِ الْعِشْقِ الْإِسْتِحْسَانُ سَوَاءً تَوَلَّدَ عَنْ نَظَرٍ أَوْ سَمَاعٍ، فَإِنْ لَمْ يُقَارِنْهُ طَمَعٌ فِي الْوِصَالِ وَقَارَنَهُ الْإِيَّاسُ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ لَهُ الْعِشْقُ، فَإِنْ اقْتَرَنَ بِهِ الْطَّمَعُ فَصَرَّفَهُ عَنْ فِكْرِهِ وَلَمْ يَشْغُلْ قَلْبَهُ بِهِ؛ لَمْ يَحْدُثْ لَهُ ذَلِكَ، فَإِنْ أَطَالَ مَعَ ذَلِكَ الْفِكْرُ فِي مَحَاسِنِ الْمَعْشُوقِ وَقَارَنَهُ خَوْفُ مَا هُوَ أَكْبَرُ عِنْدَهُ مِنْ لَذَّةِ وِصَالِهِ، إِمَّا خَوْفٌ دِينِيٌّ كَدُخُولِ النَّارِ، وَغَضَبِ الْجَبَارِ، وَاحْتِقَابِ الْأَوْزَارِ، وَغَلَبَ هَذَا الْخَوْفُ عَلَى ذَلِكَ الْطَّمَعِ وَالْفِكْرِ؛ لَمْ يَحْدُثْ لَهُ ذَلِكَ الْعِشْقُ، فَإِنْ فَاتَهُ هَذَا الْخَوْفُ فَقَارَنَهُ خَوْفُ دِينِيٍّ كَخَوْفِ إِتْلَافِ نَفْسِهِ، أَوْ مَالِهِ، أَوْ ذَهَابِ جَاهِهِ وَسُقُوطِ مَرْتَبَتِهِ عِنْدَ النَّاسِ، وَسُقُوطِهِ مِنْ عَيْنِ مَنْ يَعِزُّ عَلَيْهِ، وَغَلَبَ هَذَا الْخَوْفُ لِدَاعِيِ الْعِشْقِ دَفَعَهُ، وَكَذَلِكَ إِذَا خَافَ مِنْ فَوَاتِ مَحْبُوبٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ وَأَنْفَعُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَعْشُوقِ، وَقَدَّمَ مَحْبَبَتَهُ عَلَى مَحَبَّةِ ذَلِكَ الْمَعْشُوقِ؛ انْدَفَعَ عَنْهُ الْعِشْقُ، فَإِنْ اتَّفَقَ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَغَلَبَتْ مَحَبَّةُ الْمَعْشُوقِ لِذَلِكَ، انْجَذَبَ إِلَيْهِ الْقَلْبُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَمَالَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ كُلَّ الْمِيلِ.

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ ذَكَرْتُمْ آفَاتِ الْعِشْقِ وَمَضَارَهُ وَمَفَاسِدَهُ، فَهَلَّا ذَكَرْتُمْ مَنَافِعَهُ وَفَوَائِدَهُ الَّتِي مِنْ جُمِلَتِهَا: رِقَّةُ الطَّبَّيْعِ، وَتَرْوِيْحُ النَّفْسِ وَخِفْتَهَا، وَرَوَالُ ثَقْلِهَا وَرِيَاضَتَهَا، وَحَمْلُهَا عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، مِنَ الشَّجَاعَةِ، وَالْكَرَمِ، وَالْمُرُوعَةِ، وَرِقَّةُ الْحَاشِيَةِ، وَلُطْفِ الْجَانِبِ.

وَقَدْ قِيلَ لِيَحْيَى بْنِ مُعَاذِ الرَّازِيِّ: إِنَّ ابْنَكَ قَدْ عَشَقَ فُلَانَةً، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَرَّهُ إِلَى طَبْعِ الْأَدَمِيِّ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْعِشْقُ دَوَاءُ أَقْبَدَةِ الْكِرَامِ.

وَقَالَ عَيْرُهُ: الْعِشْقُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلَّذِي مُرُوعَةُ طَاهِرَةٍ، وَخَلِيقَةُ طَاهِرَةٍ، أَوْ لِلَّذِي لِسَانٍ فَاضِلٌ، وَإِحْسَانٍ كَامِلٍ، أَوْ لِلَّذِي أَدَبٌ بَارِعٌ، وَحَسِبٌ نَاصِعٌ.

وَقَالَ آخَرُ: الْعِشْقُ يُشَجِّعُ جَنَانَ الْجَبَانِ، وَيُصَفِّي ذَهْنَ الْغَبِيِّ، وَيُسَخِّي كَفَ الْبَخِيلِ، وَيُذْلِلُ عِزَّةَ الْمُلُوكِ، وَيُسَكِّنُ نَوَافِرَ الْأَخْلَاقِ، وَهُوَ أَنِيسٌ مَنْ لَا أَنِيسَ لَهُ، وَجَلِيسٌ مَنْ لَا جَلِيسَ لَهُ.

وَقَالَ آخَرُ: الْعِشْقُ يُزِيلُ الْأَثْقَالَ، وَيُلَطِّفُ الرُّوحَ، وَيُصَفِّي كَدَرَ الْقَلْبِ، وَيُوْجِبُ الْإِرْتِيَاحَ لِأَفْعَالِ الْكِرَامِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا عَالَهُ مِنْ حَادِثِ الْحَبِّ غَائِلُهُ  
سَيْفِيلُكُ فِي الدُّنْيَا شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ  
إِذَا اسْتَفْهَمُوهُ عَنْ حَدِيثَكَ جَاهِلُهُ  
كَرِيمٌ يُمِيتُ الْبَرَ حَتَّى كَانَهُ  
إِذَا سَمِعْتَ عَنْهُ بِشْكُوَى تُرَاسِلُهُ  
يَوْدُ بِأَنْ يُمْسِي سَقِيمًا لَعَلَّهَا  
لِتُخْمَدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلَى شَمَائِلُهُ  
وَيَهْتَرُ لِلْمَغْرُوفِ فِي طَلَبِ الْغُلَادِ  
فَالْعِشْقُ يَحْمِلُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

## الذَّارِفُ الْوَالِدُ

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْعِشْقُ يُرُوِّضُ النَّفْسَ، وَيُهَذِّبُ الْأَخْلَاقَ، وَإِظْهَارُهُ طَبِيعِيٌّ،  
وَإِضْمَارُهُ تَكْلِيفِيٌّ.

وَقَالَ الْآخَرُ: مَنْ لَمْ يُهِيجْ نَفْسَهُ بِالصَّوْتِ الشَّجِيِّ، وَالْوَجْهِ الْبَهِيِّ، فَهُوَ فَاسِدُ  
الْمَزَاجِ، يَحْتَاجُ إِلَى عِلَاجٍ، وَأَنْشَدُوا فِي ذَلِكَ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشُقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهَوَى  
فَمَا لَكَ فِي طَبِ الْحَيَاةِ نَصِيبٌ  
وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشُقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهَوَى  
فَأَنْتَ وَعِيَّرٌ فِي الْفَلَادِ سَوَاءٌ  
وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشُقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهَوَى  
وَقَالَ بَعْضُ الْعُشَاقِ أُولُو الْعِفَّةِ وَالصِّيَانَةِ: عِفُوا تَشْرُفُوا، وَاعْشُقُوا تَظْفَرُوا.

وَقَيلَ لِبَعْضِ الْعُشَاقِ: مَا كُنْتَ تَصْنَعُ لَوْ ظَفَرْتَ بِمَنْ تَهْوَى؟ فَقَالَ: كُنْتُ أَمْتَعْ طَرَفِي  
بِوْجَهِهِ، وَأَرَوْحُ قَلْبِي بِذِكْرِهِ وَحَدِيثِهِ، وَأَسْتُرُ مِنْهُ مَا لَا يُحِبُّ كَشْفَهُ، وَلَا أَصِيرُ بِقَبِيْحِ  
الْفَعْلِ إِلَى مَا يَنْقُضُ عَهْدَهُ، ثُمَّ أَنْشَدَ:

أَخْلُوْبِهِ فَأَعِفُّ عَنْهُ تَكْرُمًا  
كَالْمَاءِ فِي يَدِ صَائِمٍ يَلْتَدُّ  
وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ: أَرْوَاحُ الْعُشَاقِ عَطْرَةُ لَطِيفَةٌ، وَأَبْدَانُهُمْ رَقِيقَةُ حَفِيفَةٌ  
نُزْهَتُهُمُ الْمُؤَاسَةُ، وَكَلَامُهُمْ يُحِيِّي مَوَاتَ الْقُلُوبِ، وَيَزِيدُ فِي الْعُقُولِ، وَلَوْلَا الْعِشْقُ  
وَالْهَوَى لَبَطَلَ نَعِيمُ الدُّنْيَا.

## اللَّذَّا قُرْلَلَوْلَهُ

وَقَالَ آخْرُ: الْعِشْقُ لِلْأَرْوَاحِ بِمَنْتِلَةِ الْغِذَاءِ لِلْأَبْدَانِ، إِنْ تَرْكَتُهُ ضَرَّكَ، وَإِنْ أَكْثَرْتَ مِنْهُ قَتَّلَكَ، وَفِي ذَلِكَ قِيلَ:

خَلِيلَيَ إِنَّ الْحُبَّ فِيهِ لَذَادَةٌ  
عَلَى ذَالِكَ مَا عَيْشَ يَطِيبُ بِغَيْرِهِ  
وَلَا حَيْثُ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ صَبَابَةٍ  
وَذَكَرَ الْخَرَاطِيُّ عَنْ أَبِي عَسَانَ قَالَ: مَرَّ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِجَارِيَةٍ وَهِيَ تَقُولُ:  
وَهَوْيَثُهُ مِنْ قَبْلِ قَطْعٍ تَمَائِمِي  
سَأَلَهَا: أَكْحُرَةُ أَنْتَ أَمْ مَمْلُوكَةُ؟ قَالَتْ: بَلْ مَمْلُوكَةُ، فَقَالَ: مَنْ هَوَالِ؟ فَتَلَكَّأَتْ،  
فَأَقْسَمَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: قَاتِلُتْ بِحُبِّ مُحَمَّدٍ بْنِ الْقَاسِمِ  
وَأَنَا الَّتِي لَعِبَ الْهَوَى بِفُؤَادِهَا

فَأَشْتَرَاهَا مِنْ مَوْلَاهَا، وَبَعَثَ بِهَا إِلَى مُحَمَّدٍ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ  
فَقَالَ: هُؤُلَاءِ وَاللَّهِ فَتَنَ الرِّجَالَ، وَكُمْ وَاللَّهِ مَا تَبِهَنَ كَرِيمٌ، وَعَطِبَ بِهِنَ سَلِيمٌ.

وَجَاءَتْ جَارِيَةٌ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - تَسْتَعْدِي عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ  
لَهَا عُثْمَانُ: مَا قِصَّتِكِ؟ فَقَالَتْ: كَلِفْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِابْنِ أَخِيهِ، فَمَا أَنْفَكُ أَرْأِيْهِ،  
فَقَالَ عُثْمَانُ: إِمَّا أَنْ تَهَبَهَا إِلَى ابْنِ أَخِيكَ، أَوْ أُعْطِيَكَ ثَمَنَهَا مِنْ مَالِي، فَقَالَ: أُشَهِّدُكَ يَا  
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا لَهُ.

وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ فَسَادَ الْعِشْقِ الَّذِي مُتَعَلِّقُهُ فِعْلُ الْفَاحِشَةِ بِالْمَعْشُوقِ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ  
فِي الْعِشْقِ الْعَفِيفِ مِنَ الرَّجُلِ الظَّرِيفِ، الَّذِي يَأْبَى لَهُ دِينُهُ وَعِفَّتُهُ وَمُرْوَعُهُ أَنْ يُفْسِدَ  
مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْشُوقِهِ بِالْحَرَامِ، وَهَذَا عِشْقُ السَّلَفِ الْكَرَامِ وَالْأَئِمَّةِ

الْأَعْلَامُ، فَهَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَتَّبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَحَدُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ، عَشِقَ حَتَّى  
اَسْتَهِرَ أَمْرُهُ، وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ، وَعَدَ ظَالِمًا مَنْ لَامَهُ، وَمِنْ شِعْرِهِ:

كَتَمْتَ الْهَوَى حَتَّى أَضَرَّ بِكَ الْكَتْمُ  
فَنَمَّ عَلَيْكَ الْكَاشِحُونَ، وَقَبَلَهُمْ  
فَأَصْبَحْتَ كَالْهِنْدِيَّ إِذْ مَاتَ حَسْرَةً  
تَجَنَّبْتَ إِثْيَانَ الْحَبِيبِ تَأْثِمًا  
فَدُقْ هَجْرَهَا قَدْ كُنْتَ تَرْعُمُ أَنَّهُ  
وَلَامَكَ أَقْوَامٍ وَلَؤْمُهُمْ ظُلْمٌ  
عَلَيْكَ الْهَوَى قَدْ نَمَ لَوْ يَنْقَعُ الْكَتْمُ  
عَلَى إِثْرِ هِنْدٍ أَوْ كَمْنَ شَفَّهُ سُقُمُ  
أَلَا إِنَّ هُجْرَانَ الْحَبِيبِ هُوَ الْإِلَاثُ  
رَشَادٌ أَلَا يَا زَبَّمَا كَذَبَ الرَّغْمُ

وَهَذَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَعِشْقُهُ مَشْهُورٌ لِجَارِيَةٍ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَكَانَتْ  
جَارِيَةً بَارِعَةً الْجَمَالِ، وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا، وَكَانَ يَطْلُبُهَا مِنْ امْرَأَتِهِ، وَيَحْرُصُ عَلَى أَنْ تَهْبَهَا لَهُ،  
فَتَأْبَى، وَلَمْ تَرِلِ الْجَارِيَةُ فِي نَفْسِ عُمَرَ، فَلَمَّا اسْتَخْلَفَ، أَمْرَتْ فَاطِمَةُ بِالْجَارِيَةِ فَأَصْلَحَتْ،  
وَكَانَتْ مَثَلًا فِي حُسْنِهَا وَجَمَالِهَا، ثُمَّ دَخَلَتْ عَلَى عُمَرَ، وَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكَ  
كُنْتَ مُعْجَبًا بِجَارِيَتِي فُلَانَةً، وَسَأَلْتَهَا، فَأَبَيَتْ عَلَيْكَ، وَالآنَ قَدْ طَابَتْ نَفْسِي لَكَ بِهَا، فَلَمَّا  
قَالَتْ لَهُ ذَلِكَ؛ اسْتَبَانَ الْفَرَحُ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ عَجَّلِي عَلَيَّ بِهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ بِهَا عَلَيْهِ، ازْدَادَ  
بِهَا عَجَبًا، وَقَالَ لَهَا: أَلَقِي ثِيَابَكِ، فَفَعَلَتْ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: عَلَى رِسْلِكِ، أَخْبِرِينِي لِمَنْ كُنْتِ؟  
وَمِنْ أَيْنَ صِرْتِ لِفَاطِمَةَ؟ فَقَالَتْ: أَغْرَمَ الْحَجَاجُ عَامِلًا لَهُ بِالْكُوفَةِ مَالًا، وَكُنْتُ فِي رَقِيقِ  
ذَلِكَ الْعَامِلِ، قَالَتْ: فَأَخْدَنِي وَبَعْثَ بِي إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ، فَوَهَبَنِي لِفَاطِمَةَ، قَالَ: وَمَا فَعَلَ  
ذَلِكَ الْعَامِلُ؟ قَالَتْ: هَلَكَ، قَالَ: وَهَلْ تَرَكَ وَلَدًا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا حَالُهُمْ؟ قَالَتْ:  
سَيِّئُهُ، فَقَالَ: شُدِّي عَلَيْكِ ثِيَابَكِ، وَأَذْهَبِي إِلَى مَكَانِكِ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ عَلَى الْعِرَاقِ: أَنْ  
أَبْعَثَ إِلَيَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ عَلَى الْبَرِيدِ، فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ لَهُ: ارْفَعْ إِلَيَّ جَمِيعَ مَا أَغْرَمَهُ الْحَجَاجُ  
لِأَبِيكَ، فَلَمْ يَرْفَعْ إِلَيْهِ شَيْئًا إِلَّا دَفْعَهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْجَارِيَةِ فَدُفِعَتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِيَّاكَ

وَإِيَاهَا، فَلَعَلَّ أَبَاكَ قَدْ أَلَمَ بِهَا، فَقَالَ الْغُلَامُ: هِيَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِهَا، قَالَ: فَابْتَعْهَا مِنِّي، قَالَ: لَسْتُ إِذَا مِمَّنْ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهُوَى، فَلَمَّا عَزَمَ الْفَتَى عَلَى الْإِنْصَارِ فِي هَا، قَالَتْ: أَيْنَ وَجْدُكَ بِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: عَلَى حَالِهِ، وَلَقَدْ زَادَ، وَلَمْ تَرِلِ الْجَارِيَةُ فِي نَفْسِ عُمَرَ، حَتَّى مَاتَ رَحْمَهُ اللَّهُ.

وَهَذَا أَبُو بَكْرِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ دَاؤِدَ الظَّاهِرِيُّ الْعَالِمُ الْمَسْهُورُ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ: مِنِ الْفِقْهِ، وَالْحَدِيثِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَالْأَدَبِ، وَلَهُ قَوْلُهُ فِي الْفِقْهِ، وَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ الْعُلَمَاءِ، وَعَشِيقُهُ مَسْهُورٌ.

قَالَ نِفْطَوِيُّ: دَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقُلْتُ: كَيْفَ تَجْدُكَ؟ فَقَالَ: حُبُّ مَنْ تَعْلَمُ أَوْرَثَنِي مَا تَرَى، فَقُلْتُ: وَمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْتِمَاعِ بِهِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: الْإِسْتِمَاعُ عَلَى وَجْهِيْنِ: أَحَدُهُمَا: النَّظَرُ الْمُبَاحُ، وَالْآخَرُ: اللَّذَّةُ الْمَحْظُورَةُ، فَأَمَّا النَّظَرُ الْمُبَاحُ فَهُوَ الَّذِي أَوْرَثَنِي مَا تَرَى، وَأَمَّا اللَّذَّةُ الْمَحْظُورَةُ فَيَمْنَعُنِي مِنْهَا مَا حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا سُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ عَنْ أَبِي يَحْيَى الْقَتَّابِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ - صَاحِبِ الْمُؤْمِنِينَ - يَرْفَعُهُ: "مَنْ عَشَقَ وَكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ".

ثُمَّ أَشَدَّ:

انْظُرْ إِلَى السِّخْرِيِّ يَجْرِي مِنْ لَوَاحِظِهِ  
وَانْظُرْ إِلَى دَعَجِ فِي ظِرْفِهِ السَّاجِي  
كَأَنَّهُنَّ نِمَالٌ دَبَّ فِي عَاجِ

ثُمَّ أَشَدَّ:

مَا لَهُمْ أَنْكَرُوا سَوَادًا بِخَدِيهِ  
وَلَا يُئْكِرُونَ وَرَدَ الْغُصُونِ؟  
فَعَيْبُ الْغُصُونِ شَغْرُ الْجُفُونِ  
إِنْ يَكُنْ عَيْبٌ خَدِيهِ بَرْدُ الشَّغْرِ

فَقُلْتُ لَهُ: نَفَيْتَ الْقِيَاسَ فِي الْفِقْهِ، وَأَبْتَهُ فِي الشَّرِّ؟ فَقَالَ: غَلَبةُ الْوَجْدِ وَمَلَكَةُ النَّفْسِ دَعَتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ مَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ، وَبِسَبِّبَ مَعْشُوقِهِ صَنَفَ كِتَابَ الزَّهْرَةِ.

وَمِنْ كَلَامِهِ فِيهِ: "مَنْ يَئِسَ مِمَّنْ يَهْوَاهُ، وَلَمْ يَمْتُ مِنْ وَقْتِهِ سَلَاهُ، وَذَلِكَ أَوْلُ رَوْعَاتِ الْيَاسِ تَأْتِي الْقَلْبَ وَهُوَ عَيْرُ مُسْتَعِدٍ لَهَا، فَمَمَّا الثَّانِيَةُ فَتَأْتِي الْقَلْبَ وَقَدْ وَطَاهُ لَهَا الرَّوْعَةُ الْأُولَى".

وَالْتَّقَى هُوَ وَأَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ سُرَيْجٍ فِي مَجْلِسِ أَبِي الْحَسَنِ عَلَيٌّ بْنِ عِيسَى الْوَزِيرِ، فَنَتَّاظَرَا فِي مَسْأَلَةٍ مِنَ الْإِيَالَاءِ، فَقَالَ لَهُ أَبْنُ سُرَيْجٍ: أَنْتَ بِأَنْ تَقُولَ: مَنْ دَامَتْ لَحَظَاتُهُ، كَثُرَتْ حَسَرَاتُهُ، أَحَدَذُ فِي مِنْكَ بِالْكَلَامِ عَلَى الْفِقْهِ، فَقَالَ: لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ فَإِنِّي أَقُولُ:

أَنَّ رِهْدَهُ فِي رَوْضِ الْمَحَاسِنِ مُقْلَيٌّ  
وَأَمْنَعُ نَفْسِي أَنْ تَنَالْ مُحَرَّماً  
يُصْبِّ عَلَى الصَّخْرِ الْأَصْمِ تَهَدَّمَا  
فَلَوْلَا أَخْتَالَاسِي وُدَّهُ لَتَكَلَّمَا  
فَلَسْتُ أَرَى وُدَّا صَحِيْحًا مُسَلَّمًا  
رَأَيْتُ الْهَوَى دَعْوَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ  
فَقَالَ لَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ سُرَيْجٍ: بِمَ تَفْخُرُ عَلَيَّ؟ وَلَوْ شِئْتُ لَقُلْتُ:

وَمَطَاعِمُهُ كَالشَّهْدَدِ فِي نَعْمَاتِهِ  
وَأَنَّ رِهْدَهُ الْلَّحَظَاتِ عَنْ وَجَنَّاتِهِ  
حَتَّى إِذَا مَا الصُّبْحُ رَاحَ عَمُودُهُ  
فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَحْفَظُ عَلَيْهِ الْوَزِيرُ مَا أَقَرَّ بِهِ حَتَّى يُقْيِمَ شَاهِدًا عَلَى أَنَّهُ وَلَّى بِخَاتَمِ رَبِّهِ  
وَبَرَاءَتِهِ، فَقَالَ أَبْنُ سُرَيْجٍ: يَلْزُمُنِي فِي هَذَا مَا يَلْزَمُكَ فِي قَوْلِكَ  
أَنَّ رِهْدَهُ فِي رَوْضِ الْمَحَاسِنِ مُقْلَيٌّ  
وَأَمْنَعُ نَفْسِي أَنْ تَنَالْ مُحَرَّماً

# الذَّارِفُ الْوَلَاعِ

فَضَحِكَ الْوَزِيرُ، وَقَالَ: لَقَدْ جَمَعْتُمَا لُطْفًا وَظُرْفًا، ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرُ الْخَطِيبُ فِي

تَارِيَخِهِ

وَجَاءَتْهُ يَوْمًا فُتْيَا مَضْمُونُهَا:

أَفْتَنَا فِي قَوَاتِلِ الْأَخْدَادِ  
أَمْ حَلَالٌ لَهَا دَمُ الْغُشَّاقِ

يَا ابْنَ دَاؤَدْ يَا فَقِيهَ الْعِرَاقِ  
هَلْ عَلَيْهَا بِمَا أَتَتْ مِنْ جُنَاحِ  
فَكَتَبَ بِخَطِّهِ تَحْتَ الْبَيْتَيْنِ:

فَأَشْمَعْتُمْ مِنْ قَرِحِ الْحَشَّا مُشَتَّاقِ  
وَأَرْقَتَ دَمَعَالْمَ يَكْنُ بِمُرَاقِ  
كَانَ الْمُعَذَّبُ أَنْعَمُ الْغُشَّاقِ

عِنْدِي جَوَابُ مَسَائِلِ الْغُشَّاقِ  
لَمَّا سَأَلَتَ عَنِ الْهَوَى هَيْجَتِنِي  
إِنْ كَانَ مَغْشُوفًا يُعَذِّبُ عَاشِقًا

فَالصَّاحِبُ كِتَابِ "مَنَازِلِ الْأَحْبَابِ" ، شَهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ فَهْدٍ  
صَاحِبُ كِتَابِ الْإِنْسَاءِ: وَقُلْتُ فِي جَوَابِ الْبَيْتَيْنِ عَلَى قَافِيَتِهِمَا مُحِبِّيَ لِلسَّائِلِ:

هُنَّ يَلْعَبُنَّ فِي دَمِ الْغُشَّاقِ  
إِنْ ثَنَى الْحَدَّ عَنْ دِمِ مُهَرَاقِ  
فَحَ عَمَّا جَنَثَ عَلَى الْغُشَّاقِ  
وَلَهَذَا يَفْتَنَ ضَنَّ وَهُوَ بَاقِ

قُلْ لِمَنْ جَاءَ سَائِلًا عَنْ لَحَاظِ  
مَا عَلَى السَّيْفِ فِي الْوَرَى مِنْ جُنَاحِ  
وَسُيُوفُ الْلِحَاظِ أَوْلَى بِأَنْ تَصِ

إِنَّمَا كُلُّ مَنْ قَتَلَنَ شَهِيدًا  
وَنَظِيرُ ذَلِكَ فَنُوَى وَرَدَتْ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي الْخَطَابِ مَحْفُوظٌ بْنُ أَحْمَدَ الْكُوْذَانِيُّ  
شَيْخُ الْحَنَابِلَةِ فِي وَقْتِهِ رَحْمَهُ اللَّهُ:

جَاءَتْ إِلَيْكَ وَمَا خُلِقَ سِوَاكَ لَهَا  
لَاحَتْ لَحَاطِرِهِ ذَاثُ الْجَمَالِ لَهَا

قُلْ لِإِلَمَامِ أَبِي الْخَطَابِ: مَسَالَةٌ  
مَاذَا عَلَى رَجُلٍ رَامَ الصَّلَادَةَ فَمُذْ

فَأَجَابَهُ تَحْتَ السُّؤَالِ:

قُلْ لِلَّادِيبِ الَّذِي وَاقَ بِمَسْأَلَةٍ  
إِنَّ الَّتِي فَتَنَّتْهُ عَنْ عِبَادَتِهِ  
إِنْ تَابَ ثُمَّ قَضَى عَنْهُ عِبَادَتِهِ  
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْمَرِ الْقَيْسِيُّ: حَجَجْتُ سَنَةً، ثُمَّ دَخَلْتُ ذَاتَ كَيْلَةٍ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ  
لِزِيَارَةِ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمِنْبَرِ، إِذْ سَمِعْتُ أَيْنَا  
فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ:

أَشْجَالَ نَوْحَ حَمَائِمَ الْسِّدْرِ  
أَمْ عَزَّ نَوْمَكَ ذِكْرُ غَانِيَةٍ  
يَا لَيْلَةَ ظَالِثَ عَلَى دَنِيفِ  
أَسْلَمْتَ مَنْ تَهْوَى لِحْرِ جَهَوَى  
فَالْبَدْرُ يَشَهُدُ أَنَّنِي كَلِفَ  
مَا كُنْتُ أَخْسَبُنِي أَهِيمُ بِحِبَّهَا

فَأَهْجَنَّ مِنْكَ بِلَابِلِ الصَّدْرِ  
أَهَدَثُ إِلَيْكَ وَسَاوِسَ الْفِئْرِ  
يَشْكُو السُّهَادَ وَقَلَّةَ الصَّبِرِ  
مُتَوَقِّدٌ كَتَوْقِدَ الْجَمْرِ  
مُفْرَرٌ بِحُبِّ شِيَقَةَ الْبَدْرِ  
حَتَّى بُلِيثُ وَكُثُثُ لَا أَدْرِي

ثُمَّ انْقَطَعَ الصَّوْتُ، فَلَمْ أَدْرِ مِنْ أَيْنَ جَاءَ، وَإِذَا بِهِ قَدْ عَادَ الْبُكَاءُ وَالْأَنْيَنُ، ثُمَّ أَنْشَدَ:  
أَشْجَالَ مِنْ رَيَا خَيَالَ زَائِرٍ  
وَاغْتَالَ مُهْجِتَكَ الْهَوَى بِرَسِيْسَةٍ  
نَادَيْتَ رَيَا وَالظَّلَامُ كَانَهُ  
وَالْبَدْرُ يَسِّرِي فِي السَّمَاءِ كَانَهُ  
وَتَرَى بِهِ الْجَوْزَاءَ تَرْقُصُ فِي الدُّجَى

وَاللَّيْلُ مُسْوَدُ الذَّوَافِبِ عَاكِرٌ  
وَاهْتَاجَ مُفْلِتَكَ الْخَيَالُ الزَّائِرُ  
يَمُّ تَلَاطِمَ فِيهِ مَفْجُ زَانِرُ  
مَلِكُ تَرَجَّلَ وَالنُّجُومُ عَسَاكِرٌ  
رَقْصُ الْخِيَبِ عَلَادُ شُكْرُ ظَاهِرٌ

يَا لَيْلَ ظُلْتَ عَلَى مُحِبِّ مَا لَهُ  
إِلَّا الصَّبَاحُ مُسَاعِدٌ وَمُؤَازِّرٌ  
فَأَحَاجَبِنِي مُثْ حَتْفَ أَنْفِلَ وَأَعْلَمَنِ  
أَنَّ الْهَوَى لَهُوَ الْهَوَانُ الْخَاضِرُ  
فَالَّذِي وَكُنْتُ ذَهَبْتُ عِنْدَ ابْتِدَائِهِ بِالْأَبِيَاتِ فَلَمْ يَتَبَنَّهُ إِلَّا وَأَنَا عِنْدُهُ، فَرَأَيْتُ شَابًا مُقْتَلًا  
شَبَابَهُ قَدْ خَرَقَ الدَّمْعَ فِي خَدْدِهِ خَرْقَيْنِ، فَسَلَّمَتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اجْلِسْ، مَنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ  
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْمَرِ الْقَيْسِيُّ، قَالَ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ كُنْتُ جَالِسًا فِي الرَّوْضَةِ، فَمَا  
رَاعَنِي إِلَّا صَوْتُكَ، فَبِنَفْسِي أَفْدِيكَ فَمَا الَّذِي تَجْدُهُ؟ فَقَالَ أَنَا عُتْبَةُ بْنُ الْحُبَابِ بْنُ الْمُنْذِرِ  
بْنِ الْجَمُوحِ الْأَنْصَارِيُّ، غَدَوْتُ يَوْمًا إِلَى مَسْجِدِ الْأَحْزَابِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ، ثُمَّ اعْتَزَلْتُ غَيْرَ  
بَعِيدٍ، فَإِذَا بِنِسْوَةٍ قَدْ أَقْبَلَنِ يَتَهَادِينَ مِثْلَ الْقَطَّا، وَإِذَا فِي وَسْطِهِنَّ جَارِيَةٌ بَدِيعَةُ الْجَمَالِ،  
كَامِلَةُ الْمَلَاحَةِ، فَوَقَفْتُ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: يَا عُتْبَةُ، مَا تَقُولُ فِي وَصْلِ مَنْ يَطْلُبُ وَصْلَكَ؟  
ثُمَّ تَرَكْتُنِي وَذَهَبْتُ، فَلَمْ أَسْمَعْ لَهَا خَبْرًا، وَلَا قَفَوْتُ لَهَا أَثْرًا، وَأَنَا حَيْرَانُ اَنْتَقْلُ مِنْ مَكَانٍ  
إِلَى آخَرَ، ثُمَّ صَرَخَ وَأَكَبَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، كَانَمَا صُبِغَتْ وَجْنَتَاهُ بِوَرْسٍ، ثُمَّ أَنْشَدَ:  
أَرَأْكُمْ بِقَلْبِي مِنْ بِلَادِ بَعِيَّةٍ  
فِيَا هَلْ تَرَوْنِي بِالْفُؤَادِ عَلَى بَعْدِي  
وَعِنْدَكُمْ رُوحِي وَذِكْرُكُمْ عِنِّي  
وَلَوْ كُنْتُ فِي الْفَرْدَوْسِ فِي جَنَّةِ الْخَلْدِ  
فَقُلْتُ: يَا ابْنَ أَخِي، تُبِّ إِلَى رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرُهُ مِنْ ذَنْبِكَ، فَبَيْنَ يَدِيَكَ هَوْلُ الْمَطْلَعِ،  
فَقَالَ: مَا أَنَا بِسَالٍ حَتَّى يُئْوِبَ الْقَارِظَانِ، وَلَمْ أَزْلِ مَعَهُ إِلَى أَنْ طَلَعَ الصُّبُّ، فَقُلْتُ: قُمْ بِنَا  
إِلَى مَسْجِدِ الْأَحْزَابِ، فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ كُرْبَتَكَ، فَقَالَ: أَرْجُو ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِرَبَّكَةِ  
طَاعَتِكَ، فَذَهَبْنَا حَتَّى أَتَيْنَا مَسْجِدَ الْأَحْزَابِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:  
يَا لَلْرِجَالِ لِيَوْمِ الْأَزِيْعَاءِ أَمَا  
يَئِفُكُ يُحِدُّ لِي بَعْدَ النُّهَى طَرِبًا  
مَا إِنْ يَرَالْ غَرَالْ مِنْهُ يَقْتُلُنِي  
يَأْتِي إِلَى مَسْجِدِ الْأَحْزَابِ مُنْتَقِبًا

يُخِبِّرُ النَّاسَ أَنَّ الْأَجْرَ هِمَّتُهُ      وَمَا أَتَى طَالِبًا لِلْأَجْرِ مُخْتَسِبًا

لَوْ كَانَ يَبْغِي ثَوَابًا مَا أَتَى صَلَافًا      مُضْمِمًا بِفَتِيتِ الْمِسْكِ مُخْتَضِبًا

ثُمَّ جَلَسْنَا حَتَّى صَلَيْنَا الظَّهَرَ، فَإِذَا بِالنُّسُوَّةِ قَدْ أَفْبَلَنَّ وَلَيْسَتِ الْجَارِيَةُ فِيهِنَّ، فَوَقَفْنَ عَلَيْهِ، وَقُلْنَ لَهُ: يَا عُتْبَةُ مَا ظَنَّكَ بِطَالِبَةِ وَصَلِيكَ، وَكَاسِفَةِ بَالِكَ؟ قَالَ: وَمَا بَالَهَا، قُلْنَ: أَخْدَهَا أَبُوها وَأَرْتَهَلَ بِهَا إِلَى أَرْضِ السَّمَاءَوَةِ، فَسَأَلْتُهُنَّ عَنِ الْجَارِيَةِ، فَقُلْنَ: هِيَ رَيَّا بِنْتُ الْغِطْرِيفِ السُّلَمِيِّ، فَرَفَعَ عُتْبَةُ رَأْسَهُ إِلَيْهِنَّ وَقَالَ:

خَلِيلِيَّ رَيَّا قَدْ أَحِدَ بِكُورِهَا      وَسَارَتِ إِلَى أَرْضِ السَّمَاءَوَةِ غَيْرِهَا

خَلِيلِيَّ إِنِّي قَدْ عَشِيتُ مِنَ الْبُكَاءِ      فَهَلْ عِنْدَ غَيْرِي مُقْلَهُ أَشْتَعِيرُهَا

فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي قَدْ وَرَدْتُ بِمَالٍ جَزِيلٍ أُرِيدُ بِهِ أَهْلَ السَّتْرِ، وَوَاللَّهِ لَأَبْدُلَنَّهُ أَمَامَكَ حَتَّى تَبْلُغَ رِضَاكَ وَفَوْقَ الرِّضَا، فَقُمْ بِنَا إِلَى مَسْجِدِ الْأَنْصَارِ، فَقُمْنَا وَسِرْنَا حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى مَلَأِ مِنْهُمْ، فَسَلَّمْتُ، فَأَحْسَنُوا الرَّدَّ، فَقُلْتُ: أَيْهَا الْمَلَأُ، مَا تَقُولُونَ فِي عُتْبَةَ وَأَبِيهِ؟ قَالُوا: مِنْ سَادَاتِ الْعَرَبِ، قُلْتُ: فَإِنَّهُ قَدْ رُمِيَ بِدَاهِيَةٍ مِنَ الْهَوَى وَمَا أُرِيدُ مِنْكُمْ إِلَّا الْمُسَاعَدَةُ إِلَى السَّمَاءَوَةِ، فَقَالُوا: سَمِعْنَا وَطَاعَنَّا، فَرَكِبَ الْقَوْمُ مَعَنَا حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى مَنَازِلِ بَنِي سُلَيْمَ، فَأَعْلَمَ الْغِطْرِيفَ بِنَا، فَخَرَجَ مُبَادِرًا فَاسْتَقْبَلَنَا، وَقَالَ: حُيُّتُمْ يَا كِرَامُ، فَقُلْنَا: وَأَنْتَ فَحَيَّا كَإِنَّا لَكَ أَصْيَافُ، فَقَالَ: نَزَّلْتُمْ أَكْرَمَ مَنْزِلٍ، ثُمَّ نَادَى: يَا مَعْشَرَ الْعَيْدِ، أَنْزَلُوا الْقَوْمَ، فَفَرِشْتَ الْأَنْطَاعَ وَالنَّمَارِقَ، وَذَبَحْتَ الدَّبَائِعَ، فَقُلْنَا: لَسْنَا بِذِائقَيِ طَعَامِكَ حَتَّى تَقْضِيَ حَاجَتَنَا، فَقَالَ: وَمَا حَاجَتُكُمْ؟ قُلْنَا: نَخْطُبُ عَقِيلَتَكَ الْكَرِيمَةَ لِعُتْبَةَ بْنِ الْحُبَابِ بْنِ الْمُنْدِرِ، فَقَالَ: إِنَّ الَّتِي تَخْطِبُوهَا أَمْرُهَا إِلَى نَفْسِهَا، وَأَنَا أَدْخُلُ أُخْبِرُهَا، ثُمَّ دَخَلَ مُغْضَبًا عَلَى ابْنَتِهِ، فَقَالَتْ: يَا أَبَتِي مَا لَيْ أَرَى الْغَضَبَ فِي وَجْهِكَ؟، فَقَالَ: قَدْ وَرَدَ الْأَنْصَارُ

يَخْطُبُونَكِ مِنِّي، فَقَالَتْ: سَادَاتُ كِرَامُ، اسْتَغْفِرَ لَهُمُ النَّبِيُّ - ﷺ -، فَلِمَنِ الْخُطْبَةُ مِنْهُمْ؟ فَقَالَ: لِعُتْبَةَ بْنِ الْحُبَابِ، قَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ عُتْبَةَ هَذَا: إِنَّهُ يَقِيِّ بِمَا وَعَدَ، وَيُدْرِكُ إِذَا قَصَدَ، فَقَالَ: أَفْسَمْتُ لَا أُزُوْ جَنَّكِ يَهُ أَبْدَا، وَلَقَدْ نَمَى إِلَيَّ بَعْضُ حَدِيثِكِ مَعَهُ، فَقَالَتْ: مَا كَانَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِذْ أَفْسَمْتَ، فَإِنَّ الْأَنْصَارَ لَا يُرِدُونَ رَدًا قَبِيْحًا، حَسْنُ لَهُمُ الرَّدُّ، فَقَالَ: بَأَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: أَغْلَظُ عَلَيْهِمُ الْمَهْرَ، فَإِنَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا يُحِبُّونَ، فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ مَا قُلْتِ، فَخَرَجَ مُبَادِرًا عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: إِنَّ فَتَاهَ الْحَيٌّ قَدْ أَجَابَتْ، وَلَكِنِي أَرِيدُ لَهَا مَهْرَ مِثْلِهَا، فَمَنِ الْقَائِمُ بِهِ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْمَرٍ: أَنَا، فَقُلْنَا مَا شِئْتَ، فَقَالَ: أَلْفُ مِثْقَالٍ مِنَ الدَّهْبِ، وَمِائَةُ ثُوْبٍ مِنَ الْأَبْرَادِ، وَخَمْسَةُ أَكْرَشَةٍ مِنْ عَنْبَرٍ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَكَ ذَلِكَ كُلُّهُ، فَهَلْ أَجَبَتْ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَأَنْفَدْتُ نَفْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَتَوْا بِجَمِيعِ مَا طَلَبَ، ثُمَّ صُبِّنَتِ الْوَلِيمَةُ، وَأَقْمَنَا عَلَى ذَلِكَ أَيَّامًا، ثُمَّ قَالَ: خُذُوا فَتَاتَكُمْ وَانْصِرُ فُرَا مُصَاحِّينَ، ثُمَّ حَمَلَهَا فِي هُوَدَحٍ، وَجَهَّزَهَا بِثَلَاثَيْنَ رَاحِلَةً مِنَ الْمَتَاعِ وَالْتُّحَفِ، فَوَدَعْنَاهُ وَسِرْنَا، حَتَّى إِذَا بَقَيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ مَرْحَلَةً وَاحِدَةً، خَرَجْتُ عَلَيْنَا خَيْلٌ تُرِيدُ الْغَارَةَ أَحْسَبُهَا مِنْ سُلَيْمَ، فَحَمَلَ عَلَيْهَا عُتْبَةَ بْنِ الْحُبَابِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ رِجَالًا، وَجَرَحَ آخَرَيْنَ، ثُمَّ رَجَعَ وَبِهِ طَعْنَةٌ تَفُورُ دَمًا، فَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَانْشَى بِخَدِّهِ، فَطَرِدَتْ عَنَّا الْخَيْلُ وَقَدْ قَضَى عُتْبَةَ نَحْبَهُ، فَقُلْنَا: وَاعْتَبَاهُ، فَسَمِعَنَا الْجَارِيَةُ، فَأَلَقَتْ نَفْسَهَا مِنَ الْبَعِيرِ، وَجَعَلَتْ تَصِيْحُ بِحُرْقَةٍ، وَأَنْشَدَتْ:

تَصَبَّرْتُ لَا أَنِي صِبَرْتُ وَإِنَّمَا  
أَمَامَكَ مِنْ دُونِ الْبَرِيَّةِ سَابِقَهُ  
خَلِيلًا وَلَا نَفْسٌ لِنَفْسٍ مُوَافِقَهُ

فَلَوْ أَنْصَفْتُ رُوْحِي لَكَانَتْ إِلَى الرَّدَى  
فَمَا أَحَدُ بَعْدِي وَبَعْدَكَ مُنْصَفٌ

ثُمَّ شَهِقْتُ وَقَضَتْ نَحْبَهَا، فَاحْتَفَرْنَا لَهُمَا قَبْرًا وَاحِدًا وَدَفَنَاهُمَا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَقْمَتُ سَبْعَ سِنِينَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى الْحِجَازِ وَوَرَدْتُ الْمَدِينَةَ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَآتَيْنَ قَبْرَ عَتَبَةَ أَزُورُهُ، فَأَتَيْتُ الْقَبْرَ، فَإِذَا عَلَيْهِ شَجَرَةٌ عَلَيْهَا عَصَابَتْ حُمْرٌ وَصُفْرٌ، فَقُلْتُ لِأَرْبَابِ الْمَنْزِلِ مَا يُقَالُ لِهَذِهِ الشَّجَرَةِ؟ قَالُوا: شَجَرَةُ الْعَرْوَسِينِ.

وَلَوْلَمْ يَكُنْ فِي الْعِشْقِ مِنَ الرُّخْصَةِ الْمُخَالِفَةِ لِلتَّشْدِيدِ إِلَّا الْحَدِيثُ الْوَارِدُ بِالْحَسَنِ مِنَ الْأَسَانِيدِ، وَهُوَ حَدِيثُ سُوَيْدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ عَلَيٍّ بْنِ مُسْهِرٍ عَنْ أَبِي يَحْيَى الْقَتَّابِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ يَرْفَعُهُ: "مَنْ عَشِقَ وَعَفَّ، وَكَتَمَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ" وَرَوَاهُ سُوَيْدٌ أَيْضًا عَنْ أَبْنِ مُسْهِرٍ عَنْ هِشَامٍ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ مَرْفُوعًا، وَرَوَاهُ الْخَطِيبُ عَنْ الْأَزْهَرِيِّ عَنِ الْمُعَاافَى بْنِ زَكَرِيَّا عَنْ قُطْبَةَ عَنْ أَبْنِ الْفَضْلِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مَسْرُوقٍ عَنْهُ، وَرَوَاهُ الزُّبِيرِيُّ بْنُ بَكَارٍ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَاجِسْوُنِ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبْنِ أَبِي نَحِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ.

وَهَذَا سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالآخَرِينَ وَرَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ - ﷺ - نَظَرٌ إِلَى زَيْنَبَ بْنِتِ جَحْشٍ - ﷺ - فَقَالَتْ: سُبْحَانَ مُقْلِبِ الْقُلُوبِ، وَكَانَتْ تَحْتَ رَيْدَ بْنِ حَارِثَةَ مَوْلَاهُ، فَلَمَّا هُمْ بِطَلاقِهَا، قَالَ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، فَلَمَّا طَلَّقَهَا، زَوَّجَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ رَسُولِهِ - ﷺ - مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاءَتِ، فَكَانَ هُوَ وَلِيَّا وَوَلِيَّ تَزْوِيجَهَا مِنْ رَسُولِهِ - ﷺ -، وَعَدَدَ نِكَاحَهَا مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ - ﷺ -:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَأَبْقَى اللَّهُ وَخُفْنَى فِي نَفْسِكَ مَا أَلَّهُ مُبِدِيهِ وَتَخَشَّى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَّهُ ﴾ [سُورَةُ الْأَحْزَابِ: 37].

## الذَّارِفَةُ

وَهَذَا دَأْوُدُ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، لَمَّا كَانَ تَحْتَهُ تِسْعُ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً، ثُمَّ أَحَبَّ تِلْكَ الْمَرْأَةَ فَتَرَوْجَهَا وَكَمَلَ بِهَا الْمِائَةَ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: أَوَّلُ حُبٍ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ، حُبُّ النَّبِيِّ - ﷺ - عَائِشَةَ - ؓ -، وَكَانَ مَسْرُوقٌ يُسَمِّيَهَا حَبِيبَةَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -.

وَقَالَ أَبُو قَيْسٍ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو: أَرْسَلَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ، أَسْأَلُهَا: أَكَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يُقَبِّلُ أَهْلَهُ وَهُوَ صَائِمٌ؟ فَقَالَتْ: لَا، فَقَالَ: إِنَّ عَائِشَةَ - ؓ - قَالَتْ: إِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - كَانَ يُقَبِّلُهَا وَهُوَ صَائِمٌ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ - ؓ -: إِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - كَانَ إِذَا رَأَى عَائِشَةَ لَا يَتَمَالَكُ عَنْهَا".

وَذَكَرَ سَعِيدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ ﷺ يُبَرُّ هَاجِرَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنَ الشَّامِ عَلَى الْبُرَاقِ مِنْ شَغْفِهِ بِهَا، وَقَلَّةٌ صَبِرْهُ عَنْهَا.

وَذَكَرَ الْخَرَائِطِيُّ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ - ؓ - اشْتَرَى جَارِيَةً رُومَيَّةً، فَكَانَ يُحِبُّهَا حُبًا شَدِيدًا، فَوَقَعَتْ ذَاتَ يَوْمٍ عَنْ بَعْلَةٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَمْسُحُ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهَا وَيُقَبِّلُهَا، وَكَانَتْ تُكْثِرُ مِنْ أَنْ تَقُولَ: يَا بَطْرُونُ أَنْتَ قَالُونُ، تَعْنِي: يَا مَوْلَايَ أَنْتَ حَيْدُ، ثُمَّ إِنَّهَا هَرَبَتْ مِنْهُ، فَوَجَدَ عَلَيْهَا وَجْدًا شَدِيدًا، وَقَالَ:

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي قَالُونَ فَانْصَرَفْتُ... فَالْيَوْمَ أَعْلَمُ أَنِّي غَيْرُ قَالُونَ

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَزْمٍ: وَقَدْ أَحَبَّ مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ كَثِيرٌ، وَقَالَ رَجُلٌ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - ؓ -: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، رَأَيْتُ امْرَأَةً فَعَشِقْتُهَا، فَقَالَ ذَلِكَ مَا لَا تَمْلِكُ.

فَالْجَوَابُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ: أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا الْبَابِ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْوَاقِعِ  
وَالْجَائِزِ، وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ، وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالذَّمِّ وَالْإِنْكَارِ، وَلَا بِالْمَدْحِ وَالْقُبُولِ مِنْ  
حَيْثُ الْجُمْلَةُ، وَإِنَّمَا يَيْسِنُ حُكْمُهُ، وَيَنْكِشِفُ أَمْرُهُ بِذِكْرِ مُتَعَلِّمِهِ، وَإِلَّا فَالْعِشْقُ مِنْ حَيْثُ  
هُوَ لَا يُحْمَدُ وَلَا يُذَمُّ، وَنَحْنُ نَذْكُرُ النَّافِعَ مِنَ الْحُبِّ وَالضَّارِّ، وَالْجَائِزِ وَالْحَرَامَ.

\* \* \*

### [المَحَبَّةُ النَّافِعَةُ]

اعْلَمُ أَنَّ أَنْفَعَ الْمَحَبَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَأَوْجَبَهَا وَأَعْلَاهَا مَحَبَّةُ مَنْ جِيلَتِ الْقُلُوبُ  
عَلَى مَحَبَّتِهِ، وَفُطِرَتِ الْخَلِيقَةُ عَلَى تَأْلِيهِهِ، وَبِهَا قَامَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَعَلَيْهَا فُطِرَتِ  
الْمَخْلُوقَاتُ، وَهِيَ سُرُّ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ إِلَهَهُوَ الَّذِي تَأَلَّهَ الْقُلُوبُ بِالْمَحَبَّةِ  
وَالْإِجْلَالِ، وَالْتَّعْظِيمِ وَالذِّلِّ لَهُ وَالْخُضُوعِ وَالتَّعْبُدِ، وَالْعِبَادَةُ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَالْعِبَادَةُ  
هِيَ: كَمَالُ الْحُبُّ مَعَ كَمَالِ الْخُضُوعِ وَالذِّلِّ، وَالشُّرُكُ فِي هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ مِنْ أَظْلَمِ الظُّلُمِ الَّذِي  
لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ لِذَاتِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَمَا سِوَاهُ فَإِنَّمَا يُحِبُّ تَبَعًا لِمَحَبَّتِهِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى وُجُوبِ مَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ جَمِيعُ كُتُبِهِ الْمُنْزَلَةِ، وَدَعْوَةُ جَمِيعِ رُسُلِهِ،  
وَفِطْرَتُهُ الَّتِي فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَيْهَا، وَمَا رَكَبَ فِيهِمْ مِنْ الْعُقُوقِ، وَمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ  
فَإِنَّ الْقُلُوبَ مَفْطُورَةٌ مَجْبُولَةٌ عَلَى مَحَبَّةِ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهَا، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ  
الْإِحْسَانُ مِنْهُ؟ وَمَا يُخْلِقُهُ جَمِيعُهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فِيهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿ وَمَا يَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فِيمَنَ اللَّهُ ثُمَّ إِذَا مَسَكُمُ الظُّرُفُرُ فَإِلَيْهِ يَنْخُرُونَ ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: 53].

وَمَا تَعْرَفَ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا، وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آثَارُ  
مَصْنُونَ عَاتِيهِ مِنْ كَمَالِهِ وَنِهَايَةِ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

## الدَّلَالُ وَالْوَلَاءُ

وَالْمَحَبَّةُ لَهَا دَاعِيَانِ: الْجَمَالُ، وَالْجَلَالُ وَالرَّبُّ تَعَالَى لَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلُقُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، بَلِ الْجَمَالُ كُلُّهُ لَهُ، وَالْإِجْلَالُ كُلُّهُ مِنْهُ، فَلَا يَسْتَحِقُ أَنْ يُحِبَّ لِذَاهِهِ مِنْ كُلٌّ وَجِهٍ سِوَاهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُجْنُونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: 31].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ أَمْنَوْا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّةٌ عَلَى الْكُفَّارِ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَا يَمِّنُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ٥٤ ﴿ إِنَّمَا وَلِيَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ أَمْنَوْا الَّذِينَ يُقْيِمُونَ الصَّلَاةَ وَيَؤْتُونَ الزَّكُوَةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ ٥٥ ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ أَمْنَوْا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَلَبُونَ ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةَ: 54 - 56].

فَالْلُّوْلَيَةُ أَصْلُهَا الْحُبُّ، فَلَا مُوَالَةٌ إِلَّا بِحُبٍّ، كَمَا أَنَّ الْعَدَاوَةَ أَصْلُهَا الْبُغْضُ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ أَمْنَوْا وَهُمْ أُولَيَاؤُهُ، فَهُمْ يُوَالِونَهُ بِمَحَبَّتِهِمْ لَهُ، وَهُوَ يُوَالِيَهُمْ بِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ، فَاللَّهُ يُوَالِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِحَسْبِ مَحَبَّتِهِ لَهُ.

وَلِهَذَا أَنْكَرَ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ أُولَيَاءَ، بِخِلَافِ مَنْ وَالَّى أُولَيَاءَهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْهُمْ مِنْ دُونِهِ، بَلْ مُوَالَاتُهُ لَهُمْ مِنْ تَمَامِ مُوَالَاتِهِ.

وَقَدْ أَنْكَرَ عَلَى مَنْ سَوَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَيْرِهِ فِي الْمَحَبَّةِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ أَنْدَادًا يُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ أَمْنَوْا أَشَدُ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةَ: 165].

وَأَخْبَرَ عَمَّنْ سَوَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْدَادِ فِي الْحُبِّ، أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي النَّارِ لِمَعْبُودِيهِمْ: ﴿ تَالَّهُ إِنَّ كَنَّا لَنِي ضَلَالٌ مُّبِينٌ ﴾ ٦٧ ﴿ إِذَا سُوِّيَكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٦٨ [سُورَةُ الشُّعْرَاءَ: 97 - 98].

وَبِهَذَا التَّوْحِيدُ فِي الْحُبِّ أَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَمِيعَ رُسُلِهِ، وَأَنْزَلَ جَمِيعَ كُتُبِهِ، وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَلَا جُلُّهُ خُلِقَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَجَعَلَ الْجَنَّةَ لِأَهْلِهِ، وَالنَّارَ لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ فِيهِ.

وَقَدْ أَقْسَمَ النَّبِيُّ - ﷺ - أَنَّهُ: "لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يَكُونَ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" ، فَكَيْفَ بِمَحَبَّةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ؟

وَقَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - : "لَا، حَتَّى أَكُونَ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ" أَيْ لَا تُؤْمِنُ حَتَّى تَصِلَ مَحَبَّتَكَ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - أَوْلَى بِنَا مِنْ أَنفُسِنَا فِي الْمَحَبَّةِ وَلَوَازِمَهَا أَفْلَيْسَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ أَوْلَى بِمَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ مِنْ أَنفُسِهِمْ، وَكُلُّ مَا مِنْهُ إِلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ يَدْعُو إِلَى مَحَبَّتِهِ، مِمَّا يُحِبُّ الْعَبْدُ وَيَكْرُهُ - فَعَطَاوَهُ وَمَنْعُهُ، وَمُعَافَاتُهُ وَابْتِلَاوُهُ، وَقَبْضُهُ وَبَسْطُهُ، وَعَدْلُهُ وَفَضْلُهُ، وَإِمَاتَتُهُ وَإِحْيَاوُهُ، وَلُطْفُهُ وَبِرُّهُ، وَرَحْمَتُهُ وَإِحْسَانُهُ، وَسَرْتُهُ وَعَفْوُهُ، وَحِلْمُهُ وَصَبْرُهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَإِجَابَتُهُ لِدُعَائِهِ، وَكَشْفُ كَرْبِهِ، وَإِغَاثَةُ لَهْفَتِهِ، وَتَفْرِيْجُ كُرْبَتِهِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِ، بَلْ مَعَ غِنَاءِ التَّامِ عَنْهُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، كُلُّ ذَلِكَ دَاعٍ لِلْقُلُوبِ إِلَى تَأْلِيهِ وَمَحَبَّتِهِ، بَلْ تَمْكِينُهُ عَبْدُهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَإِعْانَتُهُ عَلَيْهَا، وَسَرْتُهُ حَتَّى يَقْضِيَ وَطَرُهُ مِنْهَا، وَكَلَاءُهُ وَحِرَاسَتُهُ لَهُ، وَيَقْضِي وَطَرُهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، يُعِينُهُ وَيَسْتَعِينُ عَلَيْهَا بِنَعِيمِهِ - مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي إِلَى مَحَبَّتِهِ، فَلَوْ أَنَّ مَخْلُوقًا فَعَلَ بِمَخْلُوقٍ أَدْنَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَمْ تَمْلِكْ قَلْبَهُ عَنْ مَحَبَّتِهِ، فَكَيْفَ لَا يُحِبُّ الْعَبْدُ بِكُلِّ قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهِ عَلَى الدَّوَامِ بِعَدَدِ الْأَنْفَاسِ، مَعَ إِسَاعَتِهِ؟ فَخَيْرُهُ إِلَيْهِ نَازِلٌ، وَشَرُّهُ إِلَيْهِ صَاعِدٌ، يَتَحَبَّبُ

## اللَّدُغَةُ وَاللَّوْمُ

إِلَيْهِ بِنَعْمَهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُ، وَالْعَبْدُ يَتَبَغَّضُ إِلَيْهِ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، فَلَا إِحْسَانُهُ وَبِرُّهُ وَإِنْعَامُهُ إِلَيْهِ يَصُدُّهُ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَلَا مَعْصِيَةُ الْعَبْدِ وَلُؤْمُهُ يَقْطَعُ إِحْسَانَ رَبِّهِ عَنْهُ.

فَالْأَمْمَوْلُ الْلَّوْمُ تَخَلُّفُ الْقُلُوبُ عَنْ مَحَبَّةِ مَنْ هَذَا شَانُهُ، وَتَعَلُّقُهَا بِمَحَبَّةِ سِوَاهُ.

وَأَيْضًا فَكُلُّ مَنْ تُحِبُّهُ مِنَ الْخَلْقِ أَوْ يُحِبُّكَ إِنَّمَا يُرِيدُكَ لِنَفْسِهِ وَغَرَضِهِ مِنْكَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُرِيدُكَ لَكَ، كَمَا فِي الْأَثْرِ الْإِلَهِيِّ: [عَبْدِي كُلُّ يُرِيدُكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنَا أُرِيدُكَ لَكَ]، فَكَيْفَ لَا يَسْتَحِي الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ رَبُّهُ لَهُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ، وَهُوَ مُعْرَضٌ عَنْهُ، مَشْغُولٌ بِحُبِّ غَيْرِهِ، قَدْ اسْتَغْرَقَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّةِ سِوَاهُ؟

وَأَيْضًا، فَكُلُّ مَنْ تُعَامِلُهُ مِنَ الْخَلْقِ إِنْ لَمْ يَرْبُحْ عَلَيْكَ لَمْ يُعَامِلْكَ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَوْعِيَّةِ الرِّبِّ، وَالرَّبُّ تَعَالَى إِنَّمَا يُعَامِلُكَ لِتَرْبَحَ أَنْتَ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الرِّبِّ وَأَعْلَاهُ، فَالدُّرْرُهُمُ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهِ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَصْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ وَهِيَ أَسْرَعُ شَيْءٍ مَحْوًا.

وَأَيْضًا هُوَ سُبْحَانُهُ خَلَقَكَ لِنَفْسِهِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ أَوْلَى مِنْهُ بِاِسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ فِي مَحَبَّتِهِ، وَبَذْلِ الْجُهْدِ فِي مَرَضَاتِهِ؟

وَأَيْضًا فَمَطَالِبُكَ - بَلْ مَطَالِبُ الْخَلْقِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا - لَدَيْهِ، وَهُوَ أَجْوَدُ الْأَجْوَادِينَ، وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، أَعْطَى عَبْدَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ فَوْقَ مَا يُؤْمِلُهُ، يَشْكُرُ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ وَيُنْمِيهِ، وَيَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ وَيَمْحُوهُ، يَسْعَلُهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَانِ، لَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، وَلَا تُغْلِطُهُ كَثْرَةُ الْمَسَائِلِ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِالْحَاجَ الْمُلِحِينَ، بَلْ يُحِبُّ الْمُلِحِينَ فِي الدُّعَاءِ، وَيُحِبُّ أَنْ يُسَأَلَ، وَيَغْضَبُ إِذَا لَمْ يُسَأَلَ، يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ حَيْثُ لَا يَسْتَحِي الْعَبْدُ مِنْهُ، وَيَسْتَرُهُ حَيْثُ لَا يَسْتُرُ نَفْسَهُ، وَيَرْحَمُهُ حَيْثُ لَا يَرْحُمُ نَفْسَهُ، دَعَاهُ

يَنْعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ وَأَيَادِيهِ إِلَى كَرَامَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، فَأَبَى، فَأَرْسَلَ رُسُلَهُ فِي طَلَبِهِ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ مَعْهُمْ عَهْدَهُ، ثُمَّ نَزَّلَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ نَفْسُهُ، وَقَالَ: "مَنْ يَسْأَلْنِي فَأُعْطِيهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرْنِي فَأَغْفِرْ لَهُ؟" كَمَا قِيلَ: "أَدْعُوكَ وَلِلْوَصْلِ تَأْبِي، أَبْعَثُ رَسُولِي فِي الْطَّلَبِ، أَنْزُلْ إِلَيْكَ بِنَسْيِي، الْقَاكَ فِي النَّوْمِ".

وَكَيْفَ لَا تُحِبُّ الْقُلُوبُ مَنْ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَذْهَبُ بِالسَّيِّئَاتِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُحِبُّ الدَّعَوَاتِ، وَيُقْبِلُ الْعَثَرَاتِ، وَيَغْفِرُ الْخَطِيئَاتِ، وَيَسْتُرُ الْعَوَرَاتِ، وَيَكْشِفُ الْكُرُبَاتِ، وَيُغْيِّثُ الْلَّهَقَاتِ، وَيُنِيلُ الْطَّلَبَاتِ سِوَاهُ؟.

فَهُوَ أَحَقُّ مَنْ ذُكِرَ، وَأَحَقُّ مَنْ شُكِرَ، وَأَحَقُّ مَنْ عِدَ، وَأَحَقُّ مَنْ حُمِدَ، وَأَنْصَرُ مَنْ أُبْتُغِيَ، وَأَرَأَفُ مَنْ مَلَكَ، وَأَجْوَدُ مَنْ سُئِلَ، وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطَى، وَأَرَحَمُ مَنْ اسْتُرْحَمَ، وَأَكْرَمُ مَنْ قِصَدَ، وَأَعْزَزُ مَنْ التُّجَيَّعَ إِلَيْهِ وَأَكْفَى مَنْ تُوَكَّلَ عَلَيْهِ، أَرَحَمُ بِعَبْدِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، وَأَشَدُ فَرَحًا بِتَوْبَةِ التَّائِبِ مِنَ الْفَاقِدِ لِرَاحِلَتِهِ الَّتِي عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فِي الْأَرْضِ الْمُهْلِكَةِ إِذَا يَسَّ مِنَ الْحَيَاةِ ثُمَّ وَجَدَهَا.

وَهُوَ الْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْفَرْدُ فَلَا نِدَّ لَهُ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهُهُ، لَنْ يُطَاعَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَنْ يُعَصَى إِلَّا بِعِلْمِهِ، يُطَاعُ فَيَسْكُرُ، وَبِتَوْفِيقِهِ وَنِعْمَتِهِ أُطِيعَ، وَيُعَصَى فَيَغْفِرُ وَيَعْفُو، وَحَقُّهُ أُضِيعَ، فَهُوَ أَقْرَبُ شَهِيدٍ، وَأَجْلُ حَفْيِظٍ، وَأَوْفَى بِالْعَهْدِ، وَأَعْدَلُ قَائِمٍ بِالْقِسْطِ، حَالَ دُونَ النُّفُوسِ، وَأَخْذَ بِالنَّوَاصِي وَكَتَبَ الْأَثَارَ، وَنَسَخَ الْأَجَالَ، فَالْقُلُوبُ لَهُ مُفْضِيَّةُ، وَالسُّرُّ عِنْدُهُ عَلَانِيَّةُ، وَالْغَيْبُ لَدِيهِ مَكْشُوفٌ، وَكُلُّ أَحَدٍ إِلَيْهِ مَلْهُوفٌ، وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِنُورِ وَجْهِهِ، وَعَجَزَتِ الْقُلُوبُ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِهِ، وَدَلَّتِ الْفِطْرُ وَالْأَدَلَّةُ كُلُّهَا عَلَى امْتِنَاعِ مِثْلِهِ وَشَبِيهِ، أَشَرَّقَتْ لِنُورِ وَجْهِهِ الظُّلُمَاتُ، وَاسْتَنَارَتْ لَهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ،

وَصَلَحَتْ عَلَيْهِ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ  
يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، وَلَوْ  
كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُّحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ:  
مَا اغْتَاضَ بَأْذُلُّ حُبِّهِ لِسَوَادِهِ عَوْضٌ وَلَوْ مَلَكَ الْوُجُودِ بِأَشِرِهِ

\* \* \*

### [فصلٌ كَمَالُ اللَّذَّةِ فِي كَمَالِ الْمَحْبُوبِ وَكَمَالِ الْمَحَبَّةِ]

وَهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ يَحِبُّ عَلَى الْلَّيْبِ الْإِعْتِنَاءُ بِهِ، وَهُوَ أَنْ كَمَالَ اللَّذَّةِ وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ  
وَنَعِيمِ الْقَلْبِ وَابْتِهاجِ الرُّوْحِ تَابِعٌ لِأَمْرِيْنِ: أَحَدُهُمَا: كَمَالُ الْمَحْبُوبِ فِي نَفْسِهِ وَجَمَالِهِ،  
وَأَنَّهُ أَوْلَى بِإِيَّاشِرِ الْمَحَبَّةِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ.  
وَالْأَمْرُ الثَّانِي: كَمَالُ مَحَبَّتِهِ، وَاسْتِفْرَاغُ الْوُسْعِ فِي حُبِّهِ، وَإِيَّاشُرُ قُرْبِهِ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وَكُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّذَّةَ بِحُصُولِ الْمَحْبُوبِ بِحَسْبِ قُوَّةِ مَحَبَّتِهِ، فَكُلَّمَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ  
أَفْوَى كَانَتْ لَذَّةُ الْمُحِبِّ أَكْمَلَ، فَلَذَّةُ الْعَبْدِ مَنِ اشْتَدَّ ظَمْؤُهُ بِإِدْرَاكِ الْمَاءِ الزُّلَالِ، وَمَنِ اشْتَدَّ  
جُوْعُهُ بِأَكْلِ الطَّعَامِ الشَّهِيْيِّ، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ شَوْقِهِ وَشَدَّدَةِ إِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ.  
وَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا، فَاللَّذَّةُ وَالسُّرُورُ وَالْفَرَحُ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ فِي نَفْسِهِ، بَلْ هُوَ مَقْصُودُ  
كُلِّ حَيٍّ وَعَاقِلٍ، إِذَا كَانَتِ اللَّذَّةُ مَطْلُوبَةً لِنَفْسِهَا فَهِيَ تُدْمَمُ إِذَا أَعْقَبَتْ أَلَّمًا أَعْظَمَ مِنْهَا، أَوْ  
مَنَعَتْ لَذَّةَ خَيْرًا مِنْهَا وَأَجَلَ، فَكَيْفَ إِذَا أَعْقَبَتْ أَعْظَمَ الْحَسَرَاتِ، وَفَوَّتْ أَعْظَمَ اللَّذَّاتِ  
وَالْمَسَرَّاتِ؟ وَتُحَمَّدُ إِذَا أَعَانَتْ عَلَى لَذَّةِ عَظِيمَةٍ دَائِمَةٍ مُسْتَقْرَةٍ لَا تَنْغِيَصَ فِيهَا وَلَا نَكَدَ  
بِوَجْهِهِ مَا، وَهِيَ لَذَّةُ الْآخِرَةِ وَنَعِيمُهَا وَطِيبُ الْعَيْشِ فِيهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ

الْدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [سُورَةُ الْأَعْلَى: 16 - 17].

## الْذَّلَّةُ وَالْأَوْلَادُ

وَقَالَ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ لَمَّا آمَنُوا:

﴿فَأَقْضِنَّ مَا أَنْتَ قَاضٌ إِنَّمَا نَقْضِنِي هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [٧٦] إِنَّا آمَنَّا بِرِبِّنَا لِيغْفِرَ لَنَا خَطَّيْنَا وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّخْرِ وَاللَّهُ خَبْرُ وَابْنَى ﴾ [سُورَةُ طه: ٧٢ - ٧٣]

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلْقُ الْخَلْقِ لِيُنَلِّهُمْ هَذِهِ الْلَّذَّةُ الدَّائِمَةُ فِي دَارِ الْخُلْدِ، وَأَمَّا الدُّنْيَا فَمُنْقَطِعَةُ، وَلَذَّاتُهَا لَا تَصْفُو أَبَدًا وَلَا تَدُومُ، بِخِلَافِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ لَذَّاتِهَا دَائِمَةُ، وَنَعِيمَهَا خَالِصٌ مِنْ كُلِّ كَدِيرٍ وَأَلْمٍ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ مَعَ الْخُلُودِ أَبَدًا، وَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى اللَّهُ لِعِبَادِهِ فِيهَا مِنْ قُرْبَةٍ أَعْيُنٍ، بَلْ فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُدُنْ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قَصَدَهُ النَّاصِحُ لِقَوْمِهِ

﴿يَقُومُ أَتَيْعُونَ أَهْدِ كُمْ سَيِّلَ الرَّشَادِ ﴾ [٢٨] يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ [سُورَةُ غَافِر: ٣٨ - ٣٩]

فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الدُّنْيَا يُسْتَمْتَعُ بِهَا إِلَى غَيْرِهَا، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ الْمُسْتَقْرِرُ.

وَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ لَذَّاتِ الدُّنْيَا وَنَعِيمَهَا مَتَّاعٌ، وَوَسِيلَةٌ إِلَى لَذَّاتِ الْآخِرَةِ، وَلَذِلِكَ خُلِقَتِ الدُّنْيَا وَلَذَّاتُهَا، فَكُلُّ لَذَّةٍ أَعَانَتْ عَلَى لَذَّةِ الْآخِرَةِ وَأَوْصَلَتْ إِلَيْهَا لَمْ يُدَمَّ تَنَاؤْلُهَا، بَلْ يُحَمِّدُ بِحَسْبٍ إِيَصَالِهَا إِلَى لَذَّةِ الْآخِرَةِ.

رُؤْيَا اللَّهِ

إِذَا عُرِفَ هَذَا فَأَعْظَمُ نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَلَذَّاتِهَا: هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَسَمَاعُ كَلَامِهِ مِنْهُ، وَالْقُرْبُ مِنْهُ، كَمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيفَةِ حِدِيثُ الرُّؤْيَا: "فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ"، وَفِي حِدِيثٍ آخَرَ: "إِنَّهُ إِذَا تَجَلَّ لَهُمْ وَرَأُوهُ، نَسْوَا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ".

وَفِي النَّسَائِيِّ وَمُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي دُعَائِهِ: "وَأَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَالشَّوْقُ إِلَى لِقَائِكَ" وَفِي كِتَابِ السُّنْنَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ أَبْنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مَرْفُوعًا: "كَانَ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَسْمَعُوا الْقُرْآنَ، إِذَا سَمِعُوهُ مِنَ الرَّحْمَنِ فَكَانُوكُمْ لَمْ يَسْمَعُوكُمْ قَبْلَ ذَلِكَ".

وَإِذَا عُرِفَ هَذَا، فَأَعْظَمُ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُحَصِّلُ هَذِهِ الْلَّذَّةَ هُوَ أَعْظَمُ لَذَّاتِ الدُّنْيَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَهِيَ لَذَّةُ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَلَذَّةُ مَحَبَّتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ جَنَّةُ الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا الْعَالِيُّ، وَنَسْبَةُ لَذَّاتِهَا الْفَانِيَةِ إِلَيْهِ كَتْفَلَةٌ فِي بَحْرٍ، فَإِنَّ الرُّوحَ وَالْقَلْبَ وَالْبَدَنَ إِنَّمَا خُلِقَ لِذَلِكَ، فَأَطْيَبُ مَا فِي الدُّنْيَا مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَالَّذُّ مَا فِي الْجَنَّةِ رُؤْيَتُهُ وَمُشَاهَدَتُهُ، فَمَحَبَّتُهُ وَمَعْرِفَتُهُ قَرْةُ الْعَيُونِ، وَلَذَّةُ الْأَرْوَاحِ، وَبَهْجَةُ الْقُلُوبِ، وَنَعِيمُ الدُّنْيَا وَسُرُورُهَا، بَلْ لَذَّاتُ الدُّنْيَا الْقَاطِعَةُ عَنْ ذَلِكَ تَتَقَلَّبُ الْأَمَا وَعَذَابًا، وَيَقْنِي صَاحِبُهَا فِي الْمَعِيشَةِ الضَّنْكِ، فَلَيْسَتِ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَكَانَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ تَمُرُّ بِهِ أَوْقَاتٌ فَيَقُولُ: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ مِثْلِ هَذَا إِنَّهُمْ لَغَيْرِ عَيْشٍ طَيِّبٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ، وَكَانَ غَيْرُهُ يَقُولُ: لَوْ يَعْلَمُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّلُوفِ.

وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ الْمَحَبَّةِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي هِيَ عَذَابٌ عَلَى قَلْبِ الْمُحِبِّ، يَقُولُ فِي حَالِهِ:

وَمَا النَّاسُ إِلَّا الْعَاشِقُونَ ذُوو الْهَوَى

وَيَقُولُ عَيْرُهُ:

أَفْ لِلْدُنْيَا إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ

وَيَقُولُ آخَرُ:

وَلَا خَيْرٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي نَعِيمَهَا

وَيَقُولُ الْآخَرُ:

اَشْكُنْ إِلَى سَكِّنٍ تَلْذُّ بِحُبِّهِ  
ذَهَبَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ مُنْفَرِدٌ  
وَيَقُولُ الْآخَرُ:

تَشَكَّى الْمُحِبُّونَ الصَّبَابَةَ لَيْتَنِي  
فَكَانَتْ لِقَلْبِي لَذَّةُ الْحُبِّ كُلُّهَا  
تَحْمَلْتُ مَا يُلْقَوْنَ مِنْ يَنْهِمْ وَحْدِي  
فَلَمْ يُلْقَهَا قَبْلِي مُحِبٌّ وَلَا بَعْدِي

فَكَيْفَ بِالْمَحَبَّةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَغَذَاءُ الْأَرْوَاحِ، وَلَيْسَ لِلْقَلْبِ لَذَّةُ، وَلَا  
عَيْمُ، وَلَا فَلَاحُ، وَلَا حَيَاةٌ إِلَّا بِهَا، وَإِذَا فَقَدَهَا الْقَلْبُ كَانَ أَلْمُ أَعْظَمَ مِنْ أَلْمِ الْعَيْنِ إِذَا  
فَقَدَتْ نُورَهَا، وَالْأُذْنُ إِذَا فَقَدَتْ سَمْعَهَا، وَالْأَنْفُ إِذَا فَقَدَ شَمَهُ، وَاللِّسَانُ إِذَا فَقَدَ نُطْفَهُ،  
بَلْ فَسَادُ الْقَلْبِ إِذَا خَالَ مِنْ مَحَبَّةِ فَاطِرِهِ وَبَارِئِهِ وَإِلَيْهِ الْحَقُّ أَعْظَمُ مِنْ فَسَادِ الْبَدَنِ إِذَا خَالَ  
مِنْهُ الرُّوْحُ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يُصَدِّقُ بِهِ إِلَّا مَنْ فِيهِ حَيَاةٌ، وَمَا لِجُرْحٍ مَيِّتٍ إِلَّا مُمْ

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ أَعْظَمَ لَذَاتِ الدُّنْيَا هُوَ السَّبِبُ الْمُوَصَّلُ إِلَى أَعْظَمِ لَذَّةٍ فِي الْآخِرَةِ،  
وَلَذَاتُ الدُّنْيَا ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

فَأَعْظَمُهَا وَأَكْمَلُهَا: مَا أَوْصَلَ لَذَّةَ الْآخِرَةِ، وَيُثَابُ الْإِنْسَانُ عَلَى هَذِهِ الْلَّذَّةِ أَتَمْ  
ثُوابٌ، وَلِهَذَا كَانَ الْمُؤْمِنُ مُنْيُثَابٌ عَلَى مَا يَقْصِدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، مِنْ أَكْلِهِ، وَشُرْبِهِ، وَلِبَاسِهِ،  
وَنَكَاحِهِ، وَشَفَاءِ عَيْنِهِ بِقَهْرِ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِ، فَكَيْفَ بِلَذَّةِ إِيمَانِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِاللَّهِ، وَمَحْبَبِتِهِ  
لَهُ، وَشَوْقِهِ إِلَى لِقَائِهِ، وَطَمَعِهِ فِي رُؤْيَةِ وَجْهِ الْكَرِيمِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ؟

النَّوْعُ الثَّانِي: لَذَّةُ تَمْنَعِ لَذَّةَ الْآخِرَةِ، وَتَعْقِبُ الْأَمَّا أَعْظَمَ مِنْهَا، كَلَذَّةُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا  
مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةً بَيْنِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، وَيَسْتَمْتِعُونَ بِعَضُّهُمْ  
بِعَضٍ، كَمَا يَقُولُونَ فِي الْآخِرَةِ إِذَا لَقُوا رَبَّهُمْ:

الدَّاءُ وَالدَّوَاءُ

﴿رَبَّنَا أَسْتَمْعُ بَعْضُنَا بَعْضٍ وَّبَلْغَنَا أَجْلَنَا الَّذِي أَجْلَتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثُونٌ كُمْ خَلِيلٍ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلَيْهِ ١٢٨ وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يُمَاكِنُوا يَكْسِبُونَ ١٢٩﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامَ: ١٢٨ - ١٢٩].

وَلَدَةً أَصْحَابُ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ فِي الْأَرْضِ وَالْعُلُوُّ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

وَهَذِهِ الَّذَّاتُ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هِيَ اسْتِدْرَاجٌ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ لِيُذْيِقُهُمْ بِهَا أَعْظَمَ الْآَلَامِ، وَيَحْرِمُهُمْ بِهَا أَكْمَلَ الَّذَّاتِ، بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَدَّمَ لِغَيْرِهِ طَعَامًا لَذِيذًا مَسْمُومًا؛ يَسْتَدْرِجُهُ بِهِ إِلَى هَلَاكِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَنَسْتَدِرُّهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾  وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتَّيْنٌ  [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: 182 - 183].

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهَا: كُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَبِبًا أَحْدَثْنَا لَهُمْ نِعْمَةً: ﴿ حَقًّا إِذَا فِرَحُوا بِمَا أُتُوا أَخْدَنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ سُورَةُ الْأَنْعَامَ: 44 - 45 . ﴾

وَقَالَ تَعَالَى لِأَصْحَابِ هَذِهِ الْلَّذَّةِ:

الْمُؤْمِنُونَ: 55 – 56].

وَقَالَ فِي حَقِّهِمْ: ﴿فَلَا تَعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَعْدِبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الْدُّنْيَا وَزَهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَفَرُونَ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: 55].

وَهَذِهِ اللَّذَّةُ تَنْقِلُبُ أَخِرًا أَلَامًا مِنْ أَعْظَمِ الْأَلَامِ، كَمَا قِيلَ:

مَارِبٌ كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ لِأَهْلِهَا عَذَابًا فَصَارَتْ فِي الْمَعَادِ عَذَابًا

النَّوْعُ الثَّالِثُ: لَذَّةٌ لَا تُعْقِبُ لَذَّةً فِي دَارِ الْقَرَارِ وَلَا أَلْمًا، وَلَا تَمْنَعُ أَصْلَ لَذَّةٍ دَارِ الْقَرَارِ، وَإِنْ مَنَعَتْ كَمَالَهَا، وَهَذِهِ اللَّذَّةُ الْمُبَاحَةُ الَّتِي لَا يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى لَذَّةِ الْأُخْرَةِ، فَهَذِهِ زَمَانُهَا يَسِيرٌ، لَيْسَ لِتَمْتَعُ النَّفْسِ بِهَا قَدْرٌ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَسْتَغْلَ عَمَّا هُوَ خَيْرٌ وَأَنْفَعٌ مِنْهَا. وَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ الَّذِي عَنَاهُ النَّبِيُّ - ﷺ - بِقَوْلِهِ: "كُلُّهُو يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا رَمِيمٌ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيهُ فَرَسَهُ، وَمُلَامِعَتُهُ امْرَأَتُهُ، فَإِنَّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ". فَمَا أَعَانَ عَلَى اللَّذَّةِ الْمَطْلُوبَةِ لِذَاتِهَا فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا لَمْ يُعِنْ عَلَيْهَا فَهُوَ بَاطِلٌ.

\* \* \*

### [فَصْلُ الْحُبُّ الَّذِي لَا يُنْكَرُ وَلَا يُذَمُّ]

فَهَذَا الْحُبُّ لَا يُنْكَرُ وَلَا يُذَمُّ، بَلْ هُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْحُبِّ، وَكَذَلِكَ حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، وَإِنَّمَا نَعْنِي الْمَحَبَّةَ الْخَاصَّةَ، الَّتِي تَشْغُلُ قَلْبَ الْمُحِبِّ وَفَكْرَهُ وَذِكْرَهُ بِمَحْبُوبِهِ، وَإِلَّا فَكُلُّ مُسْلِمٍ فِي قَلْبِهِ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَا يَدْخُلُ الْإِسْلَامُ إِلَّا بِهَا، وَالنَّاسُ مُتَفَاقُونَ فِي دَرَجَاتِ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ تَفَاوْتًا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ، فَبَيْنَ مَحَبَّةِ الْخَلِيلِينَ وَمَحَبَّةِ غَيْرِهِمَا مَا بَيْنَهُمَا، فَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ الَّتِي تُلْطَفُ وَتُخْفَفُ أَثْقَالَ التَّكَالِيفِ، وَتُسْخِي الْبَخِيلَ، وَتُشَجِّعُ الْجَبَانَ، وَتُصْفِي الْذِنْهَنَ، وَتُرْوِضُ النَّفْسَ، وَتُطَيِّبُ الْحَيَاةَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، لَا مَحَبَّةُ الصُّورِ الْمُحَرَّمَةِ، وَإِذَا بُلِيَّتِ السَّرَّائِرُ يَوْمَ الْلَّقَاءِ، وَكَانَتْ سَرِيرَةُ صَاحِبِهَا مِنْ خَيْرِ سَرَائِرِ الْعِبَادِ، كَمَا قِيلَ:

سَيَئَقِي لَكُمْ فِي مُضْمِرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَأَا سَرِيرَةُ حُبٍّ يَوْمَ تُنْلَى السَّرَّائِرُ

وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ الَّتِي تُنْوِرُ الْوَجْهَ، وَتَسْرُحُ الصَّدْرَ، وَتُحْبِي الْقَلْبَ، وَكَذَلِكَ مَحَبَّةُ كَلَامِ اللَّهِ، إِنَّهُ مِنْ عَلَامَةِ حُبِّ اللَّهِ، وَإِذَا أَرْدَتَ أَنْ تَعْلَمَ مَا عِنْدَكَ وَعِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ مَحَبَّةٍ

اللَّهُ، فَانْظُرْ مَحَبَّةَ الْقُرْآنِ مِنْ قَلْبِكَ، وَالْتِذَادَكَ بِسَمَاعِهِ أَعْظَمَ مِنَ الْتِذَادِ أَصْحَابِ الْمَلَاهِي  
وَالْغَنَاءِ الْمُطْرِبِ بِسَمَاعِهِمْ، فَإِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ أَحَبَ مَحْبُوبًا كَانَ كَلَامُهُ وَحَدِيثُهُ  
أَحَبَ شَيْءٍ إِلَيْهِ كَمَا قِيلَ:

إِنْ كُنْتَ تَرْغُمُ حُبِّي فَلِمْ هَجَرْتَ كِتَابِي؟      أَمَا تَأْمَلْتَ مَا فِيهِ مِنْ لَذِيدٍ خَطَابِي  
وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ - ﷺ - لَوْ طَهُرْتْ قُلُوبُنَا لَمَا شِيَعْتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَكَيْفَ  
يَشْبَعُ الْمُحِبُّ مِنْ كَلَامِ مَحْبُوبِهِ وَهُوَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِ؟ وَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَوْمًا لِعَبْدِ اللَّهِ  
بْنِ مَسْعُودٍ - ﷺ - أَقْرَأْ عَلَيَّ، فَقَالَ: أَقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ أَنْ  
أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، فَاسْتَفْتَحْ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ قَوْلَهُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا حِشَّنَا مِنْ كُلِّ  
أُمَّةٍ شَهِيدًا وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَتْوَلَاءِ شَهِيدًا﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ: 41]، قَالَ: حَسْبُكَ الْآنَ، فَرَفَعَ  
رَأْسَهُ إِذَا عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - تَذَرْفَانِ مِنَ الْبَكَاءِ.

وَكَانَ الصَّحَابَةُ إِذَا اجْتَمَعُوا وَفِيهِمْ أَبُو مُوسَى يَقُولُونَ: يَا أَبَا مُوسَى ذَكَرْنَا رَبَّنَا، فَيَقُرَأُ  
وَهُمْ يَسْتَمِعُونَ، فَلِمُحِبِّي الْقُرْآنِ - مِنَ الْوَجْدِ، وَالذُّوقِ، وَاللَّذَّةِ، وَالحَلَالَةِ، وَالسُّرُورِ -  
أَصْعَافُ مَا لِمُحِبِّي السَّمَاعِ الشَّيْطَانِيِّ، فَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ، دُوْقَهُ، وَوَجْدَهُ، وَطَرَبَهُ، وَتَشَوُّقَهُ  
إِلَى سَمَاعِ الْأَبْيَاتِ دُونَ سَمَاعِ الْأَيَاتِ، وَسَمَاعِ الْأَلْحَانِ دُونَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، كَمَا قِيلَ:  
تَقْرَأُ عَلَيْكَ الْخَتْمَةُ وَأَنْتَ جَامِدٌ كَالْحَجَرِ، وَبَيْتُ مِنَ الشِّعْرِ يُنْشَدُ تَمِيلُ كَالسَّكْرَانِ.  
فَهَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَدَلَّةِ عَلَى فَرَاغِ قَلْبِهِ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ، وَتَعَلُّقِهِ بِمَحَبَّةِ سَمَاعِ  
الشَّيْطَانِ، وَالْمَغْرُورُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَى شَيْءٍ.

فَفِي مَحَبَّةِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ - ﷺ - أَصْعَافُ أَصْعَافِ مَا ذَكَرَ السَّائِلُ مِنْ فَوَائِدِ  
الْعِشْقِ وَمَنَافِعِهِ، بَلْ لَا حُبَّ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَنْفَعَ مِنْهُ، وَكُلُّ حُبٍّ سِوَى ذَلِكَ بَاطِلٌ إِنْ لَمْ  
يُعْنِ عَلَيْهِ وَيَسُقِّي الْمُحِبَّ إِلَيْهِ.

## فَصْلُ مَحَبَّةِ الزَّوْجَاتِ

وَأَمَّا مَحَبَّةُ الزَّوْجَاتِ: فَلَا لَوْمَ عَلَى الْمُحِبِّ فِيهَا بَلْ هِيَ مِنْ كَمَالِهِ، وَقَدِ امْتَنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا عَلَى عِبَادَهُ فَقَالَ: ﴿وَمِنْ أَيْمَنِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مَنْ أَنْفَسْكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَيْنَ لِقَوْمٍ يَفْكَرُونَ﴾ [سُورَةُ الرُّومِ: 21].

فَجَعَلَ الْمَرْأَةَ سَكَنًا لِلرَّجُلِ، يَسْكُنُ قَلْبُهُ إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا خَالِصَ الْحُبُّ، وَهُوَ الْمَوَدَّةُ الْمُقْتَرِنَةُ بِالرَّحْمَةِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى عَقِيبَ ذِكْرِهِ مَا أَحْلَّ لَنَا مِنَ النِّسَاءِ وَمَا حُرِّمَ مِنْهُنَّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ ٢٦ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمْلِأُوا مَيْلًا عَظِيمًا ٢٧ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخْفِقَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ: 26 - 28]. ذَكَرَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ: كَانَ إِذَا نَظَرَ إِلَى النِّسَاءِ لَمْ يَصِرْ.

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - "أَنَّهُ رَأَى امْرَأَةً، فَأَتَى زَيْنَبَ فَقَصَى حَاجَتَهُ مِنْهَا، وَقَالَ: إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدَكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلِيَاتُ أَهْلِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ"، فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ عِدَّةُ فَوَائِدَ: مِنْهَا: الْإِرْشَادُ إِلَى التَّسْلِيِّ عَنِ الْمَطْلُوبِ بِحِسْبِهِ، كَمَا يَقُولُ الطَّعَامُ مَكَانُ الطَّعَامِ، وَالثَّوْبُ مَقَامُ التَّوْبِ.

وَمِنْهَا: الْأَمْرُ بِمُدَاواةِ الْإِعْجَابِ بِالْمَرْأَةِ الْمُوَرَّثِ لِشَهَوَتِهَا بِأَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ، وَهُوَ قَضَاءُ وَطَرِهِ مِنْ أَهْلِهِ، وَذَلِكَ يَنْقُضُ شَهَوَتَهُ لَهَا، وَهَذَا كَمَا أَرْشَدَ الْمُتَحَابِينَ إِلَى النِّكَاحِ، كَمَا فِي سُنْنَ ابْنِ مَاجَهٍ مَرْفُوعًا: "لَمْ يُرِدْ لِلْمُتَحَابِينَ مِثْلُ النِّكَاحِ".

فِنْكَاحُ الْمَعْشُوَّةِ هُوَ دَوَاءُ الْعِشْقِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ دَوَاءً شَرْعًا، وَقَدْ تَدَأْوَى بِهِ دَاؤُهُ  
وَلَمْ يَرْتَكِبْ نَبِيُّ اللَّهِ مُحَمَّرًا، وَإِنَّمَا تَزَوَّجُ الْمَرْأَةَ وَضَمَّهَا إِلَى نِسَائِهِ لِمَحِبَّتِهِ لَهَا،  
وَكَانَتْ تَوْبَتُهُ بِحَسْبٍ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ وَعُلُوًّا مَرْتَبَتِهِ، وَلَا يَلِيقُ بِنَا الْمَزِيدُ عَلَى هَذَا.

وَأَمَّا قِصَّةُ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ: فَزَيْدُ كَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى طَلاقِهَا وَلَمْ تُوَافِقُهُ، وَكَانَ  
يَسْتَشِيرُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فِي فَرَاقِهَا، وَهُوَ يَأْمُرُهُ بِإِيمَانِكَاهَا، فَعَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -  
- أَنَّهُ مُفَارِقُهَا لَا بُدَّ، فَأَخْفَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ يَتَزَوَّجُهَا إِذَا فَارَقَهَا زَيْدٌ، وَخَسِيَّ مَقَالَةُ النَّاسِ:  
إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - تَزَوَّجَ زَوْجَةَ ابْنِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ تَبَنَّى زَيْدًا قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَالرَّبُّ  
تَعَالَى يُرِيدُ أَنْ يُشَرِّعَ شَرْعًا عَامًا فِيهِ مَصَالِحٌ عِبَادِهِ، فَلَمَّا طَلَقَهَا زَيْدٌ، وَانْقَضَتْ عِدَّتُهَا  
مِنْهُ، أَرْسَلَهُ إِلَيْهَا يَخْطُبُهَا لِنَفْسِهِ، فَجَاءَ زَيْدٌ وَاسْتَدْبَرَ الْبَابَ بِظَهِيرِهِ، وَعَظُمَتْ فِي صَدْرِهِ  
لَمَّا ذَكَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَنَادَاهَا مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ: يَا زَيْنَبُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -  
- يَخْطُبُكِ، فَقَالَتْ: مَا أَنَا بِصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُؤْامِرَ رَبِّي، وَقَامَتْ إِلَى مِحْرَابِهَا فَصَلَّتْ،  
فَتَوَلَّتِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نِكَاحَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بِنَفْسِهِ، وَعَقَدَ النِّكَاحَ لَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ،  
وَجَاءَ الْوَحْيُ بِذَلِكَ: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَا زَوْجَنَّكُهَا﴾ [سُورَةُ الْأَخْرَابِ: 37].

فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - لِوَقْتِهِ فَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَكَانَتْ تَفْخُرُ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ - ﷺ -  
- بِذَلِكَ، وَتَقُولُ: أَنْتَ زَوْجُكُنَّ أَهْلَيْكُنَّ، وَرَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فُوقِ سَبْعِ سَمَاءَوَاتٍ، فَهَذِهِ  
قِصَّةُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - مَعَ زَيْنَبَ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - كَانَ قَدْ حُبِّبَ إِلَيْهِ النِّسَاءُ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ عَنْهُ  
- ﷺ -: "حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرْهُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ" هَذَا لِفْظُ  
الْحَدِيثِ، لَا مَا يَرْوِيهِ بَعْضُهُمْ: "حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثُ،" زَادَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ

الْزُّهْدِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَصْبِرْ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا أَصْبِرْ عَنْهُنَّ، وَقَدْ حَسَدَهُ أَعْدَاءُ اللَّهِ الْيَهُودُ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا: مَا هَمَهُ إِلَّا النَّكَاحُ، فَرَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ رَسُولِهِ - وَنَافَحَ عَنْهُ، فَقَالَ: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا إِتَّهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ أَتَيْنَا إِلَيْهِمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِتَّهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ: 54].

وَهَذَا خَلِيلُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ كَانَ عِنْدَهُ سَارَةُ أَجْمَلُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَأَحَبَّ هَاجَرَ وَتَسَرَّى بِهَا.

وَهَذَا دَاؤُدُ ﴿٤﴾ كَانَ عِنْدَهُ تِسْعَةُ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً، فَأَحَبَّ تِلْكَ الْمَرْأَةَ وَتَزَوَّجَهَا فَكَمَلَ الْمِائَةَ، وَهَذَا سُلَيْمَانُ بْنُهُ ﴿٥﴾ كَانَ يَطُوفُ فِي اللَّيْلَةِ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً. وَسُئَلَ رَسُولُ اللَّهِ - وَسَلَّمَ - عَنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: عَائِشَةُ - وَقَالَ عَنْ حَدِيْجَةَ: إِنِّي رُزِقْتُ حُبَّهَا.

فَمَحَبَّةُ النِّسَاءِ مِنْ كَمَالِ الْإِنْسَانِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثُرُهَا نِسَاءٌ، وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ وَقَعَ فِي سَهْمِهِ يَوْمَ جَلْوَاءَ جَارِيَةً كَانَ عُنْقُهَا إِبْرِيقٌ مِنْ فِضَّةٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَمَا صَبَرْتُ عَنْهَا أَنْ قَبَّلَهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ، وَبِهَا احْتَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَلَى جَوَازِ الْإِسْتِمْتَاعِ مِنَ الْمَسِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْتِبْرَاءِ بِغَيْرِ الْوَطْءِ، بِخِلَافِ الْأُمَّةِ الْمُشْتَرَأةِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ افْسَاخَ الْمِلْكِ لَا يُتَوَهَّمُ فِي الْمَسِيَّةِ بِخِلَافِ الْمُشْتَرَأةِ، فَقَدْ يَنْفَسِخُ فِيهَا الْمِلْكُ، فَيَكُونُ مُسْتَمْتِعًا بِأُمَّةٍ غَيْرِهِ.

وَقَدْ شَفَعَ النَّبِيُّ - وَسَلَّمَ - لِعَاشِقٍ أَنْ تُوَاصِلَهُ مَعْشُوقَتُهُ بِأَنْ تَتَرَوَّجَ بِهِ فَأَبْتُ، وَذَلِكَ فِي قِصَّةِ مُغِيْثٍ وَبَرِيرَةٍ "لَمَّا رَأَهُ النَّبِيُّ - وَسَلَّمَ - يَمْشِي خَلْفَهَا وَدُمُوعُهُ تَجْرِي عَلَى خَدَّيْهِ،

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : لَوْ رَاجَعْتِهِ؟ فَقَالَتْ : أَتَأْمُرُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ : لَا، إِنَّمَا أَشْفَعُ، فَقَالَتْ : لَا حَاجَةَ لِي بِهِ، فَقَالَ لِعَمِّهِ : يَا عَبْسُ أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبٍ مُغِيْثٍ بَرِيرَةً، وَمِنْ بُغْضِهَا لَهُ، وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ حُبَّهَا، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ بَانَتْ مِنْهُ .

وَكَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يُسَاوِي بَيْنَ نِسَائِهِ فِي الْقَسْمِ وَيَقُولُ : "اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلْمِنِي فِيمَا لَا أَمْلِكُ" يَعْنِي فِي الْحُبِّ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِعُوْا أَنْ تَعْدِلُوْيَنَّ اِلِّيْسَاءَ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ : 129]، يَعْنِي فِي الْحُبِّ وَالْجِمَاعِ.

وَلَمْ يَزِلِ الْخُلَفَاءُ الرَّاسِدُونَ وَالرُّحْمَاءُ مِنَ النَّاسِ يَسْفِعُونَ لِلْعُشَاقِ إِلَى مَعْشُوقِهِمُ الْجَائِزِ وَصُلْهُنَّ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ فَعْلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُثْمَانَ، وَكَذَلِكَ عَلَيُّ - ﷺ - أُتَيَ بِعَلَامَ مِنَ الْعَرَبِ وُجْدٌ فِي دَارِ قَوْمٍ بِاللَّيْلِ، فَقَالَ لَهُ : مَا قِصَّتُكَ؟ قَالَ : لَسْتُ بِسَارِقٍ، وَلَكِنِي أَصْدُقُكَ :

تَعَلَّقْتُ فِي دَارِ الرِّيَاحِيِّ خُودَةً  
يَذْلِلُ لَهَا مِنْ حُسْنِ مُنْظَرِهَا الْبَدْرُ

لَهَا فِي بَنَاتِ الرُّؤُومِ حُسْنٌ وَمُنْظَرٌ  
إِذَا افْتَحَرْتُ بِالْحُسْنِ حَافِتُهَا الْفَخْرُ

فَلَمَّا طَرَقْتُ الدَّارَ مِنْ حَرِّ مُهْجِيٍّ  
أَبَيْتُ وَفِيهَا مِنْ تَوْقِدِهَا الْجَمْرُ

تَبَادَرَ أَهْلُ الدَّارِ بِي ثُمَّ صَيَّحُو  
هُوَ الْلَّصُّ مُخْتُومًا لَهُ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ

فَلَمَّا سَمِعَ عَلَيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - ﷺ - شِعْرَهُ، رَقَّ لَهُ، وَقَالَ لِلْمُهَلَّبِ بْنِ رَبَاحٍ : أَسْمَحْ لَهُ بِهَا، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، سَلْمُهُ مَنْ هُوَ؟ فَقَالَ : النَّهَاسُ بْنُ عُيَيْنَةَ، فَقَالَ : خُذْهَا فَهِيَ لَكَ .

وَاشْتَرَى مُعَاوِيَةً جَارِيَةً فَأُعْجِبَ بِهَا إِعْجَابًا شَدِيدًا، فَسَمِعَهَا يَوْمًا تُنْشِدُ أَبِيَاتًا مِنْهَا :

وَفَارَقْتُهُ كَالْغُصْنِ يَهْتَزُ فِي التَّرَى  
طَرِيرًا وَسِيمًا بَعْدَ مَا طَرَ شَارِبُهُ

فَسَأَلَهَا، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا تُحِبُّ سَيِّدَهَا، فَرَدَهَا إِلَيْهِ وَفِي قَلْبِهِ مِنْهَا .

الدَّاءُ وَالدَّوَاءُ

وَدَكَرَ الزَّمْخَشْرِيُّ فِي رَبِيعَةَ أَنَّ زِيَدَةَ قَرَأَتْ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ عَلَى حَائِطٍ:

أَمَّا فِي عِبَادِ اللَّهِ أَوْ فِي إِمَائِهِ كَرِيمٌ يُجْلِي الْهَمَّ عَنْ ذَاهِبِ الْعُقْلِ

لَهُ مُقْلَهٌ أَمَّا الْأَمْمَاقِ قَرِيْحَةٌ  
وَأَمَّا الْخَشَا فَالثَّارُ مِنْهُ عَلَى رِجْلِيْ

فَنَذَرَتْ أَنْ تَحْتَالَ لِقَائِلَهَا إِنْ عَرَفَتْهُ حَتَّى تَجْمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُحِبُّهُ، فَبَيْنَا هِيَ  
بِالْمُرْدَلَفَةِ، إِذْ سَمِعَتْ مَنْ يُنِيدُهُمَا، فَطَلَبَهُمَا، فَرَأَعَمَ أَنَّهُ قَالُهُمَا فِي أَبْيَهِ عَمْ لَهُ نَذَرٌ أَهْلُهَا  
أَنْ لَا يُزَوِّجُوهَا مِنْهُ، فَوَجَهَتْ إِلَى الْحَيِّ، وَمَا زَالَتْ تَبَذُّلُ لَهُمُ الْمَالَ حَتَّى زَوَّجُوهَا مِنْهُ،  
وَإِذَا الْمَرْأَةُ أَعْشَقُ لَهُ مِنْهُ لَهَا، فَكَانَتْ تَعْدُهُ مِنْ أَعْظَمِ حَسَنَاتِهَا، وَتَقُولُ: مَا أَنَا بِشَيْءٍ أَسْرَ  
مِنِّي مِنْ جَمِيعِي بَيْنَ ذَلِكَ الْفَتَى وَالْفَتَّاهِ.

وَقَالَ الْخَرَاطِيُّ: وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ غَلَامٌ وَجَارِيَةٌ يَتَحَابَّانِ، فَكَتَبَ الْغَلَامُ إِلَيْهَا يَوْمًا:

عَاطِيَتِنِي مِنْ رِيقِ فِيكِ الْبَارِدِ

بِّئْنَا جَمِيعًا فِي فِرَاشٍ وَاحِدٍ

لَأَرَاهُ فِي نَؤْمِنْ وَلَئِنْتُ بِرَاقِدٍ

وَلَقَدْ رَأَيْتُكِ فِي الْمَنَامِ ۚ كَأَنَّمَا

وَكَانَ كَفِكِ فِي يَدِي وَكَانَنَا

فَلَمْ يَرَهُ يَوْمَيْ كُلَّهُ مُتَرَاقِدًا

فَأَجَابَتْهُ الْجَارِيَةُ:

سَتَنَالُهُ مِنْ بِرَغْمِ الْخَاسِدِ

فَتَبَيَّنَ مِنْ فَوْقِ ثَدْيَ نَاهِدِ

## وَأَرَالَ فَوْقَ تَرَائِي وَمَجَاسِدِي

خَيْرًا رَأَيْتَ وَكُلُّ مَا أَبْصَرْتَهُ

## لَازِجُوْ وَأَنْ تَكُونَ مُعَانِقِي

وَأَرَالَ بَيْنَ خَلَخِلٍ وَدَمَالِجِسْ

فَبَلَغَ سُلَيْمَانَ ذَلِكَ فَأَنْكَحَهَا الْغَلَامَ وَأَحْسَنَ حَالَهُمَا عَلَى فَرْطٍ غَيْرِ تِهٍ.

وَقَالَ جَامِعُ بْنِ بُرْخِيَّةَ: سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبَ مُفْتِي الْمَدِينَةِ: هَلْ فِي حُبٍ دَهْمَنَا مِنْ وِزْرٍ؟

فَقَالَ سَعِيدٌ: إِنَّمَا تُلَامُ عَلَى مَا تَسْتَطِعُ مِنَ الْأَمْرِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: وَاللَّهِ مَا سَأَلْنِي أَحَدٌ عَنْ هَذَا، وَلَوْ سَأَلَنِي مَا كُنْتُ أُجِيبُ إِلَيْهِ.

### أَقْسَامُ عِشْقِ النِّسَاءِ

فَعِشْقُ النِّسَاءِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: قِسْمٌ هُوَ قُرْبَةٌ وَطَاعَةٌ، وَهُوَ عِشْقُ امْرَأَتِهِ وَجَارِيَّتِهِ، وَهَذَا الْعِشْقُ نَافِعٌ؛ فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى الْمَقَاصِدِ الَّتِي شَرَعَ اللَّهُ لَهَا النِّكَاحَ، وَأَكَفُّ لِلْبَصَرِ وَالْقَلْبِ عَنِ التَّطَلُّعِ إِلَى عَيْرِ أَهْلِهِ، وَلَهَذَا يُحَمِّدُ هَذَا الْعَاشُقُ عِنْدَ اللَّهِ، وَعِنْدَ النَّاسِ.

وَعِشْقٌ: هُوَ مَقْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَبَعْدُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَهُوَ أَصْرُرْ شَيْءٌ عَلَى الْعَبْدِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاِهِ، وَهُوَ عِشْقُ الْمُرْدَانِ، فَمَا ابْتُلِيَ بِهِ إِلَّا مَنْ سَقَطَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ، وَطَرِدَ عَنْ بَابِهِ، وَأَبْعَدَ قَلْبَهُ عَنْهُ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْحُجْبِ الْقَاطِعَةِ عَنِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا سَقَطَ الْعَبْدُ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ، ابْتَلَاهُ بِمَحَبَّةِ الْمُرْدَانِ، وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ الَّتِي جَلَبَتْ عَلَى قَوْمٍ لُوْطٍ مَا جَلَبَتْ، فَمَا أُتْوَا إِلَّا مِنْ هَذَا الْعِشْقِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَعْمَكِ إِنَّهُمْ لَفِي سَكَرٍ كُمْ يَمْهُونَ﴾ [سُورَةُ الْحِجْرِ: 72].

وَدَوَاءُ هَذَا الدَّاءِ: الْإِسْتِعَاةُ بِمُقْلِبِ الْقُلُوبِ، وَصِدْقُ اللَّجَاجِ إِلَيْهِ، وَالإِشْتِغَالُ بِذِكْرِهِ، وَالتَّعْوِيضُ بِحُجَّهِ وَقُرْبِهِ، وَالتَّفَكُّرُ فِي الْأَكْلِ الَّذِي يُعَقِّبُهُ هَذَا الْعِشْقُ، وَاللَّذَّةُ الَّتِي تَقْوَتُهُ بِهِ، فَيَتَرَكُ عَلَيْهِ فَوَاتُ أَعْظَمَ مَحْبُوبٍ، وَحُصُولُ أَعْظَمِ مَكْرُورٍ، فَإِذَا أَقْدَمَتْ نَفْسُهُ عَلَى هَذَا وَأَتَرَتْهُ، فَلَيُكَبِّرَ عَلَى نَفْسِهِ تَكْبِيرَ الْجِنَازَةِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْبَلَاءَ قَدْ أَحَاطَ بِهِ.

وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ: الْعِشْقُ الْمُبَاحُ، وَهُوَ الْوَاقِعُ مِنْ عَيْرِ قَصْدٍ، كَعِشْقِ مَنْ وُصِفَ لَهُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ، أَوْ رَآهَا فَجَأَهُ مِنْ عَيْرِ قَصْدٍ، فَتَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهَا، وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُ ذَلِكَ الْعِشْقُ

مَعْصِيَّةً، فَهَذَا لَا يُمْلِكُ وَلَا يُعَاقِبُ، وَالْأَنْفَعُ لَهُ مُدَافِعَتُهُ، وَالإِشْتِغَالُ بِمَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ مِنْهُ، وَيَحِبُّ الْكَتْمُ وَالْعِفَّةُ وَالصَّبْرُ فِيهِ عَلَى الْبُلْوَى، فَيَبْشِّرُهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيُوَعِّظُهُ عَلَى صَبْرِهِ لِلَّهِ وَعِفْتِهِ، وَتَرْكِهِ طَاعَةَ هَوَاهُ، وَإِيَّارِ مَرْضَاهُ اللَّهِ وَمَا عِنْدَهُ.

\* \* \*

## [فصل أقسام الناس في العشق]

وَالنَّاسُ فِي الْعِشْقِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

مِنْهُمْ: مَنْ يَعْشُقُ الْجَمَالَ الْمُطْلَقَ، وَقَلْبُهُ يَهِيمُ فِي كُلِّ وَادٍ، لَهُ فِي كُلِّ صُورَةٍ جَمِيلَةٍ مُرَادٌ.

وَمِنْهُمْ: مَنْ يَعْشُقُ الْجَمَالَ الْمُقَيَّدَ، سَوَاءٌ طَمْعٌ فِي وِصَالِهِ أَوْ لَا.

وَمِنْهُمْ: مَنْ لَا يَعْشُقُ إِلَّا مَنْ يَطْمَعُ فِي وِصَالِهِ.

وَبَيْنَ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ تَقَوَّلُتُ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ.

فَعَاشِقُ الْجَمَالِ الْمُطْلَقِ، يَهِيمُ قَلْبُهُ فِي كُلِّ وَادٍ، وَلَهُ فِي كُلِّ صُورَةٍ جَمِيلَةٍ مُرَادٌ: فَيَوْمًا بِحَزْرَوِي، وَيَوْمًا بِالْعَقِيقِ وَبِالْعَذِيبِ يَوْمًا وَيَوْمًا بِالْخُلَيْصَاءِ وَتَارَةً يُنْتَحِي نَجْدًا وَآوِنَةً شُغْبَ الْعَقِيقِ وَظُفْرًا قَصْرَ تَيَمَّاءَ فَهَذَا عِشْقُهُ أَوْسَعُ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ ثَابِتٍ كَثِيرُ التَّنَقُّلِ:

يَهِيمُ بِهَذَا ثُمَّ يَعْشُقُ غَيْرَهُ وَيَسْلَاهُمْ مِنْ وَقْتِهِ حِينَ يُضِيَّخُ

وَعَاشِقُ الْجَمَالِ الْمُقَيَّدِ أَثْبَتُ عَلَى مَعْشُوقِهِ، وَأَدْوَمَ مَحَبَّةَ لَهُ، وَمَحَبَّتُهُ أَقْوَى مِنْ مَحَبَّةِ الْأَوَّلِ، لِاجْتِمَاعِهِمَا فِي وَاحِدٍ، وَلَكِنْ يُضْعِفُهُمَا عَدُمُ الْطَّمَعِ فِي الْوِصَالِ، وَعَاشُ

الْجَمَالِ الَّذِي يُطْمَعُ فِي وَصَالِهِ أَعْقَلُ الْعُشَاقِ وَأَعْرَفُهُمْ، وَحُبُّهُ أَقْوَى لِأَنَّ الطَّمَعَ يَمْدُدُهُ وَيُغْوِيهُ.

\* \* \*

### [فَصْلُ حَدِيثٍ مِّنْ عَشْقٍ فَعْفٍ]

وَأَمَّا حَدِيثُ: "مَنْ عَشَقَ فَعَفَ" فَهَذَا يَرْوِيهُ سُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ، وَقَدْ أَنْكَرَهُ حُفَاظُ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ.

قَالَ ابْنُ عَدِيٍّ فِي كَامِلِهِ: هَذَا الْحَدِيثُ أَحَدُ مَا أَنْكَرَ عَلَى سُوَيْدٍ، وَكَذَلِكَ ذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ وَابْنُ طَاهِيرٍ فِي الدَّخِيرَةِ وَالْتَّذْكِرَةِ، وَأَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيُّ وَعَدَهُ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ، وَأَنْكَرَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ عَلَى تَسَاهُلِهِ، وَقَالَ أَنَا أَتَعَجَّبُ مِنْهُ.

قُلْتُ: وَالصَّوَابُ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ - ﷺ - مَوْفُوفًا عَلَيْهِ، فَغَلَطَ سُوَيْدٌ فِي رَفِعِهِ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ خَلَفٍ بْنِ الْمَرْزُبَانِ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْأَزْرَقِ عَنْ سُوَيْدٍ بْنِهِ، فَعَاتَبَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَأَسْقَطَ ذِكْرَ النَّبِيِّ - ﷺ - وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يُسَأَلُ عَنْهُ فَلَا يَرْفَعُهُ، وَلَا يُشْبِهُ هَذَا كَلَامَ النُّبُوَّةِ.

وَأَمَّا مَا رَوَاهُ الْخَطِيبُ لِهِ عَنِ الزُّهْرِيِّ: حَدَّثَنَا الْمُعَاافِي بْنُ زَكْرِيَّا، حَدَّثَنَا قُطْبَةُ بْنُ الْفَضْلِ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مَسْرُوقٍ، حَدَّثَنَا سُوَيْدُ بْنُ مُسْهِرٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ مَرْفُوِعًا، فَمِنْ أَبْيَنِ الْخَطَا وَلَا يَحْمِلُ هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ مِثْلُ هَذَا عِنْدَ مَنْ شَاءَ أَدْنَى رَائِحَةً مِنَ الْحَدِيثِ، وَنَحْنُ شَهَدُ بِاللَّهِ أَنَّ عَائِشَةَ مَا حَدَّثَتْ بِهَذَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَطُّ، وَلَا حَدَّثَ بِهِ عُرْوَةُ عَنْهَا، وَلَا حَدَّثَ بِهِ هِشَامٌ قَطُّ.

وَأَمَّا حَدِيثُ ابْنِ الْمَاجِشُونِ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي نَجِيْحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا، فَكَذِبٌ عَلَى ابْنِ الْمَاجِشُونِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُحَدِّثْ بِهَذَا، وَلَا حَدَّثَ بِهِ عَنْهُ الرُّبِّيرُ بْنُ بَكَارٍ، وَإِنَّمَا هَذَا مِنْ تَرْكِيبِ بَعْضِ الْوَضَاعِينَ، وَيَا سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يَحْتَمِلُ هَذَا الْإِسْنَادُ مِثْلَ هَذَا الْمَتْنِ؟ فَقَبَّحَ اللَّهُ الْوَضَاعِينَ.

وَقَدْ ذَكَرَهُ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيُّ، مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدٍ بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ سَهْلٍ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عِيسَى، عَنْ وَلَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيْحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ مَرْفُوعًا، وَهَذَا غَلَطٌ قَيْبُحٌ، فَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ جَعْفَرٍ هَذَا هُوَ الْخَرَائِطيُّ، وَوَفَاتُهُ سَنَةُ سِبْعٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ، فَمُحَالٌ أَنْ يُدْرِكَ شَيْخُهُ يَعْقُوبَ ابْنَ أَبِي نَجِيْحٍ، لَا سِيمَاءً وَقَدْ رَوَاهُ فِي كِتَابِ الْإِعْتِدَالِ، عَنْ يَعْقُوبَ هَذَا عَنِ الرُّبِّيرِ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيْحٍ، وَالْخَرَائِطيُّ هَذَا مَشْهُورٌ بِالضَّعْفِ فِي الرِّوَايَةِ، ذَكَرَهُ أَبُو الْفَرَجِ فِي كِتَابِ الْضَّعَفَاءِ.

وَكَلَامٌ حُفَاظٌ إِلِّيْسَلَامٌ فِي إِنْكَارِ هَذَا الْحَدِيثِ هُوَ الْمِيزَانُ، وَإِلَيْهِمْ يُرْجَعُ فِي هَذَا الشَّأنِ، وَلَا صَحَّحَهُ وَلَا حَسَنَهُ أَحَدٌ يَعْوَلُ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ عَلَيْهِ، وَيُرْجَعُ فِي التَّصْحِيحِ إِلَيْهِ، وَلَا مَنْ عَادَتُهُ التَّسَامُحُ وَالتَّسَاهُلُ، فَإِنَّهُ لَمْ يُصْفِ نَفْسَهُ لَهُ، وَيَكُنْيِ أَنَّ ابْنَ طَاهِرٍ الَّذِي يَتَسَاهَلُ فِي أَحَادِيثِ التَّصُوُفِ، وَيَرْوِي مِنْهَا الْغَثَّ وَالسَّمِينَ، قَدْ أَنْكَرَهُ وَشَهَدَ بِيُطْلَانِهِ.

نَعَمْ ابْنُ عَبَّاسٍ لَا يُنَكِّرُ ذَلِكَ عَنْهُ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَزْمٍ عَنْهُ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْمَيِّتِ عِشْقًا، فَقَالَ: قَتِيلُ الْهَوَى لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا قَوْدَ.

وَرُفِعَ إِلَيْهِ بِعَرَفَاتٍ شَابٌ قَدْ صَارَ كَالْفَرْخِ، فَقَالَ: مَا شَانُهُ؟ قَالُوا: الْعِشْقُ، فَجَعَلَ عَامَّةَ يَوْمِهِ يَسْتَعِيْدُ مِنَ الْعِشْقِ وَقَدْ تَقَدَّمَ.

فَهَذَا نَفْسٌ مَا رُوِيَ عَنْهُ ذَلِكَ.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ ذَلِكَ "أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - عَدَ الشُّهَدَاءَ فِي الصَّحِّيحِ، فَذَكَرَ الْمَقْتُولَ فِي الْجِهَادِ، وَالْمُبْطُونَ، وَالْحَرَقَ، وَالنُّفُسَاءَ يُقْتَلُهَا وَلَدُهَا، وَالْغَرْقَ، وَصَاحِبَ ذَاتِ الْجَنْبِ"، وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهُمْ مَنْ يُقْتَلُهُ الْعِشْقُ.

وَحَسْبُ قَتْلِ الْعِشْقِ أَنْ يَصِحَّ لَهُ هَذَا الْأَثْرُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - ﷺ -، عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَتَّى يَصِرِّ لِلَّهِ، وَيَعْفُ لِلَّهِ، وَيَكْتُمَ لِلَّهِ، لَكِنَّ الْعَاشِقَ إِذَا صَبَرَ وَعَفَ وَكَتَمَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى مَعْشُوْقِهِ، وَأَثْرَ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَخَوْفَهُ وَرِضَاهُ، هَذَا أَحَقُّ مَنْ دَخَلَ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْمَوْى﴾ ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ: 40 - 41].

وَتَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، جَنَّانٍ﴾ [سُورَةُ الرَّحْمَنِ: 46].

فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ، أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ أَثْرَ حُبَّهُ عَلَى هَوَاهُ، وَابْتَغَ بِذَلِكَ قُرْبَهُ وَرِضَاهُ.

\*\*\*

فِهِيَاتُ الْحَقِيقَاتِ

6	[الْقُرْآنُ شِفَاءٌ]
8	[الدُّعَاءُ يَدْفَعُ الْمَكْرُوَهَ]
9	[دُعَاءُ الْغَافِلِ]
9	[فَصْلُ الدُّعَاءِ مِنْ أَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ]
11	[فَصْلُ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ]
11	[فَصْلُ مِنْ آفَاتِ الدُّعَاءِ]
12	[فَصْلُ أَوْقَاتِ الإِجَابَةِ]
16	[فَصْلُ ظُرُوفِ الدُّعَاءِ]
17	[فَصْلُ شُرُوطِ الدُّعَاءِ الْمُسْتَجَابِ]
17	[فَصْلُ الدُّعَاءِ وَالْقَدْرِ]
24	[فَصْلُ مُعَالَةِ النَّفْسِ حَوْلَ الْأَسْبَابِ]
33	[فَصْلُ الَّذِينَ اعْتَمَدُوا عَلَى عَفْوِ اللَّهِ فَضَيَّعُوا أَمْرَهُ وَنَهَيْهُ]

# الدَّاءُ وَالدُّنْوِيُّ

44	[فَصْلُ الْإِغْرِارِ بِالدُّنْيَا]
47	[فَصْلُ الْفَرْقِ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ وَالْغُرُورِ]
49	[فَصْلُ الرَّجَاءُ وَالْأَمَانِيُّ]
53	[فَصْلُ ضَرَرِ الدُّنْوِيِّ فِي الْقَلْبِ كَضَرِّ السُّمُومِ فِي الْأَبْدَانِ]
66	[فَصْلُ مِنْ آثَارِ الْمَعَاصِي]
72	[فَصْلُ تَوَالُدِ الْمَعَاصِي]
73	[فَصْلُ الْمَعْصِيَّةِ تُضْعِفُ إِرَادَةَ الْخَيْرِ]
73	[فَصْلُ إِلْفُ الْمَعْصِيَّةِ]
75	[فَصْلُ هَوَانُ الْعَاصِيَّ عَلَى رَبِّهِ]
75	[فَصْلُ شُؤُمِ الدُّنْوِيِّ]
76	[فَصْلُ الْمَعْصِيَّةِ تُورِثُ الذُّلَّ]
77	[فَصْلُ الْمَعَاصِيِّ تُفْسِدُ الْعُقْلَ]
77	[فَصْلُ الدُّنْوِيِّ تَطْبِعُ عَلَى الْقُلُوبِ]
78	[فَصْلُ الدُّنْوِيِّ تُدْخِلُ الْعَبْدَ تَحْتَ لَعْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]
80	[فَصْلُ حِرْمَانُ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

## الدَّاءُ وَالدَّاءُ

- 81 ..... [فَصْلُ مَا رَأَاهُ الرَّسُولُ َمِنْ عُقُوبَاتِ الْعُصَابَةِ]
- 84 ..... [فَصْلُ الذُّنُوبِ تُحَدِّثُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ]
- 87 ..... [فَصْلُ الذُّنُوبِ تُطْفِئُ الْغَيْرَةَ]
- 89 ..... [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُذَهِّبُ الْحَيَاةَ]
- 91 ..... [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُضْعِفُ فِي الْقَلْبِ تَعْظِيمَ الرَّبِّ]
- 92 ..... [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُسْبِي اللَّهَ]
- 93 ..... [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِحْسَانِ]
- 94 ..... [فَصْلُ الْعَاصِي يَقُوْتُهُ تَوَابُ الْمُؤْمِنِينَ]
- 96 ..... [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُضْعِفُ الْقَلْبَ]
- 97 ..... [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمَ]
- 98 ..... [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُلْقِي الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ فِي الْقُلُوبِ]
- 100 ..... [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُمْرِضُ الْقُلُوبَ]
- 102 ..... [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُعْمِي الْبَصِيرَةَ]
- 103 ..... [فَصْلُ الْمَعَاصِي تُصَغِّرُ النَّفْسَ]
- 104 ..... [فَصْلُ الْمَعَاصِي فِي سِجْنِ الشَّيْطَانِ]

# الذَّاغِرَةُ

105	[فَصْلُ الْمَعَاصِي تُسْقِطُ الْكَرَامَةَ]
106	[فَصْلُ الْمَعَاصِيَةُ مَجْلَبَةُ لِلَّذَّمِ]
106	[فَصْلُ الْمَعَاصِيَةُ تُؤَيِّرُ فِي الْعُقْلِ]
108	[فَصْلُ الْمَعَاصِي تُوْجِبُ الْقَطْعِيَّةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالرَّبِّ]
110	[فَصْلُ الْمَعَاصِي تَمْحُقُ الْبَرَكَةَ]
113	[فَصْلُ الْمَعَاصِيَةُ تَجْعَلُ صَاحِبَهَا مِنَ السَّفَلَةِ]
117	[فَصْلُ الْمَعَاصِي تُجَرِّئُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْدَاءَهُ]
118	[فَصْلُ الْمَعَاصِي تُضْعِفُ الْعَبْدَ أَمَامَ نَفْسِهِ]
122	[فَصْلُ الْمَعَاصِي تُعْمِي الْقَلْبَ]
125	[فَصْلُ الْمَعَاصِي عَدُوٌ لَدُودُ]
130	[فَصْلُ ثَغْرُ الْأُذْنِ]
131	[فَصْلُ ثَغْرُ اللِّسَانِ]
136	[فَصْلُ الْمَعْصِيَةُ تُنْسِي الْعَبْدَ نَفْسَهُ]
140	[فَصْلُ الْمَعَاصِي تُزِيلُ النَّعَمَ]
140	[فَصْلُ الْمَعَاصِيَةُ تُبَايِعُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْمَلِكِ]

# الدَّاءُ وَالدَّاءُ

144	[فَصْلُ الْمَعَاصِي مَجْلَبَةُ الْهَلَكَ]
145	[فَصْلُ الْعُقُوبَاتُ الشَّرِيعَةُ عَلَى الْمَعَاصِي]
147	[فَصْلُ عُقُوبَاتُ الذُّنُوبِ شَرِيعَةٌ وَقَدْرَيَّةٌ]
149	[فَصْلُ الْقَطْعُ لِإِفْسَادِ الْأَمْوَالِ]
151	[الْعُقُوبَاتُ الْقَدَرَيَّةُ عَلَى الْقُلُوبِ]
152	[فَصْلُ الْعُقُوبَاتُ الْقَدَرَيَّةُ عَلَى الْأَبْدَانِ]
155	[فَصْلُ بَعْضِ عُقُوبَاتِ الْمَعَاصِي]
163	[فَصْلُ أَصْلُ الذُّنُوبِ]
165	[فَصْلُ الذُّنُوبُ كَبَائِرُ وَصَغَائِيرُ]
169	[فَصْلُ الْحَقُّ فِي الْمَسْأَلَةِ الْحَقُّ فِي الْمَسْأَلَةِ]
171	[فَصْلُ شِرْكُ الْوَسَاطَةِ]
173	[فَصْلُ شِرْكُ مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ]
174	[فَصْلُ الشَّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ]
176	[فَصْلُ الشَّرْكُ فِي الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ]
178	[فَصْلُ الشَّرْكُ فِي الْلَّفْظِ]

# الدَّاءُ وَالدَّاءُ

179	[فَصْلُ الشُّرُكُ فِي الْإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ]
180	[فَصْلُ حَقِيقَةِ الشُّرُكِ]
183	[فَصْلُ سُوءِ الظَّنِّ بِاللَّهِ]
190	[فَصْلُ الشُّرُكُ وَالْكُبُرُ]
191	[فَصْلُ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ]
192	[فَصْلُ الظُّلُمُ وَالْعُدُوَانُ]
196	[فَصْلُ جَرِيمَةِ الْقَتْلِ]
199	[فَصْلُ جَرِيمَةِ الزَّنَى]
202	[فَصْلُ مَدْخُلِ الْمَعَاصِي النَّظَرَةُ]
204	[فَصْلُ الْخَطْرَةُ]
211	[فَصْلُ الْلَّفْظَةُ]
215	[فَصْلُ الْخُطْوَةُ]
224	[فَصْلُ عُقُوبَةِ الْلَّوَاطِ]
232	[فَصْلُ عُقُوبَةِ الْلَّوَاطِ وَعُقُوبَةِ الزَّنَى]
234	[فَصْلُ وَاطِيءِ الْبَهِيمَةِ]

235	[فَصْلُ الْلَّوَاطِ وَالسَّحَاقِ]
236	[فَصْلُ دَوَاءِ الْلَّوَاطِ]
242	[فَصْلُ تَوْحِيدِ الْمَحْبُوبِ]
243	[فَصْلُ خَاصِيَّةِ التَّعْبُدِ]
250	[فَصْلٌ : آخِرُ مَرَاتِبِ الْحُبِّ]
251	[الشُّرُكُ فِي الْمَحَبَّةِ]
253	[فَصْلُ أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ]
254	[فَصْلُ كَمَالِ الْمَحَبَّةِ]
255	[فَصْلُ الْمَحَبَّةُ وَالْخُلَّةُ]
256	[فَصْلٌ إِيَّاُرُ الْأَعْلَى]
257	[فَصْلٌ إِيَّاُرُ الْأَنْفَعِ]
259	[فَصْلُ أَفْسَامِ الْمَحْبُوبِ]
261	[فَصْلُ الْحُبُّ أَصْلُ كُلِّ عَمَلٍ]
266	[فَصْلُ الْمَحَبَّةُ الْمَحْمُودَةُ وَالْمَحَبَّةُ الْمَذْمُومَةُ]
268	[فَصْلُ الْحُبُّ أَصْلُ الْحَرَكَةِ]

# الدَّاعُونَ

270	[فَصْلُ الْحُبُّ لِلَّهِ وَحْدَهُ]
273	[فَصْلُ آثَارُ الْمَحَبَّةِ]
275	[فَصْلُ الْمَحَبَّةِ أَصْلُ كُلِّ دِينٍ]
279	[فَصْلُ عِشْقُ الصُّورِ]
282	[فَصْلُ عِشْقُ الْلُّوْطِيَّةِ]
284	[فَصْلُ دَوَاءِ الْعِشْقِ]
289	[فَصْلُ مَقَامَاتُ الْعَاشِقِ]
307	[الْمَحَبَّةُ النَّافِعَةُ]
312	[فَصْلُ كَمَالُ اللَّذَّةِ فِي كَمَالِ الْمَحْبُوبِ وَكَمَالِ الْمَحَبَّةِ]
317	[فَصْلُ الْحُبُّ الَّذِي لَا يُنْكَرُ وَلَا يُدَمُّ]
319	[فَصْلُ مَحَبَّةِ الزَّوْجَاتِ]
325	[فَصْلُ أَفْسَامُ النَّاسِ فِي الْعِشْقِ]
326	[فَصْلُ حَدِيثُ مَنْ عَشَقَ فَعَفَّ]
329	فهرس المحتويات